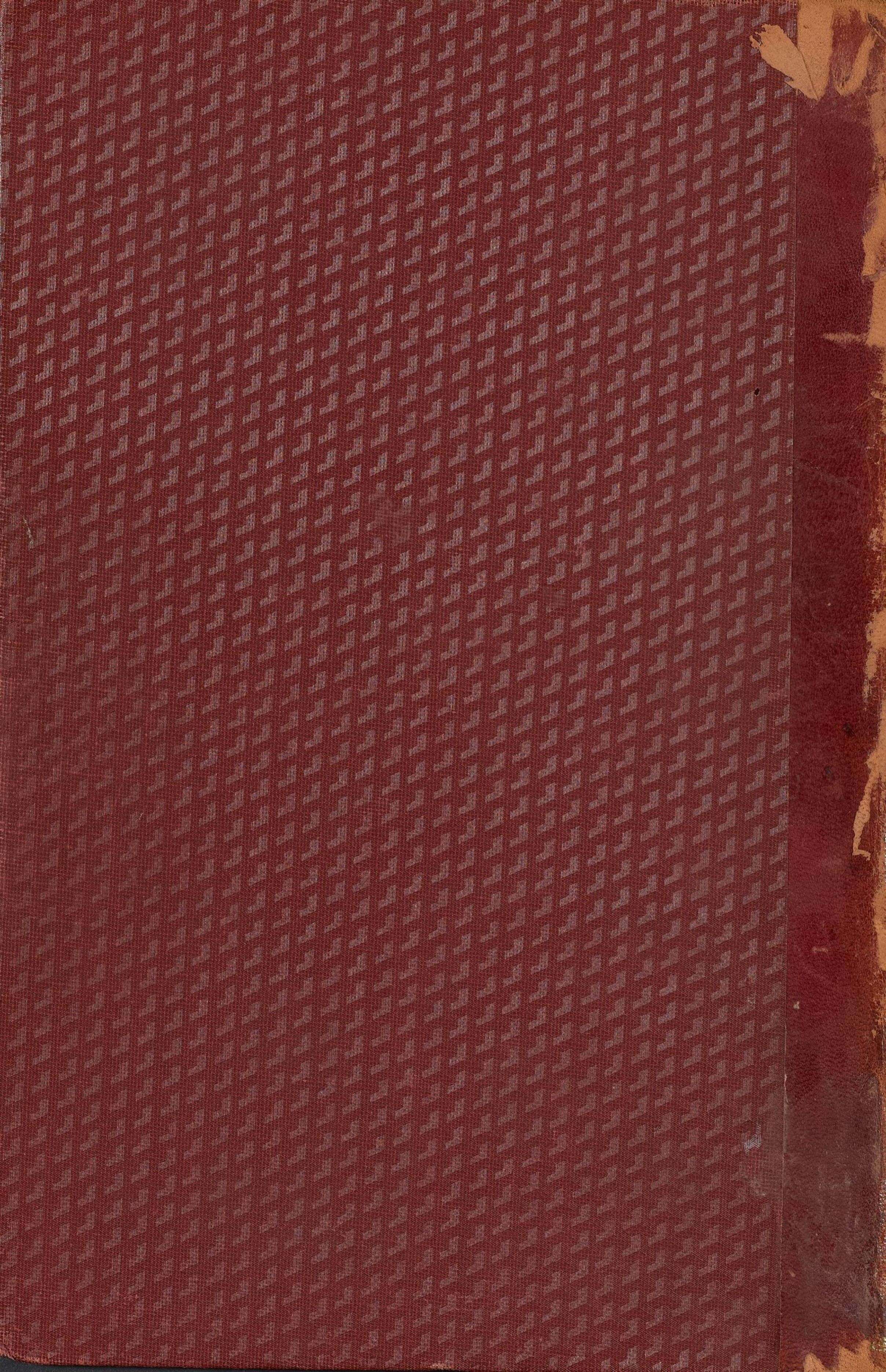
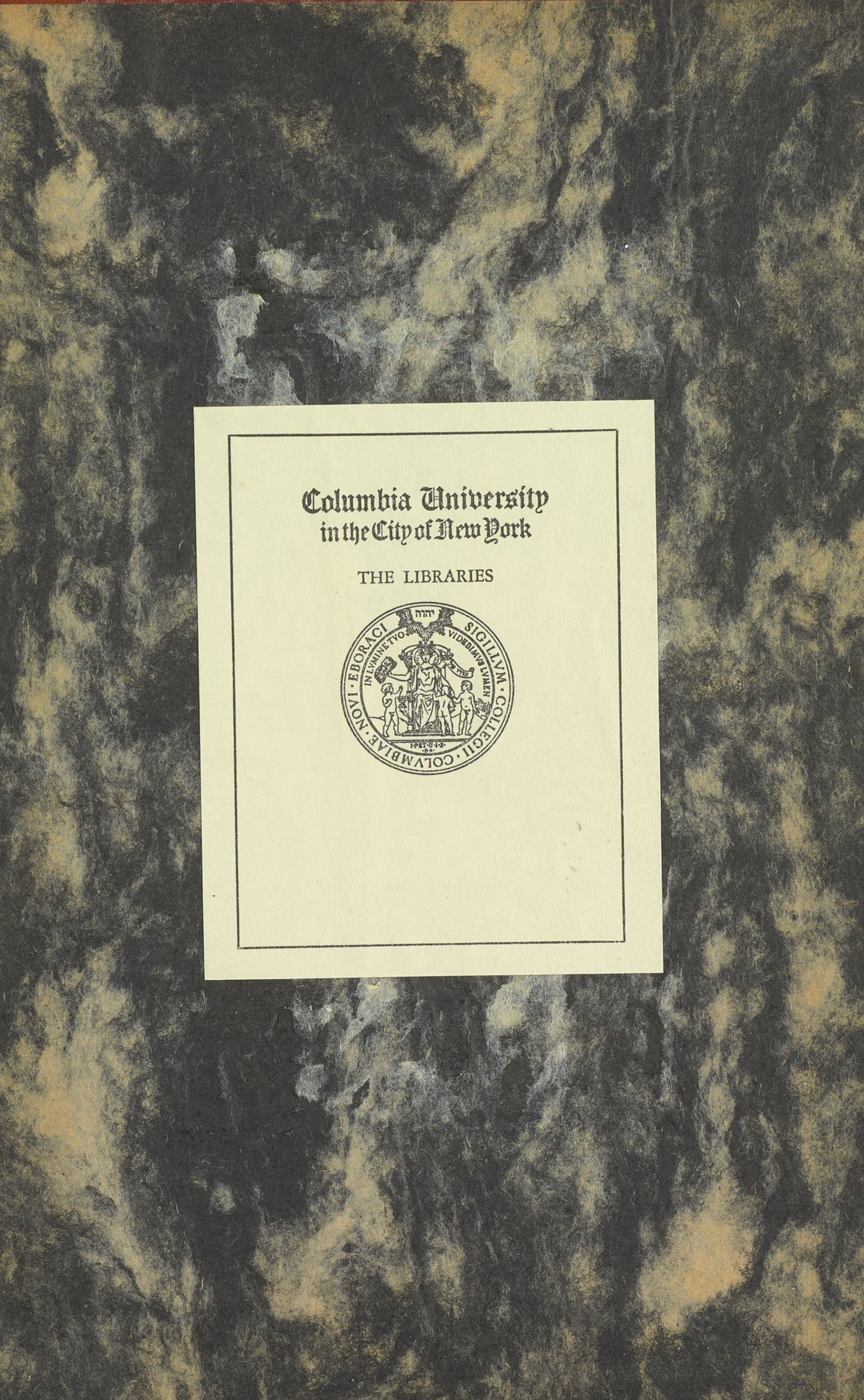
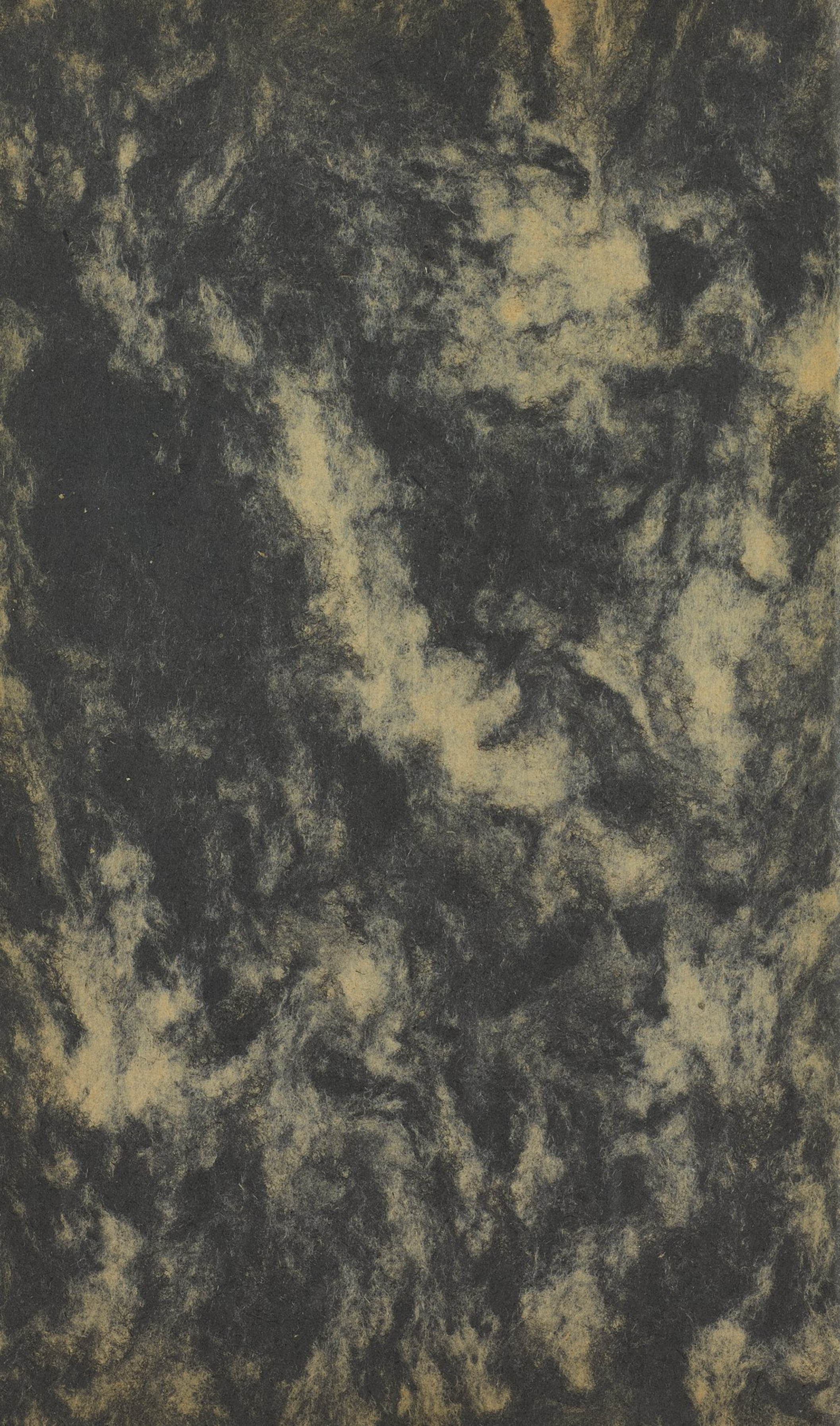








وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقَّرِىّ التِّلِمْسانِىّ
المتوفى فى عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه

محمد محيى الدين عبد الحميد



الطبعة الأولى

فى عام ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى

لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسل الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

البَابُ السَّادِسُ

في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق ، المهتدين في قصدهم إليها بنور الهداية المضيء المُشْرق ، والأكابر الذين حلوا بحلولهم فيها الجيد منها والمَفْرِق[١] والمفتخرين برؤية قُطْرها المونق[٢] ، على المُشْئِم والمُعْرِق[٣] .

اعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الأعيان منهم ، فضلا عن غيرهم ، ومنهم من اتخذها وطناً ، وصيرها سَكنا ، إلى أن وافته مَنِيَّته[٤] ، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قضيت بالأندلس أُمْنِيَّته .

المنيذر اليماني الصحابي

فمن الداخلين إلى الأندلس المُنَيْذر الذي يقال إنه صحابي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن الأبار في التكملة : المنيذر الإفريقي ، له صحبة ، وسكن إفريقية ، ودخل الأندلس فيما ذكره عبد الملك بن حبيب ، قاله أبو محمد الرشاطي ، ولم يذكره أحد غيره ، وروى عنه عبد الرحمن الْحُبُلِّيّ[٥] ، انتهى .

وأنكر غير واحد دخولَ أحد من الصحابة الأندلس .

وذكر بعضُ الحفاظ المنيذر المذكور ، وقال : إنه المنيذر اليماني ، وذكر الحِجَاري أنه من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وأنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَير غازيا ، وقال ابن بَشْكُوال : يقال فيه المنيذر لكونه من أحداث الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وقد حكى ذلك الرازي ، وذكره ابن عبد البر في كتاب «الاستيعاب ، في الصحابة» وسماه بالمنيذر الإفريقي ، وقال ابن بَشْكُوال : إن ابن عبد البر روى عنه حديثاً سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكره

---

(١) الجيد : العنق ، والمفرق – بفتح الميم وكسر الراء – الموضع الذي يفرق فيه الشعر من الرأس . (٢) المونق : المعجب ، آنقه يونقه إيناقا ، أعجبه .

(٣) المشئم : الذاهب إلى الشام ، والمعرق : الذاهب إلى العراق (٤) المنية : الموت

(٥) في ب « الجيلي » وانظر الجزء الأول (ص ٢٦٠)

أبو على بن السكن فى كتاب الصحابة وقال : روى عنه حديث واحد ، وأرجو أن يكون صحيحاً ، وذكره ابن قانع فى معجم الصحابة له ، وذكره البخارى فى تاريخه الكبير إذ قال : أبو المنيذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد حدث بإفريقية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : «مَنْ قال رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، فأنا الزعيم لآخذنَّ بيده فأدخله الجنة » كذا ذكره البخارى بالكنية ، وهذا الحديث هو الذى رَوَوْه عنه لا يعرف له غيره ، وذكره أبو جعفر أحمد بن رشد فى كتاب «مسند الصحابة» له ، فقال : المنيذر اليمانى إما من مَذْحِج أو غيرها ، وذكر الحديث سواء ، وقد أشرنا فيما سبق إلى المنيذر هذا(١) .

موسي بن نصير الفاتح

ومن التابعين الداخلين الأندلس أميرها موسى بن نُصَير ، وقد سبق من الكلام عليه ما فيه كفاية(٢) .

حنش الصنعاني

ومن التابعين الداخلين الأندلس حنش الصنعانى .

وفى كتاب ابن بَشْكُوال قال ابن وضاح : حنش لقب له ، واسمه حسين ابن عبد الله ، وكنيته أبو على ، ويقال : أبو رشدين ، قال ابن بَشْكُوال : وهو من صنعاء الشام ، وذكره أبو سعيد بن يونس فى تاريخ أهل مصر وإفريقية والأندلس ، فقال : إنه كان مع على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وغزا المغرب مع رفيقه رُوَيْفع بن ثابت ، وغزا الأندلس مع موسى بن نُصَير ، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان ، فأتى به عبد الملك فى وَثاق فعفا عنه ، وكان أوّل من ولى عُشُور إفريقية فى الإسلام ، وتوفى بإفريقية سنة مائة .

وذكر ابن يونس عن حنش أنه كان إذا فرغ من عشائه وحوائجه وأراد الصلاة من الليل أوقدَ المصباح ، وقرب المصحف وإناء فيه ماء ، فإذا وجد النُّعاس

---

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢٥٩ و٢٦١ و٢٦٩)

(٢) انظر الجزء الأول (ص ٢٥١ وما بعدها)

استنشق المـاء ، و إذا تعايا فى آية نظر فى المصحف ، و إذا جاء سائل يستطعم لم يزل يصيح بأهله « أطعموا السائل » حتى يطعم .

قال ابن حبيب : دخل الأندلس من التابعين حنش بن عبد الله الصنعانى ، وهوالذى أشرف على قُرْطُبة من الفج[(١)] المسمى بفج المـائدة ، وأذّنَ ، وذلك فى غير وقت الأذان ، فقال له أصحابه فى ذلك ، فقال : إن هذه الدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلا أن تقوم الساعة ، هكذا ذكره غـير واحد ، وقد كشف الغيب خلاف ذلك ، فلعل الرواية موضوعة أو مؤولة ، والله تعالى أعلم .

وذكره ابن عساكر فى تاريخه ، وطول ترجمته ، وقال : إن صنعاء المنسوب إليها قرية من قرى الشام ، وليست صنعاء اليمن ، وقد قيل : إنه لم يرو عن حنش الشاميون ، و إنما روى عنه المصريون ، وحدث حنش عن عبد الله بن عباس أنه قال له : إن استطعت أن تلقى الله تعالى وسيفُك حليته حديد فافعل ، وكان عبد الملك بن مروان حين غزا المغرب مع معاوية بن حُدَيج[(٢)] نزل عليه بإفريقية سنة خمسين ، فحفظ له ذلك ، فعفا عنه حين أتى به فى وَثاق حين ثار مع ابن الزبير ، وسُئل أبو زُرْعَة عن حنش فقال : ثقة ، ولم يذكر ابن عساكر أن حنشاً لقب له ، وأن اسمه حسين ، بل اقتصر على اسمه حنش ، ولعله الصواب ، لا ماقاله ابن وضاح ، والله تعالى أعلم .

وفى تاريخ ابن الفرضى أبى الوليد أن حنشاً كان بسَرَقُسْطة ، وأنه الذى أسس جامعها ، و بهامات ، وقبره بها معروف عند باب اليهود بغربى المدينة .

وفى تاريخ ابن بَشْكُوال أنه أخذ أيضاً قبلة جامع إلبيرة ، وعدّل وزن قبلة جامع قرطبة الذى هو فخر الأندلس[(٣)] .

---

(١) الفج : الطريق

(٢) فى ب « بن خديج » بالخاء المعجمة — وهو تحريف ، وقد نص غير واحد أنه بمهملتين مصغرا

(٣) انظر أيضا الجزء الأول (ص ٢٦٠ و ٢٦٩)

أبو عبد الله على بن رباح اللخمى

ومن التابعين الداخلين للأندلس أبو عبد الله على بن رباح ، اللخمى .

ذكر ابن يونس فى تاريخ مصر أنه ولد سنة خمس عشرة عام اليَرْمُوك ، وكان أعور ذهبت عينه يوم ذات السَّوارى فى البحر مع عبد الله بن سعيد سنة أربع وثلاثين ، وكان يفد لليمانية من أهل مصر على عبد الملك بن مروان ، وكانت له من عبد العزيز بن مروان منزلة ، وهو الذى زَفَّ أم البنين بنت عبد العزيز إلى الوليد بن عبد الملك ، ثم عتت[١] عليه عبد العزيز فأغزاه أفريقية ، فلم يزل بإفريقية إلى أن توفى بها ، ويقال : كانت وفاته سنة أربع عشرة ومائة ، قال ابن بَشْكوال : أهل مصر يقولون : عَلى بن رَبَاح بفتح العين ، وأما أهل العراق فعُلَى بضم العين ، وقد سبق هذا الكلام عن ابن معين فى الباب الثانى[٢] ، وقال : وقال ابنه موسى بن على : من قال لى موسى بن عُلَى بالتصغير لم أجعله فى حل .

أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافرى الحبلى

ومن التابعين الداخلين أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المَعَافرى الحُبُلىّ .

قال ابن بَشْكوال : إنه يروى عن أبى أيوب الأنصارى وعبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهم وغيرهم[٣] ، وروى عنه جماعة ، وذكر البخارى فى تاريخه الكبير أنه يعدّ فى المصريين ، وذكر ابن يونس فى تاريخ المغرب أنه توفى بإفريقية سنة مائة ، وكان رجلا صالحاً فاضلا ، رحمه الله تعالى ! ويذكر أهلُ قرطبة أنه توفى بقُرطُبة ، وأنه دفن بقبليها ، وقبره مشهور يتبرك به ، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك .

حبان بن أبى جبلة

ومن الداخلين من التابعين حِبَّان بن أبى جبلة .

ذكر ابن بَشْكوال أنه مولى قريش ، ويكنى أبا النضر ، وذكره أبو العرب محمد بن تميم فى تاريخ إفريقية ، وقال : حدثنى فرات بن محمد أن عمر بن عبد العزيز

---

(١) عتت عليه : شق واشتد ، وأراد أنه غضب منه
(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢٦٠)
(٣) فى الخلاصة أنه يروى عن أبى ذر وأبى أيوب وأبى سعيد

أرسل عشرة من التابعين يُفَقِّهُون أهل أفريقية منهم حِبَّان بن أبى جبلة ، روى عن عمرو بن العاص وعبد الله بن عباس وابن عمر ، رضى الله تعالى عنهم ! ويقال : توفى بإفريقيه سنة اثنتين وعشرين ومائة ، وقيل : سنة خمس وعشرين ومائة ، وذكر ابن الفرَضى أنه غزا مع موسى بن نُصَير حين افتتح الأندلس حتى انتهى إلى حصن من حصونها يقال له قَرْقَشُونة فتوفى به ، قال : وقال لنا أبو محمد الثغرى : بين قَرْقَشُونة و بَرْشِلُونة مسافة خمسة وعشرين ميلا ، وفيها الكنيسة المعظمة عندهم المسماة شنت مرية ، ذكر أن فيها سبع سوارٍ[١] فضة خالصة لم ير الراؤن مثلها لا يحزم الإنسان بذراعيه واحدة منها مع طول مفرط ، هكذا نقله ابن سعيد عمن ذكر ، والله تعالى أعلم[٢] .

المغيرة بن أبى بردة العذري

ومن الداخلين من التابعين فيما ذُكِر : المغيرة بن أبى بردة نشيط بن كنانة العذرى

روى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، ويروى عنه مالك فى موطئه ، وذكره البخارى فى تاريخه الكبير ، وفى كتاب الحافظ ابن بَشْكوال أنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَير فكان موسى بن نصير يخرجه على العساكر .

حيوة بن رجاء التميمى

ومن التابعين حَيْوَة بن رجاء التميمى

ذكر ابنُ حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نُصَير وأصحابه ، وأنه من جملة التابعين ، رضى الله تعالى عنهم ! قاله ابن بشكوال فى مجموعه المترجم « بالتنبيه والتعيين ، لمن دخل الأندلس من التابعين » .

قال ابن الأبار : وقد سمعته من أبى الخطاب بن واجب ، وسمعه هو منه ، انتهى .

---

(١) السوارى : جمع سارية ، وهى العمود

(٢) ماذكره المؤلف هنا هو تكرار لما ذكره فى الجزء الأول (ص ٢٦٠)

وقال ابن الأبار فى موضع آخر ما صورته : رجاء بن حَيْوَة مذكور فى الذين دخلوا الأندلس من التابعين ، وفى ذلك عندى نظر ، وماأراه يصح ، والله تعالى أعلم ، انتهى .

فانظر هذا فإنه سماه رجاء بن حيوة ، وذلك السابق حيوة بن رجاء ، فالله سبحانه أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك .

عياض بن عقبة الفهرى

ومنهم عياض بن عقبة الفهرى

من خيار التابعين ، ذكره ابنُ حبيب فى الأربعة الذين حضروا غنائم الأندلس ، ولم يُغلوا[1] .

عبد الله بن شماسة الفهرى

ومنهم عبد الله بن شِمَاسة الفهرى

ذكر ابن بَشْـوال أنه مضرى ، وأن البخارى ذكره فى تاريخه

عبد الجبار بن أبى سلمة

ومنهم عبد الجبار بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى

جدّه عبد الرحمن أحد العشرة[2] رضى الله تعالى عنهم ، وهو ممن ذكره ابن بشكوال فى الأربعة من التابعين الذين لم يغلوا[1] .

منصور بن خزامة

ومنهم منصور بن خزامة فيما يذكر

قال ابن بشكوال : قرأت فى كتاب روايات الشيخ أبى عبد الله بن عائذ الراوية رحمه الله تعالى قال : وممن دخل الأندلس من المعمَّرين ما وجدت بخط المستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الناصر رضى الله تعالى عنه فى بعض كتبه المختزنة أنه قال : طرأ علينا رجل أسود من ناحية السودان فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، فذكر أنه منصور بن خزامة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يزعم أنه أدرك أيام عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، وأنه كان مراهقا ، وكان

---

(١) لم يغلوا : أراد لم يأخذوا شيئا لأنفسهم خفية قبل قسمة الغنائم (وانظر ج ١ ص ٢٦٩)

(٢) يريد العشرة الذين بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة

مع عائشة رضى الله تعالى عنها يوم الجمل ، وأنه شهد صِفِّينَ ، وأن خزامة أعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج عن الأندلس فى سنة ثلاثين وثلثمائة إلى المغرب ، انتهى .

قلت: هذا كله لاأصل له ، ويرحم الله تعالى حافظ الإسلام ابن حجرحيث كتب على هذا الكلام ما صورته : هذا هَذَيان لاأصل له ، ولا يغتر به ، وكذلك ترجمة أشج العرب اتفق الحفاظ على كذبه ، انتهى .

قلت : وماهو إلا من نمط عكراش ، والله تعالى يحفظنا من سماع الأباطيل بمنه

ومن هذه الأكاذيب مايذكرون عن أبى الحسن على بن عثمان بن خطاب ، وأنه يعرف بأبى الدنيا ، وأنه كان مُعَمَّراً مشهوراً بصحبة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ! وأنه رأى جماعة من كبار الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، ووصفهم بصفاتهم ، وأنه رأى عائشة رضى الله تعالى عنها فيما زعم ، وقدم قُرْطُبة على المستنصر الحكم بن الناصر وهو ولى عهد ، وسأله أبو بكر ابن القُوطِية عن مَغَازى على وكتبها عنه ، وقد ذكره ابنُ بَشْكُوال وغيره فى كتبهم وتواريخهم ، فقد ذكر الثقات العارفون بالفن أنه كذاب دجال مائن جاهل ، فإياك والاغترار بمثل ذلك مما يوجد فى كتب كثير من المؤرخين بالمشرق والأندلس ، ولا يلتفت إلى قول تميم ابن محمد التميمى : إنه كان إذ لقيه ابن ثلثمائة سنة وخمس سنين ، قال تميم : واتصلت بنا وفاته ببلده فى نحو سنة عشرين وثلثمائة ، وبالجملة فلا أصل له ، وإنما ذكرناه للتنبيه عليه

وقد عرفت بما ذكرناه التابعين الداخلين الأندلس ، على أن التحقيق أنهم لم يبلغوا ذلك العدد ، وإنماهم نحو خمسة أوأربعة كما ألمعنا به فى غير هذا الموضع (١) ، والله تعالى أعلم .

---

(١) قد ذكر المؤلف أسماءهم وتحدث عن كل واحد منهم حديثا مختصراً فى في الجزء الأول من هذا الكتاب ، فراجع الفهرس وارجع إلى الموضع الذي ذكر فيه كل واحد منهم ، وانظر بنوع خاص (ص ٢٦٠ و ٢٦٩)

مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغسانى

ومن الداخلين إلى الأندلس مُغيث فاتح قرطبة

وقد تقدم بعض الكلام عليه ، وذكر ابن حيان والحِجَارى أنه رومى ، زاد الحِجَارى وليس برومى على الحقيقة ، وتصحيح نسبه أنه مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغسانى ، سُبِى من الروم بالمشرق وهو صغير ، فأدبه عبد الملك بن مروان مع ولده الوليد ، وأنجب فى الولادة ، وصار منه بنو مغيث الذين نجبوا فى قرطبة ، وسادوا وعظم بيتهم ، وتفرعت دَوْحَتهم[1] ، وكان منهم عبد الرحمن ابن مُغيث حاجب عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس وغيره ، ونشأ مغيث بدمشق ، ودخل الأندلس مع طارق فاتحها ، وجاز على ما فى طريقها من البلاد إلى الشام ، وقدمه طارق لفتح قُرْطُبة ففتحها ووقع بينه و بين طارق ثم وقع بينه و بين موسى بن نُصَير سيد طارق فرحل معهما إلى دمشق ثم عاد ظافراً عليهما إلى الأندلس ، وأَنْسَلَ[2] بقرطبة البيت المذكور ، وفى « المسهب » أنه فتح قرطبة فى شوال سنة ٩٢ ، ثم فتح الكنيسة التى تحصَّنَ بها ملك قرطبة بعد حصار ثلاثة أشهر فى محرم سنة ٩٣ ، ولم يذكر له مولدا ولا وفاة .

وذكر الحِجَارى أنه تأدب بدمشق مع بنى عبد الملك فأفصح بالعربية ، وصار يقول من الشعر والنثر ما يجوز كَتْبه ، وتدرب على الركوب ، وأخذ نفسه بالإقدام فى مضايق الحروب ، حتى تخرج فى ذلك تخرجا أَهَّلَه للتقدم على الجيش الذى فتح قرطبة ، وكان مشهورا بحسن الرأى والكَيْد ، وقد قدمنا كيفية فتحه قرطبة وأسره ملكها الذى لم يؤسَرْ من ملوك الأندلس غيره ، لأن منهم مَنْ عقد على نفسه أمانا ، ومنهم من فَرَّ إلى جليقية .

وذكر الحِجَارى أنه لما حصل بيده ملك قرطبة وحريمه رأى فيهن جارية

---

(١) أصل الدوحة الشجرة العالية الكثيرة الأغصان ، استعارها للبيت الذى ينجب كثيراً من أهل النباهة

(٢) أنسل : صار ذا نسل

كأنها بينهن بدر بين نجوم ، وهي تكثر التعرض له بجمالها ، فوكل بها مَنْ عرض عليها العذاب إن لم تقِرَّ بما عزمت عليه في شأن مغيث ، وأنه قد فطن من كثرة تعرضها له بحسنها لما أضمرته من المكر في شأنه ، فأقرت أنها أكثرت التعرض لتقع بقلبه ، إذ حُسْنُها فتّان ، وقد أعدت له خرقة مسمومة لتمسح بها ذكره عند وقاعها ، فحمد الله تعالى على ما ألهمه إليه من مكرها ، وقال : لو كانت نفس هذه الجارية في صدر أبيها ما أخذت قرطبة من ليلة ، وذكر أن سليمان بن عبد الملك لما أصغى إلى طارق في شأن سيده موسى بن نصير فعذبه واستصفى أمواله أراد أن يصرف سلطان الأندلس إلى طارق ، وكان مغيث قد تغير عليه ، فاستشار سليمان مغيثا في تولية طارق ، وقال له : كيف أمره بالأندلس ؟ فقال : لو أمر أهلها بالصلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ولم يروا أنهم كفروا ، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان ، و بَدَاله في ولايته ، فلقيه بعد ذلك طارق ، فقال له : ليتك وصفت أهل الأندلس بعصياني ، ولم تضمر في الطاعة ما أضمرت ، فقال مغيث : ليتك تركت لي العِلْج[1] فتركت لك الأندلس ، وكان طارق قد أراد أن يأخذ منه ملك قُرْطُبة الذي حصل في يده ، فلم يمكنه منه ، فأغرى به سيده موسى بن نُصَير ، وقال له : يرجع إلى دمشق وفي يده عظيم من عظماء الأندلس ، وليس في أيدينا مثله ، فأي فضل يكون لنا عليه ؟ فطلبه منه ، فامتنع من تسليمه ، قال ابن حيان : فهجم موسى على العلج[1] وانتزعه من مغيث ، فقيل له : إن سرت به معك حيا ادعاه مغيث والعِلْج[1] لا ينكر ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل ، فأضغنها[2] عليه مغيث ، و بالغ في أذايته عند سليمان .

وذكر الحِجَاري في « المسهب » أن لمغيث من الشعر ما يجوز كتبه ، فمن

---

(١) العلج — بكسر العين وسكون اللام — الرجل الضخم من رجال الكفار

(٢) ضغنها واضطغنها : احتواها في قلبه على حقد وموجدة وتطلب للانتقام ، ولم أقف على « أضغنها »

ذلك شعر خاطب به موسى بن نصير ومولاه طارقا و يكفى منه هنا قوله :

أعَنْتُكُمُ ولكن ما وفيتم فسوف أعيث فى غرب وشرق

وعنوان طبقته فى النثر أن موسى بن نُصَير قال له وقد عارضه بكلام فى محفل من الناس : كُفَّ لسانك ، فقال : لسانى كالمفصل ، ما أكفه إلا حيث يقتل ، وأضافه ابن حَيَّان والحِجَارى إلى ولاء الوليد بن عبد الملك ، وهو الذى وجهه إلى الأندلس غازيا ففتح قرطبة ، ثم عاد إلى المشرق ، فأعاده الوليد رسولا عنه إلى موسى بن نُصَير يستحثه على القدوم عليه ، فوفد معه ، فوجدوا الوليد قد مات ، فخدم بعده سليمان بن عبد لملك .

أيوب بن حبيب اللخمى

ومن الداخلين أيوب بن حبيب اللخمى[١] .

ذكر ابن حيان أنه ابن أخت موسى بن نُصَير ، وأن أهل إشبِيلِيَةَ قدموه على سلطان الأندلس بعد قتل عبد العزيز بن موسى ، واتفقوا فى أيامه على تحويل السلطان من إشبيليةَ إلى قُرْطُبة ، فدخل إليها بهم ، وكان قيامه بأمرهم ستة أشهر وقيل : إن الذى نقل السلطنة من إشبيلية إلى قرطبة الحرُّ بن عبد الرحمن الثقفى ، قال الرازى : قدم الحرُّ واليا على الأندلس فى ذى الحجة سنة سبع وتسعين ومعه أربعمائة رجل من وجوه إفريقية ، فهم أول طوالع الأندلس المعدودين ، وقال ابن بَشْكُوال : كانت مدة الحر سنتين وثمانية أشهر ، وكانت ولايته بعد قيام أيوب بن حبيب اللخمى[١] .

السمح بن مالك الخولانى

ومن الداخلين السَّمْحُ بن مالك الخولانى .

ولى الأندلس بعدالحر بن عبد الرحمن السابق ، قال ابن حيان : ولاه عمر بن عبدالعزيز، وأوصاه أن يُخَمِّسُ[٢] من أرض الأندلس ما كان عَنْوَةً[٣] ، و يكتب إليه

---

(١) فى الأصول هنا « أبو أيوب بن حبيب » وانظر الجزء الاول (ص ٢٧٩)

(٢) يخمس : يأخذ منها الخمس

(٣) العنوة ـ بفتح العين وسكون النون ـ الذى فتح بحرب ، وما فتح بتسليم أهلها يقال له « صلح »

بصفتها وأنهارها و بحارها ، قال : وكان من رأيه أن ينقل المسلمين عنها لانقطاعهم و بُعْدِهم عن أهل كلمتهم ، قالوا : وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بَوَار [1] إلا أن يستنقذهم الله تعالى برحمته .

وذكر ابن حيان أن قدوم السَّمْح كان فى رمضان سنة مائة ، وأنه الذى بنى قنطرة قُرْطُبة بعدما استأذن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ! وكانت دار سلطانه قُرْطبة .

قال ابن بشكوال : استشهد بأرض الفرنجة يوم التروية سنة اثنتين ومائة .

قال ابن حيان : كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر ، وذكر أنه قتل فى الوقعة المشهورة عند أهل الأندلس بوقعة البَلَاط ، وكانت جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه فأحاطت بالمسلمين ، فلم يَنْجُ من المسلمين أحد .

قال ابن حيان : فيقال : إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن .

ولاة الأندلس بعد السمح

وقَدَّمَ أهل الأندلس على أنفسهم بعده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى .

وذكر ابن بَشْكُوال أنه من التابعين الذين دخلوا الأندلس ، وأنه يروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما ! قال : وكانت ولايته للأندلس فى حدود العشر ومائه من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القَيْسى صاحب إفريقية ، واستشهد فى قتال العدو بالأندلس سنة خمس عشرة ، انتهى .

وفيه مخالفة لما سبق أنه ولى بعد السمح ، وأن السمح قتل سنة ١٠٢ ، وهذا يقول تولى سنة ١١٠ ، فأين ذا من ذاك ؟ والله تعالى أعلم .

ووصفه الُحمَيْدِى بحسن السيرة والعدل فى قسمة الغنائم ، وذكر الحِجَارى أنه ولى الأندلس مرتين ، وربما يجاب بهذا عن الإشكال الذى قدمناه قريبا ، ويضعفه

---

(١) البوار ـ بفتح البوار ، بزنة السحاب ـ الهلاك .

أن ابن حيان قال : دخل الأندلس حين وليها الولاية الثانية من قبل ابن الحبحاب فى صفر سنة ثلاث عشرة ومائة ، وغزا الإفرنج فكانت له فيهم وقائع جمة إلى أن استشهد ، وأصيب عسكره فى شهر رمضان سنة ١١٤ ، فى موضع يعرف ببلاط الشهداء .

قال ابن بَشْكُوال : وتعرف غزوته هذه بغزوة البَلَاط ، وقد تقدم مثل هذا فى غزوة السمح ، فكانت ولايته سنة وثمانية أشهر ، وفى رواية سنتين وثمانية أشهر ، وقيل غير ذلك ، وكان سرير سلطانه حضرة قُرْطبة

وولى الأندلس بعده عَنْبَسة بن سُحَيم الكلبى ، وذكر ابن حيان أنه قدم على الأندلس واليا من قبل يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج حين كان صاحب إفريقية ، وكان قدومه الأندلس فى صفر سنة ١٠٣ ، فتأخر بقدومه عبد الرحمن المتقدم الذكر ، قال ابن بَشْكُوال: فاستقامت به الأندلس ، وضبط أمرها ، وغزا بنفسه إلى أرض الإفرنجة وتوفى فى شعبان سنة ١٠٧ ، فكانت ولايته أربعة أعوام وأربعة أشهر ، وقيل : ثمانية أشهر ، وذكر ابن حيان أنه فى أيامه قام بجليقية عِلْجٌ خبيث يدعى بلاى ، فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى[1] قرائحهم حتى سمابهم إلى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس فى مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم ، وقد كانوا لا يطمعون فى ذلك ، وقيل : إنه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح إلا الصخرة التى لاذ بها هذا العِلْجُ ومات أصحابه جوعا إلى أن بقى فى مقدار ثلاثين رجلا ونحو عشر نسوة ، وما لهم عيش إلا من عسل النحل فى جباح[2] معهم فى خروق الصخرة ، وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعيا المسلمين أمرهم ، واحتقروهم ، وقالوا : ثلاثون عِلْجًا ما عسى أن يجىء منهم ؟

(١) أذكى قرائحهم : أوقدها وأشعلها وأججها

(٢) كذا

فبلغ أمرهم بعد ذلك فى القوة والكثرة والاستيلاء ما لاخفاء به .

وملك بعده أذفونش جد عظماء الملوك المشهورين بهذه السِّمَة(١)

قال ابن سعيد : فآل احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقبُ مَنْ كان فيها المدنَ العظيمة ، حتى إن حضرة قُرْطُبة فى يدهم الآن ، جبرها الله تعالى ! وهى كانت سرير السلطنة لعنبسة ، اهـ .

قال ابن حيان والحِجَارى : إنه لما استشهد عنبسة قدّم أهل الأندلس عليهم عُذْرة(٢) بن عبد الله الفِهْرِى ، ولم يعدّه ابن بشكوال فى سلاطين الأندلس ، قال : ثم تتابعت ولاة الأندلس مرسلين من قبل صاحب إفريقية : أولهم يحيى بن سلمة ، وذكر الحِجَارى أن عذرة كان من صلحائهم وفرسانهم ، وصار لعقبه نباهة ، وولده هشام بن عذرة هو الذى استولى على طُلَيْطلة قصبة الأندلس ، وفى عقبه بوادى آش من مملكة غَرْنَاطة نَبَاهة وأدب ، قال ابن سعيد : وهم إلى الآن ذو بيت موصَّل ، ومجد مؤثَّل ، وكان سرير سلطنة عذرة قرطبة .

وولى بعده يحيى بن سلمة الكلبى ، قال ابن بَشْكوال : أنفذه إلى الأندلس بشر بن صفوان الكلبى والى إفريقية إذ استدعى منه أهلها واليا بعد مقتل أميرهم عنبسة ، فقدمها فى شوال سنة سبع ومائة ، وأقام عليها سنة وستة أشهر لم يغز فيها بنفسه غزوة ، ونحوه لابن حيان ، وكان سريره قُرْطُبة .

وتولى بعده عثمان بن أبى نِسْعَة الخَثْعَمِى ، وذكر ابن بشكوال : أنه قدم عليها واليا من قِبَلِ عبيدة بن عبد الرحمن السلمى صاحب إفريقية فى شعبان سنة عشر ومائة ، ثم عزل سريعا بعد خمسة أشهر ، وكان سرير سلطانه بقرطبة .

وولى بعده حذيفة بن الأحوص القيسى ، قال ابن بشكوال : وأتى إليها

---

(١) السمة — بكسر السين ، بزنة العدة والصفة — أصلها العلامة ، وأراد الاسم الذى يتسمى به كل ملك من ملوكهم ، كما يقال خاقان سمة ملوك الترك ، وفرعون سمة ملوك مصر ، والنجاشى سمة ملوك الحبشة ، وقيصر سمة ملوك الروم ، وهكذا .

(٢) فى الأصول « عزرة » محرفا فى كل المواضع ، وانظر (١ / ٢٧٩)

واليا من قبل عبيدة المذكور ، على اختلاف فيه وفى ابن أبى نِسْعَةَ أيهما تولى قبل صاحبه ، وكان قدوم حُذَيفة فى ربيع الأول سنة عشر ومائة ، وعزل عنها سريعا أيضا ، وقيل : إن ولايته استتمت سنة ، وكان بقرطبة .

وولى بعده الأندلس الهيثم بن عُبَيد الكلابى(١) ، قال ابن بَشْكُوال : ولاَّهُ عبيدة المذكور فوافى الأندلس فى المحرم سنة إحدى عشرة ومائة ، وقيل : إنه ولى سنتين وأياما ، وقد قيل : أربعة أشهر ، وكان بقرطبة .

وولى بعده محمد بن عبد الله الأشجعى ، قال ابن بشكوال : قدّمه الناسُ عليهم ، وكان فاضلا فصلى بهم شهرين .

قال : ثم قدم عليهم واليا عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى الذى تقدمت ترجمته، وذكرت ولايته الأولى للأندلس ، وليها من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية إلى أن استشهد كما تقدم .

وولى الأندلس بعده عبد الملك بن قَطَن الفهرى ، وذكر الحجارى أن من نسله بنى القاسم أصحاب البونت وبنى الجد أعيان إشبيلية ، قال ابن بشكوال : قدم الأندلس فى شهر رمضان سنة أربع عشرة ومائة فكانت مدة ولايته عامين وقيل : أربع سنين ، ثم عزل عنها ذميا فى شهر رمضان سنة ست عشرة ومائة ، قال : وكان ظَلُوما فى سيرته ، جائرا فى حكومته ، وغزا أرض البشكنس فأوقع بهم ، وذكر ابن بشْكُوال أنه لما عزل وولى عقبة بن الحجاج وَثَبَ ابن قَطَن عليه فخلعه ، لا أدرى أقتله أم أخرجه ، وملك الأندلس بقية إحدى وعشرين ومائة إلى أن رحل بلج بن بشر بأهل الشام إلى الأندلس ، فغلبه عليها ، وقتل عبدالملك ابن قَطَن ، وصلب فى ذى القعدة سنة ثلاث وعشرين ومائة بعد ولاية بلج

---

(١) فى الأصول هنا « الهيثم بن عدى الكلابى » وانظر الجزء الأول (ص٢٧٩) فقد ورد فيه اسمه على ما أثبتناه هنا .

بعشرة أشهر ، وصلب بصحراء رَبَض قُرْطُبة بعُدْوَة النهر حيال رأس القنطرة ، وصلبوا عن يمينه خنزيرا وعن يساره كلبا ، وأقام شِلْوه(١) على جذعه إلى أن سرقه مواليه بالليل وغَيَّبوه ، فكان المكان بعد ذلك يعرف بمَصْلَب ابن قطن ، فلما ولى ابن عمه يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرى استأذنه ابنه أمية بن عبد الملك ، وبنى فيه مسجدا نُسب إليه ، فقيل : مسجد أمية ، وانقطع عنه اسم المصلب ، وكان سن عبد الملك عند مقتله نحو التسعين ، وذكر ابن بشكوال أن عقبة بن الحجاج السلولى ولاه عبيد الله بن الحبحاب صاحب إفريقية الأندلس ودخلها سنة سبع عشرة ومائة ، وقيل : فى السنة التى قبلها ، فأقام بها سنين محمود السيرة ، مثابرا على الجهاد ، مفتتحا للبلاد ، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة ، وصار رباطهم على نهر ردونة ، فأقام عقبة بالأندلس سنة إحدى وعشرين ومائة ، وكان قد اتخذ بأقصى ثغر الأندلس الأعلى مدينة يقال لها أربونه كان ينزلها للجهاد ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام ويُبَيِّن له عيوب دينه فأسلم على يده ألفارجل ، وكانت ولايته خمس سنين وشهرين ، قال الرازى : فثار أهل الأندلس بعقبة ، فخلعوه فى صفر سنة ثلاث وعشرين فى خلافة هشام بن عبدالملك ، وولوا على أنفسهم عبد الملك بن قَطَن ، وهى ولايته الثانية فكانت ولاية عقبة الأندلس ستة أعوام وأربعة أشهر ، وتوفى فى صفر سنة ١٢٣ ، وسريره قرطبة .

بلج بن بشر القشيرى

ومن الداخلين إلى الأندلس بلج بن بشر بن عياض(٢) القشيرى .

قال ابن حيان : لما انتهى إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب الأقصى والأندلس وخَلْعهم لطاعته وعَيْثهم فى الأرض شَقَّ

---

(١) الشلو ـ بكسر الشين ، وسكون اللام ـ العضو من أعضاء اللحم ، وكل مسلوخ أخذ منه شىء وبقيت منه بقية ، وجمعه أشلاء ، وأراد هنا جثته .

(٢) رجحنا فى الجزء الأول (ص٢٧٩) أن كلمة «بن عياض» من زيادات النساخ وذكرنا وجه ماذهبنا إليه ، وإذا كان بلج ابن أخى كلثوم بن عياض كما نص عليه المؤلف هنا أكثر من مرة فإن مافى الأصل يكون صحيحاً أيضا .

عليه فعزل عبيد الله بن الحبحاب عن إفريقيـة ، وولى عليها كلثوم بن عياض القُشَيرى ، ووجه معه جيشاً كثيفاً لقتالهم ، كان فيه مع ماانضاف إليه من جيوش البلاد التى صار عليها سبعون ألفا ، ومع ذلك فإنه لما تلاقى مع ميسرة البربرى المدعى للخلافة هزمه ميسرة وجُرح كلثوم ولاذ بسبتة ، وكان بلج ابن أخيه معه ، فقامت قيامة هشام لما سمع بما جرى عليه ، فوجه لهم حنظلة بن صفوان فأوقع بالبربر وفتح الله تعالى على يديه ، ولما اشتدَّ حصار بلج وعمه كلثوم ومن معهما من فَلّ أهل الشام بِسَبْتَةَ وانقطعت عنهم الأقوات و بلغوا من الجهد إلى الغاية استغاثوا بإخوانهم من عرب الأندلس ، فتثاقل عنهم صاحب الأندلس عبد الملك بن قَطَن لخوفه على سلطانه منهم ، فلما شاع خبر ضرهم عند رجال العرب أشفقوا عليهـم ، فأغاثهم زياد بن عمرو اللخمى بمركبين مشحونين مِيرَةً[(١)] أمسكا من أرماقهم[(٢)] ، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن قَطَن ضربه سبعمائة سوط ، ثم اتهمه بعد ذلك بتغريب الجند عليه[(٣)] ، فسَمَل عينيه ، ثم ضرب عنقه ، وصلب عن يساره كلباً ، واتفق فى هذا الوقت أن برابر الأندلس لما بلغهم ما كان من ظهور برابر العُدْوة على العرب انتقضوا على عرب الأندلس ، واقتدوا بما فعله إخوانهم ، ونصبوا عليهم إماماً ، فكثر إيقاعهم بجيوش ابن قَطَن ، واستفحل أمرهم ، فخاف ابن قَطَن أن يلقى منهم مالقى العرب ببر العُدْوة من إخوانهم ، و بلغه أنهم قد عزموا على قصده ، فلم ير أجدى من الاستعداد بصعاليك عرب الشام أصحاب بلج الموتورين ، فكتب لبلج وقد مات عمه كلثوم فى ذلك الوقت ، فأسرعوا إلى إجابته ، وكانت أمنيتهم ، فأحسن إليهم ، وأسبغ النعم عليهم ، وشرط عليهم أن يأخذ منهم رهائن ، فإذا فرغوا له من البربر هزمهم إلى إفريقية ، وخرجوا له عن أندلسه ، فرَضُوا بذلك ، وعاهدوه عليه ، فقدّم عليهم وعلى جنده ابنيه قَطَناً وأمية ، والبربر فى جموع لا يحصيها غير

---

(١) الميرة ـ بكسر الميم ـ الطعام .

(٢) الأرماق : جمع رمق ـــ بفتح الراء والميم جميعاً ـــ وهو بقية النفس .

(٣) كذا ، ولعله « بتشغيب الجند عليه » .

رازقها ، فاقتتلوا قتالا صَعُبَ فيه المقام ، إلى أن كانت الدائرة على البربر ، فقتلتهم العرب بأقطار الأندلس حتى ألحقوا فلَّهم (١) بالثغور ، وخفوا عن العيون ، فكَرَّ الشاميون وقد امتلأت أيديهم من الغنائم ، فاشتدت شوكتهم ، وثابت همتهم (٢) ، و بطروا ، ونَسُوا العهود ، وطالبهم ابن قَطَن بالخروج عن الأندلس إلى إفريقية ، فتعللوا عليه ، وذكروا صنيعه بهم أيام انحصارهم فى سَبْتة ، وقتله الرجلَ الذى أغاثهم بالميرة ، فخلعوه ، وقدّموا على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر ، وتبعه جند ابن قَطَن ، وحملوا عليه فى قتل ابن قطن ، فأبى فثارت اليمانية وقالوا : قد حميت لمضرك ، والله لا نطيعك ، فلما خاف تفرق الكلمة أمر بابن قَطَن فأخرج إليهم وهو شيخ كبير كفَرخ نعامة قد حضر وقعة الحَرَّة مع أهل اليمامة ، فجعلوا يسبونه ، و يقولون له : أفلتَّ من سيوفنا يوم الحَرَّة ، ثم طالبتنا بتلك التِّرة (٣) فعرضتنا لأكل الكلاب والجلود وحبستنا بِسَبْتَة مَحْبِسَ الضنك حتى أمتنا جوعا ، فقتلوه وصلبوه كما تقدم ، وكان أمية وقَطَن ابناه عند ما خُلع قد هربا ، وحشدا لطلب الثأر ، واجتمع عليهما العربُ الأقدمون والبربر ، وصار معهم عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى كبير الجند ، وكان فى أصحاب بلج ، فلما صنع بابن عمه عبد الملك ماصنع فارقه ، فانحاز فيمن يطلب ثأره ، وانضم إليهم عبدُالرحمن ابن علقمة اللخمى صاحب أربونه ، وكان فارس الأندلس فى وقته ، فأقبلوا نحو بلج فى مائة ألف أو يزيدون ، و بلج قد استعدّ لهم فى مقدار اثنى عشر ألفا سوى عبيد له كثيرة وأتباع من البلديين ، فاقتتلوا ، وصبر أهل الشام صبراً لم يصبر مثله أحد قط ، وقال عبد الرحمن بن علقمة اللخمى : أرونى بلجاً ، فوالله لأقتلنه أو لأموتن دونه ، فأشاروا إليه نحوه ، فحمل بأهل الثغر حملة انفرج لها

---

(١) الفل ـ بفتح الفاء وتشديد اللام ـ الجماعة المنهزمون ، والثغور : جمع ثغر ، وهو الموضع يكون من البلاد على تخوم بلاد العدو .

(٢) ثابت همتهم : رجعت (٣) الترة ـ بكسر التاء ـ الثأر

الشاميون ، والراية فى يده ، فضربه عبدالرحمن ضربتين مات منهما بعد ذلك بأيام قلائل ، ثم إن البلديين انهزموا بعد ذلك هزيمة قبيحة ، واتبعهم الشاميون يقتلون ويأسرون ، فكان عسكراً منصوراً مقتولا أميره ، وكان هلاك بلج فى شوال سنة أربع وعشرين ومائة ، وكانت مدته أحد عشر شهراً ، وسريره قرطبة ، والعرب الشاميون الداخلون معه إلى الأندلس يعرفون عند أهل الأندلس بالشاميين ، والذين كانوا فى الأندلس قبل دخوله يشهرون بالبلديين .

ولما هلك بلج قدّم الشاميون عليهم بالأندلس ثعلبة بن سلامة العاملى ، وقد كان عندهم عهدالخليفة هشام بذلك ، فسارفيهم بأحسن سيرة ، ثم إن أهل الأندلس الأقدمين من العرب والبربر همُّوا بعد الوقعة لطلب الثأر ، فآل أمره معهم إلى أن حصروه بمدينة مارِدَة ، وهم لا يشكُّون فى الظَّفَر ، إلى أن حضر عيد تشاغلوا به ، فأبصر ثعلبة منهم غِرَّة[1] وانتشاراً وأشَرًا[2] بكثرة العدد والاستيلاء ، فخرج عليهم فى صبيحة عيدهم وهم ذاهلون ، فهزمهم هزيمة قبيحة ، وأفشى فيهم القتل ، وأسرمنهم ألف رجل ، وسبى ذريتهم وعيالهم ، وأقبل إلى قرطبة من سَبْيهم بعشرة آلاف أو يزيدون ، حتى نزل بظاهر قرطبة يوم خميس وهو يريد أن يحمل الأسارى على السيف بعد صلاة الجمعة .

وأصبح الناسُ منتظرين لقتل الأسارى ، فإذا بهم قد طلع عليهم لواء فيه موكب ، فنظروا فإذا أبو الخطار قد أقبل والياً على الأندلس ، وهو أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى ، وذكر ابن حيان أنه قدم والياً من قبل حنظلة بن صفوان صاحب إفريقية ، والخليفة حينئذ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وذلك فى رجب سنة خمس وعشرين ومائة ، بعد عشرة أشهر وليها ثعلبة بن سلامة ،

---

(١) الغرة — بكسر الغين وتشديد الراء — الغفلة .

(٢) الأشر — بفتح الألف والشين جميعا — البطر وكفران النعمة .

قال : وكان مع فروسيته شاعراً محسناً ، وكان فى أوّل ولايته قد أظهر العدل فدانت له الأندلس ، إلى أن مالت به العصبية اليمانية على المُضَرِية ، فهاج الفتنة العمياء ، وكان سبب هذه الفتنة أن أبا الخَطَّار بلغ به التعصبُ لليمانية أن اخْتَصَم عنده رجل من قومه مع خصم له من كنانة كان أبلج[١] حجة من ابن عم أبى الخطار ، فمال أبو الخطار مع ابن عمه ، فأقبل الكنانى إلى الصُّميل بن حاتم الكلابى أحد سادات مضر ، فشكا له حَيْفَ أبى الخطار[٢] ، وكان أبيًّا للضيم ، حامياً للعشيرة ، فدخل على أبى الخطار ، وأَمَضَّ عتابه[٣] ، فنَجَهه[٤] أبو الخطار ، وأغلظ له ، فرد الصميل عليه ، فأمر به أبو الخطار ، فأقيم ودُعّ قَفَاه[٥] حتى مالت عمامته ، فلما خرج قال له بعض مَنْ على الباب : أبا جوشن ، ما بال عمامتك مائلة ؟ فقال : إن كان لى قوم فسيقيمونها وأقبل إلى داره ، فاجتمع إليه قومُه حين بلغهم ذلك ممتعضين ، فباتوا عنده ، فلما أظلم الليلُ قال : ما رأيكم فيما حدث على فإنه مَنُوط بكم ؟ فقالوا : أخبرنا بما تريد ، فإن رأينَا تبعُ رأيك ، فقال : أريد والله إخراج هذا الأعرابى من هذا السلطان على ما خيلت ، وأنا خارج لذلك عن قرطبة ، فإنه ما يمكننى ما أريد إلا بالخروج ، فإلى أين ترون أقصد ؟ فقالوا : اذهب حيث شئت ، ولا تأت أبا عطاء القيسى ، فإنه لا يواليك على أمر ينفعك ، وكان أبو عطاء هذا سيدا مُطَاعا يسكن بإستِجَةَ ، وكان مشاحنا للصميل ، مساميًا له فى القدر ، فسكتَ عند ذكره أبو بكر بن الطفيل العبدى ، وكان من أشرافهم ، إلا أنه كان حَدَثَ السن ، فقال له الصميل : ألا تتكلم ؟ فقال : أتكلم بواحدة ما عندى غيرها ، قال : وما هى ؟ قال : إن عَدَوْتَ[٦] إتيان أبى عطاء وشتت أمرك به لم يتم أمرنا وهلكنا ، وإن أنت قصدته لم ينظر

---

(١) أبلج حجة : أظهر وأقوى (٢) حيف أبى الخطار : ظلمه وانتقاصه حقه

(٣) أمض عتابه : اشتد فيه حتى آلمه به

(٤) نجهه نجها — من باب فتح — رده أقبح الرد .

(٥) دع قفاه : ضرب (٦) عدوت : جاوزت

فى شىء مما سلف بينكما ، وحركته الحمية لك ، فأجابك إلى ما تريد ، فقال له الصميل : أَصَبْتَ الرأى ، وخرج من ليلته ، وقام أبو عطاء فى نُصْرته على ماقَدَّره العبدى ، وعمد إلى ثوابة بن يزيد الجُذَامى أحد أشراف اليمن وساداتهم ، وكان ساكناً بمورور وقد استفسد إليه أبو الخطار ، فأجابهما فى القيام والتقدّم على المُضَرية ، فاجتمعوا فى شذونة(١) ، وآل الأمر إلى أن هزموا أبا الخطار على وادى لُكّة ، وحصل أسيراً فى أيديهم ، فأرادوا قتله ، ثم أرجئوه ، وأوثقوه وأقبلوا به إلى قرطبة ، وذلك فى رجب سنة ١٢٧ بعد ولاية أبى الخطار بسنتين ، ولما سجن أبو الخطار فى قرطبة امتعض له عبدُ الرحمن بن حسان الكلبى ، فأقبل إلى قرطبة ليلا فى ثلاثين فارساً معهم طائفة من الرَّجَّالة ، فهجموا على الحبس وأخرجوه منه ، ومَضَوْا به إلى غرب الأندلس ، فعاد فى طلب سلطانه ، ودبَّ فى يمَانيته حتى اجتمع له عسكر أقبل بهم إلى قرطبة ، فخرج إليه ثوابة ومعه الصُّميل ، فقام رجل من المضرية ليلا فصاح بأعلى صوته : يامعشر اليمن ، مالكم تتعرضون إلى الحرب وتَرِدُون المنايا عن أبى الخطار ؟ أليس قد قدرنا عليه لو أردنا قتله لفعلنا ، لكننا مَنَنَّا وعفونا وجعلنا الأمير منكم ، أفلا تفكرون فى أمركم ، فلو أن الأمير من غيركم عُذِرتم ، ولا والله لانقول هذا رهبةً منكم ولا خوفاً لحربكم ، ولكن تحرجاً من الدماء ورغبة فى عاقبة العامّة ، فتسامع الناس به ، وقالوا : صدق ، فتداعَوْا للرحيل ليلا ، فما أصبحوا إلا على أميال ، قال الرازى : ركب أبو الخطار البحرَ من ناحية تُونُس فى المحرم سنة ١٢٥ ، وفى كتاب أبى الوليد بن الفرضى : كان أبو الخطار أعرابياً عصبياً ، أفرط فى التعصب لليمانيين ، وتحامل على مُضَر ، وأسخط قيساً ، فثار به زعيمُهم الصُّميل ، فخلعه ، ونصب مكانه ثوابة ، وهاج بين الفريقين الحروب المشهورة ، وخلع أبو الخطار بعد أربع سنين وتسعة أشهر ، وذلك سنة ١٢٨ ، وآل أمره إلى أن قتله الصُّمَيل .

(١) فى ب « شدونة » بالدال المهملة ، وما أثبتناه موافق لما فى الروض .

وولى الأندلس ثوابة بن سلامة الجذامى ، قال ابن بَشْكُوَال : لما اتفقوا عليه خاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب القيروان ، فكتب إليه بعهد الأندلس ، وذلك سلخ رجب سنة ١٢٧ ، فضبط البلد ، وقام بأمره كله الصُّمَيل واجتمع عليه أهل الأندلس ، وأقام واليا سنة أو نحوها ، ثم هلك ، وفى كتاب ابن الفرَضى أنه ولى سنتين

ثم ولى الأندلس يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفِهْرى ، وجدُّه عقبة بن نافع صاحب إفريقية وبانى القيروان المجاب الدعوة صاحب الغزوات والآثار الحميدة ، ولهذا البيت فى السلطنة بإفريقية والأندلس نَبَاهة . وذكر الرازى أن مولده بالقيروان ، ودخل أبوه الأندلس من إفريقية مع حبيب بن أبى عبيدة الفهرى عند افتتاحهم ، ثم عاد إلى إفريقية ، وهرب عنه ابنه يوسف هذا من إفريقية إلى الأندلس مُغَاضبا له ، فهوى الأندلس[١] ، واستوطنها فساد[٢] بها ، قال الرازى : كان يوسف يوم ولى الأندلس ابن سبع وخمسين سنة ، وأقامه أهل الأندلس بعد أميرهم ثوابة ، وقد مكثوا بغير والٍ أربعَة أشهر ، فاجتمعوا عليه بإشارة الصُّمَيل من أجل أنه قُرَشى رضى به الحيان ، فرفعوا الحرب ، ومالوا إلى الطاعة ، فدانت[٣] له الأندلس تسع سنين وتسعة أشهر ، وقال ابن حيان : قدمه أهلُ الأندلس فى ربيع الآخر سنة ١٢٩ ، واستبد بالأندلس دون ولاية أحد له غير من بالأندلس ، وحكى ابن حيان أنه أنشد قول حُرَقَة بنت النعمان بن المنذر يوم خلعه بالأمان من سلطانه ودخوله عسكر عبد الرحمن الداخل المروانى :

فبينا نَسُوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنَا ... إذا نحن فيهم سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ

قال ابن حيان : لما سمع أبو الخطار بتقديمه حرك يمانيته ، فأجابوا دعوته ، فأدى

---

(١) هوى الأندلس : أحبها (٢) ساد بها : صار سيدا

(٣) دانت له : خضعت وأطاعته

ذلك إلى وقعة شَقُنْدة بين اليمانية والمُضَرية فيقال : إنه لم يك بالمشرق ولا بالمغرب حرب أصدق منها جِلَادا ولا أصبر رجالا ، طال صبر بعضهم على بعض ، إلى أن فنى السلاح ، وتجاذبوا بالشعور، وتلاطموا بالأيدى، وكَلَّ بعضهم[1] عن بعض ، وثابت للصميل غِرَّة فى اليمانية فى بعض الأيام ، فأمر بتحريك أهل الصناعات بأسواق قرطبة ، فخرجوا فى نحو أربعمائة رجل من أنجادهم[2] بماحضرهم من السكاكين والعِصِىّ ليس فيهم حامل رمح ولا سيف إلا قليلا ، فرماهم على اليمانية وهم على غفلة ، وما فيهم من يبسط يد القتال ، ولاينهض لدفاع ، فانهزمت اليمانية ووضعت المُضَرية السيفَ فيهم ، فأبادوا منهم خلقا ، واختفى أبو الخطار تحت سرير رحى ، فقبض عليه وجىء به إلى الصميل ، فضرب عنقه ، وقد ذكرنا خبر انخلاع يوسف عن سلطانه فى ترجمة عبد الرحمن الداخل ، وهو آخر سلاطين الأندلس الذين وَلُوها من غير موارثة ، حتى جاءت الدولة المروانية .

وذكر ابن حيان أن القائم بدولة يوسف والمستولى عليها الصُّمَيل بن حاتم ابن شمر بن ذى الجوشن الكلابى ، وجده شمر هو قاتل الحسين ، رضى الله تعالى عنه ! وكان شمر قد فَرّ من المختار بولده من الكوفة إلى الشام ، فلما خرج كلثوم بن عياض للمغرب كان الصميل فيمن خرج معه ، ودخل الأندلس فى طالعة بلج ، وكان شجاعا جوادا جسورا على قلب الدول ، فبلغ ما بلغ ، وآل أمره إلى أن قتله عبدُ الرحمن الداخل المروانى فى سجن قرطبة مخنوقا .

وذكر ابن حيان أنه كان ممن ثار على يوسف الفهرى عبد الرحمن بن علقمة اللخمى فارس الأندلس ، ووالى ثغر أربونة ، وكان ذا بأس شديد ووجاهة عظيمة ، فبينما هو فى تدبير غزو يوسف إذ اغتاله أصحابه وأقبلوا برأسه إليه

---

(١) كل بعضهم : عجز وضعف

(٢) الأنجاد : جمع نجد ــ بفتح فضم ــ وهو الشجاع

ثم ثار عليه بعد ذلك بمدينة باجة عروة بن الوليد فى أهل الذمة وغيرهم ، فملك إشبيلية ، وكثر جمعه ، إلى أن خرج له يوسف فقتله ، وثار عليه بالجزيرة الخضراء عامر العبدرى ، فخرج له ، وأنزله على أمان فى سكنى قرطبة ، ثم ضرب عنقه بعد ذلك .

وقيل : إن أول من خرج على يوسف عمرو بن يزيد الأزرق فى إشبيلية فظفر به فقتله ، وثار عليه فى كورة سَرَقُسطة الحباب الزهرى إلى أن ظفر به يوسف فقتله ، ثم جاءته الداهية العظمى بدخول عبد الرحمن بن معاوية المروانى إلى الأندلس وسَعْيه فى إفساد سلطانه ، فتم له ما أراده ، والله تعالى أعلم .

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بالداخل

ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس ملكها عبد الرحمن بن معاوية ابن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان ، المعروف بالداخل .

وذلك أنه لما أصاب دولتهم ما أصاب ، واستولى بنو العباس على ما كان بأيديهم ، واستقر قدَمُهم فى الخلافة ، فرّ عبد الرحمن إلى الأندلس ، فنال بها ملكا أورثَهُ عَقِبَهُ حِقْبَةً[1] من الدهر .

قال ابن حيان فى « المقتبس » : إنه لما وقع الاختلال فى دولة بنى أمية والطلب عليهم ، فر عبد الرحمن ، ولم يزل فى فِرَاره منتقلا بأهله وولده إلى أن حلَّ بقرية على الفرات ذات شجر وغِياض[2] ، يريد المغرب ، لما حصل فى خاطره من بُشْرى مَسْلمة ، فمما حكى عنه أنه قال : إنى لجالس يوما فى تلك القرية فى ظلمة بيت تواريتُ فيه لرَمَد كان بى ، وابنى سليمان بكر ولدى يلعب قدامى ، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها ، إذ دخل الصبى من باب البيت فازعا باكيا فأهوى إلى حِجْرِى ، فجعلت أدفعه لما كان بى ويأبى إلا التعلق ، وهو دَهِش يقول مايقوله الصبيان عند الفزع ، فخرجت لأنظر ، فإذا بالرَّوْع[3] قد نزل بالقرية

---

(١) الحقبة ـ بكسر الحاء وسكون القاف ـ المدة

(٢) الغياض : جمع غيضة ، وهى مجتمع الشجر فى مغيض ماء

(٣) الروع : الخوف والفزع

ونظرت فإذا بالرايات السود[1] عليها مُنْحطة وأخ لى حَدَثُ السن كان معى يشتدُّ[2] هارباً و يقول لى : النجاء ياأخى ، فهذهرايات المسوِّدة ، فضربت بيدى على دنانير تناولتها ، ونجوت بنفسى والصبى أخى معى ، وأعلمت أخواتى بمتوجَّهِى[3] ومكان مقصدى ، وأمرتهن أن يلحقننى ومولاى بَدْر معهنّ ، وخرجت فكمنت فى موضع ناء عن القرية ، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل ، فأحاطت بالدار ، فلم تجد أثراً ، ومضيت ، ولحقنى بدر ، فأتيت رجلا من معارفى بشَطِّ الفُرَات ، فأمرته أن يبتاع لى دوابَّ ومايصلح لسفرى ، فدلّ علىّ عبدُ سوء له العاملَ ، فما راعنا إلا جَلَبة الخيل تحفزنا فاشتددنا فى الهرب ، فسبقناها إلى الفُرَات ، فرمينا فيه بأنفسنا ، والخيل تنادينا من الشط : ارجعا لا بأس عليكما ، فسبحت حاثًّا لنفسى وكنت أحسن السبح ، وسبح الغلام أخى ، فلما قطعنا نصف الفرات قَصَّر أخى ودُهش ، فالتفت إليه لأقوِّىَ من قلبه ، و إذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه ، فناديته : تُقْتَلُ ياأخى، إلى ، إلى ، فلم يسمعنى ، و إذا هو قد اغتر بأمانهم ، وخشى الغَرَقَ ، فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات ، و بعضهم قد هَمَّ بالتجرد للسباحة فى أثرى ، فاستكفَّه أصحابه عن ذلك ، فتركونى ، ثم قدّموا الصبى أخى الذى صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه ثُكلاً ملأنى مخافة ، ومضيت إلى وجهى أحسب أنى طائر وأنا ساع على قدمى ، فلجأت إلى غَيْضَة آشِبَة ، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ، ثم حرجت أؤم المغربَ حتى وصلت إلى إفريقية .

قال ابن حيان : وسار حتى إفريقية وقد ألحقت به أختهُ شقيقتهُ أمُّ الأصبغ مولاه بدرا ، ومولاه سالما ، ومعهما دنانير للنفقة ، وقطعة من جوهر ، فنزل

---

(١) الرايات السود : كانت شعار العباسيين

(٢) يشتد : يسرع الجرى

(٣)المتوجه ـ بتشديد الجيم مفتوحة ـ المكان الذى تتوجه إليه

بإفريقية وقد سبقه إليها جماعة من فَلِّ بنى أمية ، وكان عند واليها عبد الرحمن بن حبيب الفهرى يهودى حدثانى[1] صحب مَسْلمة بن عبد الملك ، وكان يتكهن له ويخبره بتغلب القرشى المروانى الذى هو من أبناء ملوك القوم ، واسمه عبد الرحمن ، وهو ذو ضفيرتين يملك الأندلس ويُورِثها عقبه ، فاتخذ الفهرى عند ذلك ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما جىء بعبد الرحمن ونظر إلى ضفيرتيه قال لليهودى : ويحك ! هذا هو ، وأنا قاتله ، فقال له اليهودى : إنك إن قتلته فما هو به ، وإن غُلبت على تركه إنه لهو ، وثقل فَلّ بنى أمية على ابن حبيب صاحب إفريقية ، فطرد كثيراً منهم مخافة ، وتَجَنَّى على ابنين للوليد بن يزيد كانا قد استجارا به ، فقتلهما ، وأخذ مالا كان مع إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان ، وغلبه على أخته فتزوّجها بكرهه ، وطلب عبد الرحمن فاستخفى ، انتهى .

وذكر ابنُ عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببَرْقة مستخفياً خمس سنين ، وآل أمره فى سفره إلى أن استجار ببنى رُسْتم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط ، وتقلب فى قبائل البربر إلى أن استقر على البحر عند قوم من زَنَاتة ، وأخذ فى تجهيز بدر مولاه إلى العبور للأندلس لموالى بنى أمية وشيعتهم بها ، وكانت الموالى المروانية المدوّنة بالأندلس فى ذلك الأوان ما بين الأربعمائة والخمسمائة ، ولهم جمرة[2] ، وكانت رياستهم إلى شخصين : أبى عثمان عبيدالله بن عثمان ، وعبدالله ابن خالد ، وهما من موالى عثمان رضى الله تعالى عنه ! وكانا يتوليان لواء بنى أمية يَعْتقبان حَمْله ورياسة جند الشام النازلين بكورة إلبيرة ، فعبر بدر مولى عبد الرحمن إلى أبى عثمان بكتاب عبد الرحمن يذكره فيه أيادى سَلَفه من بنى أمية وسَبَبه بهم ويعرفه مكانه من السلطان وسَعْيه لنيله ، إذ كان الأمر لجده هشام فهو حقيق

(١) يقال « هذا رجل حدث ملوك » بكسر الحاء وسكون الدال ـ أى صاحب حديثهم وسمرهم ، ويقال « رجل حدث » بزنة يقظ وندس ـ أى حسن الحديث ، فلعل هذا التعبير من ذاك أو محرف عنه .

(٢) الجمرة ـ بالفتح ـ كل قوم انضموا فصاروا يدا واحدة ولم يحالفوا غيرهم

بوراثته ، ويسأله القيام بشأنه وملاقاة مَنْ يثق به من الموالى الأموية وغيرهم ، ويتلطف فى إدخاله إلى الأندلس ليُبْلِيَ عذرا فى الظهور عليها ، ويَعِـدُه بإعلاء الدرجة ، ولطف المنزلة ، ويأمره أن يستعين فى ذلك بمن يأمنه ، ويرجو قيامه معه ، ويأخذ فيه مع اليمانية ذوى الحَنَق (١) على المضرية لما بين الحيين من التِّرَات (٢) ، فمشى أبو عثمان لما دعاه إليه ، وبانت له فيه طَمَاعية ، وكان عند ورود بدر قد تجهز إلى ثغر سَرَقُسْطة لنصرة صاحبها الصُّمَيل بن حاتم وَجْهِ دولة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الأندلس ، فقال لصهره عبد الله بن خالد المذكور : لو كنا ذاكرنا الصميل خبرَ بَدْرٍ وما جاء به لنختبر ما عنده فى موافقتنا ، وكانا على ثقة فى أنه لا يظهر على سرهما أحدا لمروءته وأَنَفَته ، فقال له : إن نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغَيْرة على سلطان يوسف لما هو عليه من شَرَف القدر وجلالة المنزلة فيتوقع سقوط رياسته فلا يساعدنا ، قال أبو عثمان : فنمسح إذاً على أمره ، ونذكر له أنه قصد لإرادة الإيواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا ليتعيش بهـا ، لا يريد غير ذلك ، فاتفقا على هذا ، فلما ودَّعا الصُّميل خَلَوَا به فى ذلك ، وقد ظهر لهما منه حقد على صاحبه يوسف فى إبطائه عن إمداده لمـا حار به الحباب الزهرى بكورة سَرَقُسْطة ، فقال لهما : أنا معكما فيما تحبان ، فاكتبا إليه أن يعبر ، فإذا حضر سألنا يوسف أن ينزله فى جواره وأن يحسن له ، ويزوّجه بابنته ، فإن فعل وإلا ضربْنَا صَلْعته بأسيافنا ، وصرفنا الأمر عنه إليه ، فشكراه ، وقبلا يده ، ثم ودعاه ، وأقام بطُلَيْطلة وقد ولاه يوسف عليها وعزله عن الثغر ، وانصرفا إلى وطنهما بإلبيرة ، وقد كانا لقيا من كان معهما فى العسكر مِن وُجوه الناس وثقاتهم ، فطارحاهم أمر ابن معاوية ، ثم دسَّا فى الـكُوَر إلى ثقاتهما بمثل ذلك ، فدب أمره فيهم دبيب النار فى الجمر ، وكانت سنة خلف

---

(١) الحنق : الغضب

(٢) الترات : جمع ترة ، وهى الثأر .

بالأندلس بعد خروج من المجاعة التى دامت بالناس .

وفى رواية أن الصميل لانَ لهما فى أن يطلب الأمر عبدالرحمن الداخل لنفسه ثم دَبَّرَ ذلك لما انصرفا ، فتراجع فيه ، فردهما ، وقال: إنى روَّيت فى الأمر الذى أردته معكما فوجدت الفتى الذى دعوتمانى إليه من قوم لو بال أحدُهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم فى بوْله ، وهذا رجل نتحكم عليه ، ونميل على جوانبه ، ولا يسعنا بدل منه ، ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لى فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصِّر حتى ألقاكما لئلا أغركما من نفسى ، فإنى أعلمكما أن أولَ سيف يُسَلُّ عليه سيفى ، فبارك الله لكما فى رأيكما ، فقالا له : مالنا رأى إلا رأيك ، ولامَذْهَبَ[1] لنا عنك ، ثم انصرفا عنه على أن يعينهما فى أمره إن طلب غير السلطان ، وانفصلا عنه إلى إلبيرة عازمين على التصميم فى أمره ، ويئسا من مضر وربيعة ، ورجعا إلى اليمانية ، وأخذا فى تَهْييج[2] أحقاد أهل اليمن على مُضَرَ ، فوجداهم قوما قد وَغِرَت[3] صدورهم عليهم ، يتمنون شيئا يجدون به السبيل إلى إدراك ثأرهم ، واغتنما بُعْدَ يوسف صاحب الأندلس فى الثغر ، وغيبة الصميل ، فابتاعا مركبا ووجَّها فيه أحد عشر رجلا منهم مع بَدْر الرسول ، وفيهم تمام بن علقمة وغيره ، وكان عبد الرحمن قد وجَّه خاتمه إلى مواليه ، فكتبوا تحت ختمه إلى من يرجونه فى طلب الأمر ، فبثوا من ذلك فى الجهات مادبَّ به أمرُهم ، ولما وجه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعته ألفوه بشَطِّ مغيلة من بلاد البربر ، وهو يصلى ، وكان قد اشتدَّ قَلَقُهُ وانتظاره لبدر رسوله ، فبشره بدر بتمكن الأمر ، وخرج إليه تمام مكثراً لتبشيره ، فقال له عبدالرحمن : مااسمك ؟ قال : تمام ، قال : وما كنيتك ؟ قال : أبو غالب ، فقال : الله أكبر ! الآن تم أمرنا وغلبنا بحَوْل الله تعالى وقوته ، وأدنى منزلة أبى غالب لما ملك ، ولم

(١) مذهب : مصدر ميمى بمعني الذهاب ، يريدان : أنهما لايخرجان عن رأيه

(٢) تهييج الأحقاد : إثارتها من مكامنها .

(٣) وغرت صدورهم : فسدت وامتلأت ضغينة وشراً

يزل حاجبه حتى مات عبدُ الرحمن ، وبادر عبدُ الرحمن بالدخول إلى المركب ، فلما همَّ بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه ، ففرقت فيهم من مال كان معه تمام صِلَاتٍ(١) على أقدارهم ، حتى لم يبق أحد حتى أرضاه ، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عاتٍ منهم لم يكن أخذ شيئاً فتعلق بحَبْل الهودج يَعْقل المركب ، فحول رجل اسمه شاكر يده بالسيف ، فقطع يدَ البربرى ، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم ، حتى حَلوا بساحل إلبيرة فى جهة المنكب ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ١٣٨ ، فأقبل إليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد ، فنقلاه إلى قرية طرش منزل أبى عثمان ، فجاءه يوسف بن بخت ، وانثالت(٢) عليه الأموية ، وجاءه جدران بن عمرو المذحجى من أهل مالَقَة ، فكان بعد ذلك قاضيه فى العساكر ، وجاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبى من إشبيليَةَ فاستوزره ، وانثال(٢) عليه الناس انثيالا ، فقوى أمره مع الساعات فضلا عن الأيام ، وأمدّه الله تعالى بقوة عالية ، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر ، وكان خبر دخوله للأندلس قد صادف صاحبها يوسفَ الفهرى بالثغر ، وقد قبض على الحباب الزهرى الثائر بسَرَقُسْطة ، وعلى عامر العبدرى الثائر معه ، فبينما هو بوادى الرمل بمقربة من طُلَيْطلة وقد ضرب عنق عامر العبدرى وابن عامر برأى الصُّميل إذ جاءه قبل أن يدخل رِوَاقه رسول يركض(٣) من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق ، واجتماع الموالى المروانية إليه ، وتشوف(٤) الناس لأمره ، فانتشر الخبر فى العسكر لوقته ، وشَمِتَ الناسُ بيوسف لقتله القرشيين عامرا وابنه ، وخَتْره بعَهْدهما(٥) ، فسارع عدد كثير إلى البدار لعبد الرحمن الداخل ، وتنادوا بشِعَارهم ، وقوضوا عن عسكره .

---

(١) الصلات ـ بكسر الصاد ـ جمع صلة ، وهى العطية .

(٢) انثالت عليه : كثرت وفودهم إليه (٣) يركض : يسرع

(٤) تشوف الناس : تطلعوا (٥) ختره بعهده : نقضه إياه

واتفق أن جادت السماء بوابل[١] لا عَهْدَ بمثله لماشاءالله تعالى من التضييق على يوسف ، فأصبح وليس فى عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصُّميل قيس وأتباعه ، فأقبل إلى طُلَيْطلة وقال للصميل : ما الرأى ! فقال : بادرهُ الساعة قبل أن يغلظ أمره ، فإنى لست آمَنُ عليك هؤلاء اليمانيةَ لحنقهم علينا ، فقال له يوسف : أتقول ذلك ؟ ومع مَنْ نسير إليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عنا ؟ وقد أنفضنا[٢] من المال ، وأنضينا الظهر ، ونَهَكَتْنا المجاعة[٣] فى سفرتنا هذه ، ولكن نسير إلى قُرْطُبة ، فنستأنف الاستعداد له ، بعد أن ننظر فى أمره ويتبين لنا خبره ، فلعله دون ما كتب إلينا ، فقال الصميل : الرأىُ ما أشرتُ به عليك ، وليس غيره ، وسوف تتبين غلطك فيما تنكبه ، ومضوا إلى قرطبة ، وسار عبد الرحمن الداخل إلى إشبيلية ، وتلقاه رئيسُ عربها أبو الصباح بن يحيى اليَحْصُبى ، واجتمع الرأى على أن يقصدوا به دار الإمارة قرطبة ، فلما نزلوا بطشانة قالوا : كيف نسير بأمير لالواء له ولا عَلَم نهتدى إليه ؟ فجاؤا بقَنَاة وعمامة ليعقدوها عليه ، فكرهوا أن يُمِيلوا القناة لتعقد تَطَيُّرًا فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين ، فصعد رجل فَرْعَ إحداهما فعقد اللواء والقناة قائمة ، كما سيأتى ، وحكى أن فرقدا العالم صاحب الحدثان مر بذلك الموضع ، فنظر إلى الزيتونتين ، فقال : سَيُعْقَد بين هاتين الزيتونتين لواء لأمير لايثور عليه لواء إلا كسره ، فكان ذلك اللواء يسعد به هو وولَدُه من بعده ، ولما أقبل إلى قرطبة خرج له يوسف ، وكانت المجاعة توالت قبل ذلك ست سنين فأورثت أهل الأندلس ضعفا ، ولم يكن عيش عامة الناس بالعسكر ما عدا أهل الطاقة مذ خرجوا من إشبيلية إلا الفول الأخضر الذى يجدونه فى طريقهم ، وكان الزمان زمان ربيع ، فسمى ذلك العام عام الخلف ،

(١) الوابل : المطر الكثير الشديد .

(٢) تقول « أنفض القوم » إذا هلكت أموالهم وفنى زادهم ، أو إذا أفنوه ، وحقيقته أنهم صاروا بحيث نفضوا أوعيتهم .

(٣) نهكتنا المجاعة : أضعفتنا وأضنتنا وجهدتنا وأذهبت من لحومنا

وكان نهر قرطبة حائلا ، فسار يوسف من قرطبة وأقبل ابن معاوية على بر إشبيلية والنهر بينهما ، فلما رأى يوسفُ تصميمَ عبد الرحمن إلى قرطبة رجع مع النهر مُحَاذيا له ، فتسايرا والنهر حاجز بينهما ، إلى أن حل يوسف بصحراء الصارة غربى قرطبة ، وعبد الرحمن فى مقابلته ، وتراسلا فى الصلح ، وقد أمر يوسف بذبح الجُزُر [١] ، وتقدم بعمل الأطعمة ، وابن معاوية آخذ فى خلاف ذلك قد أعدّ للحرب عُدتها ، واستكمل أُهْبَتها ، وسهر الليل كله على نظام أمره ، كما سنذكره ، ثم انهزم أهل قرطبة ، وظفر عبد الرحمن الداخل ، ونُصِر نصراً لا كفاءله [٢] ، وانهزم الصُّميل ، وفر إلى شوزر من كورة جَيَّان ، وفر يوسف إلى جهة ماردة .

وذكر أن أبا الصَّبَّاح رئيس اليمانية قال لهم عند هزيمة يوسف : يا معشر يمن ، هل لكم إلى فتحين فى يوم ، قد فرغنا من يوسف وصميل ، فلنقتل هذا الفتى المِقْدَامة [٣] ابن مَعاوية ، فيصير الأمر لنا نقدم رَجُلاً منا ، ونحل عنه [٤] المضرية ، فلم يجبه أحد لذلك ، وبلغ الخبر عبد الرحمن فأسَرَّها فى نفسه إلى أن اغتاله بعد عام ، فقتله .

ولما انقضت الهزيمة أقام ابن معاوية بظاهر قرطبة ثلاثة أيام ، حتى أخرج عيال يوسف من القصر ، وعَفَّ ، وأحس السيرة ، ولما حصل بدار الإمارة ، وحل محل يوسف ، لم يستقر به قرار من إفلات يوسف والصميل ، فخرج فى إثر عدوه واستخلف على قرطبة القائم بأمره أبا عثمان ، واستكتب كاتب يوسف أمية بن زياد ، واستنام إليه إذ كان من موالى بنى أمية ، ونهض فى طلب يوسف ، فوقع يوسف على خبره ، فخالفه إلى قرطبة ، ودخل القصر وتحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع فاستنزله بالأمان ، ولم يزل

---

(١) الجزر ـ بضمتين ـ في الأصل الإبل ، واحدها جزور

(٢) لا كفاء له : لانظير له ولا مثيل .

(٣) المقدامة : مبالغة من الإقدام ، والتاء فيه لزيادة المبالغة كتاء علامة .

(٤) لعله « ونجلى عنه »

عنده إلى أن عقد الصلح بينه وبين ابن معاوية ، وكان عقد الصلح المشتمل عليه وعلى وزيره الصُّميل فى صفر سنة ١٣٩ ، وشارطه على أن يخلّى بينه وبين أمواله حيثما كانت ، وأن يسكن بلاط الحر منزلة بشرقى قرطبة على أن يختلف كل يوم إلى ابن معاوية ويُريه وجهه ، وأعطاه رهينة على ذلك ابنَه أبا الأسود محمد بن يوسف ، زيادةً على ابنه عبد الرحمن الذى أسره ابنُ معاوية يوم الوقعة ورجع العسكران وقد اختلطا إلى قرطبة .

نقض يوسف بن عبدالرحمن عقد الصلح

وذكر ابن حيان أن يوسف بن عبد الرحمن نكث[1] سنة ١٤١ ، فهرب من قرطبة ، وسعى بالفساد فى الأرض ، وقد كانت الحال اضطربت به فى قرطبة ودس له قوم قاموا عليه فى أملاكه ، زعموا أنه غصبهم إياها ، فدفع معهم إلى الحكام ، فأعنتوه ، وحُمل عنه فى التألم بذلك كلام رفع إلى ابن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل إلى السعاية به والتخويف منه ، فاشتد توحُّشه[2] ، إلى فخرج إلى جهة ماردة ، واجتمع إليه عشرون ألفا من أهل الشتات ، فغلظ أمره ، وحدثته نفسه بلقاء ابن معاوية ، فخرج نحوه من ماردة ، وخرج ابن معاوية من قرطبة ، فبينما ابنُ معاوية فى حصن المدوَّر مستعدا ، إذ التقى بيوسف عبد الملك بن عمر بن مروان صاحب إشبيلية ، فكانت بينهما حرب شديدة انكشف عنها يوسف بعد بلاء عظيم منهزما ، واستَحَرَّ القتلُ[3] فى أصحابه ، فهلك منهم خلق كثير ، وسار يوسف لناحية طُلَيْطلة ، فلقيه فى قرية من قُرَاها عبد الله بن عمرو الأنصارى ، فلما عرفه قال لمن معه : هذا الفهرى يفر ، قد ضاقت عليه الأرض ، وقتله الراحة له ، والراحة منه . فقتله ، واحتز رأسه ، وقدم به إلى عبدالرحمن ، فلما قرب وأوذن[4] عبد الرحمن به أمره أن يتوقف به دون جسر

(١) نكث : خالف ما كان قد تعاهد عليه

(٢) اشتد توحشه : أى أنه وجد وحشة شديدة ، والاشتيحاش : ضد الاستئناس

(٣) استحر القتل : اشتد (٤) أوذن به : أعلم به

قرطبة ، وأمر بقتل ولده عبد الرحمن المحبوس عنده ، وضم إلى رأسِهِ رأسَهُ، ووضعا على قناتين مُشَهَّرَين إلى باب القصر ، وكان عبد الرحمن لما فر يوسف قد سجن وزيره الصُّميل لأنه قال له : أين توجه ؟ فقال : لا أعلم ، فقال : ما كان ليخرج حتى يعلمك ، ومع ذلك فإن ولدك معه ، وأكد عليه فى أن يحضره ، فقال : لو أنه تحت قدمى هذه ما رفعتها لك عنه ، فاصنع ماشئت ، فحينئذ أمر به للحبس وسَجَنَ معه ولدى يوسف أبا الأسود محمدا المعروف بعد بالأعمى وعبد الرحمن ، فتهيأ لهما الهرب من نقب ، فأما أبو الأسود فنجا سالما ، واضطرب فى الأرض يبغى الفساد إلى أن هلك حَتفَ أنفه(١) ، وأما عبد الرحمن فأثقله اللحم فانبهر ، فرد إلى الحبس ، حتى قتل كما تقدم ، وأنف الصميل من الهرب ، فأقام بمكانه ، فلما قتل يوسف أدخَلَ ابنُ مُعَاوية على الصميل من خَنَقَه ، فأصبح ميتا ، فدخل عليه مشيخة المضرية فى السجن ، فوجدوه ميتا ، وبين يديه كأس ونَقْل ، كأنه بغت على شرابه ، فقالوا : والله إنا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها ولكن سُقيتها .

أمثلة من بطش عبد الرحمن الداخل

ومما ظهر من بطش الأمير عبد الرحمن بن معاوية وصَرَامته فتكه بأحد دعائم دولته رئيس اليمانية أبى الصباح بن يحيى ، وكان قد ولاه إشبيلية وفى نفسه منه ما أوجب فتكه به .

ومن ذلك النوع حكايته مع العلاء بن مغيث اليحصبى ، إذ ثار بباجة ، وكان قد وصل من إفريقية على أن يُظْهر الرايات السود بالأندلس ، فدخل فى ناس قليلين ، فأرسى بناحية باجة ، ودعا أهلها ومن حولهم ، فاستجاب له خلق كثير ، إلى أن لقيه عبد الرحمن بجهة إشبيلية فهزمه ، وجىء به وبأعلام أصحابه، فقطع يديه ورجليه ، ثم ضرب عنقه وأعناقهم، وأمر فقرطت الصكاك(٢) فى آذانهم

(١) مات فلان حتف أنفه : أى أنه مات فى غير معركة حرب ، وفى لامية السموأل:

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

(٢) يريد أنه كتب اسم كل واحد منهم فى ورقة ، ثم جعلت هذه الورقة كالقرط فى أذن صاحبها .

بأسمائهم ، وأودعت جوالقا محصنا ، ومعها اللواء الأسود ، وأنفذ بالجوالق تاجرا من ثقاته ، وأمره أن يضعه بمكة أيام الموسم ، ففعل ، ووافق أبا جعفر المنصور قد حج ، فوضعه على باب سُرَادقه ، فلما كشفه ونظر إليه سُقِطَ فى يده ، واستدعى عبد الرحمن وقال : عرضنا هــــذا البائس ـ يعنى العلاء ـ للحَتْفِ ما فى هذا الشيطان مطمع ، فالحمد لله الذى صير هذا البحر بيننا و بينه .

ولما أوقع عبد الرحمن باليمانيــة الذين خرجوا فى طلب ثأر رئيسهم أبى الصباح اليحصبى وأكثر القتل فيهم ، استوحش من العرب قاطبة ، وعلم أنهم على دَغَل[1] وحقد ، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك ، فوضع يده فى الابتياع ، فابتاع موالى الناس بكل ناحية ، واعتضد[2] أيضا بالبرابر ، ووجه عنهم إلى بر العُدْوة فأحسن لمن وفد عليه إحسانا رغب مَنْ خلفه فى المتابعة ، قال ابن حيان : واستكثر منهم ومن العبيد ، فاتخذ أربعين ألف رجل ، صار بهم غالبا على أهل الأندلس من العرب ، فاستقامت مملكته وتوطدت

صفات عبد الرحمن الداخل

وقال ابن حيان : كان عبد الرحمن راجح الحلم ، فاسح العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئا من العجز ، سريع النهضة ، متصل الحركة ، لايُخْلِد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دَعَة ، ولا يَكِلُ الأمور إلى غيره ، ثم لاينفرد فى إبرامها برأيه ، شجاعا ، مقداما ، بعيد الْغَوْر ، شديد الحدة ، قليل الطمأنينة ، بليغا ، مفوَّها ، شاعرا ، محسنا ، سَمْحا ، سخيا ، طلق اللسان ، وكان يلبس البياض ، ويعتم به ، ويؤثره ، وكان قدأُعْطِى هيبة من وليه وعدوه ، وكان يحضر الجنائز ، ويصلى عليها ، ويصلى بالناس إذا كان حاضرا الْجُمَعَ والأعياد ، ويخطب على المنبر ، ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس ، والمشى بينهم ، إلى أن حضر فى يوم جنازة فتصدى له

(١) أنهم على دغل : فساد سريرة وسوء طوية

(٢) اعتضد : تقوى ، وجعلهم كالعضد له .

فى منصرفه عنها رجل متظلم عامى وَقَاح ذو عارضة فقال له : أصلح الله الأمير ! إن قاضيك ظلمنى ، وأنا أستجيرك من الظلم ، فقال له تنصف إن صدقت ، فمد الرجل يده إلى عنانه وقال : أيها الأمير أسألك بالله لما برحت من مكانك حتى تأمر قاضيك بإنصافى فإنه معك ، فوجم الأمير والتفت إلى مَنْ حوله من حَشَمه ، فرآهم قليلا ، ودعا بالقاضى ، وأمر بإنصافه ، فلما عاد إلى قصره كلمه بعضُ رجاله ممن كان يكره خروجه وابتذاله فيما جرى ، فقال له : إن هذا الخروج الكثير ـ أبقى الله تعالى الأمير! ـ لا يَجْمُل بالسلطان العزيز ، و إن عيون العامّة تخلق تجلته ، ولا تؤمن بَوَادرهم عليه ، فليس الناس كما عُهِدوا ، فترك من يومئذ شهود الجنائز وحضور المحافل ، ووكل بذلك ولده هشاما .

بعض شعر عبد الرحمن

ومن نظم عبد الرحمن الداخل ما كتب به إلى أخته بالشام :

أيها الراكب الميمم أرضى اقْرَ مِنّى بعضَ السلام لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرض وفؤادى ومالكيه بأرض
قُدّر البين بيننا فافترقنا وطَوَى البين عن جفونى غُمضى
قد قضى الدهر بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

وكتب إلى بعض مَنْ وفد عليه من قومه لما سأله الزيادة فى رزقه ، واستقل ما قابله به وذكره بحقه بهذه الأبيات :

شتان من قام ذا امتعاض مُنْتَضِيَ الشَّفرتين نَصْلا(١)
فجاب قفراً وشق بحراً مُساميا لُجَّةً ومَحْلاَ
دبر ملكا وشاد عزاً ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ومَصَّر المصر حين أجلى

(١) امتعض فلان من كذا : أى شق عليه فغضب منه ، وانتضى فلان سيفه : أى استله من غمده ، والشفرة ـ بفتح الشين وسكون الفاء ـ حد السيف .

ثم دعا أهـــله إليـه حيث انتأوا أن هَلُمَّ أهلا
فجاء هذا طريد جوع شديد رَوْعٍ يخاف قتلا
فنال أمنا ونال شـبعا ونال مالا ونال أهـلا
ألم يكن حق ذا على ذا أعظم من منعم ومَوْلَى

الوفود على عبد الرحمن

وحكى ابن حيان أن عبد الرحمن لما أذعن له يوسف صاحب الأندلس واستقر ملـكه استحضر الوفود إلى قرطبة ، فانثالوا عليه ، ووالى القعود[1] لهم فى قصره عدة أيام فى مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلامٍ سَرَّهم وطيب نفوسهم ، مع أنه كساهم وأطعمهم ووَصَلهم ، فانصرفوا عنه محبورين[2] مغتبطين ، يتدارسون كلامه ، ويتهافتون بشكره ، ويتهانَوْن بنعمة الله تعالى عليهم فيه ، وفى بعض مجالسهم هذه مَثَلَ بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه[3] فقال له : ياابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررت ، وبك عُذْت ، من زمن ظلوم ، ودهر غَشُوم ، قلل المال ، وكثر العيال ، وشعث الحال ، فصير إلى نَدَاك المآل ، وأنت ولى الحمد والمجد ، والمرجو للرِّفْد ، فقال له عبد الرحمن مسرعا : قد سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تعودَنَّ ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاف فى الطَّلِبة ، وإذا ألم بك خطب أو حَزَبك أمر فارفعه إلينا فى رقعة لا تعدوك ، كيما نستر عليك خَلَّتك[4] ، ونكف شمات العدوّ عنك ، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا عز وجهه بإخلاف الدعاء وصدق النية ، وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون منه من حسن منطقه وبراعة أدبه ، وكف فيما بعدُ ذوى الحاجات عن مقابلته بها شفاهًا فى مجلسه .

---

(١) والى القعود موالاة : تابعه وكرره

(٢) محبورين ـ بالحاء المهملة ـ مسرورين ، من الحبور وهو السرور

(٣) يستجديه : يطلب جداه ، وهو العطاء (٤) خلتك ـ بفتح الخاء ـ حاجتك

قال ابن حيان : ووقع إلى سليمان بن يقظان الأعرابى على كتاب منه سلك به سبيل الخداع : أمّا بعد ، فدعنى من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدَّنَّ يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزْوِيَنَّ بنانها عن رصف المعصية، نـكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد .

وفى «المسهب» أن عبد الرحمن كان من البلاغة بالمـكان العالى ، الذى يرتَدُّ عنه أكثر بنى مروان حسيراً .

عبـد الرحمن وبدر مولاه

وقد جرى بينه و بين مولاه بَدْر مالا يجب إهماله ، وذلك أنه لما سعى بدر فى تكميل دولته من ابتدائها إلى استقرارها صحبه عُجْب وامتنان كادا يَرِدَان به حِياضَ المنية ، فأوّل ما بدأ به أن قال : بِعْنَا أنفسنا وخاطرنا بها فى شأن مَنْ هانت عليه لما بلغ أقصى أمله ، وقال وقد أمره بالخروج إلى غَزَاة : إنما تعبنا أوّلا لنستريح آخراً ، وما أرانا إلا فى أشدَّ مما كنا ، وأطال أمثالَ هذه الأقوال ، وأكثر الاستراحة فى جانبه ، فهجره وأعرض عنه ، فزاد كلامه ، وكتب له رقعة منها: أما كان جزائى فى قطع البحر ، وجَوْب القفر[1] ، والإقدام على تشتيت نظام مملـكة و إقامة أخرى غير الهجر ، الذى أهاننى فى عيون أكفائى ، وأشمت بى أعدائى ، وأضعف أمرى ونهيى عند من يلوذ بى ، و بَتَر مطامع من كان يكرمنى و يحفدنى[2] على الطمع والرجاء ، وأظن أعداءنا بنى العباس لو حَصَلْتُ بأيديهم ما بلغوا بى أكثر من هذا ، فإنا لله و إنا إليه راجعون . فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غيظه عليه ، فوقع عليها: وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك، وسوء خطابك ، ودناءة أدبك ، ولئيم معتقدك ، والعجب أنك متى أردت أن تبنى لنفسك عندنا متاتا أتيت بما يهدم كل متات مشيد مما تمن به ، مما قد أضجر الأسماع تـكراره ، وقدحت

(١) جاب البلاد يجوبها : قطعها ، والقفر ــ بالفتح ــ الأرض الخالية الموحشة .

(٢) حفده يحفده ــ من باب ضرب ــ خدمه ، وخف فى العمل له .

فى النفوس إعادته ، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك ، وزدنا فى هجرك وإبعادك ، وهِضْنَا جناح إدلالك [١] ، فلعل ذلك يقمع منك [٢] ويردعك حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى ، فنحن أولى بتأديبك من كل أحد ، إذ شَرُّكَ مكتوب فى مثالبنا ، وخيرك معدود فى مناقبنا ، فلما ورد هـذا الجواب على بدر سُقِط فى يده ، وسلم للقضاء ، وعلم أنه لا ينفع فيه قول ، ووجه عبد الرحمن من استأصل ماله ، وألزمه داره ، وهتك حرمته ، وقص جناح جاهه ، وصيره أهون من قعيس على عمته ، ومع هـذا فلم ينته بدر عن الإكثار من مخاطبة مولاه ، تاره يستلينه ، وتارة يذكره ، وتارة ينفث مصدورا بخط قلمه ما يلقيه عليه بلسانه ، غير مفكر فيما يؤل إليه ، إلى أن كتب له : قد طال هجرى ، وتضاعف همى وفكرى ، وأشدُّ ما على كونى سليبا من مالى ، فعسى أن تأمر لى بإطلاق مالى وأتحد به فى معزل لا أشتغل بسلطان ، ولا أدخل فى شىء من أموره ما عشت ، فوقع له : إن لك من الذنوب المترادفة ما لو سلب معها روحك لكان بعض ما استوجبته ، ولا سبيل إلى رد مالك ، فإن تركك بمَعْزل فى بَلَهْنية الرفاهية وسعة ذات اليد والتخلِّى من شغل السلطان أشبه بالنعمة منه بالنقمة ، فايأس من ذلك ، فإن اليأس مُرِيح ، فسكت لما وقف على هذه الإجابة مدة إلى أن أتى عيد فاشتد به حزنه لما رأى من حاجة مَنْ يلوذ به وهمهم بما يفرح به الناس ، فكتب إليه فى ذلك رقعة منها : وقد أتى هذا العيد الذى خالفت فيه أكثر من أساء إليك وسعى فى خراب دولتك ، ممن عفوت عنه ، فتبنَّكَ النعمة [٣] فى ذَرَاكَ ، واقتعد ذِرْوَةَ العز ، وأنا على ضد من هذا سليبا من النعمة ، مُطَّرحا حضيض الهوان ، أيأس مما يكون ، وأقرع السن على ما كان ، فلما وقف على هذه الرقعة أمر بنفيه

---

(١) الأصل فى « هاض » قولهم « هاض فلان العظم » إذا كسره بعد الجبور ، وقولهم « هاض أمر كذا فلانا » إذا رده إلى المرض بعد ما كان قد تماثل للشفاء .

(٢) قمعه : أذله ، وقمع منه : نال منه نيلا عظيما يبلغ مساءته وإهانته .

(٣) يقال « تبنك فلان العز » إذا تمكن منه ، وذراك — بفتح الذال — جانبك

عن قرطبة إلى أقصى الثغر ، وكتب له على ظهر رقعته : لتعلم أنك لم تزل بمقتك ، حتى ثقلت على العين طلعتك ، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك ، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك ، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر فبالله إلا ما أقصرت ، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق معى الدنيا ، ورأيتك تشكو لفلان وتتألم من فلان ، وماتقوّلوه عليك ، ومالك عدوّ أكبر من لسانك ، فما طاح بك غيره ، فاقطعه قبل أن يقطعك .

تأديب عبد الرحمن لأتباعه

ولما فتح الداخل سَرَقُسْطة ، وحصل فى يدهِ ثائرها الحسين الأنصارى ، وشُدخت رؤس وجوهها بالعَمَد ، وانتهى نصره فيها إلى غاية أمله ، أقبل خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه به من الجند ، فهنأه بصوت عال ، فقال : والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ علىَّ فيه النعمة من هو فوقى فأوجب على ذلك أن أنعم فيه على من هو دونى لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال ، من تكون حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا متهيب لمكان الإمارة ولا عارف بقيمتها ؟ حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ، وإنَّ جهلك ليحملك على العود لمثلها ، فلا تجد مثل هذا الشافع فى مثلها من عقوبة ، فقال : ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالُها باتصال جَهْلى وذنوبى ، فتشفع لى متى أتيت بمثل هذه الزلة ، لاأعدمنيه الله تعالى ، فتهلل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نَبِّهونا على أنفسكم ، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها ، ورفع مرتبته ، وزاد فى عطائه .

ولما أنحى أصحابه على أصحاب الفِهْرِى بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال : لاتستأصلوا شأفة أعداء[1] ترجون صداقتهم ، واستَبقُوهم لأشدَّ عداوةً منهم ، يشير إلى استبقائهم ليستعان بهم على أعداء الدين

(١) الشأفة ـ بفتح الشين وسكون الهمزة ـ الأصل ، وقرحة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتذهب ، وإذا قطعت مات صاحبها ، وقول العرب « استأصل الله شأفته » يريدون به أزاله كما تزال هذه القرحة ، ويراد أزاله من أصله .

ولما اشتد الكرب بين يديه يوم حربه مع الفهرى ، ورأى شدة مقاساة أصحابه ، قال : هذا اليوم هو أس ماينبنى عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون .

همة عبدالرحمن وبعده عن الصغائر

ولما خرج من البحر أول قدومه على الأندلس أتوه بخمر ، فقال : إنى محتاج لما يزيد فى عقلى ، لا لما ينقصه ، فعرفوا بذلك قدره ، ثم أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال : إن هذه من القلب والعين بمكان ، وإن أنا اشتغلت عنها بهمتى فيما أطلبه ظلمتها ، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتى ، ولا حاجة لى بها الآن وردَّها على صاحبها .

ولما استقامت له الدولة بلغه عن بعض من أعانه أنه قال : لولا أنا ما توصل لهذا الملك ، ولكان منه أبعد من العَيُّوق ، وأن آخر قال : سعده أعانه ، لا عقله وتدبيره ، فحركه ذلك إلى أن قال :

لا يُلفَ ممتنٌّ علينا قائل ... لولاى ما ملك الأنامَ الداخلُ
سعدى وحزمى والمهند والقنَا ... ومقادر بلغت وحالٌ حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا ... أيروم تدبيرَ البرية غافلُ
ويقول قوم سعدُه لا عقلُه ... خير السعادة ما حماها العاقلُ
أبنى أمية قد جَبَرْنَا صَدْعكم ... بالغرب رغماً والسعودُ قبائل
مادام من نسلى إمام قائم ... فالملك فيكم ثابت متواصل

وحكى ابن حيان أن جماعة من القادمين عليه من قبل الشام حدثوه يوما فى بعض مجالسهم عنده ما كان من الغَمْر بن يزيد بن عبد الملك أيام محنتهم ، وكلامه لعبد الله بن على بن عبدالله بن عباس الساطى بهم ، وقد حضروا رِوَاقه وفيه وجوه

المسوّدة من دعاة القوم وشيعتهم راداً على عبد الله فيما أراقه من دماء بنى أمية ، وسلبهم والبراءة منهم ، فلم تردعه هيبته وعصف ريحه واحتفال جمعه عن معارضته والرد عليه بتفضيله لأهل بيته والذبِّ عنهم ، وأنه جاء فى ذلك بكلام غاظ عبدالله وأغصه بريقه ، وعاجل الغمر بالحَتْف ، فمضى وخلف فى الناس ماخلف من تلك المعارضة فى ذلك المقام ، وكثر القوم فى تعظيم ذلك ، فكأن الأمير عبد الرحمن احتقر ذلك الذى كان من الغَمْر فى جنب ما كان منه فى الذهاب بنفسه عن الإذعان لعدوهم ، والأنَف من طاعتهم ، والسعى فى اقتطاع قطعة من مملكة الإسلام عنه ، وقام عن مجلسه ، فصاغ هذه الأبيات بديهةً(١) :

شتان من قام ذا امتعاض فمرَّ ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتا لعزم مجرداً للعداة نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً ولم يكن فى الأنام كَلاَّ
فشاد ملكا وشاد عزا ومنبراً للخطاب فصلا
وجَنَّد الجند حين أودى ومصر المصر حين أجلى
ثم دعا أهْلَهُ جميعاً حيث انتأوا أن هلم أهلا

وله غير ذلك من الشعر ، وسيأتى بعضه مما يقارب هذه الطبقة .

فتك عبد الرحمن بمن عاونوه فى ملكه

وأول ناصر لعبد الرحمن سائر معه فى الخمول والاستخفاء مولاه المتقدّم الذكر، سعى فى سلطانه شرقاً وغرباً وبراً وبحراً ، فلما كمل له الأمر سلبه من كل نعمة ، وسجنه ، ثم أقصاه إلى أقصى الثغر ، حتى مات وحالُه أسوأ حال ، والله تعالى أعلم بالسرائر ، فلعل له عذراً ويلومه من يسمع مبدأه ومآله .

ورأس الجماعة الذين توجه إليهم بدر فى القيام بسلطانه أبو عثمان ، ولما توطدت

(١) سبقت بعض هذه الأبيات (فى ص ٣٧ من هذا الجزء) وفى بعض ما ذكر هناك مخالفة لما ذكرهنا ، فارجع إليها فى ذلك الموضع

دولة الداخل استغنى عنه وعن أمثاله ، فأراد أبو عثمان أن يشغل خاطره ، و ينظر فى شىء يحتاج به إليه ، فجعل ابن[١] أخيه يثورعليه فى حصن من حصون ألبيرة ، فوجه عبد الرحمن مَنْ قبض عليه وضرب عنقه ، ثم أخذ أبو عثمان مع ابن أخى الداخل ، وزيّن له القيام عليه ، فسُعِى لعبد الرحمن بابن أخيه قبل أن يتم أمره ، فضرب عنقه وأعناق الذين دبروا معه ، وقيل له : إن أباعثمان كان معه ، وهوالذى ضمن له تمام الأمر ، فقال : هوأبوسلمة[٢] هذه الدولة ، فلايتحدّث الناس عنه بما تحدّثوا عن بنى العباس فى شأن أبى سلمة ، لكن سأعتبه عتباً أشد من القتل ، وجعل يوعده ، ورجع له إلى ما كان عليه فى الظاهر .

وكان صاحبه الثانى فى الموازرة والقيام بالدولة صهره عبد الله بن خالد ، وكان قد ضمن لأبى الصباح رئيس اليمانية عن الداخل أشياء لم يَفِ بها الداخل ، وقتل أبا الصباح ، فانعزل عبد الله وأقسم لا يشتغل بشغل سلطان حياته ، فمات منفرداً عن السلطان .

وكان ثالثهما فى النصرة والاختصاص تمَّام بن علقمة ، وهو الذى عَبَر البحر إليه و بشره باستحكام أمره ، فقتل هشام بن عبدالرحمن وَلَدَ تمام المذكور ، وكذلك فعل بولد أبى عثمان المتقدم الذكر ، قال ابن حيان : فذاقا من ثُكْلِ ولديهما على يدى أعز الناس عليهما ماأراهما أن أحدا لا يقدر أن ينظر فى تحسين عاقبته

و إذا تتبع الأمر فى الذين يقومون فى قيام دولة كان مآلهم مع من يظهرونه هذا المآل وأصعب .

---

(١) فى ب « فجعل ابن أخته »

(٢) أبوسلمة : حفص بن سليمان ، الخلال ، مولى بنى الحارث بن كعب ، ويعرف بأبى سلمة الخلال ، كان من الساعين فى تدبير أمر بنى العباس هو وأبو مسلم الخراساني ، ولكنه قتل فى عهد أبى العباس السفاح ، دعاه أبو العباس للسمر عنده ، وخلع عليه ، فلما خرج يريد منزله قتله المرار بن أنس وأسيد بن عبد الله ، فقيل لأبى العباس : قتل الخوارج أبا سلمة ، فقال : لليدين وللفم !

حجاب عبد الرحمن

وذكر أن أول حُجَّاب الداخل تمام بن علقمة مولاه ذو العمر الطويل ، ثم يوسف بن بخت الفارسى مولى عبد الملك بن مروان ، وله بقرطبة عَقِبٌ نابه ، ثم عبد الكريم بن مهران من ولد الحارث بن أبى شمر الغسانى ، ثم عبد الرحمن ابن مغيث بن الحارث بن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغسانى ، وأبوه مغيث فاتح قرطبة الذى تقدمت ترجمته ، ثم منصور الخصِىُّ ، وكان أول خصىٍّ استحجبه بنو مروان بالأندلس ، ولم يزل حاجبه إلى أن توفى الداخل .

وزراء عبد الرحمن

ولم يكن للداخل من يطلق عليه سِمَة وزير(١) ، لسكنه عين أشياخا للمشاورة والمؤازرة ، أولهم أبو عثمان المتقدم الذكر ، وعبد الله بن خالد السابق الذكر ، وأبو عبدة صاحب إشبيلية ، وشُهَيْد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان ابن الحكم ، وكان من سَبْي البرابر ، وقيل : إنه رومى ، و بنو شُهَيد الفضلاء من نسله ، وعبد السلام بن بسيل الرومى مولى عبد الله بن معاوية ، ولولده نباهة(٢) عظيمة فى الوزارة وغيرها ، وثعلبة بن عبيد بن النظام الُجذَمى صاحب سَرَقُسْطة لعبد الرحمن ، وعاصم بن مسلم الثقفى من كبار شيعته ، وأول من خاض النهر وهو عريان يوم الوقعة بقرطبة ، ولعقبه فى الدولة نباهة(٢) .

كتاب عبد الرحمن

وأول من كتب له عند خلوص الأمر له واحتلاله بقرطبة كبير نُقبائه أبو عثمان وصاحبه عبد الله بن خالد المتقدما الذكر ، ثم لزم كتابته أمية بن يزيد مولى معاوية بن مروان ، وكان فى عديد من يشاوره أيضا و يفضل أمره وآراءه ، وكان يكتب قبله ليوسف الفهرى ، وقيل : إنه ممن اتهم فى ممالأة اليزيدى فى إفساد دولة عبد الرحمن ، فاتفق أن مات قبل قتل اليزيدى واطلاع عبد الرحمن على الأمر .

---

(١) السمة ـ بكسر السين ، بزنة الصفة ـ هنا : الاسم ، يعنى لم يكن يقال لأحدهم «وزير»

(٢) لهم نباهة : أى ذيوع صيت وارتفاع شان

قضاة عبد الرحمن

وذكر ابن زيدون أن الداخل ألفى على قضاء الجماعة بقرطبة يحيى بن يزيد اليحصبي ، فأقره حينا ، ثم ولى بعده أبا عمرو معاوية بن صالح الحمصى ، ثم عمر ابن شراحيل ، ثم عبد الرحمن بن طريف ، وكان جدار بن عمرو يقضى فى العساكر .

الوافدون على عبد الرحمن من بنى أمية

وكان الداخل يرتاح لما استقر سلطانه بالأندلس إلى أن يَفِدَ عليه فَلُّ بيته بنى مروان ، حتى يشاهدوا ما أنعم الله تعالى عليه ، وتظهر يده عليهم (١) ، فوفد عليه من بنى هشام بن عبد الملك أخوه الوليد بن معاوية وابن عمه عبد السلام بن يزيد بن هشام ، قال ابن حيان : وفى سنة ١٦٣ قَتَلَ الداخلُ عبدَ السلام بن يزيد بن هشام المعروف باليزيدى ، وقتل معه من الوافدين عليه عبيد الله بن أبان ابن معاوية بن هشام المعروف باليزيدى ، وهو ابن أخى الداخل ، وكان تحت تدبير يُبْرِمانه فى طلب الأمر ، فَوَشَى بهما مولى لعبيد الله بن أبان ، وكان قد ساعدهما على ما هما به من الخلاف أبو عثمان كبير الدولة ، فلم ينله ما نالهما .

وذكر الحجارى أن الداخل كان يقول : أعظم ما أنعم الله تعالى به على بَعْدَ تمكنى من هذا الأمر القدرةُ على إيواء من يَصِل إلى من أقاربى ، والتوسع فى الإحسان إليهم ، وكبرى فى أعينهم وأسماعهم ونفوسهم بما منحنى الله تعالى من هذا السلطان الذى لامِنَّةَ على فيه لأحد غيره

وذكر ابن حزم أنه كان فيمن وفد عليه ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية ، فسعى فى طلب الأمر لنفسه ، فقتله سنة ١٦٧ ، وقتل معه من أصحابه هُذَيل بن الصُّميل بن حاتم ، ونفى أخاه الوليد بن معاوية والد المغيرة المذكور إلى العدوة بماله وولده وأهله .

وفى « المسهب » حدث بعضُ موالى عبد الرحمن الخاصين به أنه دخل على

---

(١) اليد هنا : النعمة والفضل

عبدالرحمن يقتل ابن أخيه

الداخل إثر قتله ابنَ أخيه المغيرة المذكور ، وهو مُطْرِق شديد الغم ، فرفع رأسه إلى وقال : ما عجبى إلا من هؤلاء القوم ، سَعَينا فيما يضجعهم فى[1] مهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا ، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ، ويسر الله تعالى أسبابه أقبلوا علينا بالسيوف ، ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به حتى أمنوا ودَرَّت عليهم أخلافُ النعم هزُّوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسموا إلى العظمى ، فنازعونا فيما منحنا الله تعالى ، فخذلهم الله بكفرهم النعم إذ أطلعنا على عَوْراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا ، وأدَّى ذلك إلى أن ساء ظننا فى البرىء منهم ، وساء أيضا ظنه فينا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه ، وإن أشدّ ما على فى ذلك أخى والد هذا المخذول ، فكيف تطيب لى نفس بمجاورته بعد قتل ولده وقطع رحمه؟! أم كيف يجتمع بصرى مع بصره ؟ ! اخرج له الساعة فاعتذر إليه ، وهذه خمسة آلاف دينار ادفعها إليه ، واعزم عليه فى الخروج عنى من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من بر العُدْوة .

قال : فلما وصلت إلى أخيه فوجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء ، فآنسته وعرفته ، ودفعت له المال ، وأبلغته الكلام ، فتأوّه وقال : إن المشؤم لا يكون بليغا فى الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه ، وهذا الولد العاق الذى سعى فى حَتْفه قد سرى ما سعى فيه إلى رَجُل طَلَبَ العافية ، وقنع بكِسْر بيت فى كَنَف من يحمل عنه معرة الزمان و كَلَّه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، لا مرد لما حكم به وقضاه ، ثم ذكر أنه أخذ فى الحركة إلى بر العُدْوة .

قال : ورجعت إلى الأمير فأعلمته بقوله ، فقال : إنه نطق بالحق ، ولكن لا يخدعنى بهذا القول عما فى نفسه ، والله لو قدر أن يشرب من دمى ماعَفّ عنه

---

(١) سعينا فيما يضجعهم فى مهاد الأمن : هذه العبارة كناية عن أنه مهد لهم الأمور ومكنهم من الاستقرار والراحة ، بعد القلق فى البلاد وامتلاء قلوبهم خوفا

لحظة ، فالحمد لله الذى أظهرنا عليهم بمانو يناه فيهم ، وأذلهم بما نووه فينا .

واعلم أنه دخل الأندلس أيام الداخل من بنى مروان وغيرهم من بنى أمية جماعة كثيرون سرد أسماءهم غير واحد من المؤرخين ، وذكر أعقابهم بالأندلس ، ومنهم جزى بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز ، وسيأتى قريبا .

الثائرون على عبد الرحمن

وقد ثار على عبد الرحمن الداخل من أعيان الغرب وغيرهم جماعة كثيرون ظفره الله تعالى بهم ، وقد سبق ذكر بعضهم ، ومنهم الدعى الفاطمى البربرى بشَنْتَمرية فأعيا الداخل أمره ، وطال شره سنين متوالية ، إلى أن فتك به بعض أصحابه فقتله .

ومنهم حَيْوة بن ملابس الحضرمى رئيس إشبيلية ، وعبد الغفار بن حميد اليحصبى رئيس لَبْلَة ، وعمرو بن طالوت رئيس باجَة ، اجتمعوا وتوجهوا نحو قرطبة يطلبون دم رئيس اليمانية أبى الصباح ، فقُتِلوا فى هزيمة عظيمه ، وقيل : نجوا بالفرار ، فأمنهم الداخل .

وفى سنة ١٥٧ ثار بسَرَقُسْطَة الحسينُ بن يحيى بن سعد (١) بنِ عُبادة الخزرجى ، وشايعه سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى رأس الفتن ، وآل أمرهما إلى أن فتك الحسين بسليمان ، وقتل الداخلُ الحسينَ كامر .

وفى سنة ١٦٣ ثار الدماحس بن عبد العزيز الكنانى بالجزيرة الخضراء ، فتوجه له عبد الرحمن الداخل ، ففر فى البحر إلى المشرق .

قال ابن حيان : كان مولد عبد الرحمن الداخل سنة ١١٣ ، وقيل : فى التى قبلها ، بالعلياء من تَدْمُر ، وقيل : بديرحنا (٢) من دمشق ، وبها توفى أبوه معاوية فى حياة أمير المؤمنين هشام بن عبدالملك ، وكان قدرشحه للخلافة . و بقبر معاوية

---

(١) فى ب « الحسين بن يحي بن سعيدبن عبادة »

(٢) رجحنا فى تعليقاتنا على الجزء الأول (ص ٣١٢) أن « ديرحنا » محرف عن « دير خالد » وبيناوجه هذا الترجيح ، فارجع إليه هناك

المذكور استجار الكُمَيْتُ الشاعر حين أهدر[١] هشام دمه ، وتوفى الداخل لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧١ ، وهو ابن سبع وخمسين سنة وأربعة أشهر ، وقيل : اثنتان وستون سنة ، ودفن بالقصر من قرطبة ، وصلّى عليه ابنه عبد الله .

وكان منصورا مؤيدا مُظَفَّرًا على أعدائه ، وقد سردنا من ذلك جملة ، حتى قال بعضهم : إن الراية التى عقدت له بالأندلس حين دخلها لم تُهْزَمْ قط ، وإن الوَهَن[٢] ما ظهر فى ملك بنى أمية إلا بعد ذهاب تلك الراية ، قال أكثرَ هذا مؤرخُ الأندلس الثَّبْتُ الثقة أبو مروان بن حَيَّان ، رحمه الله تعالى !

ولا بأس أن نورد زيادة على ما سلف وإن تكرر بعض ذلك ، فنقول : قال بعض المؤرخين من أهل المغرب بعد كلام ابن حيان الذى قدمنا ذكره ، ما نصه : كان الإمام عبد الرحمن الداخل راجحَ العقل ، راسخ الحلم ، واسع العلم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، لم ترفع له قط راية على عدوّ إلا هزمه ، ولا بلد إلا فتحه ، شجاعا ، مقداما ، شديد الحذر ، قليل الطمأنينة ، لا يُخْلِد إلى راحة ، ولا يسكن إلى دَعَة[٣] ، ولا يكل الأمر إلى غيره ، كثير الكرم ، عظيم السياسة ، يلبس البياض ، ويعتمُّ به ، ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، ويصلى بالناس فى الجمع والأعياد ، ويخطب بنفسه ، جَنَّد الأجناد ، وعقد الرايات ، واتخذ الحجاب والكتاب ، وبلغت جنوده مائة ألف فارس .

وملخص دخوله الأندلس أنه لما اشتدّ الطلب على فَلِّ بنى أمية بالمشرق من وارثى ملكهم بنى العباس خرج مستترا إلى مصر ، فاشتد الطلب على مثله ، فاحتال حتى وصل بَرْقَة ، ثم لم يزل متوغلا فى سيره إلى أن بلغ المغرب الأقصى ، ونزل بنفزة[٤] وهم أخواله ، فأقام عندهم أياما ثم ارتحل إلى مُغيلة بالساحل ، فأرسل مولاه

---

(١) أهدر دمه : جعله مباحا لا عقوبة على من أراقه

(٢) الوهن : الضعف (٣) الدعة — بفتح الدال والعين — السكون والاستقرار

(٤) فى ب « بنفرة » براء مهمله .

بدرا بكتابه إلى مَوَاليهم بالأندلس عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد وتمام بن علقمة وغيرهم ، فأجابوه واشتروا مركبا وجهزوه بما يحتاج إليه ، وكان الذى اشتراه عبيد الله بن عثمان ، وأركب فيه بدرا ، وأعطاه خمسمائة دينار برسم النفقة ، وركب معه علقمة بن تمام بن علقمة ، و بينما هو يتوضأ لصلاة المغرب على الساحل إذ نظر إلى المركب فى لجة البحر مقبلا حتى أرسى أمامه ، فخرج إليه بدر سابحا ، فبشره بما تم له بالأندلس ، و بما اجتمع عليه الأمويون والموالى ، ثم خرج إليه تمام ومن معه فى المركب فقال له : ما اسمك وما كنيتك ؟ فقال : أسمى تمام ، وكنيتى أبو غالب ، فقال : تم أمرنا وغلبنا عدوّنا إن شاء الله تعالى ، ثم ركبوا المركب معه فنزل بالمنكب ، وذلك غرة ربيع الأول سنة ١٣٨ .

فلما اتصل خبر جَوَازه[١] بالأموية أتاه عبيد الله بن عثمان وجماعة فتلقوه بالإعظام والإكرام ، وكان وقت العصر ، فصلى بهم العصر ، وركبوا معه إلى قرية طرش من كور ألبيرة فنزل بها ، وأتاه بها جماعة من وجوه الموالى و بعض العرب ، فبايعوه وكان من أمره ما يذكر ، وقيل: إنه أقام بألبيرة حتى كمل من معه ستمائة فارس من موالى بنى أمية ووجوه العرب ، فخرج من ألبيرة إلى كورة ريَّة فدخلت فى جماعته ثم بايعته أهلها وأجنادها ، ثم ارتحل إلى شَذونه ثم إلى مُدَوَّر ، ثم سار إلى أشبيليةَ

وقال بعضهم : لما أراد عبد الرحمن قصدَ قرطبة عند دخوله الأندلسَ من المشرق نزل بطشانة ، فأشاروا عليه أن يعقد له لواء[٢] ، فجاؤا بعمامة وقناة ، فكرهوا أن يُميلوا القناة تطيرا ، فأقاموها بين شجرتين من الزيتون متجاورتين ، وصعد رجل على فرع إحداهما فعقد اللواء والقناةُ قائمة ، وتبرك هو وولده بهذا اللواء[٢] ، فكان بعد

---

(١) جوازه : أراد انتقاله من شاطىء إفريقية إلى شاطىء الأندلس

(٢) اللواء : الراية ، والعلم

أن بَلِيَ لا تُحَلُّ منه العقدة (١) التى عقدت أوّلا ، بل تعقد فوقها الألوية الجُدُدُ ، وهى مستكنة تحتها ، ولم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت الدولة إلى عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وقيل : إلى ابنه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، فاجتمع الوزراء على تجديد اللِّواء ، فلما رأوا تحت اللواء أسمالاً خَلَقة (٢) ملفوفة معقدة جهلوها فاسترذلوها ، وأمروا بحلها ونَبْذِها (٣) ، وجدّدوا غيرها ، وكان جهور بن يوسف بن بخت شيخهم غائبا ، فحضر فى اليوم الثانى ، وطولع بالقصة ، فأنكرها أشد إنكار ، وساءه ما فعلوه ، وقال : إن جهلتم شأن تلك الأخلاق (٢) فكان ينبغى أن تتوقفوا عن نَبْذها (٣) حتى تسألوا المشايخ وتتفكروا فى أمرها ، وخبرهم خبرها ، فتطلبوا تلك الأَخْلَاقَ (٢) فلم توجد ، ويقال كما قال ابن حيان : إنه لم يزل يعرف الوَهَن فى ملك بنى أمية بالأندلس من ذلك اليوم ، وقد كان الذى عقده أوّلا عبد الله بن خالد من موالى بنى أمية ، وكان والدهُ خالد عقد لواء مروان بن الحكم جدّ عبد الرحمن الأعلى لما اجتمع عليه بنو أمية و بنو كلب بعد انقراض دولة بنى حَرْب (٤) على قتال الضحاك بن قيس الفِهرِى يوم مَرْج رَاهِطٍ ، فانتصر على الضحاك وقتله ، ولما عرف الأمير بقصة اللواء حزن أشدّ حزن ، وانفتقت عليه إثْرَ ذلك الفُتُوقُ العظام ، وكانوا يرون أنها جرت بسبب اللواء لأنه لم ينهزم قط جيش كان تحته ، على ما اقتضته حكمة الله التى لا تتوصل إليها الأفكار ، وتولى حمل هذا اللواء لعبد الرحمن الداخل أبو سليمان داود الأنصارى ، ولم يزل يحمله ولده من بعده إلى أيام محمد بن عبد الرحمن .

ولما تلاقى عبد الرحمن الداخل مع أمير الأندلس يوسف الفهرى بالقرب من قُرْطبة وتراسلا ، فخادعه يومين آخرها يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائة ، أظهر

---

(١) يريد الرقعة التى عقدوها على القناة أول الأمر .

(٢) الأسمال : البالية ، وكذلك الأخلاق (٣) نبذها : طرحها ورميها

(٤) يريد ببنى حرب أبناء أبى سفيان الذين أولهم معاوية

عبدُ الرحمن قبولَ الصلح ، فبات الناسُ على ذلك ليلة العيد ، وكان قد أسرَّ خلافَ ما أظهر ، واستعد للحرب ، ولما أصبح يوم الأضحى لم يَنْشَبْ(١) أن غشيت الخيلُ ، ووكَّل عبدالرحمن بخالد بن زيد الكاتبِ رسولِ يوسف جماعةً ، وأمرهم إن كانت الدائرة عليهم أن يضربوا عنقه ، وإلا فلا ، فكان خالد يقول : ما كان شيء فى ذلك الوقت أحبَّ إلى من غلبة عبد الرحمن الداخل عدو صاحبى ، وركب عبد الرحمن جواداً ، فقالت اليمانية الذين أعانوه : هذا فتًى حديثُ السنّ تحته جواد وما نأمن أول رَدْعَةٍ(٢) يردعها أن يطير منهزما على جواده ويدعنا ، فأتى عبدَ الرحمن أحدُ مواليه فأخبره بمقالتهم ، فدعا أبا الصباح ، وكان له بغل أشهب يسميه الكوكب ، فقال له : إن فرسى هذا قلق تحتى ، لا يمكننى من الرمى ، فقدِّمْ إلى بغلك المحمود أركبه ، فقدمه ، فلما ركب اطمأن أصحابه ، وقال عبد الرحمن لأصحابه : أى يوم هذا ؟ قالوا : الخميس يوم عرفة ، فقال : فالأضحى غداً يوم الجمعة ، والمتزاحفان أموى وفهرى ، والجندان قيس ويمن ، قد تقابل الأشكال جدا ، وأرجو أنه أخو يوم مَرْج راهط ، فأبشروا وجِدُّوا ، فذكرهم يوم مرج راهط الذى كانت فيه الوقعة بين جده مروان بن الحكم وبين الضحاك بن قيس الفهرى ، وكانت يوم جمعة ويوم أضحى ، فدارت الدائرة لمروان على الضحاك ، فقتل الضحاك ، وقتل معه سبعون ألفا من قبائل قَيْس وأحلافهم ، وقيل : إنه لم يحضر مَرْج رَاهِط من قيس مع مروان غير ثلاثة نفر : عبد الرحمن بن مسعدة الفزارى ، وابن هبيرة المحاربى ، وصالح الغنَوى ، وكذا لم يحضر مع عبد الرحمن الداخل يوم المصَّارة غربى قُرْطُبَة من قيس غير ثلاثة : جابر بن العلاء بن شهاب ، والحصين ابن الدجن ، العقيليان ، وهلال بن الطفيل العبدى ، وكان الظفر لعبد الرحمن ،

(١) لم ينشب : لم يلبث ، وهذا اللفظ عند العرب يدل على السرعة

(٢) الأصل فى هذه الكلمة قولهم « ردع السهم » من باب فتح — إذا ضربه بنصله الأرض ليثبت فى سنخه ، وذلك إذا كان قلقا ، يريد أول هجمة تقع بينه وبين عدوه

وانهزم يوسف ، وصبر الصُّمَيل بن حاتم بعده معذرا وعشيرته يحفونه ، فلما خاف انهزامهم عنه تحول على بغله الأشهب معارضَةً لعبد الرحمن الداخل ، فمر به أبو عطاء فقال له : يا أبا جوشن ، احتسب نفسك ، فان للأشباه أشباها : أموى بأموى، وفهرى بفهرى ، وكلبى بكلبى ، ويوم أضحى بيوم أضحى ، ويمنى بقيسى ، والله إنى لأحسب هذا اليوم بمثل مَرْج رَاهِط سواء ، فقال له الصميل : كبرت وكبر علمك ، الآن تنجلى الغماء ، وسَحْرُكَ منتفخ[1] ، فانثنى أبو عطاء لوَجْهه منقلبا ، وانهزم الصُّمَيل ، وملك عبد الرحمن قُرطبة .

نسب يوسف الفهرى

ويوسف الفهرى هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى ، بَانِى القيروان ، وأمير معاوية على إفريقية والمغرب ، وهو مشهور .

الصميل بن حاتم الكوفى

وأما الصُّمَيل فهو ابن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن ، وقيل : الصميل بن حاتم ابن عمرو بن جندع بن شمر بن ذى الجوشن ، كان جده شمر من أشراف الكوفة وهو أحد قتلة الحسين رضى الله تعالى عنه ! ودخل الصميل الأندلس حين دخل كُلْثوم بن عياض المغرب غازيا ، وساد بها ، وكان شاعراً كثير السكر أمياً لا يكتب ، ومع ذلك فانتهت إليه فى زمانه رياسة العرب بالأندلس ، وكان أميرها يوسف الفهرى كالمغلوب معه ، وكانت ولاية الفهرى الأندلس سنة تسع وعشرين ومائة ، فدانت له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعنه كما مر انتقل سلطانها إلى بنى أمية ، واستفحل مُلْكهم بها إلى بعد الأربعمائة ، ثم انتثر سلكهم ، وباد ملكهم، كما وقع لغيرهم من الدول فى القرون السالفة ، سُنّةَ الله التى قد خلت فى عباده

وكانت مدة الأمراء قبل عبد الرحمن الداخل من يوم فتحت الأندلس إلى هزيمة يوسف الفهرى والصميل ستاً وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام ، لأن

---

(١) السحر — بفتح السين وسكون الحاء المهملة — الرئة ، ويقال « انتفخ سحر فلان » ومعناه الحرفى اتسعت رئته وانتفخ بها صدره ، وهذه كناية عن أنه قد امتلأ زهواً وعجباً بنفسه .

الفتح كان حسبما تقدم لخمس خَلَوْنَ من شوّال سنة اثنتين وتسعين ، وهزيمة يوسف يوم الأضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة ، والله غالبٌ على أمره .

نبوءة مسلمة ابن عبد الملك لعبد الرحمن

وحكى أن عبد الرحمن بن معاوية دخل يوما على جده هشام ، وعندهُ أخوه مَسْلمة بن عبد الملك ، وكان عبد الرحمن إذ ذاك صبيا ، فأمر هشام أن يُنَحَّى عنه ، فقال له مَسْلمة : دعه يا أمير المؤمنين ، وضَمَّه إليه ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هذا صاحب بنى أمية ، ووزَرُهم [1] عند زوال ملكهم ، فاسْتَوْصِ به خيراً ، قال : فلم أزل أعرف مزيةً من جدى من ذلك الوقت .

موازنة بين عبد الرحمن والمنصور العباسى

وكان الداخل يقاس بأبى جعفر المنصور فى عزمه وشدته وضبط المملكة ، ووافقه فى أن أم كل منهما بربرية ، وأن كلا منهما قتل ابنَ أخيه ، إذ قتل المنصور ابن السفاح ، وقتل عبد الرحمن ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية .

ومن شعر عبد الرحمن وقد رأى نخلة برُصَافته :

تبدَّتْ لنا وَسْط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرُّبِ والنَّوَى ... وطول اكتئابى عن بنىَّ وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سَقَتْكِ غَوادى المزن فى المنتأى الذى ... يصحُّ ويستمرى المساكين بالوَبْلِ

وكان نقش خاتمه « بالله يثق عبد الرحمن ، وبه يعتصم » وأشاع سنة ١٦٣ الرحيل إلى الشام لانتزاعها من بنى العباس ، وكاتب جماعة من أهل بيته ومواليه وشيعته ، وعمل على أن يستخلف ابنه سليمان بالأندلس فى طائفة ، ويذهب بعامة مَنْ أطاعه ، ثم أعرض عن ذلك بسبب أمر الحسن الأنصارى الذى انْتَزَى [2] عليه

(١) الوزر — بفتح الواو والزاى جميعاً — الملجأ والحصن

(٢) انتزى عليه : ثار ، ويقال « فلان منتز إلى الشر » إذا كان وثابا إليه سوارا

بسَرَقُسْطة ، فبطل ذلك العزم .

ومن شعر عبد الرحمن أيضا قوله يتشوّق إلى معاهد الشام :

أيها الراكب الميمِّمُ أرضى ... اقْرَ مِنِّى بعض السلام لبعضى

إن جسمى كما علمت بأرض ... وفؤادى ومالكيه بأرض

قُدِّرَ البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونىَ غُمْضِى

قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

وترجمة الداخل طويلة ، وقد ذكر منها ما فيه مقنع ، انتهى . والله تعالى الموفق للصواب .

وفى بنائه جامع قرطبة يقول بعضهم :

وأبرز فى ذات الإله ووَجْهه ... ثمانين ألفاً من لُجَيْنٍ وعَسْجَدِ

وأنفقها فى مسجد زانَهُ التقى ... وقرَّ به دينُ النبى محمد

ترى الذهب الوهَّاج بين سموكه ... يلوح كلمح البارق المتوقد

أبو الأشعث الكلبي

ومن الوافدين على الأندلس أبو الأشعث الكلبى .

دخل الأندلس ، وكان شيخاً مُسِناً يروى عن أمه عن عائشة رضى الله تعالى عنها ! إلا أنه كان مُنْدِراً(١) صاحب دُعَابة ، وكان مختصاً بعبد الرحمن بن معاوية ، وله منه مكانة لطيفة يُدِلُّ بها عليه(٢) ، ولما توفى حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكانت له من عبد الرحمن خاصة لم تكن لأحد من أهل بيته ، جعل عبد الرحمن يبكى ويجتهد فى الدعاء والاستغفار لحبيب ، وكان إلى جنبه أبو الأشعث هذا قائماً ، وكانت له دَالَّة عليه ودُعَابة يحتملها منه ، فأقبل عند استقباره كالمخاطب المتوفى علانية يقول : يا أبا سليمان ، لقد نزلت بحُفْرة قلَّما

---

(١) مندرا : يأتى بالنادر من القول أو الفعل ، تقول « أندر الرجل » إذا فعل ذلك

(٢) يدل بها عليه : يعنى أنه كان مجترئا عليه ثقة بمحبته وارتكانا إلى عظيم منزلته .

يغنى عنك فيها بكاء الخليفة عبد الرحمن بعده ، فأعرض عنه عبد الرحمن ، وقد كاد التبسم يغلبه ، هكذا ذكره ابن حيَّان رحمه الله تعالى فى «المقتبس» ، ونقله عنه الحافظ ابن الأبار .

جزى بن عبد العزيز بن مروان

ومن الداخلين إلى الأندلس جُزَىّ بن عبد العزيز ، أخو عمر بن عبد العزيز ، رضى الله تعالى عنه !

دخل الأندلس ، ومات فى مدة الداخل ، وكان من أولياء الله تعالى مقتفياً[1] سبيلَ أخيه عمر بن عبد العزيز ، رحمهما الله تعالى ! .

بكر بن سوادة بن ثمامة الجذامى

ومنهم بكر بن سَوَادة بن ثُمَامة ، الُجذَامى .

ويكنى أبا ثمامة ، وجده صحابى ، وكان بكر هذا فقيها كبيراً من التابعين ، روى عن جماعة من الصحابة كعبد الله بن عمرو بن العاص وقيس بن سعد بن عُبَادة وسَهْل بن سعد السَّاعدى وسفيان بن وَهْب الخَوْلانى وحِبَّان بن سمح الصُّدائى ، وقيد اسمه الدار قطنى رحمه الله تعالى حِبَّان - بكسر الحاء المهملة ، و بباء معجمة بواحدة - ونقله الأمير كذلك ، وهو ممن وَفَد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد فتح مصر ، قال ابن يونس : و يقال فيه حبان بالكسر وحَبَّان بالفتح أصح انتهى ، وضبطه بعضهم بالياء المثناة تحت

رجع - وممن روى عنه بكر من الصحابة أبوثور الفَهْمى ، وأبو عميرة المزنى ، وروى عن جماعة من التابعين أيضا كسعيد بن المسيِّب وأبى سَلَمة بن عبد الرحمن وعُرْوة بن الزبير وجماعة سواهم يكثر عددهم و يطول سَرْدُهم منهم ربيعة بن قيس الجملى وأبو عبد الرحمن الُحبُلى وزياد بن نعيم الحضرمى وسفيان بن هانئ الجيشانى وسعيد بن شمر السبائى وعبد الله بن المستورد بن شداد الفِهْرى وعبد الرحمن بن أوس

---

(١) مقتفيا سبيله : مقتديا بما كان يصنعه ، ومتبعا الطريق الذى كان يسلكه .

المزنى وزيادة بن ثعلبة البَلَوى وشيبان بن أمية القتبانى وعامر بن ذريح الحميرى وعمير بن الفيض اللخمى وأبو حمزة الخولانى وعياض بن فروخ المعافرى ومسلم بن مخشى المدبجى وهانئ بن معاوية الصدفى وغيرهم ممن اشتمل على ذكرهم التاريخان لابن عبد الحكم وابن يونس .

وممن روى عن بكر المذكور عبد الله بن لَهيعة وعمرو بن الحارث وجعفر بن ربيعة وأبو زُرْعة بن عبد الحكم الإفريقى وغيرهم .

قال ابن يونس : توفى بإفريقية فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وقيل : بل غرق فى مَجاز الأندلس ، سنة ثمان وعشرين ومائة : قال : وجده ثُمَامة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله بمصر حديث رواه عمرو بن الحارث

وقال أبو بكر عبدالله بن محمد القيروانى المالكى فى تاريخه المسمى برياض النفوس وقد ذكر بكراهذا : إنه كان أحد العشرة التابعين (١) ، يعنى الموجهين إلى إفريقية من قبل عمر بن عبد العزيز فى خلافته ليفقهوا أهل إفريقية ويعلموهم أمر دينهم ، قال: وأغرب بحديث عن عقبة بن عامر ، لم يروه غيره فيما علمت ، حدّث عبد الله بن لهيعة عنه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان رأس مائتين فلا تأمر بمعروف ، ولا تَنْهَ عن منكر ، وعليك بخاصة نفسك » وحكى المالكى أيضا عن أبى سعيد بن يونس قال : كان فقيهاً مفتياً ، سكن القيروان ، وكانت وفاته كما تقدم ، وذكره الحمَيْدى فى الداخلين إلى الأندلس ، ولم يذكره ابن الفرضى .

زريق بن حكيم

ومنهم زريق بن حكيم ، أحد المعدودين فى الداخلين إلى الأندلس ذكره أبو الحسن بن النعمة عن أبى المطرف عبد الرحمن بن يوسف الرفاء

---

(١) انظر الجزء الأول (ص ٢٦٠) ثم انظر الجزء الرابع (ص ٨ و ١٣)

القرطبى ، وحكى أنه كتب ذلك من خطه ، وسماه مع جماعة منهم حبان بن أبى جبلة وعلى بن أبى رباح وأبوعبد الرحمن الْحُبُلى وحنش بن عبد الله الصنعانى ومعاوية بن صالح وزيد بن الحباب العكلى ، وانتهى عددهم بزريق هذا سبعة ، ولم يذكره ابن الفرضى ولا غيره ، قاله الحافظ أبو عبد الله القضاعى .

زيد بن قاصد السكسكى

ومنهم زيد بن قاصد السكسكى

قال ابن الأبار : وهو تابعى ، دخل الأندلس وحضر فَتْحَها ، وأصله من مصر ، يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه ! وروى عنه عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم الإفريقى ، ذكره يعقوب بن سفيان ، وأورد له حديثاً من كتاب الحميدى ، انتهى .

زرعة بن روح الشامى

ومنهم زرعة بن روح الشامى

دخل الأندلس ، وحَدَّث عنه ابنه مسلمة بن زرعة بحكاية عن القاضى مهاجر ابن نوفل .

محمد بن أوس ابن ثابت الأنصارى

ومنهم محمد بن أوس بن ثابت ، الأنصارى

قال ابن الأبار : تابعى ، دخل الأندلس ، يروى عن أبى هريرة ، قرأته بخط ابن حبيش ، وقال أبوسعيد بن يونس مؤرخ مصر : إنه يروى عنه الحارث بن يزيد ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان ، وكان غزا المغرب والأندلس مع موسى بن نُصَير ، ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه ! وقال الحميدى : إنه كان من أهل الدين والفضل معروفا بالفقه ، ولى بحر إفريقية سنة ثلاث وتسعين ، وغزا المغرب والأندلس مع موسى ابن نُصَير ، فيما حكاه ابن يونس صاحب تاريخ مصر ، وكان على بحر تونس سنة ثنتين ومائة على ماحكاه عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، ولما قتل يزيد بن أبى مسلم والى إفريقية اجتمع رأىُ أهلها عليه ، فولوه أمرهم ، وذلك فى خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان ، إلى أن ولى بشر بن صَفْوان الكلبى إفريقية ، وكان على

مصر فخرج إليها واستخلف أخاه حنظلة ، انتهى .

عبد الملك بن عمر بن مروان الأموى

ومنهم عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم ، الأموى

فر من الشام خوفا من المسوّدة ، فمر بمصر ومضى إلى الأندلس ، وقد غلب عليها الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فأكرمه ونوّه به[1] ، وولاه إشبيلية لأنه كان قُعْدُد[2] بنى أمية ، ثم إنه لما وجد الداخل يدعو لأبى جعفر المنصور أشار عليه بقطع اسمه من الخطبة ، وذكّره بسوء صنيع بنى العباس ببنى أمية ، فتوقف عبد الرحمن فى ذلك ، فما زال به عبد الملك حتى قطع الدعاء له ، وذلك أنه قال له حين امتنع من ذلك : إن لم تقطع الخطبة لهم قتلت نفسى ، فقطع حينئذ عبد الرحمن الخطبة بالمنصور بعد أن خطب باسمه عشرة أشهر ، ولما زحف أهل غرب الأندلس نحو قرطبة لحرب الأمير عبد الرحمن أنهض إليهم عبد الملك هذا ، فنهض فى معظم الجيش ، وقدم ابنه أمية أمامه فى أكثر العساكر ، فخالطهم أمية ، فوجد فيهم قوة ، فخاف الفضيحة معهم ، فانحاز منهزماً إلى أبيه ، فلما جاءه سُقِطَ فى يده ، وقال له : ما حملك على أن استخففت بى وجرأت الناس على والعدوّ ؟ إن كنت قد فررت من الموت فقد جئتَ إليه ، فأمر بضرب عنقه ، وجمع أهل بيته وخاصته وقال لهم : طردنا من الشرق إلى أقصى هذا الصقع ، ونحسد على لقمة تبقى الرمَق ، اكسروا جفون السيوف ، فالموت أولى أو الظفر ، ففعلوا وحملوا ، وتقدمهم ، فهزم اليمانية وأهل إشبيلية ، ولم تقم بعدها لليمانية قائمة ، وقتل بين الفريقين ثلاثون ألفاً ، وجرح عبد الملك ، فأتاه عبد الرحمن وجُرْحُه يجرى دما وسيفه يقطر دما ، وقد لصقت يده بقائم سيفه ، فقبّلَ بين عينيه ، وجَزّاه خيراً ، وقال له : يا ابن عم ، قد أنكحتُ ابنى وولى عهدى هشاما ابنتك فلانة ، وأعطيتها كذا وكذا ، وأعطيتك

---

(١) نوه به : رفع ذكره وعظم أمره

(٢) يقال « فلان قعد دبنى فلان » إذا كان أقربهم أبا إلى جدهم الأعلى ، يعنى أنه فى طبقة من طبقات النسب أعلى من طبقاتهم جميعاً

كذا، ولأولادك كذا، وأقطعتك وإياهم كذا، ووليتكم الوزارة .

ومن شعره لما نظر نخلة منفردة بإشبيلية فتذكر وطنه بالشام، وقال :

يا نَخْلَ أنت فريدة مثلى   فى الأرض نائية عن الأهل[1]
تبكى وهل تبكى مكممة   عجماء لم تُجْبَلْ على جبل
ولَوَ أنها عَقَلَتْ إذاً لبكت   ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت وأخرجنى   بغضى بنى العباس عن أهلى

هاشم بن الحسين الطالبي

ومن الداخلين من المشرق إلى الأندلس هاشم بن الحسين بن إبراهيم بن جعفر ابن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله تعالى عنهم أجمعين !

ونزل حين دخوله بِلَبْلَة، وتعرف منازلهم فيها بمنازل الهاشمى، وذكره أمير المؤمنين الحكم المستنصر فى كتابه « أنساب الطالبيين والعلويين القادمين إلى المغرب » .

عبد الله ابن المغيرة، الكنانى

ومن الداخلين إلى الأندلس عبد الله ابن المغيرة، الكنانى، حليف بنى عبد الدار .

سماه أبو محمد الأصيلى الفقيه فى الداخلين الأندلس من التابعين، حكى ذلك عنه أبو القاسم بن بَشْكُوال فى مجموعه المسمى « بالتنبيه والتعيين » قال ابن الأبار : وما أراه يُتَابَع عليه، وذكره أبو سعيد بن يونس من أهل إفريقية، انتهى، وذكر أنه يروى عن سفيان بن وهب الْخَوْلاَنى .

عبد الله المعمر

ومنهم عبد الله المعمر الذى طرأ على الأندلس فى آخر الزمان، وكان يزعم أنه لقى بعض التابعين

(١) نخل : مرخم نخلة، وليس هو باسم جنسى جمعى، بدليل خطاب المفردة المؤنثة فى قوله « أنت فريدة » ونائية : بعيدة، يقول : إنها نبتت فى غير مكان النخل

قال ابن الأبار : روى عنه أبو محمد أسد الجهنى ، ذكر ذلك القيسى ، وفيه عندى نظر ، انتهى .

أبو عمرو عبد الرحمن ابن شماسة المهرى

ومنهم أبو عمرو عبد الرحمن بن شماسة بن ذئب ، المهرى

روى عن أبى ذر ، وقيل : عن أبى نضرة عن أبى ذر ، وعائشة وعمرو بن العاص وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وأبى نضرة الغفارى وعقبة بن عامر الجهنى وعوف ابن مالك الأشجعى ، ومُعَاوية بن حُدَيْج [1] ومسلمة بن مخلد وأبى رهم ، ذكره ابن يونس فى تاريخ مصر ، وسماه ابن بَشْكُوال فى الداخلين الأندلس من التابعين ، وروى ذلك عن الحُمَيدى ، قاله ابن الأبار ، وقال ابن يونس : وآخر من حدث عنه بمصر حرملة بن عمران .

عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر

ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر ، رضى الله تعالى عنه ! .

وقد ذكره ابن حيان فى مقتبسه ، وأخبر أن يوسف بن عبد الرحمن الفهرى كتب له أن يدافع عبد الرحمن المروانى الداخل للأندلس ، وكان المذكور إذ ذاك أميراً على اليمانية من جند دمشق ، وإنما رَكَنَ إليه فى محاربة عبد الرحمن لما بين بنى عمار وبنى أمية من الثأر بسبب قتل عمار بصِفِّين ، وكان عمار رضى الله تعالى عنه من شيعة على كرم الله وجهه

وهذا عبدالله بن سعيد هو جد بنى سعيد أصحاب القلعة الذين منهم عدة رؤساء وأمراء وكتاب وشعراء ، ومنهم صاحب « المغرب » وغير واحد ممن عرفنا به فى هذا الكتاب ، ومن مشاهيرهم أبو بكر محمد بن سعيد بن خلف بن سعيد صاحب أعمال غَرْنَاطة فى مدة الملثَّمِين ، قال : وهو القائل يفتخر :

---

(١) « ابن حديج » وقع هنا بالحاء المهملة على الصواب فى جميع الأصول ، وانظر الهامشة رقم ٢ فى ص ٦ من هذا الجزء .

إن لم أكن للعلاء أهلا بما تراه فمن يكون
فكل ما أبتغيه دونى ولى على هِمَّتِي ديونُ
ومن يَرُمْ ما يقلُّ عنه فذاكَ من فعله جنون
فرع بأفق السماء سامٍ وأصله راسخٌ مَكِينُ

وقوله :

الله يعلم أنى أحبُّ كسب المعالى
* وإنما أتَوَانَى عنها لسوء المآل
تحتاج للكدِّ والبذل واصطناع الرجال
دَعْ كل من شاء يسمو لها بكل احتيال
فحالُهم فى انعكاس بها وحالىَ حالى

وتراجمهم واسعة ، وقد بُسِطت فى « المسهب » و « المغرب » وغيرهما ، وقد قدمنا فى الباب قبل هذا من أخبار بنى سعيد هؤلاء ما يُثْلج الصَّدْر فليراجع .

أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد، البخارى الحافظ

ومن الوافدين على الأندلس من المشرق أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر بن إسحاق بن عمرو بن مزاحم بن غياث ، التميمى ، البخارى ، الحافظ ، نزيل مصر .

سمع ببُخَارى بلده من إبراهيم بن محمد بن يزداد وأخيه أحمد ، وكانا يرويان معاً عن عبدالرحمن بن أبى حاتم الرازى وعن أبى الفضل السليمانى بيبكند(١) ، وأبى عبد الله محمد بن أحمد المعروف بغُنْجار ، وأبى يعلى حمزة بن عبد العزيز المهلبى

---

(١) بيكند ـ بكسر الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الكاف ـ بلدة بين بخارى وجيحون على مرحلة من بخارى ، لها ذكر في الفتوح ، وكانت بلدة كبيرة حسنة كثيرة العلماء ، خربت منذ زمان ، وكل بلدة من بلاد ماوراء النهرلها مزارع وقرى إلا بيكند وحدها ، غيرأن بها من الرباطات مالا يعلم ببلاد ما وراء النهر أكثر منها ، قاله ياقوت نقلا عن صاحب كتاب الأقاليم .

وأقرانه باليمن ، وأبى القاسم تمام بن محمد الرازى بدمشق ، وابن أبى كامل بأطرابلس الشام ، وأبى محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ بمصر ، وله رواية عن أبى نصر الكلاباذى وأبى عبد الله الحاكم وأبى بكر بن فُورَك المتكلم وأبى العباس بن الحاج الإشبيلى وأبى القاسم على بن أحمد الُخزاعى صاحب الهيثم بن كليب وأبى الفضل العباس بن محمد الحدّاد التنيسى وأبى الفتح محمد بن إبراهيم بن الجحدرى وأبى بكر محمد بن داود العسقلانى وهلال الحفار وصدقة بن محمد بن مروان الدمشقى ، ولقى بإفريقية العابد ولى الله سيدى محرز بن خلف التميمى مولاهم وصَحِبَه ، وقال : لقد هِبْتُه يوم لقيته هَيْبة لم أجدها لأحد فى نفسى من الناس ، ودخل الأندلس و بلاد المغرب ، وكتب بها عن شيوخها ، ولم يزل يكتب إلى أن مات حتى كتب عمن دونه ، وله رسالة الرحلة وأسبابها وقول لا إله إلا الله وثوابها ، فسمع منه أبو عبد الله الرازى وذكره فى مشيخته ، قال الحافظ ابن الأبار : ومنها نقلت اسمه وتعرفت دخوله الأندلس ، وحدّث عنه هو وجماعة منهم أبو مروان الطبنى ، وقال: هو من الرحالين فى الآفاق ، أخبرنى أنه يحدّث عن مئين من أهل الحديث ، وأبو عبد الله الحميدى وأبو بكر الطُّلَيْطلى وأبو عبد الله بن منصور الحضرمى وأبو سعيد الرهاوى وأبو محمد جعفر بن محمد السراج وأبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقى وأبو الحسن بن مشرف الأنماطى وأبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسى وأبو محمد شعيب ابن سبعون الطرطوشى وأبو بكر بن نعمة العابد وأبو الحسن على بن الحسين الموصلى الغراف وأبو عثمان سعد بن عبد الله الحيدرى من شيوخ السلفى ، وأبو محمد عبد الكريم بن حمزة بن الخضر السلمى ، وأبو إسحاق الكُلاَعى من شيوخ أبى بحر الأسدى ، وأبو محمد بن عتاب كتب إليه بجميع ما رواه ولم يعرف ذلك فى حياته، وسماه أبو الوليد بن الدباغ فى الطبقة العاشرة من طبقات أئمة المحدّثين من تأليفه ، مع أبى عمر بن عبد البر وأبى محمد بن حزم وأبى بكر بن ثابت الخطيب ، وذكره

أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه ، وقال : سمع بما وراء النهر والعراق ومصر واليمن والقيروان ، ثم سكن مصر ، وقدم دمشق قديما وحدث بها ، وسمى جماعة كثيرة من الرواة عنه ، وحكى أنه قال : لى ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديث أريد أن أمضى وأجىء بها ، قال : وسئل عن مولده ، فقال : فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، قال : وتوفى بالحوراء[1] سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ! انتهى .

قلت : والذى أعتقده أنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث ، وهو ثقة عدل ليس له مجازفة ، والحق أبلج .

عبد الجبار بن أبى سلمة القرشى ، الزهرى، الفقيه

ومن دخل الأندلس من المشرق عبدُ الجبار بن أبى سَلمة الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن بن عَوْف ، القرشى ، الزهرى .

دخل الأندلس مع موسى بن نُصَير ، وكان على مَيْسَرة معسكره ، ونزل بَاجَة ثم بَطَلْيَوْس ، ومن نسله الزُّهْريون الأشراف الذين كانوا بإشْبيلِيَة انتقلوا إلى سكناها قديما ، هكذا فى خبر القاضى أبى الحسين الزهرى منهم عن أبى بكر بن خير وغيره ، قال ابن بَشْكُوال فى مجموعه المسمى « بالتنبيه والتعيين ، لمن دخل الأندلس من التابعين » : عبدُ الجبار بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف من التابعين ، وقع ذكره فى كتاب شيخنا أبى الحسن بن مغيث ، انتهى .

قال ابن الأبار : ولم يزد على هذا ، انتهى .

أبو محمد عبد الوهاب ابن عبد الله الطندتائى

ومن الداخلين إلى الأندلس من المشرق أبو محمد عبد الوهاب بن عبد الله ابن عبد الوهاب .

من أهل مصر ، وسكن بغداد ، ويعرف بالطندتائى قرية بمصر نسب إليها ،

(١) الحوراء ـ بفتح الحاء وسكون الواو ـ كورة من كور مصر القبلية فى آخر حدودها من جهة الحجاز ، وهى على البحر فى شرق القلزم ، وقيل : الحوراء مرفأ سفن مصر إلى المدينة . قاله ياقوت .

روى عن أبى محمد الشارمساحى ، وتفقه به ، وقدم الأندلس رسولا بزعمه من عند الخليفة العباسى ، فسكن مُرْسِية ، ودرس بها ، وخرج منها سنة اثنتين وأربعين وستمائة بعد أن تملكها النصارى صلحا ، وأسر بناحية صقلية ، قال ابن الأبار : ثم بلغنى أنه تخلص ولحق ببلده ، رحمه الله تعالى ! .

أبو القاسم عبد الخالق ابن إبراهيم الخطيب

ومنهم عبد الخالق بن إبراهيم الخطيب ، يكنى أبا القاسم .

قال ابن الأبار : لا أعرف موضعه من بلاد المشرق ، وكان أديبا قوى العارضة ، مطبوع الشعر ، مديد النفَس . ومن شعره من قصيدة صنعها فى وقت رحلته إلى الأندلس قوله :

على الذل أو فاحلل عقال الركائب ... وللضيم أو فاحلل صدور الكتائب (١)
فإما حياة بعد إدراك مُنْيَة ... وإما ممات تحت عز القواضب (٢)
فما العيش فى ظل الهوان بطيب ... وما الموت فى سُبْلِ العلاء بعائب

أبو محمد عبد اللطيف بن أحمد الهاشمى الصدفى ، النرسى

ومنهم أبو محمد عبد اللطيف بن أبى الطاهر أحمد بن محمد بن هبة الله ، الهاشمى ، الصدفى .

من أهل بغداد ، يعرف بالنَّرْسى ، دخل الأندلس ، وكان يزعم أنه روى عن أبى الوقت السِّجْزى وأبى الفرج [بن] الجوزى وغيرهما ، وله تأليف سماه « بالدّليل فى الطريق ، من أقاويل أهل التحقيق » ذكره أبو عبد الله محمد بن سعيد الطراز وضعفه بعد ما سمع منه ، أخذ عنه وسمع منه هو وأبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم المغيلى وغيرهما ، وقال : ورد علينا غَرْناطة قريبا من سنة ثلاث عشرة وستمائة ،

---

(١) « على الذل » يتعلق بفعل محذوف ، والتقدير : أقم على الذل ، واحلل عقال الركائب : كناية عن السفر والانتقال ، والعقال ــ بكسر العين ــ ماتربط به الدابة .

(٢) منية ــ بضم فسكون ــ ما يتمناه الإنسان ، والقواضب : السيوف القاطعة ، واحدها قاضب ، وفعله « قضب يقضب » من باب ضرب ــ أى قطع .

وتوفى ـ عفا الله تعالى عنه ـ! بإشبيليه قريباً من هذا التاريخ ، وقال فيه أبو القاسم بن فرقد : عبد اللطيف بن عبد الله[1] الهاشمى البغدادى النرسى ، منسوب إلى قرية من قرى بغداد ، سمع صحيح البخارى من أبى الوقت السِّجْزِى ، وروى عن غيره ، وله تآليف ، قال ابن الأبار : فى التصوّف ، منها تأليف فى إباحة السماع ، قرأت عليه أكثره ، وقرأت عليه عوالى النقيب بمدينة إشبيلية بحومة القصر المبارك عام خمسة عشر وستمائة .

أبو بكر عمر بن عثمان الخراسانى الباخرزى المالينى

ومنهم أبو بكر عمر بن عثمان بن محمد بن أحمد ، الخراسانى ، الباخرزى ، المالينى ، يكنى أبا بكر، سمع من أبى الخير أحمد بن إسماعيل الطالقانى القزوينى وأبى يعقوب يوسف بن عمر بن أحمد الخالدى الزنجانى ، وقدم الأندلس ، وحدث بصحيفتى الأشج وجعفر بن نسطور الرومى ، وسُمِع منه بغَرْنَاطة ومُرْسِية وغيرهما من بلاد الأندلس ، وحدّث عنه أبو القاسم الملاحى ، وسمع منه بمَالَقه أبو جعفر ابن عبد الجبار وأبو على بن هاشم فى صفر سنة ٦٠٠ ، ومولده فى ربيع الأوّل سنة ٥٦٠ ، انتهى من تكملة ابن الأبّار .

قلت : ولا يخفى على مَنْ له بصر بعلم الحديث أن الأشج وابن نسطور لا يلتفت إليهما ، ويرحم الله تعالى السِّلَفى الحافظ إذ قال :

حديث ابن نسطور وقيس ويعنم ... وبعد أشج الغرب ثم خراش
ونسخة دينار ونسخة تربة ... أبى هدبة القيسى شبه فراش

قال ابن عات : كان الحافظ السِّلَفى إذا فرغ من إنشاد هذين البيتين ينفخ فى يديه إشارة إلى أن هذه الأشياء كالريح ، انتهى .

على بن بندار البغدادى البرمكى

ومن الوافدين على الأندلس من أهل المشرق على بن بُنْدَار بن إسماعيل بن موسى بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك، البرمكى ، من أهل بغداد .

قدم الأندلس تاجرا سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وكان قد أخذ عن أبى

(١) الذى مضى « عبداللطيف بن أحمد »

الحسن عبد الله بن أحمد بن محمد بن المغلس الفقيه الداودى ، وتَلْمَذ له ، وسمع منه الموضح والمنجح من تآليفه فى الفقه ، وما تم له من أحكام القرآن ، هكذا نقله الحافظ ابن حزم عن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله المعتنى بهذا الشأن ، رحمه الله تعالى !

أبو العلاء عبيد بن محمد النيسابورى

ومنهم أبو العلاء عبيد بن محمد بن عبيد ، أبو العلاء ، النيسابورى .

لقيه الحافظ أبو على الصدفى ببغداد وأخذ عنه إذ قدمها حاجا ، وهو يحدث عن أبى سعيد عبد الرحمن بن أحمد البصروى ، قال أبو على : وأراه دخل الأندلس ، ويغلب على ظنى أنى لقيته بسَرَقُسْطة ، ذكر ذلك القاضى عياض فى المعجم من تآليفه ، والله تعالى أعلم .

أبو نصر سهل بن على النيسابورى

ومنهم سهل بن على بن عثمان ، التاجر ، النيسابورى ، يكنى أبا نصر .

سمع جماعة من الخراسانيين وغيرهم ، منهم أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى وأبو الفتح السمرقندى ، وأدرك الإمام أبا المعالى الُجوَينى ، وحضر مجلسه ودرسه ، ولقى بعده أصحابه القُشَيرى والطوسى وغيرهما ، وكان شافعى المذهب ، ذكره عياض وقال : حدثنى بحكايات وفوائد ، وأنشدنى لأبى طاهر السِّلَفى ، وأجازنى جميع رواياته وحدثنى أن وفاة أبى المعالى كانت بنيسابور سنة خمس أو أربع وسبعين وأربعمائة ، وقال أبو محمد العثمانى : أنشدنى أبو نصر سهل بن على النيسابورى الحقوانى قال : أنشدنا أبو الفتح نصر بن الحسن ، أنشدنا أبو العباس العذرى ، قال : أنشدنا أبو محمد بن حزم الحافظ لنفسه :

ولما رأيت الشَّيْبَ حل مَفَارِقى نذيراً بِتَرْحَال الشباب الُمفَارِق[1]
رجعت إلى نفسى فقلت لها انظرى إلى ما أتى ، هذا ابتداء الحقائق

---

(١) المفارق بفتح الميم — جمع مفرق ، وهو الموضع الذى يفرق فيه الشعر من الرأس ، والمفارق فى آخر البيت : اسم الفاعل فعله « فارقه يفارقه » ومعناه تركه .

دعى دَعَوَات اللهو قد فات وقتها كما قد أفات الليل نور المشارق

دعى منزل اللذات ينزل أهله وجِدِّى لما نُدْعَى إليـه وسابق (١)

قال عياض : توفى سهل هـذا غريقا فى البحر منصرفا إلى بلده من المَرِيَّة ، رحمه الله تعالى ! .

أبو المكارم هبة الله بن الحسين ، المصرى

ومنهم أبو المكارم هبة الله بن الحسين ، المصرى .

كان من أهل العلم ، عارفا بالأصول ، حافظا للحديث ، متيقظا ، حسن الصورة والشَّارة ، دخل الأندلس ، وولى قضاء إشبيلية منها آخر شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

قال ابن الأبار : وبه صُرِف أبو القاسم الخولانى ، وأقام بها سنة ، وحضر غزوة شنترين ، وكان قدوم أبى المكارم هـذا الأندلس خوفا من صلاح الدين يوسف بن أيوب فى قوم من شيعة العُبَيْدِى ملك مصر ، ووفد أيضا معه أبو الوفاء المصرى ، ثم استصحبه أمير المؤمنين يعقوب المنصور معه فى غزوة قفصة الثانية ، وولاه حينئذ قضاء تونس ، وكان قد ولى قضاء فاس ، وولى أيضا أبو الوفا صاحبه القضاء ، وتوفى وهو متولى قضاء تونس سـنة ست وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى ! .

أبو زكريا يحيى بن عبد الرحمن القيسى الدمشقى

ومنهم يحيى بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن عبد الله ، القيسى ، الدمشقى . أصله من دمشق ، وبها ولد ، ويعرف بالأصبهانى فى مجلس أبى طاهر السِّلفى لدخوله إياها و إقامته بها أزيد من خمسة أعوام لقراءة الخلافيات ، ويكنى أبا زكريا ، وسمع بالمشرق أبا بكر بن ما شاده السكرى وأبا الرشيد بن خالد البيع وأبا الطاهر السلفى وغيرهم ، وقصد المغرب بعد أداء الفريضة فلقى ببجاية أبا محمد

---

(١) فى ب « وجدى لما تدعى إليه » بتاء المضارعة ، وهو تحريف ، إذ لو كان الفعل بالتاء لقال « وجدى لما تدعين إليه » ولا يستقيم الوزن عليه ، لا جرم جعلناه بنون المضارعة التى للمتكلم المعظم نفسه .

عبد الحق الإشبيلى ، وأجازه وحَضَّه على الوعظ والتذكير ، فامتثل ذلك ، ودخل الأندلس ، وتجوّل ببلادها ، واستوطن غَرْنَاطه منها ، وكان فقيها على مذهب الشافعى ، عارفا بالأصول والتصوف ، زاهدا ، ورعا ، كثير المعروف والصدقة ، يعظ الناس ، ويسمع الحديث ، ولم يكن بالضابط فيما قاله الحافظ ابن الأبار ، قال : وله كتاب « الروضة الأنيقة » من تأليفه ، حدث عنه جماعة من الجلة ، منهم أبو جعفر بن حميرة الضبى ، وابنا حَوْط الله أبو محمد وأبو سليمان ، وأبو القاسم الملاحى ، وأبو العباس بن الجيار ، وأبو الربيع بن سالم ، وقال : أنشدنى عند توديعى إياه بغَرْنَاطة قال : سمعت بعض المذكورين ينشد :

يا زائرا زار ومازارا كأنه مُقْتَبِسٌ نارا[1]

مر بباب الدار مستعجلا ما ضره لو دخل الدارا

نفسى فداء لك من زائر ما زار حتى قيل قد سارا[2]

وسمع منه أبو جعفر بن الدلال كتاب « المعالم » للخَطّابى فى شرح سنن أبى داود بقراءة جميعه عليه .

ومولده فى شوال سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وتوفى بغَرْناطة بعد أن سكنها يوم الإثنين سادس شوّال سنة ثمان وستمائة ، قال ابن الأبار : وفى هذا اليوم بعينه كانت وفاة شيخنا أبى عبد الله بن نوح ببَلَنْسِية ، رحمهما الله تعالى ! .

إسماعيل بن عبد الرحمن القرشى

ومن الوافدين من المشرق إلى الأندلس إسماعيل بن عبد الرحمن بن على ، القرشى .

من ذرية عبد بن زَمْعَة أخى سَوْدَة أم المؤمنين ، رضى الله تعالى عنها ! .

رحل من مصر إلى الأندلس فى زمن السلطان الحاكم المستنصر بالله أعوام

(١) الأصل فى مادة « ق ب س » القبس ــ بفتح القاف والباء جميعاً ــ الذى هو القطعة من النار ، واقتبس النار : أخذ منها جذوة ، وقوله « كأنه مقتبس ناراً » كناية عن السرعة هنا

(٢) هذا البيت من قولهم فى مثل « ماسلم حتى ودع »

الستين وثلثمائة حين ملك بنو عُبَيْد مصر وأظهروا فيها معتقدهم الخبيث ، فحلّ يومئذ من الحكم المستنصر محل الرحب والسعة ، ولما ثارت الدولة العامرية أوى إلى إشبيلية ، وأوطنها دارا ، واتخذها قرَارا ، وبها لقيه أبو عمر بن عبد البر علّامة الأندلس فدرس عليه ، واقتبس مما لديه ، وقد ذكره فى تاريخ شيوخه ، ولم يزل عقبه بها إلى أن نجم منهم أبو الحسين سالم بن محمد بن سالم ، وهو من رجال « الذخيرة » وله نثر ، كما تفتح الزَّهْر ، وتدفق البحر ، ونظم كما اتسق الدر ، وسَفَرت عن محاسنها الأنجم الغُرّ ، فمن نظمه قوله :

خليليّ ، هل ليلى ونجد كعهدنا ... فيا حبذا ليلى ويا حبذا نجد
عسى الدَّهْرُ أن يقضى لنا بالتفاتة ... فيارُبَّ عهـدٍ قد يجدِّده بُعْدُ

وله أثناء رسالة قوس :

قوسُ العلا وُضِعَتْ فى كف باريها ... وأسهم الخطب عادت نَحْوَ راميها
وإنما الشمس لاحت فى مطالعها ... بلى وأجْرَى جيادَ الخيل مُجْرِيها

ونشأ هذا النجم الثاقب ، والصَّيِّب الساكب ، وقد أخذ من العلوم فى غير مافن ، وحقق فيه كل ما ظن ، وذكره فى « المسهب » و « سمط الجمان » وفضله أشهر رحمه الله تعالى !.

أبو على إسماعيل بن القاسم، القالى

ومنهم أبو على القالى ، صاحب الأمالى والنوادر .

وفد على الأندلس أيام الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن ، فأمر ابنُه الحكم وكان يتصرف عن أمر أبيه كالوزير عاملَهم ابنَ رماحس أن يجىء مع أبى على إلى قرطبة ، ويتلقاه فى وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرمةً لأبى على ، ففعل ، وسار معه نحو قرطبة فى موكب نبيل ، فكانوا يتذاكرون الأدب فى طريقهم ، ويتناشدون الأشعار ، إلى أن تحاوروا يوما وهم سائرون ، أدبَ عبد الملك بن مروان ومساءلَتَه جلساءه عن أفضل المناديل وإنشاده بيت عَبدَة بن الطبيب :

ثُمَّتَ قُمْنا إلى جُرْدٍ مسوّمة ... أعْرافُهُن لأيدينا مناديلُ

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا على ، فأنشد الكلمة فى البيت « أعرافها لأيدينا مناديل » فأنكرها ابن رفاعة الألبيرى ، وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفى خلقه حرَج وزَعارة ، فاستعاد أبا على البيت متثبتا مرتين فى كلتيهما أنشده « أعرافها » فلوى ابنُ رفاعة عِنانه منصرفا وقال : مع هذا يُوفَد على أمير المؤمنين ويتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ؟ ! والله لا تبعته خُطْوة ، وانصرف عن الجماعة ، ونَدَبه أميره ابن رماحس أن لا يفعل ، فلم يُجْد فيه حيلة ، وكتب إلى الحكم يعرفه ويصف له ما جرى لابن رفاعة ويشكوه ، فأجابه على ظهر كتابه : الحمد لله الذى جعل فى بادية من بوادينا من يخطىء وافد أهل العراق إلينا ، وابن رفاعة أولى بالرضا عنه من السخط ، فَدَعْه لشأنه ، واقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته ، فسوف يُعْليه الاختبار إن شاء الله تعالى أو يحطه .

وبعض المؤرخين يزعم أن وفادة أبى على القالى إنما كانت فى خلافة الحكم المستنصر بالأندلس ، لا فى خلافة أبيه الناصر ، والصواب أن وفادته فى أيام الناصر ، لما ذكره غير واحد من حَصَره وعِيِّه عن الخطبة يوم احتفال الناصر لرسول الإفرنج كما ألمعنا به فى غير هذا الموضع (١) .

وفى القالى يقول شاعر الأندلس الرمادى :

مَنْ حَاكم بينى وبين عذولى ... الشجو شجوى والعَويل عويلى (٢)

فى أى جارحة أصون مُعَذِّبى ... سلمت من التعذيب والتنكيل

إن قلت فى بَصَرى فثم مدامعى ... أو قلت فى قلبى فثم غَليلِى (٣)

---

(١) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٣٤١ وما بعدها)

(٢) الشجو - بفتح فسكون - الحزن ، والعويل : البكاء .

(٣) الغليل - بفتح الغين المعجمة - حرقة الباطن من عطش أو حزن أو نحوهما

لـكن جعلت له المسامع موضعا وحجبتها عن عذل كل عذول

ولما سمع المتنبي البيت الثاني قال : يصونه فى استه .

وكان الرمادى لما سمع قول المتنبي :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مُخَاطَبَــتى إياكَ لم تَرَنِي

قال : أظنه ضَرْطَة ، والجزاء من جنس العمل .

وباسم أمير المؤمنين الحـكم المستنصر بالله طرز الشيخ أبو على القالى كتاب « الأمالى » .

وكان الحـكم كريما ، مَعْنيا بالعلم ، وهو الذى وَجَّه إلى الحافظ أبى الفرج الأصبهانى ألفَ دينار على أن يوجهَ له نسخة من كتاب الأغانى ، وألف أبو محمد الفهرى كتابا فى نسب أبى على البغدادى ورواياته ودخوله الأندلس ، وحكى ابن الطيلسان عن ابن جابر أنه قرأ هذين البيتين فى لوح رخام كان سقط من القبة المبنية على قبر أبى على البغدادى عند تهدمها ، وهما :

صِلُوا لحد قبرى بالطريق وودعوا فليس لمن وارى الترابُ حبيبُ[(1)]

ولا تَدْفنونى بالعَــرَاء فربما بكى أن رأى قَبْرَ الغريب غريبُ

واسم أبى على إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان ، وجده سليمان مولى عبد الملك بن مروان ، وكان أبو على أحفظ أهل زمانه باللغة والشعر ونحو البصريين ، وأخذ الأدب عن أبى بكر بن دُرَيد الأزدى وأبى بكر بن الأنبارى وابن دُرُسْتُوَيْه وغيرهم ، وأخـذ عنه أبو بكر الزبيدى الأندلسى صاحب مختصر العين ، ولأبى على التصانيف الحسان كالأمالى والبارع ، وطاف البلاد ، وسافر إلى بغداد سـنة ٣٠٣ ، وأقام بالموصل لسماع الحديث من

---

(١) صلوا : فعل أمر مسند لواو الجماعة ، ماضيه « وصل » يريد اجعلوا قبرى متصلا بالطريق ليراه المارة .

أبي يعلى الموصلى ، ودخل بغداد سنة ٣٠٣ . وأقام بها إلى سنة ٣٢٨ ، وكتب بها الحديث ، ثم خرج من بغداد قاصدا الأندلس ، وسمع من البغوى وغيره .

قال ابن خَلِّكان : ودخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلثمائة انتهى .

وهو مما يعين أنه قدم فى زمن الناصر ، لافى زمن ابنه الحكم كما تقدّم ، وقد صرح بذلك الصفدى فى الوافى فقال : ولما دخل المغرب قَصَد صاحب الأندلس الناصرلدين الله عبد الرحمن ، فأ كرمه ، وصنف له ولولده الحكم تصانيف و بث علومه هناك ، انتهى .

وقال ابن خلكان إنه استوطن قرطُبَة إلى أن توفى بها فى شهر ر بيع الآخر وقيل : جمادى الأولى سنة ٣٥٦ ، ليلة السبت لست خلون من الشهر المذكور ، ودفن ظاهر قرطبة ، ومولده بمَنَازِجِرْدَ[1] من ديار بكر سنة ٢٨٨ ، وقيل : سنة ٢٨٠

و إنما قيل له «القالى» لأنه سافر إلى بغداد مع أهل قَالِيقَلاَ ، وهى من أعمال ديار بكر .

وهو من محاسن الدنيا ، رحمه الله تعالى !

وعيذون : بفتح العين ، وسكون الياء المثناة التحتية ، وضم الذال المعجمة

وقال ابن خلكان فى ترجمة ابن القوطية : إن أبا على القالى لما دخل الأندلس اجتمع به ، وكان يبالغ فى تعظيمه ، قال له الحكم بن عبد الرحمن الناصر : مَنْ أنبلُ مَنْ رأيته ببلدنا هذا فى اللغة؟ فقال : محمد بن القوطية ، وكان ابن القوطية مع هذه الفضائل من العُبَّاد النساك ، وكان جيد الشعر صحيح الألفاظ حسن المطالع والمقاطع

ابن القوطية من تلاميذ القالى

---

(١) فى الأصل « ومولده بمنازك ـ إلخ » وصوبناه من وفيات الأعيان لابن خلكان (٢٠٥/١ بتحقيقنا) وقال ياقوت « منازجرد ، وأهله يقولون : مناز كرد بلد مشهور بين خلاط و بلاد الروم يعد فى أرمينية ، وأهله أرمن وروم ، وإليه ينسب الوزير أبو نصر المنازى ، وكان فاضلا أديباً جيد الشعر وكان وزيرا لبعض آل مروان ملوك ديار بكر ، ومات فى سنة ٤٣٧ » اهـ . وابن خلكان ينص على أن «منازجرد» غير مناز كرد » القلعة التى من أعمال خلاط ، فانظره فى آخر الترجمة رقم ٥٨ فى (١٢٦/١ بتحقيقنا) .

إلا أنه تركه ورفضه ، وقال الأديب أبو بكر بن هذيل : إنه توجه يوماً إلى ضَيْعَة له بسَفْح جبل قُرْطُبة ، وهى من بقاع الأرض الطيبة المُونِقة ، فصادف أبا بكر بن القوطية المذكور صادرا عنها ، وكانت له أيضا هناك ضيعة ، قال : فلما رآنى عرج علىَّ ، واستبشر بلقائى ، فقلت مداعباً له :

من أين أقبلت يا مَنْ لا شبيه له ومَنْ هو الشمس والدنيا له فَلَكُ

قال : فتبسم وأجاب بسرعة :

من منزل تُعْجِبُ النساكَ خلوتُهُ وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا[1]

فما تمالكت أن قبلت يده ، إذ كان شيخى ، ودعوت له ، انتهى .

وهو صاحب كتاب « الأفعال » التى فتح فيه هذا الباب ، فتلاه ابن القَطَّاع وله كتاب « المقصور والممدود » جمع فيه مالا يحد ولا يعد ، وأعجز مَنْ بعده به ، وفاق من تقدّمه ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ! .

أبو بكر الزبيدى من تلاميذ القالى

وممن أخذ عن أبى على القالى بالأندلس أبو بكر محمد الزبيدى صاحب كتاب « مختصر العين » وغيره ، وكان الزبيدى كثيرا ماينشد :

الفقر فى أوطاننا غُرْبَة والمال فى الغربة أوطان

والأرض شىء كلهاواحد والناس إخوان وجيران

وترجمة الزبيدى واسعة ، وكان مؤدب المؤيد هشام ، ووصفه بأنه كان فى صباه فى غاية الحذق والذكاء ، رحمه الله تعالى ! .

مصنفات أبى على القالى

وكان القالى قد بحث على ابن دُرُسْتُوَيه كتاب سيبويه ، ودقق النظر ، وانتصر للبصريين ، وأملى شيئا من حفظه ككتاب النوادر ، والأمالى ، والمقصور والممدود ، والإبل ، والخيل ، والبارع فى اللغة نحو خمسة آلاف ورقة ، ولم يصنف مثله فى الإحاطة والجمع ، ولم يتم ، ورتب كتاب المقصور والممدود على التفعيل

---

(١) الفتاك : جمع فاتك ، وأراد به اللاهى المحب للبطالة واللهو ، بدليل مقابلته بالنساك

ومخارج الحروف من الحلق مستقصى فى بابه لا يشذ منه شىء ، وكتاب « فعلت وأفعلت » وكتاب « مقاتل الفرسان » و « تفسير السبع الطوال »

وكان الزبيدى إماما فى الأدب ، ولكنه عرف فضل القالى ، فمال إليه ، واختص به ، واستفاد منه ، وأقرّ له .

تكريم المستنصر لأبى على القالى

وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الأمر و بعدها ينشط أبا على ، و يعينه على على التأليف بواسع العطاء ، ويشرح صدره بالإفراط فى الإكرام ، وكانوا يسمونه «البغدادى» لوصوله إليها من بغداد ، ويقال : إن الناصر هو الذى استدعاه من بغداد لولائه فيهم ، وفيه يقول الرمادى متخلصا فى لاميته السابق بعضها :

روض تعاهده السحاب كأنه ... متعاهد من عهد إسماعيل
قسهُ إلى الأعراب تعلم أنه ... أولى من الأعراب بالتفضيل
حازت قبائلُهم لغاتٍ فرّقت ... فيهم وحاز لغاتِ كلِّ قبيل [1]
فالشرق خالٍ بعده وكأنما ... نزل الخراب بربعه المأهول
فكأنه شمس بدت فى غربنا ... وتغيبت عن شرقهم بأفول [2]
يا سيدى هذا ثنائى لم أقل ... زورا ولا عرّضت بالتنويل
من كان يأمل نائلا فأنا امرؤ ... لم أرجُ غير القرب فى تأميلى

وقد تقدمت أبيات القالى التى أجاب بها منذر بن سعيد فى الباب قبل هذا ، فلتراجع ثمة ، والله تعالى أعلم .

أبو العلاء صاعد بن الحسين البغدادى

ومن الوافدين إلى الأندلس من المشرق أبو العلاء صاعد بن الحسين [3] بن عيسى البغدادى ، اللغوى .

وأصله من الموصل ، قال ابن بسام : ولما دخل صاعد قرطبة أيام المنصور بن

---

(١) يريد أن كل أعرابى يعرف لغة قبيلته دون غيرها ، أما هو فقد جمع معرفة لغات كل القبائل ، وليت أن العلماء حين عرفوا ذلك ميزوا لغة كل قبيلة عن لغة غيرها من القبائل ، إذاً لأفاد البحث العلمى من ذلك الشىء الكثير (٢) الأفول : الغروب ، ضد الطلوع (٣) لصاعد ترجمة فى الذخيرة (٢/١/٤) وسماه «أبا العلاء صاعد بن الحسن»

أبى عامر عزم المنصور على أن يقفى به آثار أبى على البغدادى الوافد على بنى أمية ، فما وجد عنده ما يرتضيه ، وأعرض عنه أهلُ العلم ، وقدحوا فى علمه وعقله ودينه ، ولم يأخذوا عنه شيئا لقلة الثقة به ، وكان ألف كتابا سماه كتاب « الفصوص » فدَحَضُوه ورفضوه ونبذوه فى النهر ، ومن شعره قوله :

ومهفهف أبهى من القمر قهر الفؤاد بفاتن النَّظَرِ
خالسته تُفَّاحَ وجنته فأخذتها منه على غَرَرِ
فأخافنى قوم فقلت لهم : لا قطع فى ثمرٍ ولا كَثَرِ (١)

والكَثَر : الجُمَّارُ ، وهذا اقتباس من الحديث

وقال الحميدى : سمعت أبا محمد بن حزم الحافظ يقول : سمعت أبا العلاء صاعدا ينشد بين يدى المظفر عبد الملك بن أبى عامر من قصيدة يهنيه فيها بعيد الفطر سنة ٣٩٦ :

حسبت المنعمين على البرايا فألفيت اسمه صَدْرَ الحساب
وما قدّمته إلا كأنى أقدم تالياً أم الكتاب

وذكر الحميدى أن عبد الله بن ما كان الشاعر تناول نرجسة فركبها فى وردة ثم قال لصاعد ولأبى عامر بن شُهَيد : صفاها ، فأُفحما ، ولم يتجه لهما القول ، فبينما هم على ذلك إذ دخل الزهيرى صاحب أبى العلاء وتلميذه ، وكان شاعراً أديبا أميًّا لا يقرأ ، فلما استقر به المجلس أخبر بما هم فيه ، فجعل يضحك و يقول :

ما للأديبين قَدَ أُعيتهما مليحة من ملح الجَنَّهْ
نرجسة فى وردة ركبت كمقلة تطرف فى وَجْنَهْ

انتهى

ومن غريب ما جرى لصاعد أن المنصور جلس يوماً وعنده أعيان مملكته ودولته

(١) ورد فى حديث « لاقطع فى ثمر ولا كثر » والكثر - بفتح الكاف والثاء المثلثة جميعاً - هو جمار النخل ، والجمار : شحم النخل الذى يكون فى وسط النخلة ، ومعنى الحديث أنه لا حد على من أخذهما ، وقد اقتبس الشاعر هذا الحديث ، وتضمن ذلك تشبيه المتغزل فيه بالجمار فى نصاعة البياض .

من أهل العلم كالزبيدى والعاصمى وابن العريف وغيرهم ، فقال لهم المنصور : هذا الرجل الوافد علينا يزعم أنه متقدم فى هذه العلوم ، وأحب أن يمتحن ، فوجه إليه فلما مثل بين يديه والمجلسُ قد احتفل خجل فرفع المنصور محله وأقبل عليه ، وسأله عن أبى سعيد السيرافى ، فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه ، فبادره العاصمى بالسؤال عن مسألة من الكتاب ، فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحو ليس جل بضاعته ، فقال له الزبيدى : فما تحسن أيها الشيخ ؟ فقال : حفظ الغريب ، قال : فما وزن أولق[1] ، فضحك صاعد ، وقال : أمثلى يسأل عن هذا ؟ إنما يسأل عنه صِبْيَانُ المكتب ، قال الزبيدى : قد سألناك ، ولا نشك أنك تجهله ، فتغير لونه ، وقال : أفعل وزنه ، فقال الزبيدى : صاحبكم مُمَخْرِق[2] ، فقال له صاعد : إخال الشيخ صناعته الأبنية ، فقال له : أجل ، فقال صاعد : وبضاعتى أنا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار ، وفك المعمى ، وعلم الموسيقى ، فقال : فناظره ابن العريف ، فظهر عليه صاعد ، وجعل لا يجرى فى المجلس كلمة إلا أنشد عليها شعرا شاهدا ، وأتى بحكاية تجانسها ، فأعجب المنصور ، ثم أراه كتاب النوادر لأبى على القالى ، فقال : إن أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل لا أورد فيه خبرا مما أورده أبو على ، فأذن له المنصور فى ذلك ، وجلس بجامع مدينة الزاهرة على كتابه المترجم بالفصوص ، فلما أكمله تتبعه أدباء الوقت ، فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم ، وسألوا المنصور فى تجليد كراريس بياض تزال جدتها ، حتى توهم القدم ، وترجم عليه كتاب « النكت » تأليف أبى الغوث الصنعانى ، فترامى إليه صاعد حين رآه ، وجعل يقبله ، وقال : إى والله ، قرأته بالبلد الفلانى على الشيخ أبى فلان ، فأخذه المنصور من يده خوفاً أن

---

(١) الأولق - بفتح الهمزة وسكون الواو - شبه الجنون ، ووزنه فوعل ، وأصوله « أ ل ق » .

(٢) مخرق فلان - بوزن دحرج - أى موه وكذب ، والأرجح أن هذه الكلمة بهذا المعنى مولدة ، وليست أصيلة فى العربية .

يفتحه ، وقال له : إن كنت قد قرأته كما تزعم ، فعلام يحتوى ؟ فقال: وأبيك لقد بَعُدَ عهدى به ، ولا أحفظ الآن منه شيئا، ولـكنه يحتوى على لغة منثورة لا يشوبها[١] شعر ولا خبر ، فقال له المنصور : أبْعَدَ الله مثلك ! فما رأيت أ كذب منك ، وأمر بإخراجه ، وأن يقذف كتاب « الفصوص » فى النهر ، فقال فيه بعض الشعراء :

قد غاص فى النهر كتاب الفُصُوصْ وهكذا كل ثقيل يغـوص

فأجابه صاعد :

عاد إلى مَعْـــــدِنه ، إنما توجد فى قعر البحار الفصوص

قال ابن بسام : وماأظن أحدا يجترىء على مثل هذا ، و إنما صاعد اشترط أن لا يأتى إلا بالغريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه بما كان يَتَنَفَّق به[٢] من الـكذب[٣] .

وحكى ابن خلـكان أن المنصور أثابه على كتاب « الفصوص » بخمسة آلاف دينار !

ومن أعجب ما جرى له أنه كان بين يدى المنصور ، فأحضرت إليه وردة فى غير وقتها لم يستتم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد مرتجلا :

أتتـــك أبا عامر وَرْدَةٌ يذكرك المسـكُ أنفاسَهَا

كعـذراء أبصرها مُبْصِر فغطت بأكمامها راسَهَا

فسرّ بذلك المنصور ، وكان ابن العريف حاضراً ، فحسده ، وجرى إلى مُنَاقضته ، وقال لابن أبى عامر : هذان البيتان لغيره ، وقد أنشدنيهما بعضُ البغداديين لنفسه بمصر ، وهما عندى على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : أرِنيه ، فخرج ابنُ العريف ، وركب وحرك دابته حتى أتى مجلسَ ابنِ بدر ، وكان أحسن أهل زمانه بديهة ، فوصف له ما جرى ، فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتى صاعد :

(١) لا يشوبها : لا يخالطها

(٢) يتنفق به : يروج به ما عنده ، من النفاق وهو الرواج

(٣) وقال ابن بسام أيضاً بعد أن حكى قصة الوردة والبركة « والحسد موروث ، وقديم لا حديث ، وليس فى الحيوان ، أخبث فى ذاته من الإنسان » اهـ

غدوتُ إلى قَصْرِ عَبَّاسة وقد جَدَّل النومُ حراسَهَا[١]
فألفيتُهَا وهى فى خدرها وقد صَرَعَ السكر آناسها[٢]
فقالت : أسارٍ على هَجْعة فقلت : بلى ، فرمت كاسَهَا
ومدت يديها إلى وردة يحاكى لك الطيبُ أنفاسَهَا
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها راسها
وقالت : خف الله لا تفضحَنّ فى ابنة عمك عباسها
فوليت عنها على غفلة وما خنت ناسى ولا ناسها[٣]

فطار ابن العريف بها ، وعَلَّقها على ظهر كتاب بخط مصرى ومداد أشقر ، ودخل بها على المنصور ، فلما رآها اشتد غيظه على صاعد ، وقال للحاضرين : غداً أمتحنه ، فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد ، ولم يبق فى موضع لى عليه سلطان ، فلما أصبح وَجَّه إليه فأحضر ، وأحضر جميع الندماء ، فدخل بهم إلى مجلس محفل قد أعَدَّ فيه طبقا عظيما فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير ، ووضع على السقائف لُعَب من ياسمين فى شكل الجوارى ، وتحت السقائف بركة ماء ، قد ألقى [فيها] اللآلئ مثل الحصباء ، وفى البركة حية تسبح ، فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور : إن هذا يوم إما أن تسعد فيه معنا ، وإما أن تشقى بالضد عندنا ، لأنه قد زعم قومٌ أن كل ما تأتى به دعوى ، وقد وقفت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدى ملك قبلى شكله ، فصفه بجميع ما فيه ، وعَبَّر بعضٌ عن هذه القصة بقوله : أمر فعبى ء له طبق فيه أزهار ورياحين وياسمين وبركة ماء حصباؤها اللؤلؤ ، وكان فى البركة حية تسبح ، وأحضرها صاعد ، فلما شاهد ذلك قال له المنصور : إن هؤلاء يذكرون أن كل ما تأتى به دعوى لا صحة لها ، وهذا

(١) جدل النوم حراسها : ألقاهم على الجدالة ، وهى الأرض ، يريد أنه صرعهم ، ووقع فى الذخيرة « عشوت إلى قصر عباسة »

(٢) آناس — كما ضبطناه — جمع أنس — بفتح الألف والنون جميعاً — ورسم فى الذخيرة « أناس » بضم الهمزة وتشديد النون — على أنه جمع آنس

(٣) فى الذخيرة « فوليت عنها على عفة » وهى أوفق بعجز البيت

طبق ماظننت أنه عمل لملك مثله ، فإن وصفته بجميع مافيه علمت صحة ما تذكره، فقال صاعد بديهةً :

أبا عامر هل غير جَدْوَاك واكف وهل غير مَنْ عاداك فى الأرض خائف
يسوق إليك الدهر كل غريبة وأعجبُ ما يلقاه عندك واصف(١)
وشائع نَورٍ صاغها هامِرُ الحَيَا على حافتيها عبْقَرٌ ورفارف(٢)
ولما تناهى الحسن فيها تقابلت عليها بأنواع الملاهى الوصائف
كمثل الظباء المستكنة كُنّسًا تظللها بالياسمين السقائف
وأعجبُ منها أنهن نواظر إلى بركة ضُمَّتْ إليها الطرائف(٣)
حصاها اللآلى سابح فى عبابها من الرُّقْشِ مسمومُ الثعابين زاحفُ(٤)
ترى ما تراه العين فى جَنَبَاتها من الوحش حتى بينهن السلاحف

فاستغربت له يومئذ تلك البديهة فى مثل ذلك الموضع ، وكتبها المنصور بخطه ، وكان إلى ناحيته من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النوّار تجذف بمجاذيف من ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور : أحسنت ، إلا أنك أغفلت ذكر المركب والجارية ، فقال للوقت :

وأعجب منها غادة فى سفينة مُكَلَّلة تصبو إليها المهاتف(٥)
إذا راعها موجٌ من الماء تَتَّقى بسُكَّانها ما أنذرته العواصفُ
متى كانت الحسناء رُبَّانَ مركب تصرف فى يمنى يديه المجاذف
ولم ترعينى فى البلاد حديقة تُنَقِّلُهَا فى الراحتين الوصائف(٦)

---

(١) فى الذخيرة « يسوق إليك الدهر كل عجيبة »
(٢) فى الذخيرة « عليها فمنها عبقر ورفارف »
(٣) فى الذخيرة « ضمت إليها الظرائف »
(٤) فى الذخيرة « من الرقش مسموم اللعابين راجف »
(٥) فى ا « المهافف » وفي الذخيرة « المهايف »
(٦) فى الذخيرة « تنقلها فى الراحتين المناصف »

ولا غرو أن شاقت معاليك روضة وشَتْهَا أزاهيرُ الربا والزخارف[١]

فأنت امرؤ لو رُمْتَ نقل مُتَالع ورَضْوَى ذَرَتْهَا من سَطَاك نواسف[٢]

إذا قلتُ قولا أو بدهتُ بديهةً فكلِّنى له إنى لمجدك واصف

فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب ، ورتب له فى كل شهر ثلاثين ديناراً ، وألحقه بالندماء .

بعض نوادر عن صاعد

قال : وكان شديد البديهة فى ادعاء الباطل ، قال له المنصور يوماً : ما الخنبشار؟ فقال : حشيشة يُعْقَد بها اللبن ببادية الأعراب ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

لقد عُقِدَت محبتها بقلبى كما عَقَدَ الحليبَ الخنبشارُ

وقال له يوماً ، وقد قدّم إليه طبق فيه تمر : ما التمركل فى كلام العرب ؟ فقال « يقال تَمَرْكَلَ الرجلُ تَمَرْكُلا » إذا التف فى كسائه ، وكان مع ذلك عالما .

قال : وكان لابن أبى عامر فتى يسمى فاتنا أوحد لا نظير له فى علم كلام العرب فناظر صاعدا هذا فقطعه وظهر عليه و بكته ، فأعجب المنصور منه ، فتوفى فاتن هذا سنة ٤٠٢ ، و بيعت فى تركته كتب مضبوطة جليلة مصححة ، وكان منقاداً لما نزل به من المُثْلَة فلم يتخذ النساء كغيره ، وكان فى ذلك الزمان بقرطبة جملة من الفتيان المخانيث ممن أخذ بأوفر نصيب من الأدب .

قال : ورأيت تأليفاً لرجل منهم يعرف بحبيب ترجمه بكتاب « الاستظهار والمغالبة ، على من أنكر فضائل الصقالبة » وذكر فيه جملة من أشعارهم وأخبارهم ونوادرهم .

وقال ابن بسام وغيره : ومن عجائب ما جرى لصاعد أنه أهدى أُيَّلاً[٣] إلى المنصور ، وكتب على يد موصله :

يا حِرْزَ كل مُخَوَّف وأمان كل مُشَرَّد ومعز كل مذلل

ياسلك كل فضيلة ونظام كل جزيلة وثراء كل معيل

(١) فى ب « ولا غرو أن ساقت » (٢) فى الذخيرة « العواصف »

(٣) الإيل ـ بكسر الهمزة وضمها والياء مشددة مفتوحة ـ الوعل الذكر ، وهو التيس الجبلى .

ومنها :

ما إن رأت عيني وعلمُكَ شاهد جَدْوَى علائك فى مُعِمٍّ مُخْوِلِ[١]

ومنها :

وأبى مؤانس غربتى وتحفظى من صفر أيامى ومن مستعملى
عبد جذبتَ بضَبْعه ورفعت من مقداره أهدى إليك بإيَّلِ
سميتُه غَرْسِيَّةً وبعثته فى حبله ليصح فيه تفاؤلى
فلئن قبلت فتلك أنفسُ مِنَّةٍ أهدى بها ذو منحة وتطول
منحتك غادية السرور بعزة وحللت أوْجًا بالسحاب المخضلِ

فقضى فى سابق علم الله سبحانه وتعالى أن ملك الروم غَرْسِيَة[٢] أسر فى ذلك اليوم بعينه الذى بعث فيه بالإيَّلِ ، وسماه باسمه على التفاؤل ، انتهى .

وكان غرسية أمنع من النجم ، وسبب أخذه أنه خرج يتصيد ، فلقيته خيل للمنصور من غير قصد ، فأسرته وجاءته به ، فكان هذا الاتفاق مما عظم به العجب .

ولنورد من أخبار صاعد فنقول : حكى أن المنصور قال بسبب هذه القضية : إنه لم يتفق لصاعد هذا الفأل الغريب إلا لحسن نيته وسريرته ، وصفاء باطنه ، فرفع قدره من ذلك اليوم فوق ما كان ، ورجحه على أعدائه ، وحق له ذلك .

وفى الزهرة الثامنة والعشرين من كتاب « الأزهار المنثورة ، فى الأخبار المأثورة » حكى أن صاعداً قال : جمعت خِرَقَ الأكياس والصرر التى قبضت فيها صلات المنصور محمد بن أبى عامر ، فقطعت لكافور الأسود غلامى منها قميصاً كالمرقعة ، وبكرت به معى إلى قصر المنصور ، فاحتلت فى تنشيطه حتى طابت

---

(١) الجدوى ـ بفتح الجيم ـ ومثله الجدى ـ بزنة الفتى ـ العطاء ، والمعم : الكريم العمومة ، والمخول : الكريم الخؤولة ، يريد أنه كريم من جهتى نسبه .

(٢) هو غرسية بن شانجه ، وبذلك ورد فى الذخيرة (٢٣/١/٤)

نفسه فقلت : يا مولانا لعبدك حاجة ، فقال : اذكرها ، قلت : وصول غلامى كافور إلى هنا ، فقال : وعلى هذه الحال ؟ فقلت : لا أقنع بسواه إلا بحضوره بين يديك ، فقال : أدخلوه ، فمَثَلَ قائماً بين يديه فى مرقعته وهو كالنخلة إشرافاً ، فقال : قد حضر ، و إنه لباذل الهيئة ، فمالك أضعته ؟ فقلت : يامولانا هنالك الفائدة ، أُعلم يامولاى أنك وهبت لى اليوم ملء جلد كافور مالا ، فتهلَّل[1] وقال : لله درك من شاكر مستنبط لغوامض معانى الشكر ! وأمر لى بمال واسع وكسوة ، وكسا كافوراً أحسن كسوة ، انتهى .

ولما دخل صاعد دانية ، وحضر مجلس الموفق مجاهد[2] العامرى أمير البلد كان فى المجلس أديب يقال له بشار ، فقال للموفق : دعنى أعبث بصاعد ، فقال له : لا تتعرض إليه ، فإنه سريع الجواب ، فأبى إلا مُسَاءلته ، وكان بشار المذكور أعمى ، فقال لصاعد : يا أبا العلاء ما الجرنفل فى كلام العرب ؟ فعرف صاعد أنه وضع هذه الكلمة ، وليس لها أصل فى اللغة ، فقال بعد أن أطرق ساعة : الجُرْنُفْلُ فى اللغة الذى يفعل بنساء العُمْيان ولا يتجاوزهن إلى غيرهن ، وهو فى ذلك كله يصرح ولا يكنى ، فخجل بشار وانكسر ، وضحك مَنْ كان حاضراً ، فقال له الموفق : قلت لك لا تفعل فلم تقبل ، انتهى .

والجرنفل ــ بضم الجيم والراء[3] ، وسكون النون ، وضم الفاء ، وبعدها لام .

ولصاعد أخبار ونوادر كثيرة غير ما تقدم ، وله مع المنصور بن أبى عامر رحمه الله تعالى من ذلك كثير ، و بعضه ذكرناه فى هذا الكتاب .

ومن حكاياته أنه خرج معه يوماً إلى رياض الزاهرة ، فمدّ المنصور يده إلى شىء من الريحان المعروف بالترنجان ، فعبث به ورماه إلى صاعد ، وأشار إليه أن

---

(١) تهلل : أشرق وجهه واستبشر .

(٢) فى ابن خلكان (٢/١٨١ بتحقيقنا) « مجاهد بن عبد الله »

(٣) كذا ، وضبطه فى ابن خلكان بالعبارة « بفتح الجيم والراء وسكون النون إلخ »

أن يقول فيه ، فارتجل :

* لم أدر قبل ترنجان عبثت به *

الأبيات الآتية(١)

شيء من أخبار المنصور بن أبي عامر

وهذا المنصور بن أبي عامر قد تقدّمت جملة من أخباره ، ومن أعجب ماوقع له ما رأيته بخزانة فاس فى كتاب ألفه صاحبه فى الأزهار والأنوار ، حكى فيه فى ترجمة النيلوفر أن المنصور لما قدم عليه رسول ملك الروم الذى هو أعظم ملوكهم فى ذلك الزمان ليطلع على أحوال المسلمين وقوّتهم ، فأمر المنصور أن يُغْرَس فى بركة عظيمة ذات أميال نيلُوفر(٢) ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً على قدر ما تسع النيلوفرة ، ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذى فى البركة ، وأرسل إلى الرومى فحضر عنده قبل الفجر فى مجلسه السامى بالزاهرة بحيث يُشْرف على موضع البركة ، فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناطق الذهب والفضة ، و بيد خمسمائةٍ أطباقُ ذهبٍ ، و بيد خمسمائة أطباق فضة ، فتعجب الرسول من حسن صورهم وجميل شارَتهم ، فلم يدر ما المراد ، فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة ، و بادروا لأخذ الذهب والفضة من النيلوفر ، وكانوا يجعلون الذهب فى أطباق الفضة والفضةَ فى أطباق الذهبِ ، حتى التقطوا جميع ما فيها ، وجاؤا به فوضعوه بين يدى المنصور ، حتى صار كوما بين يديه ، فتعجب النصرانى من ذلك ، وأعظمه ، وطلب المهادنة من المسلمين ، وذهب مسرعا إلى مُرْسِله ، وقال له : لا تُعَادِ هؤلاء القوم ، فإنى رأيت الأرض تخدمهم بكنوزها ، انتهى .

وهذه القضية من الغرائب ، و إنها لحيلة عجيبة فى إظهار عز الإسلام وأهله .

---

(١) انظر الأبيات فى ص ٩٤ الآتية ، وفى الذخيرة (٤/١/١٢)

(٢) النيلوفر — بكسر النون ، وبعضهم يفتحها — ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة له أصل كالجذر وساق أملس يطول بحسب عمق الماء ، فإذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر ، وهو أعجمى .

وكان المنصور[1] بن أبى عامر آية الله سبحانه فى السعد ونصرة الإسلام ، قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان : إنه لما انتهت خلافة بنى مروان بالأندلس إلى الحكم تاسع الأئمة ، وكان مع فضله قد استهواه حبُّ الولد ، حتى خالف الحزم فى توريثه الملك بعده فى سن الصبا دون مشيخة الإخوة وفتيان العشيرة ، ومَنْ كان ينهض بالأمر ويستقل بالملك ، قال ابن بسام : وكان يقال « لا يزال ملك بنى أمية بالأندلس فى إقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء ، فإذا انتقل إلى الإخوة وتوارثوه فيما بينهم أدبر وانصرم[2] » ولعل الحكم لَحَظَ ذلك ، فلما مات الحكم أخفى جؤذر وفائق فتيَاه ذلك ، وعزما على صرف البيعة إلى أخيه المغيرة ، وكان فائق قد قال له : إن هذا لا يتم لنا إلا بقتل جعفر المصحفى ، فقال له جؤذر : ونستفتح أمرنا بسَفْك دم شيخ مولانا ، فقال له : هو والله ما أقول لك ، ثم بَعَثَا إلى المصحفى ونَعَيا إليه الحكم ، وعرّفاه رأيهما فى المغيرة ، فقال لهما المصحفى : وهل أنا إلا تبع لكما ، وأنتما صاحبا القصر ، ومدبرا الأمر ، فشرعا فى تدبير ما عزما عليه ، وخرج المصحفى وجمع أجناده وقوّاده ونعى إليهم الحكم ، وعَرّفهم مقصود جؤذر وفائق فى المغيرة ، وقال : إن بقينا على ابن مولانا كانت الدولة[3] لنا ، وإن بدلنا استبدلنا ، فقالوا : الرأى رأيك ، فبادر المصحفى بإنفاذ محمد بن أبى عامر مع طائفة من الجند إلى دار المغيرة لقتله ، فوافاه ولا خبر عنده ، فنعى إليه الحكم أخاه ، فجزع ، وعرفه جلوسَ ابنه هشام فى الخلافة ، فقال : أنا سامع مطيع ، فكتب إلى المصحفى بحاله ، وما هو عليه من الاستجابة ، فأجابه المصحفى بالقبض عليه ، وإلا وَجّه غيره ليقتله ، فقتله خنقا ، فلما قتل المغيرة واستوثق الأمر لهشام ابن الحكم افتتح المصحفى أمره بالتواضع والسياسة واطراح الكبر ومساواة الوزراء

(١) تجد كلام ابن حيان بأكمل مما هنا فى الذخيرة (٤/١/٣٩ وما بعدها) ويظهر من مقارنة النصين أن المؤلف تصرف فى العبارة بشىء من الحذف .

(٢) أدبر : رجع ، وانصرم : تفرق ، وهو يريد معنى انتهاء ملكهم .

(٣) الدولة : الريح والغلبة والنصرة

فى الفرش ، وكان ذلك من أوّل مااستحسن منه ، وتوفر على الاستئثار بالأعمال والاحتجان للأموال ، وعارضه محمد بن أبى عامر فتى ماجد أخذ معه بطرفى نقيض بالبخل جوداً و بالاستبداد أثرة ، وتملكَ قلوبَ الرجال إلى أن تحركت همته للمشاركة فى التدبير بحق الوزارة ، وقوى على أمره بنظره فى الوكالة ، وخدمته للسيدة صُبْح أم هشام ، وكانت حاله عند جميع الخدم أفضل الأحوال بتصدِّيه لمواقع الإرادة ، ومبالغته فى تأدية لطيف الخدمة ، فأخرجت له أم هشام الخليفة إلى الحاجب جعفر المصحفى بأن لاينفرد عنه برأى ، وكان غير متخيل منه سكونا إلى ثقته ، فامتثل الأمر وأطلعه على سره ، وبالغ فى بره ، وبالغ محمد بن أبى عامر فى مخادعته والنصح له ، فوصل المصحفى يده بيده ، واستراح إلى كفايته ، وابن أبى عامر يمكر به ، ويضرب عليه ، ويغرى به الحرة ، ويناقضه فى أكثر مايعامل به الناس ، ويقضى حوائجهم ، ولم يزل على ما هذه سبيله إلى أن انحل أمرُ المصحفى ، وهَوَى نجمه ، وتفرّد محمد بن أبى عامر بالأمر ، ومنع أصحاب الحكم ، وأجلاهم ، وأهلكهم ، وشردهم ، وشتتهم ، وصادرهم ، وأقام من صنائعهم مَنِ استغنى به عنهم ، وصادر الصقالبة ، وأهلكهم ، وأبادهم فى أسرع مدّة .

قال ابن حيان : وجاشت[١] النصرانية بموت الحكم ، وخرجوا على أهل الثغور فوصلوا إلى باب قرطبة[٢] ، ولم يجدوا عند جعفر المصحفى غناء ولا نصرة ، وكان مما أتى عليه أن أمَرَ أهل قلعة رباح بقطع سد نهرهم ، لما تخيله من أن فى ذلك النجاة من العدوّ ، ولم تقع حيلته لأكثر منه ، مع وفور الجيوش وجموم الأموال ، وكان ذلك من سَقَطَات جعفر ، فأنف محمد بن أبى عامر من هذه الدَّنِيّة ، وأشار على جعفر بتبديد الجيش بالجهاد ، وخوّفه سوء العاقبة فى تركه ، وأجمع الوزراء على

---

(١) جاشت : تحركت وثارت

(٢) فى الذخيرة « فجاء صراخهم إلى باب قرطبة » وحذف ما حذفه المؤلف غير المعنى بعض الشىء .

ذلك ، إلا من شَذّ منهم ، واختار ابن أبى عامر الرجال ، وتجهز للغَزَاة ، واستصحب مائة ألف دينار ، ونفذ بالجيش ، ودخل على الثغر الجَوْفى ، ونازل حصن الحافة ، ودخل الرَّبَض ، وغنم وقَفَلَ فوصل الحضرة بالسبى بعد اثنين وخمسين يوما ، فعظم السرور به ، وخاصت قلوب الأجناد له ، واستهلكوا فى طاعته لما رأوه من كرمه .

ومن أخبار كرمه ما حكاه محمد بن أفلح غلام الحكم قال : دُفِعْتُ إلى مالا أطيقه من نفقة فى عُرْس ابنة لى ، ولم يبق معى سوى لجام مُحَلًّى ، ولما ضاقت بى الأسباب قصدته بدار الضَّرْبِ حين كان صاحبها ، والدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة ، فأعلمته ما جئت له ، فابتهج بما سمعه منى ، وأعطانى من تلك الدراهم وزن اللجام بحديده وسُيوره ، فملأ حجرى ، وكنت غير مصدق بما جرى لعظمه ، وعملت العرس ، وفَضَلت لى فضلة كثيرة ، وأحبه قلبى حتى لو حملنى على خلع طاعة مولاى الحكم لفعلت ، وكان ذلك فى أيام الحكم قبل أن يقتعد ابن أبى عامر الذِّرْوَةَ .

وقال غير واحد : إنه صنع يومئذ قصرا من فضة لصُبْح أم هشام ، وحمله على رؤس الرجال ، فجلب حبها بذلك ، وقامت بأمره عند سيدها الحكم ، وحدث الحكم خواصه بذلك ، وقال : إن هذا الفتى قد جاب عقول حرمنا بما يتحفهم به ، قالوا : وكان الحكم لشدة نظره فى علم الحدثان يتخيل فى ابن أبى عامر أنه المذكور فى الحدثان ، و يقول لأصحابه : أما تنظرون إلى صُفْرة كفيه ، و يقول فى بعض الأحيان : لو كانت به شَجَّة[1] لقلت إنه هو بلاشك ، فقضى الله أن تلك الشَّجَّة[1] حصلت للمنصور يوم ضربه غالب بعد موت الحكم بمدّة .

---

(١) شجه يشجه ــ مثل رده يرده ــ شجة : وهى الجرح والكسر ، والأصل فيها أنها جراحة الرأس خاصة ، وقد تستعار لغيره من الأعضاء .

قال ابن حيان : وكان بين المصحفى وغالب صاحب مدينة سالم وشيخ الموالى وفارس الأندلس عداوة عظيمة ، ومباينة شديدة ، ومقاطعة مستحكمة ، وأعجز المصحفى أمره ، وضعف عن مُباراته ، وشكا ذلك إلى الوزراء ، فأشاروا عليه بملاطفته واستصلاحه ، وشعر بذلك ابن أبى عامر ، فأقبل على خدمته ، وتجرد لإتمام إرادته ، ولم يزل على ذلك حتى خرج الأمر بأن ينهض غالب إلى تقدمة جيش الثغر ، وخرج ابن أبى عامر إلى غزوته الثانية ، واجتمع به ، وتعاقدا على الإيقاع بالمصحفى ، وقَفَلَ ابن عامر ظافراً غانماً ، وبَعُدَ صيته ، فخرج أمر الخليفة هشام بصَرْف المصحفى عن المدينة ، وكانت فى يده يومئذ ، وخلع على ابن أبى عامر ولا خبر عند المصحفى ، وملك ابن أبى عامر الباب بولايته للشرطة ، وأخذ عن المصحفى وجوه الحيلة ، وخَلّاه وليس بيده من الأمر إلا أقله ، وكان ذلك بإعانة غالب له ، وضبط المدينة ضبطاً أنسى به أهل الحضرة مَنْ سلف من الكُفَاة[1] وتولى السياسة ، وانهمك ابن أبى عامر فى صحبة غالب ، ففطن المصحفى لتدبير ابن أبى عامر عليه ، فكاتب غالباً يستصلحه ، وخطب أسماء بنته لابنه عثمان ، فأجابه غالب لذلك ، وكادت المصاهرة تتم له ، وبلغ ابن أبى عامر الأمر ، فقامت قيامته ، وكاتب غالباً يخوّفه الحيلة ، ويهيج حقوده ، وألقى عليه أهل الدار وكاتبوه فصرفوه عن ذلك ، ورجع غالب إلى ابن أبى عامر ، فأنكحه البنت المذكورة ، وتم له العقد فى محرم سنة سبع وستين وثلثمائة ، فأدخل السلطان تلك الابنة إلى قصره ، وجهزها إلى محمد بن أبى عامر من قبله ، فظهر أمره وعز جانبه[2] ، وكثر رجاله ، وصار جعفر المصحفى بالنسبة إليه كلاشىء ، واستقدم السلطان غالبا ، وقلده الحجابة شركة مع جعفر المصحفى ، ودخل ابن أبى عامر على

---

(١) الكفاة : جمع كاف ، وهو الذى يقوم بالأمر فى كفاية لا يحوج إلى من يعينه

(٢) عز جانبه : صار عزيزاً قويا لا يطمع فيه طامع .

ابنته ليلة النيروز ، وكانت أعظم ليلة عرس فى الأندلس ، وأيقن المصحفى بالنكبة وكَفَّ عن اعتراض ابن أبى عامر فى شىء من التدبير ، وابنُ أبى عامر يسايره ولا يظاهره ، وانفضَّ عنه الناس ، وأقبلوا على ابن أبى عامر إلى أن صار المصحفى يغدو إلى قصر قرطبة و يروح وهو وحده ، وليس بيده من الحجابة سوى اسمها ، وعوقب المصحفى بإعانته على ولاية هشام ، وقتل المغيرة ، ثم سخط السلطان على المصحفى وأولاده وأهله وأسبابه وأصحابه ، وطولبوا بالأموال ، وأُخِذُوا برفع الحساب لما تصرفوا فيه ، وتوصل ابن أبى عامر بذلك إلى اجتثاث أصولهم وفروعهم ، وكان هشام ابن أخى المصحفى قد توصل إلى أن سرق من رؤس النصارى التى كانت تحمل بين يدى ابن أبى عامر فى الغزاة الثالثة ليُقْدِمَ بها على الحضرة ، وغاظه ذلك منه ، فبادره بالقتل فى المطبق قبل عمه جعفر المصحفى ، فما استقصى(١) ابن أبى عامر مال جعفر حتى باع داره بالرصافة ، وكانت من أعظم قصور قرطبة ، واستمرت النكبة عليه سنتين مرة يحتبس ومرة يترك ومرة يُقَرُّ بالحضرة ومرة ينفر عنها ، ولا براح له من المطالبة بالمال ، ولم يزل على هذا الحكم حتى استصفى ، ولم يبق فيه محتمل ، واعتقل فى المُطْبِقِ بالزهراء إلى أن هلك ، وأخرج إلى أهله ميتاً ، وذكر أنه سَمَّه فى ماء شربه ، قال محمد بن إسماعيل : سرت مع محمد بن مسلمة إلى الزهراء لنسلِّم جسد جعفر بن عثمان إلى أهله بأمر المنصور ، وسرنا إلى منزله فكان مغطى بخَلَق كساء(٢) لبعض البوّابين ألقاه على سريره ، وغُسِلَ على فردة باب اختلع من ناحية الدار ، وأخرج وما حضر أحد جنازته سوى إمام مسجدِه المستدعى للصلاة عليه ومن حضر من ولده ، فعجبت من الزمان ، انتهى .

وما أحسن عبارة المطمح عن هذه القضية إذ قال : قال محمد بن إسماعيل

(١) فى ب « فلما استقصى . . . حتى باع »

(٢) الخلق ـ بفتح الخاء واللام جميعاً ـ البالى ، وإضافة « خلق » إلى « كساء » من إضافة الصفة إلى الموصوف .

كاتب المنصور : سرت بأمره لتسليم جسد جعفر إلى أهله وولدهِ ، والحضور على إنزاله فى مَلْحَده ، فنظرته ولا أثر فيه ، وليس عليه شئ يُوَاريه ، غير كساء خلقٍ لبعض البوّابين ، فدعا له محمد بن مسلمة بغاسل فغسله والله على فَرْدَة باب اقتطع من جانب الدار ، وأنا أعتبر من تصرف الأقدار ، وخرجنا بنعشه إلى قبره ومامعنا سوى إمام مسجده المستدعى للصلاة عليه ، وما تجاسر أحدٌ منا للنظر إليه ، و إن لى فى شأنه لخبراً ماسَمع بمثله طالبُ وعظ ، ولا وقع فى سمع ولا تصوّر فى لحظ ، وقفت له فى طريقه من قَصْره ، أيام نهيه وأمره ، أروم [أن] أناوله قِصّة(١) ، كانت به مختصة ، فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكثافة موكبه ، وكثرة مَنْ حَفَّ به ، وأَخَذَ الناسُ السِّكك عليه وأفواهَ الطرق داعين ، ومارين بين يديه وساعين ، حتى ناولت قصتى(١) بعض كتابه الذين نَصَبَهم جناحى موكبه لأخذ القِصَص ، فانصرفتُ وفى نفسى مافيها من الشَّرَقِ بحاله والغُصَص ، فلم تطل المدّة حتى غضب عليه المنصور واعتقله ، ونقله معه فى الغزوات واحتمله ، واتفق أن نزلتُ بجليقية إلى جانب خبائه فى ليلة نَهَى فيها المنصورُ عن وقود النيران ليخفى على العدوّ أثره ، ولا ينكشف إليه خبره ، فرأيت والله عثمان ولده يسقيه دقيقاً قد خلطه بماء يقيم به أَوَدَه ، و يمسك بسببه رَمَقه ، بضعف حال وعدم زاد ، وهو يقول :

تعاطيت صرف الحادثات فلم أزل ... أراها تُوَفِّى عند موعدها الحرا
فلله أيام مضت بسبيلها ... فإنىَ لا أنسى لها أبداً ذكرا
تجافَتْ بها عنا الحوادث برهة ... وأبدت لنا منها الطّلاقة والبِشْرا
ليالىَ مايدرى الزمان مكانها ... ولا نظرت منها حوادثه شَزْرا(٢) ،

---

(١) القصة : الورقة يشرح فيها ظلامة أو نحوها (العريضة)

(٢) تقول « نظر فلان شزرا » إذا نظر بمؤخر عينه كالكاره الغاضب

وما هذه الأيام إلا سحائب   على كل أرض تُمْطر الخير والشرا

ابن أبى عامر وغالب الناصرى

وأما غالب الناصرى فإنه حضر مع ابن أبى عامر فى بعض الغزوات ، وصعدا إلى بعض القلاع ، لينظرا فى أمرها ، فجرت مُحَاورة بين ابن أبى عامر وغالب ، فسبَّه غالب وقال له : يا كلب ، أنت الذى أفسدت الدولة ، وخربت القلاع ، وتحكمت فى الدولة ، وسَلَّ سيفه فضربه ، وكان بعض الناس حبس يده ، فلم تتم الضربة وشَجَّه ، فألقى ابن أبى عامر نفسه من رأس القلعة خوفاً من أن يُجْهز عليه ، فقضى الله تعالى أنه وجد شيئا فى الهواء منعه من الهلاك ، فاحتمله أصحابه وعالجوه حتى برىء ، ولحق غالب بالنصارى ، فجيش بهم [١] ، وقابله ابن أبى عامر بمن معه [٢] من جيوش الإسلام ، فحكمت الأقدار بهلاك غالب ، وتم لابن أبى عامر ماجد له ، وتخلصت دولته من الشوائب .

ابن أبى عامر والمؤيد

قالوا : ولما وقعت وحشة بين ابن أبى عامر والمؤيد ، وكان سببها تضريب الحساد فيما بينهما ، وعلم أنه ماذُهِى إلا من جانب حاشية القصر فرقهم ومزقهم ، ولم يدع فيه منهم إلا من وثق به أو عجز عنه ، ثم ذُكِر له أن الحرم قد انبسطت أيديهنّ فى الأموال المختزنة بالقصر ، وما كانت السيدة صُبْح أخت رائق تفعله من إخراج الأموال عندما حدث من تغيرها على ابن أبى عامر ، وأنها أخرجت فى بعض الأيام مائة كوز مختومة على أعناق الخدم الصقالبة فيها الذهب والفضة ، وموّهت ذلك كله بالمرى والشهد وغيره والأصباغ المتخذة بقصر الخلافة ، وكتبت على رؤوس الكيزان أسماء ذلك ، ومرت على صاحب المدينة ، فما شك أنه ليس فيها إلا ماهو عليها ، وكان مبلغ ما حملت فيها من الذهب ثمانين ألف دينار ، فأحضر ابن أبى عامر جماعة وأعلمهم أن الخليفة مشغول عن حفظ الأموال بانهماكه

---

(١) جيش بهم : يريد أنه استكثربهم ، أو اتخذ منهم جيشاً .

(٢) فى ب « وقابله ابن أبى عامر بمن منعه من جيوش الإسلام »

فى العبادة ، وأن فى إضاعتها آفة على المسلمين ، وأشار بنقلها إلى حيث يؤمن عليها فيه ، فحمل منها خمسة آلاف ألفِ دينار عن قيمة ورق وسبعمائة ألف دينار ، وكانت صُبْح قد دافعت عما بالقصر من الأموال ، ولم تمكن من إخراجها ، فاجتمع ابن أبى عامر بالخليفة هشام ، واعترف له بالفضل والغناء فى حفظ قواعد الدولة ، فخرِسَت ألسنة العدا والحَسَدة ، وعلم المنصور ما فى نفوس الناس لظهور هشام ورؤيتهم له ، إذ كان منهم مَنْ لم يره قط ، فأبرزه للناس وركب الركبة المشهورة ، واجتمع لذلك من الخلق مالا يحصى ، وكانت عليه الطويلة والقضيبُ فى يده زى الخلافة ، والمنصور يسايره ، ثم خرج المنصور لآخر غزواته ، وقد مرض المرضَ الذى مات فيه ، وواصل شَنَّ الغارات ، وقويت عليه العلة ، فاتخذ له سرير خشب ووُطِّئ(١) عليه مايقعد عليه ، وجعلت عليه ستارة ، وكان يُحْمَل على أعناق الرجال والعساكر تحف به ، وكان هجر الأطباء فى تلك العلة لاختلافهم فيها ، وأيقن بالموت ، وكان يقول : إن زمانى يشتمل على عشرين ألف مرتزِق ما أُصبح فيهم فيهم أسوأ حالة منى ، ولعله يعنى مَنْ حضر تلك الغزَاة ، وإلا فعساكر الأندلس ذلك الزمانَ أكثرُ من ذلك العدد ، واشتغل ذهنه بأمر قرطبة وهو فى مدينة سالم ، فلما أيقن بالوفاة أوصى ابنَه عبد الملك وجماعتَه وخلا بولدِه وكان يكرر وصايته ، وكلما أراد أن ينصرف يرده ، وعبدُ الملك يبكى ، وهو ينكر عليه بكاءه ويقول : وهذا من أول العَجْز ، وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر .

وخرج عبد الملك إلى قرطبة ومعه القاضى أبو ذكوان ، فدخلها أول شوّال ، وسكن الإرجاف(٢) بموت والده ، وعرف الخليفة كيف تركه .

---

(١) وطئ عليه : مهد وذلل ، والمراد أنه وضعت له فوقه حشية لينة

(٢) أرجف الناس بموته : خاضوا فى أخباره وأكثروا من ذكره

ووجد المنصور خِفَّة فأحضر جماعة بين يديه ، وهو كالخيال لا يُبِين الكلام ، وأكثر كلامه بالإشارة كالمسلِّم المودع ، وخرجوا من عنده ، فكان آخر العهد به ومات لثلاث بقين من شهر رمضان ، وأوصى أن يدفن حيث يقبض ، فدفن فى قصره بمدينة سالم .

وفاة المنصور

واضطرب العسكر ، وتلوّم ولده أياما ، وفارقه بعض العسكر إلى هشام ، وقفل هو إلى قرطبة فيمن بقى معه ، ولبس فتيان المنصور المُسُوح والأكسية بعد الوشى والحِبَر والخز .

وقام ولده عبد الملك المظفر بالأمر ، وأجراه هشام الخليفة على عادة أبيه ، وخلع عليه ، وكتب له السجل بولاية الحجابة ، وكان الفتيان قد اضطربوا فقوَّم[1] المائل ، وأصلح الفاسد ، وجرت الأمور على السداد ، وانشرحت الصدور بما شرع فيه من عمارة البلاد ، فكان أسعد مولود ولد فى الأندلس .

ولنمسك عنان القلم فى أمر ابن أبى عامر ، فقد قدمنا فى محله جملة من أحواله ، وماذكرناه هنا وإن كان محله ماسبق و بعضه قد تكرر معه فهو لا يخلو من فوائد زوائد ، والله تعالى ولى التوفيق .

رجع إلى أخبار صاعد اللغوى البغدادى :

وحكى أنه دخل على المنصور يوم عيد ، وعليه ثياب جُدُد وخف جديد ، فمشى على حافة البركة لازدحام الحاضرين فى الصف ، فزلق فسقط فى الماء ، فضحك المنصور ، وأمر بإخراجه ، وقد كاد البرد أن يأتى عليه ، فخلع عليه ، وأدنى مجلسه[2] ، وقال له : هل حضرك شىء ؟ فقال :

شيئان كانا فى الزمان عجيبة ضرط ابن وهب ثم وقعة صاعد

---

(١) قوم : عدل وأقام

(٢) أدنى مجلسه : يريد أنه جعله قريباً منه فى المكان ، تكريماً له وتشريفاً

فاستبرد ماأتى به أبو مروان الكاتب الجزيرى ، فقال : هلا قلت :

سرورى بغُرَّتك المشرقة وديمةِ راحتِكَ المُغْدِقَهْ(١)

ثنانىَ نشوانَ حتى غرقت فى لجة البركة المطبقهْ(٢)

لئن ظَلَّ عبدُكَ فيها الغريقَ فجُودُكَ من قبلها أغرقه(٣)

فقال له المنصور : لله درك يا أبامروان ! قسناك بأهل بغداد ففضلتهم ، فبمن نقيسك بعد(٤) ؟ انتهى .

وقال فى الذخيرة فى ترجمة صاعد : وفد على المنصور نجما من المشرق غرّب ، ولساناً عن العرب أعْرَب ، وأراد المنصور أن يقفى به آثار أبى على القالى فألفى سَيْفه كَهَاما ، وسحابه جَهَاما ، من رجل يتكلم بملء فيه ، ولا يوثق بكل مايذره ولا مايأتيه ، انتهى باختصار .

وأصل صاعد من ديار الموصل ، وقال ارتجالا وقد عبث المنصور بترنجان(٥) :

لم أدر قبل تُرُنْجَانٍ عَبِثْتَ به أن الزمرد أغصان وأوراق

من طيبه سرق الأترج نكهتَه ياقوم حتى من الأشجار سُرَّاقُ

كأنما الحاجب المنصور علمه فعل الجميل فطابت منه أخلاق

وقدّمه الحجارى بقوله :

كأن إبريقنا والراحُ فى فمه طيرٌ تناول ياقُوتاً بمنقار

وقبله :

وقهوة من فم الإبريق صافية كدَمْعِ مفجوعة بالإلف مِعْبَارِ(٦)

---

(١) أصل الديمة المطر الدائم الذى لا ينقطع ، والراحة هنا اليد .

(٢) فى الذخيرة « ثنانى نشوان حتى هويت »

(٣) فى الذخيرة « فجودك من قبل ذا أغرقه » (٤) فى الذخيرة « فبمن تقاس بعد »

(٥) انظر ص ٨٣ و ٨٤ والذخيرة (١٢/١/٤) وفيها فى أولها « أن الزمرد قضبان وأوراق » (٦) فى ب « كالدمع مفجوعة بالإلف مغيار » محرفا ، وأثبتنا ما فى الذخيرة (١٥/١/٤) والمعبار : الكثيرة العبرة وهى الدمعة

وقال فى بدائع البدائه : دخل صاعد اللغوى على بعض أصحابه فى مجلس شراب ، فملأ الساقى قدحاً من إبريق ، فبقيت على فم الإبريق نقطة من الراح قد تكونت ولم تقطر ، فاقترح عليه الحاضرون وصف ذلك فقال :

* وقهوة من فم الإبريق ساكبة * البيتين

ثم قال بعدهما : و إنما هدم صاعد قول الشريف أبى البركات على بن الحسين اللغوى :

كأن ريح الروض لما أتت فَتَّتْ علينا مسك عطار
كأنما إبريقنا طائر يحمل ياقوتا بمنقار انتهى

ومن نظم صاعد :

قلت له والرقيب يُعْجِله مودعا للفراق : أين أنا
فَمَدَّ كفًّا إلى ترائبه وقال : سِرْ وادعاً فأنت هنا

وقال صاعد ، لما أمر المنصور بن أبى عامر بمعارضة قصيدة لأبى نواس :

إنى لأسْتَحْيِي عُلا كَ مِنَ ارتجال القول فيه
من ليس يُدْرِكُ بالرويَّة كيف يدرك بالبَدِيهِ

وقال حاشد البغدادى فى صاعد اللغوى ، وكان صاعد ينشدهما ويبكى ويقول : ما هجيت بشىء أشد على منهما :

اِقبلْ هُدِيتَ أبا العلاء نصيحتى بقبولها و بواجب الشكر
لا تهجُونّ أسَنَّ منك فربما تهجو أباك وأنت لاتدرى

نعوذ بالله من لسان الشعراء ، وأنواع البلاء ، بجاه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن نظم صاعد قوله :

بعثت إليك من خيرىّ روضٍ مخرمة كأوراق العقيق
توكل بالغروب عن التصابى وتصطاد الخليع من الطريق

وروى صاعد عن القاضى أبى سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى ، وأبى على الحسن

ابن أحمد الفارسي ، وأبي بكر بن مالك القطيعي ، وأبي سليمان الخطابي ، وغيرهم .

قال الحميدي : خرج من الأندلس في الفتنة ، فمات بها قريبا [من] سنة عشر وأربعمائة .

وقال ابن حزم : توفي بصقلية سنة سبع عشرة وأربعمائة .

وقال ابن بشكوال في حقه : إنه يتهم بالكذب وقلة الصدق فيما يورده ، عفا الله تعالى عنه ! وقدم الأندلس من مصر أيام المؤيد وتحكم المنصور بن أبي عامر في حدود سنة ٣٨٠ ، فأكرمه المنصور ، وزاد في الإحسان إليه ، والإفضال عليه ، وكان عالما باللغة والآداب والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فَكِهَ المجالسة .

وقال بعضهم : دخل صاعد على المنصور وعنده كتاب ورد عليه من عامل له في بعض الجهات اسمه مَيْدُمان بن[1] يزيد يذكر فيه القلب والتربيل[2] ، وهما عندهم اسم الأرض قبل زراعتها ، فقال له : يا أبا العلاء ، قال : لبيك يا مولانا ، فقال : هل رأيت أووصل إليك من الكتب القوالبة والروالبة لميدمان بن يزيد[1] ، قال : إي والله ببغداد في نسخة لأبي بكر بن دريد بخطه ككراع النمل في جوانبها ، فقال له : أما تستحي أبا العلاء من هذا الكذب ؟ هذا كتاب عاملي ببلد كذا واسمه كذا يذكر فيه كذا ، فجعل يحلف له أنه ما كذب ، ولكنه أمْرٌ وافق ، ومات عن سِنٍّ عالية ، رحمه الله تعالى ! .

أبو محمد تاج الدين عبدالله بن عمر ابن حمويه السرخسي

ومن الوافدين على الأندلس من المشرق الشيخ تاج الدين بن حمويه السرخسي .

ولد سنة ٥٧٣ ، وقد ذكر في رحلته عجائب شاهدها بالمغرب ومشايخ لقيهم ،

(١) في ب « برمان بن يزيد » في الموضعين ، وأثبتنا ما ورد في الذخيرة

(٢) في ب هنا « يذكر فيه القلب والتذييل » وأثبتنا ما يوافق ما في الذخيرة وما جاء في قوله « القوالبة والروالبة لميدمان بن يزيد » الآتي بعد سطر

فمنهم الحافظ أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن حَوْط الله الأنصارى ، قال : سمعت عليه سنة سبع وتسعين وخمسمائة الحديثَ وشيئا من تصانيف المغاربة ، وروى لنا عن الحافظ أبى إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن قرقول ، وولى ابن حَوْط الله المذكور قضاء غرناطة ، وأدرك ابن بشكوال وابن حبيش وابن حميد المرسى النحوى وأبا زيد السهيلى صاحب الروض وغيرهم ، ومن الشيوخ الذين لقيهم السرخسى المذكور بالمغرب الفقيه ابن أبى تميم قال : وأنشدنى :

اسمع أخىَّ نصيحتى والنصحُ من مَحْضِ الديانه
لا تقربن إلى الشها دة والوساطة والأمانه
تَسْلَمْ مِنَ أن تُعْزَى لزو رٍ أو فُضُولٍ أو خيانه

وذكر أنه أدرك الشيخ الولى العارف بالله سيدى أبا العباس أحمد بن جعفر الخزرجى السبتى صاحب الحالات والكرامات الظاهرة والطريقة الغريبة والأحوال العجيبة ، قال : أدركته بمراكش سنة أربع وتسعين وخمسمائة وقد ناهز الثمانين ، ومهما حصل عنده مال فرَّقَه فى الحال ، وتركته فى سنة ثمان وتسعين حيا يرزق ، انتهى .

وولى الله السبتى قد ذكرت فى غير هذا الموضع بعض أحواله ، فلتراجع فى الباب الثامن من ترجمة لسان الدين بن الخطيب ، ومحله مقصود لقضاء الحاجات ، وقد زرته مرارا عديدة سنة ١٠١٠ .

وقال لسان الدين فى « نُفَاضة الجراب » : كتبت عن السلطان الغنى بالله محمد بن يوسف بن نصر ونحن بفاس يخاطب الضريح المقصود ، والمنهل المورود ، والمرعى المنْتجَع ، والخِوان الذى يكفى الغَرْثَى (١) ، ويمرّض المرضى ، وَيقُوتُ الزَّمْنَى (٢)

(١) الخوان – بكسر الخاء – بزنة الكتاب – المائدة ، والغرثى : جمع غرثان كعطشان هو الجائع .

(٢) الزمنى : جمع زمن – بفتح فكسر – وهو المبتلى المئوف ، ولعل أصل العبارة « ويقوى الزمنى » .

ويتعداهم إلى أهل الجِدَة زعموا والغنى ، قبر ولى الله سيدى أبى العباس السبتى نفعنا الله به ، وجبر حالنا ، وأعاد علينا النعم ، ودفع عنا النقم .

يا ولى الإله أنت جَوَاد   وقَصَدْنا إلى حماك المنيع
رَاعَنَا الدهرُ بالخطوب فجئنا   نرتجى من عُلاك حسن الصَّنِيعِ
فمدَدْنَا لك الأكفَّ نرجِّى   عَوْدَةَ العز تحت شَمْلٍ جميع
قد جَعَلْنَا وسيلة تُرْبَكَ الزا   كى وزُلْفى إلى العليم السميع
كم غريب أسْرَى إليك فوافى   برضاً عاجل وخير سريع

يا ولى الله الذى جعل جاهه سببا لقضاء الحاجات ، ورفع الأزمات ، وتصريفه باقيا بعد الممات ، وصَدَّقَ نقولَ الحكايات ظهورُ الآيات (١) ، نفعنى الله بنيتى فى بركة تربك ! وأظهر علىَّ أثر توسلى بك إلى الله ربك ! مُزِّقَ شملى ، وفرق بينى و بين أهلى ، وتعدى علىّ ، وصُرفت وجوه المكايد إلىَّ ، حتى أخرجت من وطنى و بلدى ، ومالى وولدى ، ومحل جهادى ، وحَقِّى الذى صار لى طوعا عن آبائى وأجدادى ، عن بيعة لم يَحُلَّ عقدتَهَا الدين ، ولا ثبوتُ جَرْحة تَشِين ، وأنا قد قرعت بابَ الله سبحانه بتأميلك ، فالتمس لى قبوله بقبولك ، ورُدَّنى إلى وطنى على أفضل حال ، وأظهر على كرامَتَكَ التى تُشَدُّ إليها ظهور الرحال ، فقد جعلتُ وسيلتى إليك رسول الحق ، إلى جميع الخلق ، والسلام عليك أيها الولى الكريم ، الذى يأمن به الخائف وينتصف الغريم ، ورحمة الله ، انتهى .

رجع - والسرخسى المذكور قال فى حقه بعض الأئمة : إنه الشيخ الإمام ، شيخ الشيوخ ، تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن على بن محمد بن حمويه ، له رحلة مغربية ، انتهى .

---

(١) الآيات : جمع آية ، وأصلها العلامة ، وأراد بها الكرامة ، وهذه الفقرة كقولهم « صدق الخبر الخبر » أى صدق الابتلاء والتجربة الحديث .

وهو من بيت كبير ، وقال البـدرى فى حقه ما صورته : تاج الدين ، شيخ الشيوخ بدمشق ، أحد الفضلاء المؤرخين المصنفين ، له كتاب فى ثمان مجلدات ذكر فيه أصول الأشياء ، وله «السياسة الملوكية» صنفها للملك الكامل محمد ، وغير ذلك ، وسمع الحـديث ، وحفظ القرآن ، وكان قد بلغ الثمانين ، وقيل : لم يبلغها ، وقد سافر إلى بلاد المغرب سنة ثلاث وتسعين ، واتصل بمراكش ، عند ملـكها المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، فأقام هنالك إلى سنة ستمائة ، وقدم مصر ، وولى مشيخة الشيوخ بعد أخيه صدر الدين ابن حمويه ، انتهى .

وقال غيره : إنه كان فاضلا متواضعاً نزهاً حسن الاعتقاد ، قال أبو المظفر : كان يحضر مجالسى ، وأنشدنى يوماً :

لم ألق مستـكبراً إلا تحوَّل لى عند اللقاء له الـكبر الذى فيه
ولا حَلاَلى من الدنيا ولَذَّتهـا إلا مقابلتى للتيـــه بالتيه[1]

وقال السرخسى المذكور فى رحلته : إنى و إن كنت خراسانى الطينة ، لـكنى شامى المدينة ، و إن كانت العمومة من المشرق ، فإن الخؤلة من المغرب ، فَحَدَث باعثٌ يدعو إلى الحركات والأسفار ، ومشاهدة الغرائب فى النواحى والأقطار ، وذلك فى حال رَيْعَان الشباب الذى تُعَضِّده عزائم النفوس بنَشَاطها ، والجوارح بخفة حركاتها وانبساطها ، فخرجت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة إلى زيارة البيت المقدس وتجديد العهد ببركاته ، واغتنام الأجر فى حلول بقاعه ومَزَاراته ، ثم سرت منه إلى الديار المصرية ، وهى آهلة بكل ما تتجمل به البلاد وتزدهى ، و ينتهى وصف الواصف لشؤنها ولا تنتهى ، ثم دخلت الغرب من الإسكندرية فى البحر ودخلت مدينة مراكش أيام السيد الإمام أمير المؤمنين أبى يوسف يعقوب المنصور

---

(١) التيه ــ بكسر التاء ــ عجب المرء بنفسه وكبرياؤه على غيره ، وهذا البيت يلحظ معنى قولهم « الـكبر على أهل الـكبر صدقة »

حديث للسرخسى عن منصور بنى عبد المؤمن

ابن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، فاتصلت بخدمته ، والذى علمت من حاله أنه كان يجيد حفظ القرآن ، ، ويحفظ متون الأحاديث ويُتقِنها ، ويتكلم فى الفقه كلاماً بليغاً ، وكان فقهاء الوقت يرجعون إليه فى الفتاوى ، وله فتاوى مجموعة حسبما أدَّى إليه اجتهادُه ، وكان الفقهاء ينسبونه إلى مذهب الظاهر ، وقد شرحت أحوال سيرته ، وماجرى فى أيام دولته ، فى كتاب التاريخ المسمى « عطف الذيل » وقد صنف كتابا جمع فيه متون أحاديث صحاح تتعلق بها العبادات سماه « الترغيب » وتهدده ملك الإفرنج الفُنْشُ فى كتابه فمزقه ، وقال لرسوله : (ارجع إليهم فلنأتينَّهُمْ بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلَّةً وهم صاغرون) إن شاء الله تعالى ، ثم قال للكاتب : اكتب على هذه القطعة ، يعنى من كتابه الذى مزقه : الجواب ماترى لا ماتسمع :

فلا كُتُبَ إلا المَشْرَفية والقنَا ولا رُسُلٌ إلا الخميسُ العَرَمْرَمُ

ومن شعره أبيات كتب بها إلى الغرب ، وهى :

يا أيها الراكب المُزجِى مطيته على عُذافرة تَشْقَى بها الأَكَمُ (١)
بلغ سُلَيْمَى على بعد الديار بها بينى وبينكم الرحمن والرحِمُ
ياقومنا لاتَشُبُّوا الحربَ إن خمدت واستمسكوا بعُرَى الإيمان واعتصموا
كم جَرَّبَ الحربَ مَنْ قدكان قبلكم من القرون فبادت دونها الأمم
حاشى الأعاربَ أن ترضى بمنقصة يا ليت شعرىَ هل تَرَاهُمُ علموا
يقودهم أرمنىٌّ لا خَلاَقَ له كأنه بينهم من جهلهم عَلَمُ

يعنى بالأرمنى قرقوش مملوك بنى أيوب الذى كان ذهب إلى بلاد الغرب الأدنى ، وأوقد النار الحربية من طرابلس إلى تونس مع ابن غانية اللَّمْتُونى ، وحديثه مشهور ، وتمام الأبيات :

(١) المزجى : اسم الفاعل من « أزجى مطيته » أى ساقها ، والعذافرة ـ بضم العين وفتح الذال معجمة ـ الناقة الشديدة العظيمة ، والأكم : جمع أكمة ـ بفتحات ـ وقوله « تشق بها الأكم » كناية عن كونها تقطعها غير هيابة لكونها سريعة قوية

الله يعلم أنى ما دعوتكم دعاء ذى قوة يوما فينتقم
ولا لجأت لأمرٍ يستعان به من الأمور وهذا الخلق قد علموا
لكن لأجزى رسول الله عن نسب يُنْمَى إليه وتُرْعَى تلكم الذِّمَمُ
فإن أتيتم فحبلُ الوَصْلِ متصل وإن أبيتم فعند السيف نحتكم

ثم قال السرخسى : و بلغنى أن قوما من الغرباء قصدوه ، ومعهم حيوانات مُعَلَّمة منها أسد وغراب ، أما الأسد فيقصده من دون أهل المجلس ، و يربض[1] بين يديه ، وربما أومأ بالسجود ومد ذراعيه ، وأما الغراب فكان يقول : النصر والتمكين ، لسيدنا أمير المؤمنين ، وفى ذلك يقول بعضُ الشعراء :

أنِسَ الشبل ابتهاجا بالأسد ورأى شِبْهَ أبيه فقصد
أنطق الخالقُ مخلوقاتِه شهدوا والكلُّ بالحق شهد
أنك الخِيرَةُ من صفوته بعد ما طال على الناس الأمد

فأعطاهم وكساهم ، وأحسن حباهم

و بلغنى أن قوما أتوه بفيل من بلاد السودان هدية ، فأمر لهم بصلة ، ولم يقبله منهم ، وقال : نحن لا نريد أن نكون أصحاب الفيل[2] .

وقال لى يوماً : كيف ترى هذه البلاد ؟ وأين هى من بلادك الشامية ؟ فقلت : يا سيدنا ، بلادكم حسنة أنيقة مجملة مكملة ، وفيها عيب واحد ، فقال : ما هو ؟ فقلت : أنها تُنْسى الأوطان ، فتبسم وظهر لى إعجابه بالجواب ، وأمر لى من غد بزيادة رتبة و إحسان .

وحدثنى بعض عمالهم أنه فرق على الجند والأمراء والفقراء فى عيد سنة أربع وتسعين ثلاثة وسبعين ألف شاة من ضأن ومعز

(١) ربض يربض ربوضا ـ مثل جلس يجلس جلوساً ـ برك

(٢) فى الآية الكريمة عن أصحاب الفيل « ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل » وهو يريد ألا يكون ممن يقال فيهم مثل ذلك .

ودَرَج [١] إلى رحمة الله تعالى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وكان قد استخلف ولده محمدا وقرر الأمر له ، انتهى .

قلت : بهذا وأمثاله تعلم فساد مازعمه غير واحد أن يعقوب المنصور هذا تخلى عن الملك ، وفر زاهدا فيه إلى المشرق ، وأنه دفن بالبقاع ، لأن هذه مقالة عامية لا يثبتها علماء المغرب ، وسبب هذه المقالة تولع العامة به ، فكذبوا فى موته ، وقالوا : إنه ترك الملك ، وحكوا ما شاع إلى الآن وذاع مما ليس له أصل ، ويرحم الله تعالى الإمام العلامة القاضى الشريف الغَرْناطى شارح الخزرجية ، إذ قال فى شرح مقصورة حازم عند ذكره وقعة الأرك ما معناه : إن بعض الناس يزعمون أن المنصور ترك الملك وذهب إلى المشرق ، وهذا كلام لا يصح ، ولا أصل له . انتهى . وقال فى «المغرب» : كان أبوه يوسف قد استوزره فى حياته ، وخرج بين يديه ، وتمرس ، وهزم الفرنج الهزيمة الفظيعة ، وتولع بالعلم حتى نفى التقليد وحرق كتب المذاهب ، وقَتَلَ على السكر ، انتهى .

وحكى لسان الدين الوزير ابن الخطيب فى شرح كتابه « رقم الحُلَل ، فى نظم الدوَل » أن المنصور طلب من بعض أعيان دولته رجلين لتأديب ولده يكون أحدهما براً فى عمله [٢] ، والآخر بحراً فى علمه ، فجاءه بشخصين زعم أنهما على وَفْقِ مقترح المنصور ، فلما اختبرهما لم يجدهما كما وصف ، فكتب إلى الآتى بهما (ظهر الفساد فى البر والبحر) انتهى . وناهيك بهذا دلالَةً على قوّة فطنته ومعرفته ، رحمه الله تعالى .

حديث للسرخسى عن أبى الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن

رجع إلى أخبار السرخسى :

وقال فى رحلته لما ذكر السيد أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن أمير المؤمنين

---

(١) درج في الأصل سار ، وأراد بهذه العبارة أنه مات

(٢) يريد أنه ثابت ثبوت البر ، والبر في الأصل : خلاف البحر .

عبد المؤمن بن على ، وكان فى تلك المدة يلى مدينة سجلماسة وأعمالها : اجتمعت به حين قدم إلى مراكش بعد وفاة المنصور يعقوب لمبايعة ولده محمد ، فرأيته شيخاً بهىّ المنظر ، حسن المخبر ، فصيح العبارة باللغتين العربية والبربرية ، ومن كلامه فى جواب رسالة إلى ملك السودان لغانة ينكر عليه تعويق التجار قوله : نحن نتجاور بالإحسان ، وإن تخالفنا فى الأديان ، ونتفق على السيرة المرضية ، ونتألف على الرفق على الرعية ، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك فى حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تعانيه إلاَّ النفوس الشريرة الجاهلة ، وقد بلغنا احتباسُ مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده، وتردد الجلاَّبة إلى البلد مفيد لسكانها ، ومعين على التمكن من استيطانها ، ولو شئنا لاحتبسنا مَنْ فى جهاتنا من أهل تلك الناحية لكنا لا نستصوب فعله ، ولا ينبغى لنا أن ننهى عن خلق ونأتى مثله (١) ، والسلام

ووقّع إلى عامل له كثرت الشكاوى منه : قد كثرت فيك الأقوال ، وإغضائى عنك رجاء أن تتيقظ فتنصلح الحال ، وفى مُبادرتى إلى ظهور الإنكار عليك نسبة إلى شر الاختيار وعدم الاختبار ، فاحذر فإنك على شَفَا جُرُفٍ هارٍ .

ومن شعره المشهور قصيدة يمدح فيها ابن عمه المنصور يعقوب :

هَبَّتْ بنصركُمُ الرياح الأربع ... وجَرَتْ بسعدكم النجومُ الطُّلَّعُ
واستبشَرَ الفلك الأثير تيقنا ... أن الأمور إلى مرادك ترجع
وأمدَّكَ الرحمن بالفتح الذى ... ملأ البسيطة نورهُ المتشعشع
لم لا وأنت بذَلْتَ فى مَرْضاته ... نفساً تُفَدِّيها الخَلاَئق أجمع
ومضيت فى نصر الإله مُصمِّما ... بعزيمة كالسيف بل هى أقطعُ
لله جيشك والصوارم تُنْتضَى ... والخيل تجرى والأسنة تلمع

(١) أخذ هذه الفقرة من معنى ما ينسب إلى أبى الأسود الدؤلى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت ، عظيم

من كل مَنْ تقوى الإله سِلاَحُه ... ما إن له غير التوكل مَفْزَعُ
لا يُسْلِمُونَ إلى النوازل جارهم ... يوماً إذا أضحى الجوار يُضَيَّعُ

ومنها يصف انهزام العدوّ :

إن ظن أن فراره مُنْجٍ له ... فبجهله قد ظن ما لا ينفع
أين المفر ولا فرار لهارب ... والأرض تُنْشَرُ في يديك وتجمع
أخليفةَ الله الرضا هُنِّيتَهُ ... فتح يُمَدُّ بما سواه ويُشْفَعُ
فلقد كسوت الدين عزًّا شامخاً ... ولبست منه أنت ما لا يخلع
هيهات سِرُّ الله أودع فيكم ... والله يعطى من يشاء ويمنع
لكُمُ الهدى لا يَدَّعيه سواكم ... ومَنِ ادعاه يقول ما لا يُسْمَعُ
إن قيل مَنْ خير الخلائق كلها ... فإليك يا يعقوب تومى الأصبع (١)
إن كنت تتلو السابقين فإنما ... أنت المقدَّم والخلائق تُبَّعُ (٢)
خذها أمير المؤمنين مديحة ... من قلب صدق لم يَشِنْهُ تَصَنُّعُ
واسلم أمير المؤمنين لأمة ... أنت الملاذ لها وأنت المفزع
فالمدح منى فى علاك طبيعة ... والمدح من غيرى إليك تَطَبُّعُ
وعليك يا عَلَم الهداة تحية ... يفنى الزمان وعَرفُهَا يَتَضَوَّعُ (٣)

قال لى الفقيه أبو عبد الله محمد القسطلانى : دخلت إلى السيد أبى الربيع بقصر سجلماسة ، وبين يديه أنطاع عليها رؤس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار بين سجلماسة وغانة ، وهو ينكت الأرض بقضيب من الأبنوس ، ويقول :

ولا غرو أن كانت رؤس عداته ... جوابا إذا كان السيوف رسائله

ومات بعد الستمائة ، رحمه الله تعالى ! انتهى

(١) تومى : تشير ، وأصله تومىء ـ بالهمز ـ فقلب الهمزة المتطرفة المكسور ما قبلها ياء .

(٢) تبع : جمع تابع ، وأراد أن الخلائق كلها تالية له فى الفضل وهو سابقهم جميعاً

(٣) العرف ـ بفتح فسكون ـ الريح الطيبة ، ويتضوع : ينتشر ويفوح

وقال لما هجره أمير المؤمنين يعقوب المنصور ، ووافق ذلك أن وَفَدَ على حضرة الخلافة مراكش جمعٌ من العرب والغُزِّ من بلاد المشرق ، ونزلوا بتمرتاسقت ظاهر مراكش ، واستأذنوا فى وقت الدخول ، فكتب إلى المنصور :

يا كعبة الجود التى حَجَّتْ لها عَرَبُ الشآم وغُزُّها والدَّيْلَمُ
طوبى لمن أمسى يطوف بها غدا ويحلّ بالبيت الحرام ويُحْرِمُ
ومن العجائب أن يفوز بنظرة مَنْ بالشآم ومن بمكة يُحْرَمُ

فعفا عنه ، وأحسن إليه ، وأمره بالدخول بهم ، والتقدم عليهم

حديث لابن سعيد صاحب « المغرب » عن أبى الربيع سليمان بنى عبد المؤمن

وقال فى «المغرب» فى حق السيد أبى الربيع المذكور ، ما ملخصه: لم يكن فى بنى عبد المؤمن مثله فى هذا الشأن الذى نحن بصدده ، وكان تقدم على مملكتى سجلماسة وبجاية ، وكان كاتباً شاعراً أديباً ماهراً ، وشعره مدون ، وله ألغاز ، وهو القائل فى جارية اسمها ألوف :

خليلى قولا أين قلبى ومَنْ به وكيف بقاء المرء من بعد قلبه
ولو شئتما اسم الذى قد هويته لصحفتما أمرى لكم بعد قلبه(١)

وله الأبيات المشهورة التى منها :

أقول لركب أدْلَجوا بسُحَيْرة قِفُوا ساعةً حتى أزورَ ركابَهَا
وأملأ عينى من محاسن وجهها وأشكو إليها إن أطالت عتابها
فإن هى جادت بالوصال وأنعمت وإلا فحسبى أن رأيت قِبابَهَا

وقال يخاطب ابن عمه يعقوب المنصور :

فلأملأن الخافقين بذكركم مادمت حَيًّا ناظما ومُرَسِّلاَ
ولأبذلَنْ نصحى لكم جَهْدِى وذا جَهْدُ المُقِلِّ وما عسى أن أفعلا

(١) أمرى لكم هو قوله « قولا » وقلبه أن تصيره « ألوق » ثم تصحفه إلى « ألوف » وهو الاسم الذى يلغز فيه .

ولأُخْلِصَنَّ لك الدعاء ، وما أنا أهل له ، ولعله أن يُقْبلا

وله مختصر كتاب « الأغانى » انتهى

حديث للسرخسى عن أبى الحسن على بن عمر ابن عبدالمؤمن

رجع – وذكر السرخسى أيضا فى رحلتـه السيد أبا الحسن على بن عمر بن أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وقال فى حقه : إنه كان من أهل الأدب والطرب ، وولى بجاية مدة ، ثم عزل عنها لإهماله و إغفاله وانهماكه فى ملاذه ، أنشدنى محمد بن سعيد المهدى كاتبه قال : كتب الأمير أبو الحسن إلى أمير المؤمنين يعقوب يمـدحه ويستزيده ، و يطلب منه مايقضى به ديونه :

وجُوه الأمانى بكم مُسْفِرَهْ وضاحكة لىَ مُسْتَبْشِره

ولى أمل فيـكُمُ صادقٌ قريب عسى الله أن يوسِرَهْ(١)

علىّ ديون وتصحيفها وعندكم الجودُ والمغفـره

يعنى ذنوب

وحدثنى الشيخ أبو الحسن بن فشتال الـكاتب وقد أنشدته :

أوحشتنى ولو اطّلَعْتَ على الذى لك فى ضميرى لم تـكن لى موحشا

فقال : أنشدته هذا البيت فى مجلس السيد أبى الحسن ، فقال لى ولمن حضر : هل تعرفون لهذا البيت ثانياً ؟ فما فينا من عرفه ، فأنشدنا :

أترى رُشِيتَ على اطِّراح مودتى ولقد عهدتك ليس تَنْثِيكَ الرُّشَا

أوحشتنى – البيت ، انتهى

حديث عن أبى الحسن من «المغرب»

وقال فى « المغرب » فى حق السيد المذكور ، ماملخصه : كان هذا السيد أبو الحسن قد ولى مملـكة تلمسان و بجاية ، وله حكايات فى الجود برمكية(٢) ، ونفس عالية زكية ، كتب إليه السيد أبو الربيع يوم جمعة :

---

(١) فى ب « عسى الله أن يسره » ولايتم بها الوزن .

(٢) برمكية : نسبة إلى برمك جد البرامكة وزراء هارون الرشيد

اليوم يوم الجمعـــه   يوم سرور ودعـه
وشملنا مفـــترق   فهل ترى أن نجمعه

فأجابه بقوله :

اليوم يوم الجمعـــة   وربنا قد رفعـــه
والشرب فيـه بدعة   فهل ترى أن ندعه

قال : ولفظة « السيد » فى المَغْرِب بذلك العصر لا تطلق إلا على بنى عبد المؤمن ابن على ، انتهى .

حديث للسرخسي عن أبي محمد عبد الله صاحب فاس

رجع ـ قال السرخسى ، وقد ذكر فى الرحلة المذكورة السيد أبا محمد عبد الله صاحب فاس : وله من أبيات فى الفخر وقد انتحلها غيره :

ألستُ ابنَ من تخشى الليالى انتقامهم   وترجو نَدَاهم غاديات السحائب
يخطون بالخطىِّ فى حَوْمة الوغى   سطور المنـايا فى نحور المقانب (١)
كتاباً بأطراف العـوالى ونِقْسُهُ   دم القلب مشكولا بنضح الترائب
وما كنت أدرى قبلهم أن معشراً   أقاموا كتاباً من نفوس الـكتائب

وأنشدنى المقدم الأمير أبو زيد بن بكيت قال : أنشدنى بعض السادة من بنى عبد المؤمن :

فديت من أصبحت فى أسْرِهِ   وليس لى من حكمه فادى
إن حل يوما وادياً كان لى   جنـــة عدن ذلك الوادى

ثم ذكر رحمه الله تعالى جملة من علماء الأندلس والمغرب لقيهم فى هذه الرحلة .

من نظم السرخسى

ومن نظم السرخسى المذكور قوله رحمه الله تعالى :

يا ساهر المقلة لا عَنْ كَرًى   غفلت عن هَجْعِى وأوصابى (٢)

---

(١) الخطى : الرمح ، منسوب إلى الخط ، والمقانب : جمع مقنب ، بزنة منبر ، وهو الجماعة من الجيش .

(٢) الهجع : الهجوع وهو النوم ، والأوصاب : الأوجاع ، واحدها وصب ، بفتحتين

لو لم يكن وجهك لى قبلة ما أصبح الحاجب محرابى

وكان متفنناً فى العلوم ، وهو عم الأمراء الوزراء الرؤساء فخر الدين و إخوته ، ومن مصنفاته « المسالك والممالك » و « عطف الذيل » فى التاريخ ، وله أمالٍ وتخاريج وقدمه المنصور صاحب المغرب على جماعة ، وتوفى رحمه الله تعالى بدمشق ، ودفن فى مقابر الصوفية عند المنيبع ، وكان عالى الهمة ، شريف النفس ، قليل الطمع ، لا يلتفت إلى أحد رغبة فى دُنْياه ، لا من أهله ولا من غيرهم ، وذكره صاحب « المرآة » وغيره ، وترجمته واسعة ، رحمه الله تعالى !

ظفر البغدادى

ومن الوافدين على الأندلس ظفر البغدادى .

سكن قرطبة ، وكان من رؤساء الوراقين المعروفين بالضبط وحسن الخط كعباس بن عمر الصقلى و يوسف البلوطى وطبقتهما ، واستخدمه الحكم المستنصر بالله فى الوراقة[1] ، لما عُلم من شدة اعتناء الحكم بجمع الكتب واقتنائها ، وقد أشار ابن حيان فى كتاب « المقتبس » إلى ظفر هذا ، رحمه الله تعالى !

محمد بن موسى الكتانى ، الرازى

ومنهم الرازى ، وهو محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط ، الكتانى ، الرازى والد أبى بكر محمد صاحب التاريخ ، غلب عليه اسم بلده ، وكان يفد من المشرق على ملوك بنى مروان تاجرا ، وكان مع ذلك متفنناً فى العلوم ، وهلك مُنْصَرَفه من الوفادة على الأمير المنذر بن محمد بإلبيرة ، فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣ ذكره ابن حيان فى « المقتبس » .

أبو الفضل محمد بن عبد الواحد التميمى ، الدارمى ، الوزير

ومنهم الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث ابن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان ، التميمى ، الدارمى ، البغدادى سمع من أبى طاهر محمد بن عبد الرحمن المخاص وغيره ، وخرج من بغداد

(١) الوراقة : صناعة النسخ ونقل الكتب

رسولا عن أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسى رضى الله تعالى عنه إلى صاحب إفريقية المعز بن باديس ، واجتمع مع أبى العلاء المعرى بالمعرة ، وأنشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب ، فقبل عينيه ، وقال له : لله أنت من ناظم ! وخرج من إفريقية من أجل فتنة العرب ، وخَيَّم عند المأمون بن ذى النون بطُلَيْطلة ، وله فيه أمداح كثيرة ، ومن فرائد شعره قوله :

يا ليل ألاّ انجلَيْتَ عن قاق ... طُلْتَ ولا صبر لى على الأرَق(١)
جَفَتْ لحاظى التغميض فيك فما ... تُطْبق أجفانَهَا على الحدق
كأننى صورة ممثلة ... ناظرُهَا الدَّهْرَ غيرُ منطبق

وقال :

يزرع ورداً ناضراً ناظرى ... فى وَجْنَةٍ كالقمر الطالع
أمنع أن أقطف أزهاره ... فى سنة المتبوع والتابع
فلم منعتم شَفَتِى قطفها ... والشرع أن الزرع للزارع

هكذا نسبها له غير واحد كابن سعيد وابن كتيلة ، و بعضهم ينسبها للقاضى عبد الوهاب .

قلت : وقد أجاب عنها بعض المغاربة بقوله :

سَلَّمْتُ أن الحكم ما قلتم ... وهو الذى نُصَّ عن الشارع
فكيف تبغى شَفَةٌ قَطْفَهُ ... وغيرها المدعو بالزارع

ورده شيخ شُيُوخ شيوخنا الإمام الحافظ أبو عبد الله التَّنَسى ثم التلمسانى بقوله :

فى ذا الذى قد قلتم مبحث ... إذ فيه إيهامٌ على السامع
سلمتم الحكم له مطلقاً ... وغَيْرُ ذا نُصَّ عن الشارع

يعنى أنه يلزم على قول المجيب أن يباح له النظر مطلقاً ، والشرع خلافه .

---

(١) الأرق ـ بفتحتين ـ السهر والقلق

وأجاب بعض الحنفية بقوله :

لأن أهل الحب فى حكمنا عبيدنا فى شرعنا الواسع

والعبدُ لا مِلكَ له عندنا فحقُّه للسَّيِّدِ المـانعِ

وهو جواب حسن لا بأس به

ورأيت جوابا لبعض المغاربة على غير رَوِيِّه ، وهو :

قل لأبى للفضل الوزير الذى باهى به مَغْرِبنَا الشرقُ

غرسْتَ ظلما وأردت الجَنْى وما لِعِرْق ظالم حقُّ

قلت : وهذا مما يُعَيِّن أن الأبيات لأبى الفضل الدارمى المذكور فى الذخيرة ، لا للقاضى عبد الوهاب ، والله تعالى أعلم .

ومن شعر الوزير المذكور قوله :

بين كريمين منزل واسع وَالوُدُّ حالٌ تُقَرِّبُ الشاسع

والبيت إن ضاق عن ثمانية متسع بالوداد للتاسـع

وولد رحمه الله تعالى سنة ثمان وثمـانين وثلاثمائة ، وهو من بيت علم وأدب ، قال الحميدى : أخبرنى بذلك أبو عمر رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث ، وتوفى بطليطلة سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وقال ابن حيان : توفى ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، فى كَنَف المأمون يحيى بن ذى النون ، وذكر أنه كان يُتَّهم بالـكذب ، فالله تعالى أعلم بحقيقة الأمر .

وقال ابن ظافر فى كتابه « بدائع البدائه » مانصه : حضر أبو الفضل الدارمى البغدادى مجلس المعز بن باديس ، و بالمجلس ساقٍ وسيم قد مَسَّكَ عذاره وورَّدَ خديه ، وعجزت الراح أن تفعل فى الندامى فعلَ عينيه ، فأمره المعز بوصفه ، فقال بديها :

ومُعَذَّرٍ نقش الجمالُ بِمِسْكِه خَـدًّا له بدم القلوب مضرجا

لما تيقن أن سيف جفـونه من نَرْجِسٍ جعل العذار بنفسجا

وقوله فى جارية تبخرت بالند :

ومَحْطوطة المتنين مَهْضُومَة الحشى مُنَعَّمَة الأرداف تدمى من اللمس [١]

---

(١) محطوطة المتنين : ممدوتهما ، وفى ب « مخطوطة » محرفا

إذا ما دُخَان الند من حَيْبها عَلَا | على وجهها أبصرت غَيْماً على شمس

وقوله :

ولأغرزن بمهجتى فى حبه | غرزا يطيل مع الخطوب خطابى
ولئن تعزز إن عندى ذلة | تستعطف الأعداء للأحباب

وقوله :

دَعَتْنىَ عيناكَ نحو الصبا | دُعَاءً يكرر فى كل ساعَهْ
ولولا وحَقّكَ عُذْرُ المشيب | لقلت لعينيك سمعاً وطاعه

وقد تمثل بهذين البيتين لسان الدين بن الخطيب فى خطبة تأليفه المسمى « بروضة التعريف ، بالحب الشريف » .

وقال أبو الفضل الدارمى المذكور أيضاً :

سطا الفراق عليهم غَفْلَةً فغدَوْا | من جوره فِرَقاً من شدة الفرَقِ (١)
فسرتُ شرقا وأشواقى مُغَرِّبَة | يا بعد ما نزحت عن طُرْقهم طُرُقى
لولا تداركُ دمعى يوم كاظمة | لأحرق الركبَ ما أبديتُ من حُرَقِ
يا سارقَ القلب جهراً غير مكترث | أمِنْتَ فى الحب أن تُعْدَى على السَّرَقِ (٢)
أُرمق بعين الرضا تُنْعِشْ بعاطفة | قبل المنية ما أبقيتَ من رَمَقِى (٣)
لم يبق منى سوى لفظٍ يبوح بما | ألقى فيا عجباً للفظ كيف بقى
صِلْنِى إذا شئت أو فاهجر علانية | فكل ذلك محمول على الحدق

وقال :

تذكّرَ نجدا والحمى فبكى وجدا | وقال : سقى الله الحمى وسقى نجدا
وخفة أنفاس الخُزَامَى عشية | فهاجت إلى الوجدِ القديم به وجدا
فأظهر سُلْوَاناً وأضمر لوعة | إذا طفئت نيرانها وَقَدَتْ وَقْدَا

---

(١) فرقا ـ بكسر ففتح ـ جمع فرقة ، والفرق ـ بفتح الفاء والراء جميعاً ـ الخوف
(٢) السرق ـ بفتح السين والراء جميعا ـ السرقة
(٣) فى نسخة عند ب « تنعش بعافية »

ولو أنه أعطى الصبابة حكمها لأبدى الذى أخفى وأخفى الذى أبدى

وقال أيضاً :

قلت للملـــقى على الخدين من وَرْدٍ خِمارا (١)
أسبَلَ الصُّدْغُ على خدك من مِسْكٍ عذارا (٢)
أم أعان الليلَ حتَّى قهر الليــلُ النهارا
قال: مَيْدَانٌ جرى الحســـن عليه فاستدارا
ركضت فيـه عيون فأثارته غبـــارا

وقال :

وكاتب أهديت نفسى له فَهْيَ من السوء فدى نفسه
فلست أدرى بعد ما حَلَّ بى بمسكه أتلف أم نقسه (٣)
سَلّطَ خَدَّيه على مهجتى فاستأصَلَتْهَا وَهْيَ من غرسه (٤)

وقال :

وشادنٍ أسرف فى صـده وزاد فى التيه على عبده
الحسنُ قد بث على خده بنفسجا يزهو على ورده
رأيتـه يكتب فى طرسـه خَطًّا يبارى الدر من عقده
فَخِلت ما قــد خطه كفه للحسن قد خُطّ على خده

وقال :

إنى عشقت صـغيرا قد دَبَّ فيـه الجمال
وكاد يغشى حديث الـــفضول منه الدَّلَالُ
لو مر فى طُرُقِ الهجـــر لا اعتراه ضـلال
يريك بدرا منيرا فى الحسن وَهْوَ هلالُ

(١) أصل الخمار – بكسر الخاء ، بزنة الكتاب – ماتغطى به الجارية وجهها
(٢) الصدغ – بالضم – شعر يتدلى على الخد ، ويلوى ، ويشبه بالعقرب
(٣) النقس – بالكسر – المداد الذى يكتب به
(٤) استأصلتها : أراد أتلفها كلها ، والضمير المؤنث يعود إلى المهجة

وقال :

ظـبى إذا حَرَّكَ أصداغه لم يلتفت خَلْقٌ إلى العِطْرِ
غَنَّى بشعرى منشداً ليتنى اللفــــظ الذى أودِعَــهُ شعرى
فـكلما كَرَّرَ إنشاده قبلته فيـــــه ولم يَدْرِ

وقال :

أينفع قولى إننى لا أحبــــه ودمعى بما يُمْليه وجدىَ يكتب
إذا قلت للواشين لست بعاشق يقول لهم فيض المدامع يكذب

وقال :

وهبنىَ قد أنكرْتُ حبك جمـلةً وآليت أنى لا أروم محطها
فمن أين لى فى الحب جَرْحُ شهادةٍ سقامىَ أملاها ودمعىَ خطها

وقال :

أنا أخشى إن دام ذا الهجر أن ينـــشط من حبــــه عِقَالُ وثاقى
فأريح الفؤاد مما اعـــــتراه وأرُدُّ الهـــوى على العشاق

وقال :

كلانا لعمرى ذائبانِ من الهوى فنارُكِ من جمر ونارىَ من هجر
فأنتِ على ماقد تقاسين من أذى فصدركِ فى نار ونارىَ فى صدرى

وقال :

ومن عجب العشق أن القتيل يحنُّ ويصـــــبو إلى القاتِلِ (١)

وقال :

ألم أجعل مُثَـــارَ النقع بحراً على أن الجياد له سَفِين (٢)

---

(١) فى ا « ومن أعجب » ومعنى هذا البيت متصل بقول الآخر :

خليلى — فيما عشتما — هل رأيتما قتيـلا بكى من حب قاتله قبلى

(٢) النقع — بالفتح — الغبار .

وقال :

أصبحت أحلب تيسا لا مدرَّ له ... والتيسُ مَنْ ظَنَّ أن التيس محلوب

وأما الحكيم أبو محمد المصرى وهو القائل :

رعى الله دهرا قد نعمنا بطيبه ... لياليه من شمس الكؤُوسِ أصائلُ

ونرجِسُنَا در على التبر جامدٌ ... وخمرتُنَا تِبْرٌ على الدر سائل

فقد ترجمه فى « الذخيرة » فليراجع ، فإن الذخيرة غريبة فى البلاد المشرقية ، وقد كان عندى بالمغرب من هذا النوع ما أستعين به ، فخلفته هنالك ، والله تعالى يلم الشمل ، وقد ذكر فيها أنه مغربى سافر إلى مصر ، فقيل له « المصرى » لذلك ، فليعلم ، والله تعالى أعلم .

أشهب بن العضد الخراسانى

ومن الوافدين على الأندلس أشهب بن العضد الخراسانى .

قال ابن سعيد : أنشدنا لما وفد على ابن هود فى إشبيلية قصيدةَ ابن النبيه .

* طابَ الصَّبُوح لنا فهاكَ وهات *

وادعاها ، وفيها :

فى روضة غَنًا تخال طُيورَهَا ... وغصونَهَا همزا على ألِفَاتِ(١)

ولم أجد هذا البيت فى قصيدة ابن النبيه ، انتهى .

أبو الحسن الفكيك البغدادى

ومن الوافدين على الأندلس من المشرق أبو الحسن البغدادى الفُكَيْك(٢) .

وهو مذكور فى الذخيرة ، وكان حلو الجواب ، مليح التندر ، يضحك من حضر ، ولا يضحك هو إذا ندر ، وكان قصيرا دميما .

قال: ورأيته يوما وقد لبس ثوبا(٣) أحمر على بياض ، وفى رأسه طرطور أخضر ، عمم عليه عمة لازوردية ، وهو بين يدى المعتمد بن عباد ينشد شعرا قال فيه :

وأنت سليمان فى ملكه ... وبين يديك أنا الهُدْهُدُ

(١) غنا : أصله غناء ، فقصره حين اضطر لإقامة الوزن

(٢) فى الذخيرة « وكان أيضاً فى أصحاب ابن شهيد رجل بغدادى يعرف بالكاتب له نوادر تضحك » وكتب ناشرها أن الفكيك المعروف لم يدرك الوزير ابن شهيد .

(٣) فى ا « لبس طاقا أحمر »

وأنشد له فى المعتمد :

أبا القاسم الملك المعظم قدره سواك من الأملاك ليس يُعَظَّمُ
لقد أصبحَتْ حمص بعدلك جنة وقد أبعدت عن ساكنيها جهنم
ولى فى مُحَيَّاك الربيع وإننى أزخرف أعلام الثناء وأَرْقُمُ(١)
وأنفقت ما أعطيتنى ثقةً بما أؤمل فالدينار عندىَ درهم
وقلبى إلى بغداد يَصْبُو وإننى لنَشْرِ صَباها دائما أتنسَّمُ

وقال :

وروّى على ربع العقيق دموعه عقيقا ففيها تَوْأَمٌ وفريدُ(٢)
شَهِدْتُ وما تغنى شهادة عاشق بأن قتيلَ الغانيات شهيدُ

ومنها :

إذا قابلوه قَبَّلُوا ترب أرضه وهم لعلاه رُكَّعٌ وسجود
وقد هَزَّ منه الله للملك صارما تقام بحدَّيْ شَفرتيه حدود

وقال :

لأية حالٍ حَالَ عن سنة الكرى ولم أُصْغِ يوما فى هواه إلى العذل(٣)

ومنها :

كأن بقاء الطَّلِّ فوق جفونها دموعُ التصابى حِرْنَ فى الأعين النُّجْلِ

ومنها :

تملَّكت رقِّى بالعوارف منعما وأغنيتَنِى بالجود عن كل ذى فضل(٤)
وأنسيتنى أرضَ العراق ودجلة ورَبْعِىَ حتى ما آحنّ إلى أهلى

وقال فى المقتدر بن هود :

---

(١) فى ا صدر هذا البيت « ولى بحياك الربيع عاما وأشهرا »

(٢) توأم : أراد به الذى معه مثله ، والفريد : المنفرد ، وفى ا « وذرّ على ربع العقيق »

(٣) حال : ماض معناه تحول (٤) العوارف : جمع عارفة ، وهى المعروف

لعزك ذَلّتْ ملوك البشر وعفّرت تيجانهم فى العفر
وأصبحْتَ أخْطَرَهم بالقنا وأركبهم لجـواد الخطر
سهرتَ وناموا على المأثُرَات فما لهمُ فى المعـالى أثر
وجَلّيْتَ فى حيث صَلّى الملوكُ فكل بذَيْلِ العلا قد عَثَرْ(١)

ومنها :

وأنتم ملوك إذا شاجروا أظلتهم من قناهم شجر

وقال فيه من قصيدة :

غنى حسامك فى أرجاء قرطبـة صوتا أباد العدى والليـلُ معتكر
حيث الدماء مُدَام والقنا زَهَـرٌ والقوم صَرْعَى بكأس الحتف قدسكروا

وكان مشهورا بالهجاء ، وله فى نقيب بغداد وكانت فى عنقه غُدَّة :

بَلَعَ الأمانة فهى فى حُلْقومه لا تَرْتقى صُعُداً ولا تتَنزَّلُ

وقال فى ناصر الدولة بن حمدان :

ولئن غلطت بأن مَدَحْتُكَ طالبا جَدْوَاكَ مَعْ علمى بأنك باخل
فالدولة الغـراء قد غلطَتْ بأن سَمَّتْكَ ناصرها وأنت الخاذل
إن تم أمرك مع يدٍ لك أصبحت شلاء فالأمثالُ شىء باطـل

ومما ينسب إليه ، وقيل لغيره :

ووعدتنى وَعْدًا حسبتك صادقا فجعلت من طمعى أجىء وأذهب
فإذا جُمِعْتُ أنا وأنت بمجلس قالوا مسيلمة وهـذا أشْعَبُ(٢)

إبراهيم بن سليمان الشامى

ومنهم إبراهيم بن سليمان الشامى .

دخل الأندلس من المشرق فى أخريات أيام الحكم شاديا للشعر ، وهو من

---

(١) فى ب « وجليت فى حيث ضل الملوك » محرفا

(٢) مسيلمة : رجل من بنى حنيفة ادعى النبوة فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وقوتل فى حروب الردة ، وضرب مثلا لأكذب الناس ، وأشعب : رجل يضرب به المثل فى الطمع .

موالى بنى أمية ، ولم ينفق على الحكم ، وتحرك فى أيام ولده الأمير عبد الرحمن فنفق عليه ، ووصله ، ثم فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكان أدرك بالمشرق كبار المحدَثِينَ كأبى نواس وأبى العتاهية .

ومن شعره ما كتب به إلى الأمير عبد الرحمن :

يا من تعالى من أميَّةَ فى الذرى ... قِدْمًا فأصبح عالىَ الأركانِ
إن الغمام غياثه فى وقته ... والغيث من كفيك كلَّ أوانِ
فالغيث قد عم البلاد وأهلها ... وظمئتُ بينهمُ فَبُلَّ لسانى

وله فى الأمير عبد الرحمن بن الحكم :

ومن عَبْدِ شمسٍ بالمغارب عصبة ... فأسعدها الرحمن حيث أحلها
دَحا تحتها مهدا من العز آمنا ... ومد جناحا فوقها فأظلَّها[1]

أبو بكر محمد ابن أحمد بن الأزرق

ومنهم أبو بكر بن الأزرق ، وهو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن حامد ابن موسى بن العباس بن محمد بن يزيد ، وهو الحصنى ، ابن محمد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان .

من أهل مصر ، خرج من مصر سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة ، وصار إلى القيروان ، وامتحن بها مع الشيعة ، وأقام محبوسا بالمهدية ، ثم أطلق ووصل الأندلس سنة تسع وأربعين ، فأحسن إليه المستنصر بالله الحكم ، وكان أديبا حكيما ، سمع من خاله أبى بكر أحمد بن مسعود الزهرى ، وولد سنة تسع عشرة وثلثمائة بمصر ، وتوفى بقرطبة فى ذى القعدة سنة خمس وثمانين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى !

أبو الحسن على ابن نافع (زرياب) المغنى

ومن الوافدين على الأندلس من المشرق رئيس المغنين أبو الحسن على بن نافع، الملقب بزرياب[2] ، مولى أمير المؤمنين المهدى العباسى .

---

(١) دحا الله الأرض : بسطها ، يريد أن الله تعالى مكن لهم فى الأرض وحاطهم برعايته
(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٣٢٢) ثم انظر الجزء الثالث (ص ٢٧)

قال فى « المقتبس » : زرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه ، مع فصاحة لسانه ، وحلاوة شمائله ، شُبِّهَ بطائر أسود غَرِد عندهم ، وكان شاعراً مطبوعا ، وكان ابنه أحمد قد غلب عليه الشعر أيضاً ، وكان من خبره فى الوصول إلى الأندلس أنه كان تلميذا لإسحاق الموصلى ببغداد ، فتلقف من أغانيه استراقاً ، وهُدِى من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت وصورة الطبع إلى ما فاق به إسحاق ، و إسحاق لا يشعر بما فُتح عليه ، إلى أن جرى للرشيد مع إسحاق خبره المشهور فى الاقتراح عليه بمغنٍّ غريب مجيد للصنعة ، لم يشتهر مكانه إليه ، فذكر له تلميذه هذا ، وقال : إنه مولى لكم ، وسمعت له نزعات حسنة ، ونغمات رائقة ، ملتاطَة بالنفس[١] ، إذا أنا وَقَفْتُهُ على ما استغرب منها وهو من اختراعى واستنباط فكرى ، وأحدس[٢] أن يكون له شأن ، فقال الرشيد : هذا طَلِبَتِى ، فأحْضرنيه لعل حاجتى عنده ، فأحضره ، فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب ، وسأله عن معرفته بالغناء ، فقال : نعم أحسن منه مايحسنه الناس ، وأ كثَرُ ماأحسنه لا يحسنونه ، مما لايحسن إلاعندك ولا يُدَّخر إلا لك ، فإن أذنت غنيتك مالم تسمعه أذن قبلك ، فأمر بإحضار عود أستاذه إسحاق ، فلما أدنى إليه وقف عن تناوله ، وقال : لى عود نَحَتُّه بيدى ، وأرهفته بإحكامى ، [و]لاأرتضى غيره، وهو بالباب ، فليأذن لى أميرالمؤمنين فى استدعائه ، فأمر بإدخاله إليه ، فلما تأمله الرشيد وكان شبيهاً بالعود الذى دفعه قال له : مامنعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاى يرغب فى غناء أستاذى غنيته بعوده ، و إن كان يرغب فى غنائى فلابد لى من عودى ، فقال له : ما أراهما إلاواحداً ، فقال : صدقت يامولاى ، ولا يؤدى النظر غير ذلك ، ولكن عودى و إن كان فى قدر

---

(١) ملتاطة بالنفس : لاصقة بها ، يقولون « هذا أمر لايلتاط بصغرى » يريدون لايلتاط بقلبي ، والمقصود أنه أمر غير محبوب

(٢) أحدس : مضارع من الحدس وهو التخمين ، والمراد الظن

جسم عوده ومن جنس خشبه فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثة ورخاوة ، وبمها ومثلثها اتخذتهما من مُصْران شبلِ أسدٍ ، فلها فى الترنم والصفاء والجَهارة والحدة[١] أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها ، فاستبرع الرشيد وصفه وأمره بالغناء ، فجس ، ثم اندفع فغناه :

يا أيها الملك الميمونُ طائره هارون راح إليك الناس وابتكروا

فأتمّ النوبة ، وطار الرشيد طرباً ، وقال لإسحاق : والله لولا أنى أعلم من صدقك لى على كتمانه إياك لما عنده وتصديقه لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك العقوبة لتركك إعلامى بشأنه ، فخذه إليك واعتن بشأنه ، حتى أفرغ له ، فإن لى فيه نظراً ، فسُقِط فى يد إسحاق[٢] ، وهاج به من داء الحسد ما غلب [على] صبره ، فخلا بزرياب وقال : ياعلى ، إن الحسد أقدم الأدواء وأدوؤها ، والدنيا فتّانة ، والشركة فى الصناعة عداوة ، [و] لا حيلة فى حَسْمها ، وقد مكرت بى فيما انطويت عليه من إجادتك وعلوّ طبقتك ، وقصدت منفعتك فإذا أنا قد أتيت نفسى من مَأمنها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتى ، وترتقى أنت فوقى ، وهذا مالا أصاحبك عليه ولو أنك ولدى ، ولولا رعيى لذمة تربيتك لما قدمت شيئا على أن أُذْهِبَ نفسك ، يكون فى ذلك ما كان ، فتخير فى ثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع لك خبرا بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردتَ من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفا إلى ، فخذ الآن حذرك منى فلست والله أبقى عليك ، ولا أدع اغتيالك باذلاً فى ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك ، فخرج زرياب لوقته ، وعلم قدرته على ما قال ، واختار الفرار قدامه ،

(١) فى ا « والجدة »

(٢) سقط فى يده – بالبناء للمجهول – كناية يراد بها معنى ندم وتحير وتحسر على ما كان منه .

فأعانه إسحاق على ذلك سريعاً ، وراشَ جناحه[١] ، فرحل عنه ، ومضى يبغى مغرب الشمس ، واستراح قلب إسحاق منه .

وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمساً فيه ، فأمر إسحاق بحضوره ، فقال : ومَنْ لى به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يُزْهَى به من غنائه ، فما يرى فى الدنيا من يَعْدِله ، وما هو إلا أن أبطأتْ عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدّر التقصير به ، والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضباً ذاهباً على وجهه مستخفياً عنى ، وقد صنع الله تعالى فى ذلك لأمير المؤمنين ، فإنه كان به لَمَم[٢] يغشاه و يفرط خبطه ، فيفزع من رآه ، فسكن الرشيد إلى قول إسحاق ، وقال : على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير .

ومضى زرياب إلى المغرب ، فنُسِىَ بالمشرق خبره ، إذ لم يكن اسمه شهر هنالك شهرتَه بالصقع الذى قطنه ، ونزعت إليه نفسه ، وسَمَت به همته ، فأمَّ أمير[٣] الأندلس الحكم المباين لمواليه ، وخاطبه ، وذكر له نزاعه إليه ، واختياره إياه ، و يعلمه بمكانه من الصناعة التى ينتحلها ، و يسأله الإذن فى الوصول إليه ، فسرَّ الحكم بكتابه وأظهر له من الرغبة فيه والتطلع إليه و إجمال الموعد ما تمناه ، فسار زرياب نحوه بعياله وولده ، وركب بحر الزُّقَاق إلى الجزيرة الخضراء ، فلم يزل بها حتى توالت عليه الأخبار بوفاة الحكم ، فهم بالرجوع إلى العدْوَة ، فكان معه منصور اليهودى المغنى رسول الحكم إليه ، فثَنَاه عن ذلك ورغبه فى قصد القائم مقام[٤] الحكم ، وهو عبد الرحمن ولده ، وكتب إليه بخبر زرياب ، فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه إليه ، والسرور بقدومه عليه ، وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ، و يوصلوه إلى قرطبة ، وأمر خصياً من أكابر خصيانه أن يتلقاه ببغال ذكور

---

(١) راش جناحه : كناية يراد بها قواه وشد ساعده .

(٢) اللمم — بفتح اللام والميم جميعاً — الجنون الخفيف ، أو طرف من الجنون يلم بالإنسان .

(٣) أم : قصد (٤) فى ا « مكان الحكم »

و إناث وآلات حسنة ، فدخل هو وأهله البلد ليلا صيانة للحرم ، وأنزله فى دار من أحسن الدور ، وحمل إليها جميع ما يُحْتاج إليه ، وخَلَعَ عليه ، و بعد ثلاثة أيام استدعاه ، وكتب له فى كل شهر بمائتى دينار راتباً ، وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه ـ وكانوا أربعة : عبدالرحمن ، وجعفر ، وعبيد الله ، ويحيى ـ عشرون ديناراً لكل واحد منهم كل شهر ، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، منها لكل عيد ألف دينار ، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار ، وأن يقطع له من الطعام العام ثلثمائة مدى ثلثاها شعير وثلثها قمح ، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة و بساتينها ومن الضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار ، فلما قضى له سؤله وأنجز موعوده وعلم أنقد أرضاه وملك نفسه استدعاه ، فبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه ، فما هو إلا أن سمعه فاستهوله واطّرح كل غناء سواه ، وأحبه حباً شديداً ، وقدمه على جميع المغنين، وكان لما خلابه أكرمه غاية الإكرام، وأدنى منزلته ، و بسط أمله ، وذاكره فى أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء ، فحرك منه بحراً زَخَر عليه مدّه[1] ، فأعجب الأمير به ، وراقه ما أورده ،وحضر وقتُ الطعام فشرفه بالأكل معه هو وأكابر ولده ، ثم أمر كاتبه بأن يعقد له صكا بما ذكرناه آنفاً ، ولما ملك قلبه واستولى عليه حبه ، فتح له بابا خاصاً يستدعيه منه متى أراده .

وذكر أن زريابا ادعى أن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد ،كان يَهُبُّ من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة ، فيأخذان عودهما، ويأخذهو عوده ، فيطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ، ثم يعود عجلا إلى مضجعه ، وكذلك يحكى عن إبراهيم الموصلى فى لحنه البديع المعروف بالماخورى أن الجن

---

(١) فى ا « فحرك عليه بحرا ـ إلخ » زخر البحر : طما وتملأ ، والمد : ارتفاع ماء البحر ، وقالوا «زخر القوم » إذا جاشوا لنفير أو حرب

طارحته إياه ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

وزاد زرياب بالأندلس فى أوتار عوده وترا خامساً اختراعاً منه ، إذ لم يزل العودُ ذا أربعة أوتار على الصنعة القديمة التى قوبلت بها الطبائع الأربع ، فزاد عليها وترا خامساً أحمر متوسطا ، فاكتسب به عوده ألطَفَ معنى وأكمل فائدة ، وذلك أن أن الزير[١] صُبغ أصفر اللون ، وجعل فى العود بمنزلة الصفراء من الجسد ، وصبغ الوتر الثانى بعده أحمر ، وهو من العود مكان الدم من الجسد ، وهو فى الغلظ ضعف الزير ، ولذلك سمى مثنى ، وصبغ الوتر الرابع أسود ، وجعل من العود مكان السوداء من الجسد ، وسمى البم ، وهو أعلى أوتار العود ، وهو ضعف المثلث الذى عطل من الصبغ وترك أبيض اللون وهو من العود بمنزلة البلغم من الجسد ، وجعل ضعف المثنى فى الغلظ ، ولذلك سمى المثلث ، فهذه الأربعة من الأوتار مقابلة للطبائع الأربع تقضى طبائعها بالاعتدال ، فالبم حار يابس يقابل المثنى وهو حار رطب وعليه تسويته ، والزير حار يابس يقابل المثلث وهو حار رطب ، قوبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه ، إلا أنه عطل من النفس ، والنفس مقرونة بالدم ، فأضاف زرياب من أجل ذلك إلى الوتر الأوسط الدموى هذا الوتر الخامس الأحمر الذى اخترعه بالأندلس ، ووضعه تحت المثلث وفوق المثنى ، فكمل فى عوده قوى الطبائع الأربع ، وقام الخامس المزيد مقام النفس فى الجسد .

وهو الذى اخترع بالأندلس مضراب العود من قوادم النّسْر ، معتاضاً به من مرهف الخشب[٢] ، فأبرع فى ذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه .

---

(١) الزير ، والبم ، والمثنى ، والمثلث : أسماء لأوتار العود .

(٢) فى ب « مرهب الخشب » ، وفى ا « مزهف الخشب » وأحسبه محرفا عما أثبته ، ويراد بمرهف الخشب المرقق المدقق منه

وكان زرياب عالما بالنجوم وقسمة الأقاليم السبعة ، واختلاف طبائعها وأهويتها وتشعب بحارها ، وتصنيف بلادها ، وسكانها ، مع ما سنح له من فك كتاب الموسيقى ، مع حفظه لعشرة آلاف مقطوعة من الأغانى بألحانها ، وهذا العدد من الألحان غاية ماذكره بطليموس واضع هذه العلوم ومؤلفها .

وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك فى كثير من ضروب الظرف وفنون الأدب ، ولطف المعاشرة ، وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية مالم يُجِدْه أحد من أهل صناعته ، حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه ، واستحسنه من أطعمته ، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوماً به .

فمن ذلك أنه دخل إلى الأندلس وجميع من فيها من رجل أو امرأة يرسل جُمَّته[1] مفروقاً وسط الجبين عاما للصدغين والحاجبين ، فلما عاين ذوو التحصيل تحذيفه هو وولده ونساؤه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتدويرها إلى آذانهم ، وإسدالها إلى أصداغهم ، حسبما عليه اليوم الخدم الخصية والجوارى ـ هوت إليه أفئدتهم ، واستحسنوه .

ومما سنه لهم استعمال المرتك المتخذ من المرداسنج لطرد ريح الصنان من مَغَابنهم[2] ، ولا شىء يقوم مقامه ، وكانت ملوك الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد ، فكانوا لا تسلم ثيابهم من وَضَر[3] ، فدلهم على تصعيدها بالملح ، وتبييض لونها ، فلما جربوه أحمدوه جِدًّا .

وهو أول من اجتنى بقلة الهليون المسماة بلسانهم الإسفراج ، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله .

(١) فى ا « يرسل شعره مفروقا . . . . . غاما »

(٢) المغابن : الأماكن التى يكثر فيها العرق من الجسد ويخاف منه فيها النتن كالإبطين

(٣) الوضر ـ بفتح الواو والضاد جميعاً ـ الوسخ الناشىء عن الدم .

ومما اخترعوه من الطبيخ اللون المسمى عندهم بالنقايا[١] ، وهو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة محلى بالسنبوسق والكباب ، ويليه عندهم لون التقلية المنسوبة إلى زرياب .

ومما أخذه عنه الناس بالأندلس تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة ، وإيثاره فرش أنطاع الأديم[٢] اللينة الناعمة على ملاحف الكتان ، واختياره سفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية إذ الوضر يزول عن الأديم بأقل مسحة ، ولبسه كل صنف من الثياب فى زمانه الذى يليق به ، فإنه رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وجعلهم للملون من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن فى ست بقين من شهر يونيه الشمسى من شهورهم الرومية ، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسى منها ثلاثة أشهر متوالية ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة ، ورأى أن يلبسوا فى الفصل الذى بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من مصبغهم جباب الخز والملحم والمحرر والدَّرَاريع[٣] التى لا بطائن لها لقربها من لطف ثياب البياض الظهائر التى ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشى ثياب العامة ، وكذا رأى أن يلبسوا فى آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشى المَرَوية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد فى الغدوات ، إلى أن يقوى البرد فينتقلون إلى أثخن منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء .

واستمر بالأندلس أن كل من افتتح الغناء فيبدأ بالنشيد أول شَدْوِه بأى نَقْرٍ كان ، ويأتى أثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والأهزاج تبعاً لمراسم زرياب .

---

(١) فى أصل ا « بالتفايا » وفى نسخة عندها « بالتعايا »
(٢) الأديم : الجلد ، وفي أمثالهم « كدابغة وقد حلم الأديم »
(٣) الدراريع : جمع دراعة ــ بضم الدال ــ وهى جبة من صوف مشقوقة المقدم

وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة ، وأن يشد صوته جدا إذا كان قوى الصوت ، فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فإن ذلك مما يقوى الصوت ، ولا يجد متسعاً فى الجوف عند الخروج على الفم ، فإن كان ألص الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، رَاضَه[1] بأن يدخل فى فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها فى فمه ليالى حتى ينفرج فَكّاه ، وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمَرَه أن يصيح بأقوى صوته : يا حَجَّام ، أو يصيح آه ، و يمدّ بها صوته ، فإن سمع صوته بهما صافيا نديا قويّاً مؤدياً لا يعتريه غُنَّة ولا حبسة ولا ضيق نَفَس عرف أن سوف ينجب[2] ، وأشار بتعليمه ، و إن وجده خلاف ذلك أبعده .

وكان له من ذكور الولد ثمانية : عبد الرحمن ، وعبيد الله ، ويحيى ، وجعفر ، ومحمد ، وقاسم ، وأحمد ، وحسن . ومن الإناث ثنتان : علية ، وحمدونة . وكلهم غَنَّى ، ومارس الصناعة ، واختلفت بهم الطبقة ، فكان أعلاهم عبيد الله ، و يتلوه عبد الرحمن ، لكنه ابتلى من فرط التيه وشدة الزهو[3] وكثرة العجب بغنائه والذهاب بنفسه بما لم يكن له شبه فيه ، وقلما يسلم مجلس حضوره من كدر يحدثه ، ولا يزال يجترىء على الملوك ، و يستخفّ بالعظماء ، ولقد حمله سخفه على أن حضر يوما مجلس بعض الأكابر الأعاظم فى أنس قد طاب به سروره ، وكان صاحب قَنَص تغلب عليه لذته ، فاستدعى بازياً كان كَلِفاً به كثير التذكر له ، فجعل يمسح أعطافه و يُعَدِّل قوَادمه ، و يرتاح لنشاطه ، فسأله عبد الرحمن أن يَهَبه له ، فاستحيا من رده ، وأعطاه إياه مع ضَنِّه به ، فدفعه عبد الرحمن إلى غلامه ليعجل به إلى منزله ،

---

(١) راضه على كذا يروضه : ذلله ، ويراد منه معنى عوده إياه .

(٢) ينجب : يصير نجيباً

(٣) الزهو : الخيلاء والكبر ، وقد زهى فلان ـ بالبناء للمجهول ـ تكبر

وأسرَّ إليه فيه بِسِرٍّ لم يطلع عليه ، فمضى لشأنه ، ولم يلبث أن جاءه بطيفورية مُغَطاة مكرمة بطابع مختوم عليها من فضة ، فإذا به لون مصوص[(١)] قد اتخذ من البازى بعد ذبحه على ما حده لأهله ، وذهب إلى الانتقال إليه[(٢)] فى شرابه ، وقال لصاحب المجلس : شاركنى فى نَقْلى هذا فإنه شريف [الموكب] بديع الصنعة ، فلما رآه الرجل أنكر صفته ، وعاب لحمه ، وسأله عنه ، فقال : هو البازى الذى كنت تعظم قدره ، ولا تصبر عنه [و] قد صيرته إلى ما ترى ، فغضب صاحب المنزل حتى ربا فى أثوابه ، وفارقه حلمه ، وقال له : قد كان والله أيها الكلب السفيه على ما قدرته وما اقتديت فيه إلا بكبار الناس المؤثرين لمثله ، وما أسعفتك به إلا معظماً من قدرك ما صَغَّرْتَ من قدرى ، وأظهرت من هوَان السنة عليك باستحلالك لسباع الطير المنهىِّ عنها ، ولا أدع والله الآن تأديبَكَ إذ أهملكَ أبوكَ معلم الناس المروءة ، ودعا له بالسَّوْط ، وأمر بنزع قَلَنْسُوته ، وساط هامته مائة سوط ، فاستحسن جميع الناس فعله به وأبدوا الشَّماتة به .

وكان محمد منهم مؤنثاً ، وكان قاسم أحذقهم غناء مع تجويده ، وتزوج الوزير هشام بن عبد العزيز حمدونة .

أول من دخل الأندلس من المغنين

وذكر عبادة الشاعر أن أول من دخل الأندلس من المغنين علون وزرقون ، دخلا فى أيام الحكم بن هشام ، فنفقا عليه ، وكانا محسنين ، لكن غناؤهما ذهب لغلبة غناء زرياب عليه .

مما مدح به زرياب

وقال عبد الرحمن بن الشمر منجم الأمير عبد الرحمن ونديمه فى زرياب :

يا علىّ بن نافع يا على أنت أنت المهذبُ اللَّوْذَعِىُّ
أنت فى الأصل حين يُسْأل عنه هاشمى وفى الهوى عَبْشَمِى[(٣)]

---

(١) كذا ، ولعل أصل العبارة « فإذا به لون مخصوص »

(٢) فى ا « الانتقال عليه »

(٣) عبشمى : نسبة إلى عبد شمس على طريق النحت

من شعر زرياب

وقال ابن سعيد : وأنشد لزرياب والدى فى معجمه :

علقتها ريحانة هيفاء عاطرة نضيرة
بين السمينة والهزيلة والطويلة والقصيرة
لله أيام لنا سلفت على دير المطيرة
لا عيب فيها للمتيم غير أن كانت يسيرة

متعة جارية زرياب

وكان لزرياب جارية اسمها مُتْعَة[(١)] ، أدبها وعلمها أحسن أغانيه حتى شبت ، وكانت رائعة الجمال ، وتصرفت بين يدى الأمير عبد الرحمن بن الحكم تغنيه مرة وتسقيه أخرى ، فلما فطنت لإعجابه بها أبدت له دلائل الرغبة ، فأبى إلا التستر ، فغنته بهذه الأبيات ، وهى لها فى ظن بعض الحفاظ :

يا من يغطى هواه من ذا يُغَطِّى النهارا ؟
قد كنت أملك قلبى حتى عَلِقْتُ فطارا[(٢)]
يا ويلتا أتراه لى كان ، أو مستعارا
يا بأبى قُرَشِىٌّ خلعتُ فيه العِذَارَا

فلما انكشف لزرياب أمرها أهداها إليه ، فحظيت عنده[(٣)] .

حمدونة بنت زرياب

وكانت حمدونة بنت زرياب متقدمة فى أهل بيتها ، محسنة لصناعتها ، متقدمة على أختها علية ، وهى زوجة الوزير هشام[(٤)] بن عبد العزيز كامر ، وطال عمر علية بعد أختها حمدونة ، ولم يبق من أهل بيتها غيرها ، فافتقر الناس إليها ، وحملوا عنها .

مصابيح جارية أخذت عن زرياب

وكانت مصابيح جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قلهيل أخذت عن زرياب الغناء ، وكانت غاية فى الإحسان والنبل وطيب الصوت ، وفيها يقول ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وكتب به إلى مولاها :

---

(١) فى ب « اسمها منفعة » (٢) علقت : أحببت ، وتقول : علق فلان فلانة ـ من باب فرح ـ وتعلقها ، أى عشقها (٣) حظيت عنده : صارت ذات حظوة ، وهى المكانة والمنزلة (٤) فى ا هنا « هاشم بن عبد العزيز »

يا من يَضَنُّ بصوت الطائر الغَـرِدِ ما كنت أحسب هذا الضن من أحد[١]
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

من أبيات ، فخرج حافياً لمـا وقف على ذلك ، وأدخله إلى مجاسه ، وتمتع من سماعها ، رحم الله تعالى الجميع !.

وقال علوية : كنت مع المأمون لماقدم الشام ، فدخلنا دمشق ، وجعلنا نطوف فيها على أماكن بنى أمية ، فدخلنا قصرا مفروشاً بالرخام الأخضر ، وفيه بركة يدخلها المـاء ويخرج منها فيسقى بستاناً ، وفى القصر من الأطيار ، ما يغنى صوته عن العود والمزمار ، فاستحسن المأمون ما رأى ، وعزم على الصَّبوح ، فدعا بالطعام فأكلنا وشربنا ، ثم قال لى : غَنِّ بأطيب صوت وأطربه ، فلم يمر على خاطرى غير هذا الصوت :

لو كان حولى بنو أميـة لم ينطق رجال أراهمُ نطقوا

فنظر إلى مغضبا ، وقال : عليك لعنة الله وعلى بنى أمية ! فعلمت أنى قد أخطأت ، فجعلت أعتذر من هَفْوَتى ، وقلت : يا أمير المؤمنين ، أتلومنى أن أذكر موالى بنى أمية ، وهذا زرياب مولاك عندهم بالأندلس ، يركب فى أكثر من مائة مملوك وفى ملـكه ثلثمائة ألف دينار دون الضياع ، وإنى عندكم أموت جوعا ، وفى الحكاية طول واختلاف ، ومحل الحاجة منها ما يتعلق بزرياب ، رحم الله تعالى الجميع !.

وذكرها الرقيق[٢] فى كتاب « معاقرة الشراب » على غير هذا الوجه ، ونصه : وركب المأمون يوما من دمشق يريد جبل الثلج ، فمر ببركة عظيمة من برك بنى أمية ، وعلى جانبها أربع سروات ، وكان الماء يدخل سَيْحا ، فاستحسن المأمون

---

(١) الغرد ـ بفتح فكسر ـ الوصف من قولهم « غرد الطائر » من مثال فرح ـ إذا رفع صوته وطرب به ، ويقال « غرد » بكسر فسكون ـ أيضاً ، والضن : البخل ، يقول : إن السماح للناس باستماع هذا الصوت لا يجشمك شيئا ولا ينقص منه ، فلماذا تبخل عليهم بذلك ؟ (٢) ويقول أحيانا « ابن الرقيق »

الموضع ، ودعا بالطعام والشراب ، وذكر بنى أمية ، فوضع منهم وتَنَقَّصَهُمْ ، فأخذ علوية العود واندفع يغنى :

أرى أسرتى فى كل يوم وليـلة يَرُوحُ بهم داعى المنون و يغتدى

أولئك قوم بعـــد عز وثروة تفانَوْا فإلَّا أذرِفِ العينَ أَكْمَدِ (١)

فضرب المأمون بكأسه الأرض ، وقال لعلوية : يا بن الفاعلة ، لم يكن لك وقت تذكر مواليك فيه إلا هذا الوقت ؟ فقال : مولاكم زرياب عند مواليَّ بالأندلس يركب فى مائة غلام ، وأنا عندكم بهذه الحالة ، فغضب عليه نحو شهر ، ثم رضى عنه ، انتهى .

ونحوه لابن الرقيق (٢) فى كتابه « قطب السرور » وقال فى آخر الحكاية : وأنا عندكم أموت من الجوع ، ثم قال : وزرياب مولى المهدى (٣) ، ووصل إلى بنى أمية بالأندلس فعلت حاله ، حتى كان كما قال علوية ، انتهى .

ولما غنى زرياب (٤) بقوله :

ولو لم يَشُقْنِى الظاعنون لَشَاقنِى حمـام تداعت فى الديار وُقُوعُ

تداعين فاستبكين من كان ذاهوى نوائح ما تجرى لهن دموع

ذَيَّلَهَا عباس بن فرناس يمدح بعض الرؤساء بديهة فقال :

شددت بمحمود يدًا حين خانها زمانٌ لأسـباب الرجاء قَطُوعُ

بنى لِمَسَاعى الجود والمجـد قبلة إليهـا جميع الأجودين ركوع

وكان محمود جوادا ، فقال له : يا أبا القاسم ، أعَزُّ ما يحضرنى من مالى القُبَّة ، يعنى قبة قامت عليـه بخمسمائة دينار ، وهى لك بما فيها مع كسوتى هذه ، ونكون فى ضيافتك بقية يومنا ، ودعا بكسوة فلبسها ، ودفع إليه الـكسوة .

---

(١) فإلا : مؤلفة من ثلاث كلمات ، الفاء العاطفة ، وإن الشرطية ، ولا النافية ، وأذرف العين : أسيل دمعها ، وأكمد : أحزن

(٢) انظر الهامشة رقم ٢ في ص ١٢٨ وص ١٣١ وص ١٤٤

(٣) فى ب « ولى المهدى » (٤) فى ا « ولما غنى ابن زرياب »

الأمير شعبان بن كوجبا

ومن الوافدين من المشرق الأمير شعبان بن كوجبا[١] .

من غُزِّ الموصل ، وفد على أمير المؤمنين يعقوب المنصور ملك الموحِّدين ، ورفع له أمداحا جليلة ، وقدمه على إمارة مدينة بسطة من الأندلس .

قال أبو عمران بن سعيد : أنشدنى لنفسه :

يقولون إن العدل فى الناس ظاهر ... ولم أر شيئا منه سرا ولا جهرا
ولكن رأيت الناس غالبُ أمرهم ... إذا ما جنى زيد أقادوا به عمرا[٢]
وإلا فما بال النطاسِيِّ كلما ... شكوت له يُمْنَى يَدِى فَصد اليسرى[٣]

أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيبانى (الرياضى)

ومن الوافدين من المشرق على الأندلس أبو اليسر إبراهيم بن أحمد الشيبانى .

من أهل بغداد ، وسكن القيروان ، ويعرف بالرياضى ، وكان له سماع ببغداد من جِلَّة المحدثين والفقهاء والنحويين ، لقى الجاحظ والمبرد وثعلبا وابن قتيبة ، ولقى من الشعراء أبا تمام والبحترى ودِعْبِلاً وابن الجَهْم ، ومن الكتاب سعيد بن حُمَيد وسليمان بن وهب وأحمد بن أبى طاهر وغيرهم ، وهو الذى أدخل إفريقية رسائل المحدَثِينَ وأشعارهم وطرائف أخبارهم ، وكان عالما أديبا ، ومرسِّلا بليغا ، ضاربا[٤] فى كل علم وأدب ، سمع وكتب بيده أكثر كتبه ، مع براعة خطه وحسن وِرَاقته .

وحكى أنه كتب على كبره كتاب سيبويه كله بقلم واحد ، ما زال يَبْريه حتى قَصُر ، فأدخله فى قلم آخر ، وكتب به حتى فنى بتمام الكتاب .

وله تآليف : منها « لقط المرجان »[٥] وهو أكبر من « عيون الأخبار »[٦] وكتاب « سراج الهدى » فى القرآن ومشكله وإعرابه ومعانيه ، و « المرصعة » و « المدبجة »

وجال فى البلاد شرقا وغربا من خُرَاسان إلى الأندلس ، وقد ذكر ذلك فى أشعار له .

---

(١) فى ب « شعبان بن كوحيا » (٢) أقادوا : أقاموا القود ، وهو العقوبة
(٣) فى ب « قصد اليسرى » وما أثبتناه عن ا أدق
(٤) فى ا « ضاربا فى كل علم » (٥) فى ا « لقيط المرجان »
(٦) « عيون الأخبار » كتاب لابن قتيبة طبع فى أربعة أجزاء بدار الكتب المصرية

وكان أديب الأخلاق ، نزيه النفس ، كتب لأمير إفريقية إبراهيم بن أحمد ابن الأغلب ، ثم لابنه أبى العباس عبد الله ، وكان أيام زيادة الله بن عبد الله آخر ملوك الأغالبة على بيت الحكمة ، وتوفى بالقيروان سنة ثمان وتسعين ومائتين فى أوّل ولاية عبيد الله الشيعى ، وهو ابن خمس وسبعين سنة .

وممن ألم بذكره المؤرخ الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق[(١)]

وقال عريب بن سعد[(٢)] فى حقه : إنه كان أديبا شاعرا مرسّلا حسن التأليف ، وقدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن ، وذكر له معه قصة ذكرها ابن الأبّار فى كتابه « إفادة الوفادة » وحكى أن له مسندا فى الحديث ، وكتابا فى القرآن سماه « سراج الهدى » والرسالة الوحيدة ، والمؤنسة ، وقطب الأدب ، وغير ذلك من الأوضاع .

قال : وكتب لبنى الأغلب حتى انصرمت أيامهم ، ثم كتب لعبيد الله حتى مات

ومن الرواة عنه أبو سعيد عثمان بن سعيد[(٣)] الصيقل مولى زيادة الله ابن الأغلب ، وأسند إليه الحافظ ابن الأبار رواية شعر أبى تمام بأن قال : قرأت شعر حبيب على أبى الربيع بن سالم ، وقرأت جملة منه على غيره ، وناولنى جميعه وحدثنى به عن أبى عبد الله بن زرقون عن الخَوْلانى عن أبى القاسم حاتم بن محمد عن أبى غالب تمام بن غالب بن عمر اللغوى عن أبيه أبى تمام عن أبى سعيد المذكور ، يعنى ابن الصيقل ، عن أبى اليسر عن حبيب ، وهو إسناد غريب ، انتهى .

أبو إسحاق إبراهيم بن خلف ، الغسانى الدمشقى السنهورى

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن خلف بن منصور ، الغسانى ، الدمشقى ، المعروف بالسنهورى

وسنهور : من بلاد مصر ، روى عن أبى القاسم بن عساكر وأبى اليمن الكندى وأبى المعالى الفراوى وأبى الطاهر الخشوعى وغيرهم

---

(١) انظر الهامشة رقم ٢ فى ص ١٢٨ والهامشة رقم ٢ فى ص ١٢٩ ، وانظر ص ١٤٤
(٢) فى ب « وقال على بن سعيد فى حقه » (٣) فى ا « عثمان بن سعد الصيقل »

قال أبو العباس النباتي : قدم علينا ـ يعني إشبيلية ـ سنة ثلاث وستمائة ، وسمى جماعة من شيوخه ، وحكى أنه كان يروى موطأ أبي مصعب وصحيح مسلم بعلوّ .

وقال أبو سليمان بن حَوْط الله : أجازني وابني محمدا جميعَ ما رواه عن شيوخه الذين منهم أبو الفخر فناخسرو بن فيروز الشيرازى ، وذكر أن روايته بنزول ، لأنه لم يرحل إلا بعد وفاة الشيوخ المشاهير بهذا الشأن .

وقال أبو الحسن بن القطان ، وسماه فى شيوخه : قدم علينا تونس سنة اثنتين وستمائة ، واستجزته لابني حسن فأجازه وإياى ، قال : وانصرف من تونس إلى إلى المغرب ، ثم الأندلس ، وقدم علينا بعد ذلك مراكش مُفْلتا من الأسر ، فظهر فى حديثه عن نفسه تجازف واضطراب وكذب زَهَّد فيه ، وأثر ذلك انصرف إلى إلى المشرق راجعاً ، وقد كان إذا أجاز ابني كتب بخطه جملة من أسانيده وسمى كتبا منها الموطأ والصحيحان وغير ذلك ، قال : وقد تبرأت من عُهْدة جميعه لما أثبتُّ من حاله ، وحدثنى أبو القاسم بن أبي كرامة صاحبنا بتونس أن السنهورى هذا لما انصرف إلى مصر امتُحن بملكها الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب لأجل مُعَاداته أبا الخطاب بن الجميل ، فضُرِب بالسياط ، وطيف به على جمل مبالغة فى إهانته ، انتهى .

حديث عن أبي الخطاب ابن دحية وكلام العلماء فيه

وقال بعض المؤرخين فى حقه ، ما نصه : الشيخ المحدث الرحالة إبراهيم السنهورى صاحب الرحلة إلى البلاد ، دخل الأندلس كما ذكره ابن النجار وغيره ، وهو الذى ذكر لمشايخ الأندلس وعلمائها أن الشيخ أبا الخطاب بن دِحية يدَّعى أنه قرأ على جماعة من شيوخ الأندلس القدماء ، فأنكروا ذلك وأبطلوه وقالوا : لم يَلْقَ هؤلاء ولا أدركهم ، وإنما اشتغل بالطلب أخيرا ، وليس نسبه بصحيح فيما يقوله ، ودِحية لم يُعْقب ، فكتب السنهورى محضرا وأخذ خطوطهم فيه بذلك ، وقدم به ديار مصر ، فعلم أبو الخطاب بن دِحية بذلك ، فاشتكى إلى السلطان منه ، وقال :

هذا يأخذ عرضى ويؤذينى ، فأمر السلطان بالقبض عليه ، فقبض وضرب [بالسِّياط] وأشهر على حمار ، وأخرج من ديار مصر ، وأخذ ابن دِحية المحضَرَ وحرقه ، ولم يزل ابن دحية على قربٍ من السلطان إلى حين وفاته ، و بنى له داراً للحديث ، وهى الكاملية ببين القصرين ، فلم يزل يحدث بها إلى أن مات

وقد ذكرنا فى ترجمة ابن دِحية من هذا الكتاب شيئا من أحواله ، وأن الناس فيه معتقد ومنتقد ، وهكذا جرت العادة خصوصاً فى حق الغريب المنتسب للعلم .

* وعند الله تجتمع الخصوم *

وممن كان عليه لاله أبو المحاسن محمد بن نصر المعروف بابن عنين فانه قال فيه :

دحية لم يُعقِبْ فَلِمْ تعتزى إليه بالبهتان والإفك(١)

ماصح عند الناس شىء سوى أنك من كَلْبٍ بلا شك

هكذا ذكره ابن النجار ، وأطال فى الوقيعة فى أبى الخطاب بن دِحْيَة

وقال الذهبى : قرأت بخط الضياء عندما ذكر ابن دحية أنه قال : لقيته بأصبهان ، ولم أسمع منها شيئا ، وأخبرنى إبراهيم السنهورى بأصبهان أنه دخل المغرب ، وأن مشايخه كتبوا له جَرْحَه وتضعيفه ، وقد رأيت أنا منه غير شىء مما يدل على ذلك ، و بسببه بنى السلطان الملك الكامل دار الحديث بالقاهرة وجعله شيخها ، وقد سمع منه الإمام أبو عمرو بن الصلاح الموطأ سنة نيف وستمائة ، وأخبره به عن جماعة منهم أبو عبد الله بن زرقون .

وقال ابن واصل : كان أبو الخطاب - مع فرط معرفته بالحديث ، وحفظه الكثير منه - متهماً بالمجازفة فى النقل ، و بلغ ذلك الملك الكامل ، فأمره أن يعلق شيئا على كتاب «الشِّهاب» ، فعلق كتابا تكلم فيه على أحاديثه وأسانيده ، فلما

---

(١) دحية : صحابى ينسب إليه أبو الخطاب ، وتعتزى . تنتسب ، والبهتان : الكذب ومالا أصل له ، والإفك - بالكسر - التقول

وقف الملك الكامل على ذلك قال له بعد أيام : قد ضاع منى ذلك الكتاب ، فعَلِّقْ لى مثله ، ففعل ، فجاء فى الثانى مناقضة للأول ، فعلم الملك الكامل صحة ما قيل عنه ، ونزلت مرتبته عنده ، وعزله عن دار الحديث أخيرا ، وولى أخاه أبا عمرو عثمان .

وقال ابن نقطة : كان أبوالخطاب موصوفا بالمعرفة والفضل ، ولم أره ، إلا أنه كان يدعى أشياء لاحقيقة لها ، ذكر لى أبو القاسم بن عبد السلام - وكان ثقة - قال : نزل عندنا ابن دِحْيَة فقال : إنى أحفظ صحيح مسلم والترمذى ، فأخذت خمسة أحاديث من الترمذى ومثلها من المسند ومثلها من الموضوعات، فجعلتها فى جزء، ثم عرضت عليه حديثا من الترمذى فقال : ليس بصحيح ، وآخر فقال : لاأعرفه ، ولم يعرف منها شيئا ، فأفسد نفسه بذلك .

وقال سبط ابن الجوزى : إنه كان يتزيد[1] فى كلامه ، و يثلب[2] المسلمين ، و يقع فيهم ، فترك الناس الرواية عنه وكذبوه ، وقد كان الملك الكامل مقبلا عليه ، فلما انكشف له شأنه أخذ منه دار الحديث وأهانه .

وقال العِمَاد بن كثير : قد تكلم الناس فيه بأنواع من الكلام ، ونسبه بعضهم إلى وَضْع حديث فى قصر صلاة المغرب ، وكنت أود أن أقف على إسناده ليعلم كيف رجاله ، وقد أجمع العلماء - كما ذكره ابن المنذر وغيره - على أن صلاة المغرب لاتقصر[3] ، واتفق أنه وصل فى جمادى الأولى سنة ٦١٦ إلى غزة ، فخرج كل من فى غزة بالأسلحة والعصى والحجارة إلى الموضع الذى هو فيه ، وضربوه ضربا شديدا بعد أن انهزم مَنْ كان معه ، انتهى .

وقدّمنا فى ترجمته توثيق جماعة له ، فربك أعلم بحاله .

---

(١) يتزيد فى كلامه : يزيد فى أثنائه من عنده

(٢) يثلب المسلمين : ينتقصهم ويرميهم بما يعيبهم

(٣) روى شيخ الإسلام إبراهيم البيجورى من متأخرى علماء الشافعية قولا لبعض العلماء أنه يرى قصر صلاة المغرب إلى ركعتين فى السفر الذى تقصر فيه الرباعية

أبو محمد عبدالله بن محمد ابن آدم ، القارى الخراسانى

ومنهم عبد الله بن محمد بن آدم ، القارى ، الخراسانى .

رحل من خراسان إلى الأندلس ، يكنى أبا محمد ، ذكره أبو عمرو المقرى ، وقال : سمعته يقرأ مرات كثيرة ، فكان من أحسن الناس صوتا ، ولم تكن له معرفة بالقراءة ولا دراية بالأداء ، انتهى .

أبو البركات عبد الرحمن ابن داود (الزبزارى) الواعظ

ومنهم عبد الرحمن بن داود بن على ، الواعظ .

من أهل مصر ، يعرف بالزبزارى ، يكنى أبا البركات وأبا القاسم ، ويلقب زكى الدين ، قدم على الأندلس ، وتجوّل فى بلادها واعظا ومذكرا ، وسمع منه الناس بقرطبة وإشبيلية ومُرْسِية وبَلَنْسِية سنة ٦٠٨ .

قال ابن الأبار : وسمعت ، وعظه إذ ذاك بالمسجد الجامع من بَلَنْسِية ، وادعى الرواية عن أبى الوقت السِّجْزِى والسِّلَفى وأبى الفضل عبد الله بن أحمد الطوسى وأبى محمد بن المبارك بن الطباخ وأبى الفضل محمد بن يوسف الغزنوى وشهدة الكاتبة بنت الأبرى ، زعم أنه قرأ عليها صحيح البخارى ، وجماعة بالمشرق والأندلس لم يَلْقَهم ولم يسمع منهم ، وربما حدَّث بواسطةٍ(1) عن بعضهم ، وأكثرهم مجهولون ، وقفت على ذلك فى فهرست روايته ، فزهد أكثر السامعين منه ، واطَّرَحُوا الرواية عنه(2) ، ومنهم أبو العباس النباتى وأبو عبد الله بن أبى البقاء ، وجمع أربعين حديثا مسلسلة سماها باللآلىء المفصلة ، حدث فيها عن ابن بَشْكُوال وابن غالب الشراط وغيرهما من الأندلسيين الذين لم يلقهم ولا أجازوا له ، أخذها عنه ابن الطيلسان وغيره ، وكان ـ مع هذا ـ فقيها على مذهب الشافعى ، رضى الله تعالى عنه ! فصيحا ، مشاركا فى فنون من العلم ، سمح الله تعالى له ! انتهى .

ولا بأس أن نذكر جملة من النساء القادمات من المشرق على الأندلس ،

---

(1) حدث بواسطة : كان بينه وبين المحدث عنه راو آخر كتم اسمه . وذلك من التدليس ، وقد يكون الواسطة ضعيفا ، فلذلك لا يثق العلماء بمن يكتم اسم من يروى عنه ويتجاوزه إلى من فوقه

(2) اطرحوا الرواية عنه : يريد تركوها ، وأصل الطرح الرمى

ثم نعود أيضا إلى ذكر أعلام الرجال ، فنقول :

عابدة المدنية

من النساء الداخلات الأندلس من المشرق عابدة المدنية ، أم ولد حبيب ابن الوليد المرواني ، المعروف بدحون .

وكانت جارية سوداء ، من رقيق المدينة ، حالكة اللون ، غير أنها تروى عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة وغيره من علماء المدينة ، حتى قال بعض الحفاظ : إنها تروى عشرة آلاف حديث .

وقال ابن الأبار : إنها تسند حديثاً كثيرا ، ، وهى أم ولد[١] بشر بن حبيب ، والذى وهبها لدحون فى رحلته إلى الحج هو محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك ابن مروان ، فقدم بها الأندلس ، وقد أعجب بعلمها وفهمها ، واتخذها لفراشه ، رحم الله تعالى الجميع ! .

فضل المدنية

ومنهن فَضْل المدنية .

وكانت حاذقة بالغناء ، كاملة الخصال ، وأصلها لإحدى بنات هرون الرشيد ، ونشأت وتعلمت ببغداد ، ودرجت من هناك إلى المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ! فازدادت ثَمَّ طبقتُهَا فى الغنـاء ، واشتريت هنالك للأمير عبد الرحمن صاحب الأندلس مع صاحبتها علم المدنية ، وصواحب غيرها إليهنّ تنسب دار المدنيات بالقصر ، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ونَصَاعة ظرفهن ورقة أدبهن ، وتضاف إليهن جارية[٣] قلم ، وهى ثالثة فضل وعلم فى الحُظْوة عند الأمير المذكور ، وكانت أندلسية الأصل ، رومية من سبى البشكنس ، وحملت صبية إلى المشرق ، فوقعت بمدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، وتعلمت هنالك الغناء فحذقته[٢] ،

(١) فى ا « وهى أم ولده بشر بن حبيب » وهو الظاهر

(٢) حذقته : مهرت فيه ، وصارت حاذقة به

(٣) كذا ، ولعل أصل العبارة « جاريته قلم »

وكانت أديبة ، ذاكرة ، حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الآداب .

قمر : جارية إبراهيم بن حجاج اللخمى

ومن النساء الداخلات إلى الأندلس من المشرق قمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمى ، صاحب إشبيلية .

وكانت من أهل الفصاحة والبيان ، والمعرفة بصَوْغ الألحان ، وجلبت إليه من بغداد ، وجمعت أدبا وظَرْفا ، ورواية وحفظا ، مع فهم بارع ، وجمال رائع ، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها ، ولها فى مولاها تمدحه :

ما فى المغارب من كريم يُرْتجَى ... إلا حليف الجـود إبراهيم
إنى حَلَلْتُ لديه منزلَ نعمـةٍ ... كل المنازل ما عداه ذميـم

وأنشد لها السالمى لما ذكرها عدّة أشعار : منها قولها تتشوّق إلى بغداد :

آها على بغـــدادها وعراقها ... وظبائهـا والسحر فى أحداقهـا
ومجالها عنـــد الفرات بأوجه ... تبـدو أهلَّتُهَا على أطواقها
متبخترات فى النعـيم كأنما ... خلق الهوى العُذْرِى من أخلاقها(١)
نفسى الفـداء لها فأى محاسن ... فى الدهر تُشْرق من سَنَا إشراقها

الجارية العجفاء ، المغنية

ومنهن الجارية العجفاء

قال الأرقمى : قال لى أبو السائب ، وكان من أهل الفضل والنسك : هل لك فى أحسن الناس غناء ؟ فجئنا إلى دار مسلم بن يحيى مولى بنى زهرة ، فأذن لنا فدخلنا بيتا عرضه اثنا عشر ذراعا فى مثلها ، وطوله فى السماء ستة عشر ذراعا ، وفى البيت نمْرُقتان قد ذهب عنهما اللحمة و بقى السدى ، وقد حُشِيتا بالليف ، وكرسيان قد تفككا من قدمهما ، ثم اطلعت علينا عجفاء كلفاء ، عليها هَرَوِى أصفر غسيل ،

(١) الهوى العذرى : المنسوب إلى بنى عذرة ، قوم مجنون ليلى وغيره من ذوي الصبابة ، ويراد به العشق العفيف الطاهر الذى لا ريبة فيه

وكأن وركيها فى خيط من وسخها ، فقلت لأبى السائب : بأبى أنت ! ماهذه ؟ فقال : اسكت ، فتناولت عودا فغنت :

بيد الذى شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهم (١)
فاستيقنى أنْ قد كَلِفْتُ بكم ثم افعلى ما شئت عن علم
قد كان صَرْمٌ فى الممات لنا فعجلت قبل الموت بالصرم

قال : فتحسنت فى عينى ، وبدا ما أذهَبَ الكَلَفَ عنها ، وزحف أبو السائب وزحفت معه ، ثم تغنت :

برح الخفاء فأيما بك تكتم ولسوف يظهر ما تسر فيعلم (٢)
مما تضمن من عَزِيزٍ قلبه يا قلب إنك بالحسان لمُغْرَمُ
يا ليت أنك يا حسام بأرضنا تلقى المراسى طائعاً وتخيِّمُ
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه ونكون إخواناً فما ذاتنقم

فقال أبو السائب : إن يقم هذا فأعضَّه الله تعالى بكذا وكذا من أبيه ، ولا يكنى ، فزحفت مع أبى السائب حتى فارقنا النمرقتين ، وربت العجفاء فى عينى كما يربو السويق بماء مُزْنَة ، ثم غنت :

يا طول ليلى أعالج السقما أدخل كل الأحبة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبدا فاليوم أمسى فراقكم عزما

فألقيت طيلسانى ، وأخذت شاذكونة فوضعتها على رأسى ، وصحت كما يصاح على اللوبيا بالمدينة ، وقام أبو السائب فتناول ربعة فى البيت فيها قوارير ودهن ، فوضعها على رأسه ، وصاح صاحب الجارية وكان ألثغ : قوانينى ، يعنى قواريرى ، فاصطكت القوارير وتكسرت ، وسال الدهن على رأس أبى السائب وصدره ،

---

(١) فى ا « بيد الذى شعف » بالعين مهملة ، وكلاهما صحيح ، وبهما قرى فى قوله تعالى : (قد شغفها حبا) (٢) فى ا « فأيماتك تكتم »

وقال للعجفاء : لقد هِجْتِ لى داء قديماً ، ثم وضع الربعة ، وكنا نختلف إليها حتى بعث عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس فابتيعت له العجفاء ، وحُملت إليه .

عبد القاهر بن محمد بن عبد الرحمن الموصلى

ومن القادمين على الأندلس من المشرق الشيخ عبد القاهر بن محمد ابن عبد الرحمن ، الموصلى .

قال أبو حيان : قدم علينا رسولا من ملك مصر إلى ملك الأندلس ، فسمعت منه بالْمَرِية ، انتهى .

أبو جعفر أحمد ابن الحسن النخعى

ومنهم أحمد بن الحسن بن الحارث بن عمرو بن جرير بن إبراهيم بن مالك ، المعروف بالأشتر ، بن الحارث ، النخعى .

يكنى أبا جعفر ، دخل الأندلس فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وأصله من الكوفة ، وكان يروى أحاديث عظيمة العدد ، ذكر ذلك الرازى ، وحكى أن الأمير محمدا روى عنه منها ، وأنزله برَّيَّةَ .

أحمد بن يزيد القرشى ، الزهرى ، المصرى

ومنهم أحمد بن أبى عبد الرحمن ، واسمه يزيد بن أحمد بن عبد الرحمن[1] ، القرشى ، الزهرى ، من ولد عبد الرحمن بن عَوْف .

من أهل مصر ، وفد على الناصر بقرطبة ، وكان دخوله إليها فى محرم سنة ٣٤٣ ، فأكرم الناصر مَثْواه[2] وكان فقيه أهل مصر ، ذكره ابن حيان .

أبو الطاهر إسماعيل بن الإسكندرانى

ومنهم أبو الطاهر إسماعيل بن الإسكندرانى .

لقى ببلده أبا طاهر السِّلَفى ، وسمع منه ، ودرس عليه كتاب الاصطلاح للسمعانى ، وقدم الأندلس ، ودخل مُرْسِية تاجرا ، وكان فقيها على مذهب الشافعى وأنشد عن السلفى[3] قوله :

أنا من أهل الحديث وهم خير فئه

---

(١) فى ا « بن أبى عبد الرحمن » هنا أيضا

(٢) مثواه : مكان ثوائه ، أى إقامته

(٣) فى ب « وأنشد على السلفى قوله »

عشت تسعين وأر جو أن أعيش لمائه

فعاش كما تمنى، رحمه الله تعالى!.

أبو الحسن على بن محمد لأنطاكى التميمى

ومنهم أبو الحسن على بن محمد بن إسماعيل بن بشر، الأنطاكى، الإمام، أبو الحسن، التميمى.

نزيل الأندلس ومُقْريها ومسندها، أخذ القراءة عرضاً وسماعا عن إبراهيم ابن عبد الرزاق ومحمد بن الأخرم وأحمد بن يعقوب التائب وأحمد بن محمد ابن خشيش ومحمد بن جعفر بن بيان، وصنف قراءة وَرْش، قرأ عليه جماعة: منهم أبو الفرج الهيثم الصباغ وإبراهيم بن مبشر المقرى وطائفة آخرون من قراء الأندلس، وسمع منه عبد الله بن أحمد بن مُعَاذ الدارانى.

قال أبو الوليد بن الفرضى: أدخل الأنطاكى الأندلُسَ علماً جماً، وكان بصيرا بالعربية والحساب، وله حظ من الفقه، قرأ الناسُ عليه، وسمعت أنا منه، وكان إماماً فى القراءات[١]، لايتقدّمه أحد فى معرفتها فى وقته، وكان مولده بأنطاكية سنة ٢٩٩، ومات بقرطبة فى ربيع الأول سنة ٣٧٧، رحمه الله تعالى!

أبو البركات عمر بن مودود الفارسى، البخارى

ومنهم عمر بن مودود بن عمر، الفارسى، البخارى، يكنى أبا البركات.

ولد بسلماس، ونشأبها، وكتب الحديث هنالك، وتعلم العربية والفقه، وهو من أبناء الملوك، وانتقل إلى المغرب، فدخل الأندلس، ونزل مالَقَة فى حدود ثلاثين وستمائة، ودخل إشبيلية، وكانت له رواية بالمشرق.

قال ابن الأبار: أجاز لى ما رواهُ، ولم يسم أحدا من شيوخه، وبلغنى أنه سمع صحيح البخارى بالدامغان[٢] على أبى عبد الله محمد بن محمود، وكانت إجازته لى سنة ٦٣١، وعاش بعد ذلك، وتوفى بمراكش بعد الأربعين وستمائة، وحدّث

---

(١) فى ا «وكان رأسا فى القراءات»

(٢) الدامغان: بلد كبير بين الرى ونيسابور، وهوقصبة قومس، وقدنسب إليها جماعة وافرة من أهل العلم

بالأندلس ، وأخذ عنه الناس ، وكان من أهل التصوف والتحقق بعلم الكلام ، رحمه الله تعالى !

نجم الدين بن مهذب الدين البغدادى

ومنهم الشريف الأجل الرحالة الشيخ نجم الدين بن مهذب الدين .

وكنت لا أتحقق من أى البلاد هو من المشرق ، ثم إنى علمت أنه من بغداد إذ وقفت على كتابين كتبهما فى شأن العناية به الأديبُ العلامة أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومى : أحدهما لأبى العلاء حسان ، والثانى للكاتب أبى الحسن العَنْسى [١] ، وهو الذى يفهم منه أنه من بغداد .

ونص الأول :

يا ابن الوصى إذا حملت وصيتى　　أوجَبْتَ حقاً للحقوق يُضَافُ
وتحيـــتى كلُّ التحايا دونها　　وكذاك دون رسولها الأشراف
أحْسِنْ بأن تَلْقَى ابنَ حَسَّان بها　　مهتزة لورودها الأعطافُ
كالروض باكرهُ الندى فَلِعَرْفها　　يا ابنَ النبى على الندىِّ مَطَافُ
وعُلاكَ إن أبا العلا ومكانه　　يُلْفَى به الإسعاد والإسعاف
وأحق مَنْ عرف الكرام بوصفهم　　مَنْ جُمِّعت منهمْ له أوصاف

هذه ياسيدى تحية تجب لها إجابة وَحِيَّة [٢] ، وتصلح بها هَشَاشة وأريحية ، أودعتها بطن هذه العُجَالة ، و بعثتها مع صَدْر من أبناء الرسالة ، ولله دره من راضِعِ دَرِّ النبوة ، متواضع مع شرف الأبوة ، نازعْتُه طرف الأشعار ، وأطراف الأخبار ، فوجدته [٣] بحراً حَصَاه الدرُّ النفيس ، وروضاً يَجْنِي منه أطايبَ السمر [٤] الجليسُ ، و يُنْعَتُ بنجم الدين وهو كنَعْته نجم يضىء سناه ، ويحل بيتاً من الشرف ربه بنَاه ، وقد جاب الفضاء العريض ، ورأى القصور الحمر والبيض ، وورد الحَجُون ، بعد ما شرب

---

(١) فى ا « الغشى »　　(٢) وحية : سريعة
(٣) فى ا « فوجدت بحراً »　　(٤) فى ا « أطاب التمر »

من ماء جيحون ، وزار مشاهد الحرمين ، ثم سار فى أرض الهرمين ، وفارق إفريقية لهذا الأفق مختاراً ، وعَبَر إلى الأندلس فأطال بها اعتباراً ، وتشوق إلى حضرة الأنوار المُفَاضة ، والنعم السابغة الفضفاضة ، وجعل قصدها بحَجَّة سفره طَوَاف الإفاضة ، وهمه أن يشاهد سَنَاهَا العلوى ، ويبصر ما يحقر عنده المرأى والمروى ، وهى غاية يقول للأمل : عليها أطلت حَوْمى[1] ، وجنة يتلو الداخل لها (يا لَيْتَ قومى)[2] وسيدى هو منها باب على الفتح بنى ، وجناب عنانُ الأَمل إليه ثنى ، وقَصَده من هذا الشريف أجلُّ قاصد ، وأظَلَّتْه سماء المجد بجمال المشترى وظرف عُطَارد ، ومتى نعتناه فالخبر ليس كالعيَان ، ومتى شبهناه فالتمويه بالشبه عقوق العقيان ، ومن يفضح قريحته بأن يقول لها صِفِيه ، لكن يعرف عن نفسه بما ليس فى وسع واصفيه ، ويقتضى من عزيمة بره مالا سَعَة للمترخص فيه ، إن شاء الله تعالى ، وهو يديم عُلَاكم ، ويحرس مجدكم وسناكم ، بمنه ، والسلام الكريم ، الطيب العميم ، يخصكم به معظِّمُ مجدكم ، المعتدّ بذخيرة ودكم ، المحافظ على كريم عهدكم ، ابن عميرة ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، فى الرابع والعشرين لربيع الآخر من سنة ٦٣٩ انتهى .

ونص الثانى : هل لك يا سيدى أبا الحسن ، فيمن له كل شاهد حسن ، فى الشرف المنتقى له قدم أثبتها بالوصى والحسن ، أيها الأخ الذى مَلَكته قيادى ، وأسكنته فؤادى ، عهدى بك تَعْتَام[3] الآداب النقية ، وتشتاق اللطائف المشرقية ، وتنصف فترى أن فى سيلنا جُفَاء ، وفى مغربنا جَفَاء ، وأن المحاسن نَبْتُ أرضٍ ما بها وُلدنا ، وزرع وادٍ ليس مما عَهِدْنا ، وأنا فى هذا أشايعك وأتابعك ، وأناضل من ينازلك وينازعك ، وقد أتانا الله تعالى بحجة تقطع الحجج ، وتسكت المهج ،

---

(١) فى ب « يقول الآمل عليها أطلت حومى » والحوم : مصدر « حام حول الشىء » إذا طاف

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : (قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون)

(٣) تعتام : تقصد وتختار

وهو الشريف الأجل ، السيد المبارك نجم الدين بن مهذب الدين نجل الذرية المختارة ، ونجم الدرية السيارة ، جَرَى مع زَعْزَع ونسيم ، ورَتَع فى جميم وهشيم (١) ، وشاهَدَ عجائبَ كل إقليم ، وشرق إلى مطلع ابن جَلاَ (٢) ، وغرب حتى نزل بشاطئ سَلاَ ، وقد توجَّه الآن إلى حضرة الإمامة الرشيدية أيدها الله تعالى لينتهى من أصابع العدِّ إلى العُقْدة ، ويحصل من مَحْض (٣) الحقيقة على الزُّبدة (٤) ، وقد علم أنه ما كل الخُطَب كخطبة المنبر ، ولا جميعُ الأيام مثل يوم الحج الأكبر ، وأدبه ياسيدى من نسبة أفقه ، بل على شكل حسبه وخلقه ، فإذا رأيته شهدت بأن الشرق قد أتحف إفريقية ببغداده (٥) ، بل رمانا بجملة أفلاذه ، والحظ فيما يجب من بره وتأنيسه ، إنما هو فى الحقيقة لجليسه ، فيا غبطة من يسبق لجواره ، ويقبس من أنواره ، وأنت لا محالة تفهمه فهمى ، وتشيم من شيمه عارضاً بَرِىِّ القلوب الهيم يَهْمِى (٦) ، وتضرب فى الأخذ من فوائده وقلائده بسهم وددت أنه سهمى ، والسلام ، انتهى

تقى الدين محمد بن أحمد بن الغرس الحنفى المصرى

ومنهم تقى الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أبى العباس أحمد بن الغَرْس (٧) ، الحنفى ، المصرى .

قال الوادى آشى فيه : إنه من أعيان مصر ، قال : وسألته هل يقع بين أهل مصر تنازع فى تفضيل بعض المذاهب على بعض ؟ فأجابنى بأن هذا لا يقع عندهم بين أهل الرسوخ فى العلم ، وذوى المعرفة والفهم ، وإنما يصدر هذا بين الناشئين قال : وللحنفية الظهور عليهم حين يقولون لهم : لنا عليكم اليد الطولى فى الخبز ، لكونه بمصر يطبخ فى الفرن بأروات الدواب ، وكذلك تسخين الحمام ، فإن المالكية وغيرهم بمصر يقلدون الحنفية فى ذلك ، قال : وسألته حفظه الله تعالى هل للوباء بمصر وقت معلوم ؟ فقال لى : جرت العادة عندهم بقدر الله تعالى وسره

---

(١) الجميم ــ بفتح الجيم ــ ماغطى الأرض من النبات ، والهشيم ــ بفتح الهاء ــ النبت المتكسر (٢) ابن جلا : القمر ، وجلا : الشمس (٣) فى ا « محض الحقيقة » بالحاء المهملة (٤) زبدة الشيء ــ بالضم ــ خلاصته (٥) فى ب « قد أتحفه أبرقة بغداده » (٦) فى ا « عارضا يبرد القلوب الهيم يهمى » (٧) فى ا « بن الفرس »

فى خليقته أن كل سنة أولها ثاء مثلثة[١] يكون فيها الوباء ، والله تعالى أعلم ، وأن هذا مُتعَارَفٌ عندهم ، هكذا قال لى ، وعِيبَ ما يقع من بعض النقاد بتونس وما يصدر عنهم بكثرةٍ من إلقائهم الأسئلة العويصة فى أصول الدين وغيرها على مَنْ يرد عليهم قصداً فى تعجيزهِ وتعنيته ، ثم قال : إن من المنقول عن الإمام أبى حنيفة رحمه الله تعالى أن من حفظت عنه تسعة وتسعون خصلة تقتضى الكفر وواحدة تقتضى الإيمان أن الواحدة المقتضية للإيمان تغلب وتبقى حرمتها عليه ، انتهى .

وقد ذكرنا فى الباب الأول من هذا القسم حكاية البصرى المغنى القادم من المشرق من البصرة على عبد الوهاب الحاجب بإفريقية فى دولة بنى المعز بن باديس، وسَرَدْنَا دخوله عليه فى مجلس أنسه ، وما اتفق فى ذلك له معه ، وأنه وصف له بلاد الأندلس وحسنها وطيبها ، فارتحل المغنى إليها ، ومات بها ، حسبما لخصناه من كلام الكاتب ابن الرقيق[٢] الأديب المؤرخ فى كتابه « قطب السرور » ولولا أنه لم يسم المغنى المذكور لجعلنا له ترجمة فى هذا الباب ، إذ هو به أليق ، والأمر فى ذلك سَهْل ، والله تعالى الموفق للصواب .

الشيخ يوسف الدمشقى الشاذلى

ومنهم الولى الصالح العارف بالله سيدى يوسف الدمشقى ، رضى الله تعالى عنه !

وهو كما قال ابن داود من كبار الأولياء ، شاذلى الطريقة ، قدم من المشرق إلى الأندلس ، وكان يأتى مدينة وادى آش الكَرَّةَ بعد الكرة لزيارة معارِفَ له بها ، وكان من الذين أخفاهم الله ، لا يعرف به إلا من تعرف له ، أعاد الله تعالى علينا من بركاته ! .

قال العلامة ابن داود : وحدثنى مولاى والدى رضى الله تعالى عنه من لفظه

---

(١) أى سنة ثنتين ، وثلاث ، وثمان ، وثنتاعشرة ، وثلاثعشرة ، وثمانعشرة ، وهكذا . والحمد لله الذى أذهب عن مصر هذا الوباء بفضل ما علمه عباده من وسائل حفظ الصحة ؛ إن ربنا لغفور شكور .

(٢) انظر ص ١٢٨ و ١٢٩ و ١٣١

بتلمسان أمنها الله تعالى يوم الاثنين لثنتى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأوّل الشريف سنة ٨٩٥ ، قال : دخل علىّ سنةً شهرُ رمضان المعظم فى زمان ولايتى الخطابة والإمامة بالعراص من خارج وادى آش ، أعادها الله تعالى ! فقعدت أوّل ليلة منه منفرداً بالمسجد الأعظم من الرباط المذكور بين العشاءين ، وفكرتُ فى ذكرٍ أتخذه فى هذا الشهر المبارك يكون جامعا بين الدنيا والآخرة ، فأجمعت على مطالعة حِلْية النواوى لعلِّى أقف على ما أختاره لذلك ، فلما أصبحت دخلت إلى المدينة ، ولم أكن أطلعتُ على فكرتى أحداً ، فلقينى الحاج الأستاذ أبو عبد الله ابن خلف رحمه الله تعالى فى الطريق ، فقال لى : سيدى يوسف الدمشقى يسلم عليك ويقول لك : الذكر الذى تعمر به هذا الشهر الفاضل « اللهم ارزقنى الزهد فى الدنيا ، ونَوِّرْ قلبى بنور معرفتك » قال والدى رضى الله تعالى عنه : وكان هذا سبب تعرفى له ، ولقائى إياه ، وكنت قبل ذلك منكراً عليه لكثرة الدعاوى فى هذا الطريق ، نفع الله تعالى به ! انتهى .

ولنجعل هذه الترجمة آخر هذا الباب ، تبركا بهذا الولى الصالح ، نفعنا الله تعالى ببركاته ! مع علمى بأن الوافدين من المشرق على الأندلس كثيرون جداً ، إلا أن عدم المادة التى أستعين بها فى هذه البلاد تبين عذرى ، ولو اجتمعت على كتبى المخلّفة بالمغرب لأتيت فى ذلك [وغيره] بما يشفى ويكفى

* وفى الإشارة ما يُغْنِى عن الكَلِمِ *

* * *

الباب السابع

في نبذة مما منّ الله تعالى به على أهل الأندلس من توقد الأذهان ، و بذلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عَزَّ وهان ، وحَوْزهم في ميدان البراعة ، من قصب اليراعة ، خَصْل الرهان ، وجملة من أجوبتهم ، الدالة على لَوْذَعيتهم ، وأوصافهم المؤذنة بألمعيتهم ، وغير ذلك من أحوالهم التي لها على فضلهم أوضح برهان

اعلم أن فضل أهل الأندلس ظاهر ، كما أن حسن بلادهم باهر ، ولذلك ذكر ابنُ غالب في « فرحة الأنفس » لما أثنى على الأندلس وأهلها أن بَطْلَيْمُوسَ جعل لهم من أجل ولاية الزُّهَرَة لبلادهم حُسْنَ الهمة في الملبس والمطعم ، والنظافة والطهارة ، والحب للهو والغناء ، وتوليد اللحون ، ومن أجل ولاية عُطَارِد حسنَ التدبير ، والحرص على طلب العلم ، وحبَّ الحكمة والفلسفة والعدل والإنصاف .

وذكر ابنُ غالب أيضا ما خُصُّوا به من تدبير المشتري والمريخ

وانتقد عليه بعضُهم بأن أقاليم الأندلس الرابع والخامس والسادس في ساحلها الشمالي ، والسابع في جزائر المجوس ، وللاقليم الرابع الشمس ، وللخامس الزهرة ، وللسادس عُطَارِد ، وللسابع القمر ، والمشتري للاقليم الثاني ، والمريخ للثالث ، ولا مَدْخَل لهما في الأندلس ، انتهى .

ثم قال صاحب الفرحة : وأهلُ الأندلس عرب في الأنساب ، والعزة ، والأنَفَة ، وعُلُوّ الهمم ، وفصاحة الألسُن ، وطيب النفوس ، وإباء الضيم ، وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما في أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع و إتيان الدنية ، هِنديُّون في إفراط عنايتهم بالعلوم ، وحبهم فيها ، وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون في نظافتهم وظَرْفهم (١) ، ورقة أخلاقهم ونباهتهم ، وذكائهم ، وحسن نظرهم ،

---

(١) في ا « في ظرفهم ونظافتهم »

وجَوْدة قرائحهم ، ولطافة أذهانهم ، وحِدَّة أفكارهم ، ونفوذ خَوَاطرهم ، يونانيون فى استنباطهم للمياه ، ومُعانَاتهم لضروب الغراسات ، واختيارهم لأجناس الفواكه ، وتدبيرهم لتركيب الشجر ، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر ، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة ، ومنهم ابن بصال صاحب كتاب الفلاحة الذى شهدت له التجربة بفضله ، وهم أصبر الناس على مُطَاولة التعب فى تجويد الأعمال ومُقاساة النَّصَب فى تحسين الصنائع ، أحذق الناس بالفرُوسية ، وأبصرهم بالطعن والضرب .

وعَدَّ رحمه الله تعالى من فضائلهم اختراعَهم للخطوط المخصوصة بهم ، قال : وكان خطهم أولا مشرقيا ، انتهى .

قال ابن سعيد : أما أصول الخط المشرقى وما تجد له فى القلب واللحظ من القبول فمسَلّم له ، لكن خط الأندلس الذى رأيتُه فى مصاحف ابن غطوس الذى كان بشرق الأندلس وغيره من الخطوط المنسوبة عندهم له حسن فائق ، ورونق آخذ بالعقل ، وترتيب يشهد لصاحبه بكثرة الصبر والتجويد ، انتهى .

ونحوُ صدرِ كلام ابن غالب السابق مذكورٌ فى رسالة لابن حزم ، وقال فيها : إن أهل الأندلس صينيون فى إتقان الصنائع العملية ، و إحكام المِهَن الصورية ، تُرْكِيون فى مُعَاناة الحروب ، ومعالجات آلاتها ، والنظر فى مهماتها ، انتهى .

وعد ابنُ غالب من فضائلهم (١) اختراعَهم للموشحات التى [قد] استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعها ، وأما نظمهم ونثرهم فلا يخفى على مَنْ وقف عليهما علوّ طبقاتهم .

ثم قال ابن غالب : ولما نَفَذَ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم

---

(٢) فى ب « وعد ابن غالب فى فضائلهم »

عنها فى هذه الفتنة الأخيرة المُبيرة[١] تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العُدْوة مع بلاد إفريقية ، فأما أهل البادية فمالوا فى البوادى إلى ما اعتادوه ، وداخلوا أَهْلَها ، وشاركوهم فيها ، فاستنبطوا المياه ، وغَرَسوا الأشجار ، وأحدثوا الأرحِى[٢] الطاحنة بالماء وغير ذلك ، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها ، فشرفت بلادهم ، وصلحت أمورهم ، وكثرت مُسْتَغَلاَّتهم ، وعمتهم الخيرات ، فهم أشبه الناس باليونانيين فيما ذكرت ولأن اليونانيين سكنوا الأندلس فورثوا عنهم ذلك ، وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها ، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجُبَاة الأموال والمستعملون فى أمور المملكة ، ولا يستعمل بلدى ما وجد أندلسى ، وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، وأخملوا أعمالهم[٣] ، وصيروهم أتباعاً لهم ، ومتصرفين بين أيديهم ، ومتى دخلوا فى شغل عملوه فى أقرب مدة ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يُميلون به النفوسَ إليهم ، ويصير الذكر لهم ، قال : ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهل أو مبطل ، انتهى .

وقال ابن سعيد ، لما ذكر جملة من محاسن الأندلسيين : يعلم الله تعالى أنى ما أقصد إلا إنصاف المنصفين[٤] الذين لا يميل بهم التعصب ، ولا يجمح بهم الهوى ، ولكن الحق أحَقُّ أن يتبع ، فلعل مُطَّلعاً يقف على ماذكره ابن غالب : فيقول : هذا الرجل تعصب لأهل بلده ، ثم يغمس التابع له والراضى بنقل قوله فى هذه الصبغة ويحمله على ذلك بعده عن الأرضين

ولو أبصرُوا لَيْلَى أقرُّوا بحسنها ... وقالوا بأنى فى الثناء مُقَصِّر

---

(١) المبيرة : المهلكة (٢) الأرحى : جمع رحى

(٣) فى ب « وأجملوا أعمالهم » والسياق يقتضى ما أثبتناه موافقا لما فى ا

(٤) فى ب « إنصاف المصنفين »

ويكفى فى الإنصاف أن أقول : إن حضرة مراكش هى بغداد المغرب ، وهى أعظم مافى بر العُدْوَة ، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة و بساتينها إنما ظهرت فى مدة بنى عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم ، وذلك مشهور معلوم إلى الآن ، ومدينة تونس بإفريقية قد انتقلت إليها السعادة التى كانت فى مراكش بسلطان إفريقية الآن أبى زكريا يحيي بن أبى محمد بن أبى حَفْص ، فصار فيها من المبانى والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس وعرفاء صناعه من الأندلس وتماثيله التى يبنى عليها ، و إن كان أعرف خلق الله باختراع محاسن هذا الشان ، فإنما أكثرها من أوضاع الأندلسيين ، وله من خاطره تنبيهات وزيادة ظَهَرَ حسن موقعها ، ووجوهُ صنائع دولته لا [تكاد] تجدهم إلا من الأندلس فصح قول ابن غالب ، انتهى .

قال الحميدى : أنشد بحضرة بعض ملوك الأندلس قطعة لبعض أهل المشرق ، وهى :

وماذا عليهم لو أجابوا فسلموا ... وقد علموا أنى المَشُوقُ المتيم[1]

سَرَوْا ونجومُ الليل زُهْرٌ طوالع ... على أنهم بالليل للناس أنجم

وأخفَوْا على تلك المطايا مسيرهم ... فَنَمَّ عليهم فى الظلام التبسُّمُ[2]

فأفرط بعض الحاضرين فى استحسانها ، وقال : هذا مالا يقدر أندلسى على مثله ، وبالحضرة أبو بكر [بن][3] يحيي بن هذيل ، فقال بديها :

عرفت بعَرْفِ الريح أين تيمموا ... وأين استقلَّ الظاعنون وخيَّموا

خليلى رُدَّانى إلى جانب الحمى ... فلست إلى غير الحمى أتيمَّمُ

أبيت سمير الفرقدين كأنما ... وِسادى قَتادٌ أو ضَجيعى أرقَمُ

وأحْوَرَ وَسْنان الجفونِ كأنه ... قضيبٌ من الريحان لَدْنٌ منعم

نظرت إلى أجفانه و إلى الهوى ... فأيقنت أنى لست منهنّ أسلم

---

(١) فى ا « وماذا عليهم لو أثابوا فسلموا »

(٢) فى ا « فنم عليها فى الظلام التبسم » (٣) زيادة فى ا

كما أن إبراهـــيم أوّل نظرة رأى فى الدرارى أنه سوف يَسْقَمُ(١)

ومن كلام ابن بسام صاحب «الذخيرة» : فى جزيرة الأندلس أشراف عرب المشرق افتتحوها ، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقى النسل فيها بكل إقليم ، على عرق كريم ، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر ، وشاعر قاهر .

وذكر أن أبا على البغدادى صاحب الأمالى الوافدَ على الأندلس فى زمان بنى مروان قال : لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمرُّ به من أهل الأمصار فأجدهم درجاتٍ فى العبارات وقلة الفهم ، بحسب تفاوتهم فى مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هى منازلهم من العلم مُحَاصَّة ومُقايسة . قال أبو على : فقلت إن نَقَصَ أهل الأندلس عن مقادير مَنْ رأيتُ فى أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم فسأحتاج إلى تَرْجُمَان ، فى هذه الأوطان ، قال ابن بسام : فبلغنى أنه كان يَصِلُ كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق الأندلسى فى ذكائهم ، و يتغطى عنهم عند المباحثة والمناقشة(٢) ، و يقول لهم : إن علمى علم رواية ، وليس علم(٣) دراية ، فخذوا عنى مانقلت ، فلم آل لكم أن صححت ، هذا مع إقرار الجميع له يومئذ بسَعَة العلم وكثرة الروايات ، والأخذ عن الثقات ، انتهى .

ومن كلام الحِجَارىّ فى « المسهب » :

الأندلس عِرَاقُ المغرب عِزَّةَ أنساب، ورقّةَ آداب ، واشتغالا بفنون العلوم(٤) ، وافتنانا فى المنثور والمنظوم ، لم تضق لهم فى ذلك ساحة ، ولا قصرت عنه راحة ، فما مُرَّ فيها بمصرٍ إلا وفيه نجوم و بدور وشموس ، وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى فى بلادهم ، وجعله نُصْبَ أعينهم من الأشجار والأنهار والطيور(٥) والكؤوس،

(١) يشير إلى ماحكاه الله تعالى عن الخليل إبراهيم عليه السلام ، فى قوله (فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم) والدرارى فى البيت بمعنى النجوم

(٢) فى ا « المباحثة والمفاتشة » (٣) فى ا « وليس بعلم دراية »

(٤) فى ا « بفنون العلم » وماأثبتناه موافق لمافى ب أوفق للسجع (٥) فى ا « والأطيار »

لاينازعهم أحد فى هذا الشان ، وابنُ خفاجة سابقهم فى هذا المِضمَار الحائز فيه قصب الرهان ، وأمّا إذا هَبَّ نسيم ، ودار كأس فى كف ظَبْى رخيم ، ورجع بَمّ وزير ، وصفق للماء خرير ، أو رَقّتْ العشية ، وخلعت(١) السحب أبرادَهَا الفضية والذهبية ، أوتبسَّم عن شعاعٍ ثغرُ نهر ، أو ترقرق بطَلٍّ جفْنُ زهر ، أو خَفَق بارق ، أو وصل طيف طارق ، أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح ، وبات مع مَنْ يَهْوَاه كالمـاء والراح ، إلى أن وَدَّع حين أقبل رائدُ الصباح ، أوأزهرت دوحة السماء بزهْرِ كوا كبها ، أو قوّضت عند فيض نهر الصباح بيض مضاربها ، فأولئك هم السابقون السابقون ، الذين لايُجَارَوْنَ ولا يلحقون ، وليسوا بالمقصِّرين فى الوصف إذا تقعقعت السلاح ، وسالت خُلْجَانُ الصَّوَارم بين قُضْبان الرماح ، و بنت الحرب من العَجَاج سماء ، وأطلعت شبهَ النجوم أسنّةً وأجرت شـبه الشَّفَق دماء ، و بالجملة فإنهم فى جميع الأوصاف والتخيلات أئمة ، ومَنْ وقَف على أشعارهم فى هذا الشأن فَضَّلهم فيـه على أصناف الأمة ، وقد أعانتهم على الشعر أنسابُهم العربيـة ، و بقاعهم النَّضْرَة وهممهم الأبية ، ولشطار الأندلس من النوادر والتنكيتات ، والتركيبات وأنواع المضحكات ، ما تملأ الدواوينَ كثرتهُ ، وتضحك الثكلى وتُسَلِّى المسلوبَ قصته ، مما لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ماحكى وما ركب ، ولااُستغرب أحَدٌ ما أورده ولاتعجب ، إلا أن مؤلِّفى هـذا الأفق طمحت هممهم عن التصنيف فى هذا الشأن فكاد يمرّ ضياعا ، فقمت محتسبا بالظرف(٢) فتداركته جامعا فيه ما أمسى شَعَاعا(٣) ، انتهى .

رسالة ابن حزم في فضائل أهل الاندلس

وقد رأيت أن أذكر رسالة أبى محمد بن حزم الحافظ التى ذكر فيها بعض فضائل علماء الأندلس ، لاشتمالها على ما نحن بصدده ، وذلك أنه كتب أبو على

(١) فى ا « وخلقت السحب » محرفا (٢) في ا « فقمت محتسبا للظرف »

(٣) شعاعا ـ بالفتح ، بزنة سحاب ـ أى متفرقا

الحسن بن محمد بن أحمد بن الرَّبيب التميمى القيروانى ، إلى أبى المغيرة عبد الوهاب ابن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم يذكر تقصير أهل الأندلس فى تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم ، ما صورته :

كتاب ابن الربيب يعيب أهل الأندلس

كتبتُ يا سيدى ، وأجلَّ عُددى ، كتب الله تعالى لك السعادة ، وأدام لك العز والسيادة ، سائلا مسترشدا ، وباحثا مستخبرا ، وذلك أنى فكرت فى بلادكم إذ كانت قَرَارة كل فضل، ومَنْهَل كل خير ونُبْل[1]، ومصدر كل[2] طُرْفة ، ومورد كل تحفة ، وغاية آمال الراغبين ، ونهاية أمانى الطالبين ، إن بارت تجارةٌ فإليها تُجْلَب ، وإن كسَدَت بضاعة ففيها تنفق ، مع كثرة علمائها ، ووفور أدبائها[3] ، وجَلالة ملوكها ، ومحبتهم فى العلم ، وأهلُه يُعَظّمون من عَظّمه علمُه ، ويرفعون من رفعه أدبه ، وكذلك سيرتهم فى رجال الحرب : يقدمون من قدمته شجاعته ، وعظمت فى الحروب نكايته ، فشجع الجبان ، وأقدم الهَيَّبان ، ونبُهَ الخامل ، وعلم الجاهل ، ونطق العِيّ ، وشعَرَ البَكِى ، واستنسر البغَاث ، وتَثَعْـبَن الحُفاث ، فتنافس الناس فى العلوم ، وكثر الحذاق بجميع الفنون ، ثم هم مع ذلك فى غاية[4] التقصير ونهاية التفريط ، من أجل أن عُلماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم ، وخلدوا فى الكتب مآثر بُلْدَانهم ، وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكرا فى الغابرين يتجدد على مر الليالى والأيام ، ولسانَ صدقٍ فى الآخرين ، يتأكد مع تصرف الأعوام ، وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم كلٌّ امرىء منهم قائم فى ظله لا يبرح ، وراتب[5] على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صَنّف ، أن يُعنَّف ، وإن ألف أن يخَالَف ، ولا يؤالف ، أو تخطفه الطير أو تَهوِى به الريح فى مكان سحيق ، لم يتعب أحد منهم نفسا فى جمع

(١) كلمة « ونبل » ساقطة من ا (٢) فى ا « ومقصد كل طرفه »

(٣) فى ا « ووفور آدابها » (٤) فى ا « على غاية التقصير »

(٥) راتب : أى ثابت

فضائل أهل بلدهِ ، ولم يستعمل خاطره فى مَفَاخر ملوكه ، ولا بلّ قلماً بمناقب كتابه ووزرائه ، ولا سوّد قرطاساً بمحاسن قُضَاته وعلمائه ، على أنه لو أطلق ما عَقَل الإغفالُ من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه ، لوجد للقول مَسَاغًا ، ولم تضق عليه المسالك ، ولم تخرج به المذاهب ، ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد ، ولكن همّ أحدهم أن يطلب شأْوَ من تقدمه من العلماء ليحوز(١) قصبات السبق ، ويفوز بقِدْح ابن مُقْبل ، ويأخذ بكَظْم دغفل ، ويصير شَجاً فى حلق أبى العَمَيْثَل ، فإذا أدرك بغيته ، واُخترمته مَنِيته ، دفن معه أدبه وعلمه ، فمات ذكره ، وانقطع خبره ، ومَنْ قدمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيالَ الأكياس ، فألفوا دواوين بقى لهم بها ذكر مُجَدَّد طولَ الأبد .

فإن قلت : إنه كان مثل ذلك من علمائنا ، وألفوا كتبا لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يَصْحَبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم غير رَوْحة راكب ، أو رحلة قارب ، لو نَفَث من بلدكم مصدور ، لأسمع من ببلدنا فى القبور ، فضلا عمن فى الدور والقصور ، وتَلَقَّوْا قوله بالقبول كما تلقوا ديوان أحمد بن عبد ربه الذى سماه بالعقد ، على أنه يلحقه فيه بعضُ اللوم ، لاسيما إذ لم يجعل فضائل بلده واسِطَةَ عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه ، أكثر الحز وأخطأ المفصل ، وأطال الهزّ لسَيْفٍ غير مِقْصَل(٢) ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم ، وإغفال ما يهمهم .

فأرْشِدْ أخاك أرشدك الله ! واهْدِهِ هداك الله ! أن كانت عندك فى ذلك الجلية ، وبيدك فصْلُ القضية ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

---

(١) فى ا « ليحرز قصبات السبق »

(٢) فى ب « غير مصقل »

رد ابن حزم على كتاب ابن الربيب

فكتب الوزير الحافظُ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، عند وقوفه على هذه الرسالة ، ما نصه :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله ، وعلى أصحابه الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته الفاضلين الطيبين .

أما بعد يا أخي يا أبا بكر ، سلام عليك سلام أخ مشوق طالت بينه وبينك الأميال والفراسخ ، وكثرت الأيام والليالي ، ثم لقيك[1] في حال سفر ونُقْلة ، ووادَّك في خلال جَوْلة ورحلة ، فلم يقض من محاورتك[2] أرَبًا ، ولا بلغ في محاورتك مطلباً ، وإني لما احتللت بك ، وجالت يدي في مكنون كتبك ، ومضمون دواوينك ، لمحت عيني في تضاعيفها درجا ، فتأملته ، فإذا فيه خطاب لبعض الكتاب من مصاقبينا في الدار أهل إفريقية ، ثم ممن ضمته حاضرةُ قَيْرُوَانهم ، إلى رجل أندلسي لم يعينه باسمه ، ولا ذكره بنسبه ، يذكر له فيها أن علماء بلدنا بالأندلس — وإن كانوا على الذِّرْوَة العليا من التمكن بأفانين العلوم ، وفي الغاية القُصْوَى من التحكُّم على وجوه المعارف — فإن هممهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ، ومكارم ملوكهم ، ومحاسن فقهائهم ، ومناقب قُضَاتهم ، ومفاخر كُتَّابهم ، وفضائل علمائهم ، ثم تعَدّى ذلك إلى أن أخْلى أرباب العلوم منا من أن يكون لهم تأليف يحيي ذكرهم ، ويُبْقى علمهم ، بل قطع على أن كل واحد منهم قد مات فدفن علمه معه ، وحقق ظنه في ذلك ، واستدل على صحته عند نفسه بأن شيئاً من هذه التآليف لو كان منا موجوداً لكان إليهم منقولا ، وعندهم ظاهراً ، لقرب المزار ، وكثرة السُّفَّار ، وترددِهم إليهم ، وتكررهم علينا ، ثم لما ضمنا المجلسُ الحافل بأصناف الآداب ، والمشهد الآهل بأنواع العلوم ، والقصر المعمور بأنواع الفضائل ،

---

(١) في ا ، ب « ثم لقيتك في حال سفر » والحديث كله جار على الغيبة

(٢) في ا « فلم يقض من مجاورتك . . . من محاورتك مطلبا »

والمنزل المحفوف بكل لطيفة وسيعة من دقيق المعانى وجليل المعالى ، قَرَارَة المجد ومحل السودد ، ومحطُّ رحال الخائفين ، ومُلْقَى عصا التَّسْيار عند الرئيس الأجل الشريف قديمُه وحسبُه ، الرفيع حديثُه ومكتسبُه ، الذى أجله عن كل خطة يشركه فيها من لا توازى قومته نومته ، ولا ينال حُضْرهُ هُوَيْناه(١) ، وأربى به عن كل مرتبة يلحقه فيها مَنْ لا يسمو إلى المكارم سموه ، ولا يدنو من المعالى دنوّه ، ولا يعلو فى حميد الخلال علوّه ، بل أكْتَـفِى من مدحه باسمه المشهور ، وأجتزى من الإطالة فى تقريظه بمنتماه المذكور ، فحسبى بذينك العَلَمين دليلا على سَعْيه المشكور ، وفضله المشهور ، أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم صاحب البونت أطال الله بقاءه ! وأدام اعتلاءه ! ولا عَطّل الحامدين من تحليهم بحُلاَه ! ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه ! فرأيته أعزه الله تعالى حريصاً على أن يجاوب هـذا المخاطِب ، وراغباً فى أن يبين له ما لعله قد رآه فنسى أو بعد عنه فخفى ، فتناولت الجوابَ المذكور بعد أن بلغنى أن ذلك المخاطب قد مات ، رحمنا الله تعالى و إياه !

فَلَمْ يكن لقصده بالجواب معنى ، وقد صارت المقابر له مَغْنى ، فلسنا بمُسْمِعين مَنْ فى القبور ، فصرفت عِنَانَ الخطاب إليك ، إذ مِنْ قبلك صرت إلى الـكتاب المجاوَبِ عنه ، ومن لدنك وصلت إلى الرسالة المعارضة ، وفى وصول كتابى على هذه الهيئة حيثما وصل كفاية لمن غاب عنه من أخبار تآليف أهل بلدنا مثل ماغاب عن هذا الباحث الأول ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، و إن كنت فى إخبارى إياك بمـا أرسمه فى كتابى هذا كمهدٍ إلى البُرْكَان نارَالْحُبَاحب(٢)، وبانى صُوًى(٣) فى مَهْيَع القَصْد اللاحب ، فإنك و إن كنت المقصود والمواجَه ، فإنمـا المراد من أهل تلك الناحية مَنْ نأى عنه علم ما استجلبه السائل الماضى ، وماتوفيقى إلابالله سبحانه .

---

(١) الحضر – بضم الحاء وسكون الضاد – شدة العدو (٢) الحباحب : ذباب يطير بالليل له شعاع فى ذنبه كالسراج ، وربما قالوا الحباحب اسم للشعاع الذى يرى فى ذنبه .

(٣) فى ب «وبانى رضوى» محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ا ، والصوى : علامات توضع فى الطريق لهداية السالـكين ، وفى الحديث «إن للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق»

فأما مآثر بلدنا فقد ألف فى ذلك أحمد بن محمد الرازى التاريخى كتباً جمة : منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها ، وأمهات مدنها وأجنادها الستة ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه مما ليس فى غيره ، وهو كتاب مريح مليح ، وأنا أقول : لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بَشّر به ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرة فى الحديث الذى رَوَيناه من طريق أبى حمزة أنَس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان زوج أبى الوليد عُبَادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه وعنهم أجمعين حدثته عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أخبرها بذلك ، لكفى شرفاً بذلك يَسُرُّ عاجله ، ويغبط آجله .

فإن قال قائل : لعله صلوات الله تعالى عليه إنما عَنَى بذلك الحديث أهلَ صقلية وإقريطش ، وما الدليلُ على ما ادعيته من أنه صلى الله عليه وسلم عنى الأندلس حتما ؟ ومثلُ هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذُووَرَع دون برهان واضح، وبيان لائح ، لا يحتمل التوجيه ، ولا يقبل التجريح .

فالجواب ــ وبالله التوفيق ــ أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتى جوامعَ الكلم ، وفصل الخطاب ، وأمِرَ بالبيان لما أوحى إليه ، وقد أخبر فى ذلك الحديث المتصل سنده بالعدول عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثَبَجَ البحر(١) غزاة واحدة بعد واحدة ، فسألته أم حرام أن يدعو ربه تعالى أن يجعلها منهم ، فأخبرها صلى الله عليه وسلم وخبرُه الحق بأنها من الأولين ، وهذا من أعلام(٢) نبوته صلى الله عليه وسلم ، وهو إخباره بالشىء قبل كونه(٣) ، وصح البرهانُ على رسالته بذلك ، وكانت من الغزاة إلى قبرس ، وخرت عن بغلتها هناك ، فتوفيت ، رحمها الله تعالى ! وهى أول غَزَاة ركب فيها المسلمون البحر ، فثبت يقيناً أن الغُزَاة إلى قبرس هم

---

(١) ثبج البحر : وسطه (٢) أعلام النبوة : أراد دلائل نبوته وصدقه فى دعوى الرسالة
(٣) قبل كونه : أى قبل حدوثه

الأولون الذين بَشَّر بهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت أم حرام منهم كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، ولا سبيل أن يظن به وقد أوتى ما أوتى من البلاغة والبيان أنه يذكر طائفتين قد سمى إحداهما أولىٰ إلا والتالية لها ثانية ، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد ، وهذا مقتضى طبيعة صناعة المنطق ، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانيةٍ ، ولا الثانية ثانية إلا لأولى ، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلا بعد ثان ضرورة ، وهو صلى الله عليه وسلم إنما ذكر طائفتين ، و بشر بفئتين ، وسمَّى إحداهما الأولين ، فاقتضى ذلك بالقضاء الصدق آخرين ، والآخر من الأول هو الثانى الذى أخبر صلى الله عليه وسلم أنه خير القرون بعد قرنه ، وأولى القرون بكل فضل بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه خير من كل قرن بعده ، ثم ركب البحر بعد ذلك أيامَ سليمان بن عبد الملك إلى القسطنطينية ، وكان الأمير بها فى تلك السفن هُبَيرة الفزارى ، وأما صقلية فإنها فتحت صدر أيام الأغالبة سنة ٢١٢ ، أيام قاد إليها السفنَ غازياً أسدُ بن الفرات القاضى(١) صاحب أبى يوسف رحمه الله تعالى ، وبهامات ، وأما إقريطش فإنها فتحت بعد الثلاث والمائتين ، افتتحها أبو حفص عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ ، من أهل قرية بطروج من عمل فَحْص البَلُّوط المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس ، وكان من فلِّ الرَّبَضِيين ، وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذى غنمها فى أيام أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ ، وكان أكثر المفتتحين لها أهل الأندلس .

وأما فى قسم الأقاليم فإن قُرْطُبة مسقَطَ رؤسنا ، ومَعَقَّ(٢) تمائمنا ، مع سُرَّ من رأى فى إقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا ، و إن كانت الأنوار

(١) فى ب « الغازى صاحب أبى يوسف »

(٢) معق تمائمنا : أخذه من قول الشاعر :

بلاد بها عق الشباب تمائمى ... وأول أرض مس جلدى ترابها

ووقع فى ب « ومعلق تمائمنا »

لا تأتينا إلا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور ، وذلك عند المحسنين للأحكام التى تدل عليها الكواكب ناقص من قُوَى دلائلها ، فلها من ذلك على كل حال حظ يفوق حظ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد النَّيِّرَيْن بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة التمكن فى العلوم والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدق ذلك الخبر ، وأبانته التجربة ، فكان أهلها من التمكن فى علوم القراآت والروايات وحفظ كثير من الفقه والبصَر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكانٍ رَحْبِ الفناء ، واسع العَطَن ، متنائى الأقطار ، فسيح المجال ، والذى نعاه علينا الكاتبُ المذكور لوكان كما ذكر لكنا فيه شركاء لأكثر أمهات الحواضر ، وجلائل البلاد ، ومُتّسعات الأعمال ، فهذه القيروان بلد المخاطِبِ لنا ، ما أذكر أنى رأيت فى أخبارها تأليفاً غير « المعرب ، عن أخبار المغرب » وحاشى تآليف محمد بن يوسف الوراق ، فإنه ألف للمستنصر رحمه الله تعالى فى مسالك إفريقية وممالكها ديواناً ضخماً ، وفى أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتباً جمة ، وكذلك ألف أيضاً فى أخبار تيهرت ووهران وتونس(١) وسجلماسة ونكور(٢) والبصرة وغيرها تآليف حساناً ، ومحمد هذا أندلسى الأصل والفرع ، آباؤه من وادى الحِجَارة ، ومَدْفَنه بقرطبة ، وهجرته إليها ، وإن كانت نشأته بالقَيْرَوان .

ولابد من إقامة الدليل على ماأشرت إليه هنا إذ مرادنا أن نأتى منه بالمطلوب(٣) فيما يستأنف إن شاء الله تعالى ، وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين ، دون محاشاة أحد ، بل قد تيقَّنَّا إجماعهم على ذلك ، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التى استقر بها ولم يرحل عنها رحيلَ تركٍ لسكناها

---

(١) فى ا « وتنس » (٢) فى ب « وتكور »
(٣) فى ا « بالمطلب »

إلى أن مات ، فإن ذكروا الكوفيين من الصحابة رضى الله تعالى عنهم صدَّروا بعلى وابن مسعود وحُذيفة رضى الله تعالى عنهم ، وإنما سكن علىٌّ الكوفة خمسة أعوام وأشهراً ، وقد بقى ٥٨ عاما وأشهراً بمكة والمدينة شرفهما الله تعالى . وكذلك أيضا أكثر أعمار من ذكرنا ، وإن ذكروا البصريين بدؤا بعِمْران ابن حُصَيْن وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبى بكرة ، وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن أكثرهم وأكثرُ مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف ، وجمهرة أعمارهم حلت هنالك ، وإن ذكروا الشاميين نوّهوا بعُبَادة بن الصامت وأبى الدرداء وأبى عُبَيْدَة بن الجراح ومُعَاذ ومعاوية ، والأمرُ فى هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم ، وكذلك فى المصريين عَمْرو بن العاص وخارجة بن حُذَافة العَدَوى ، وفى المكيين عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير ، والحكم فى هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا ، فَمَنْ هاجر إلينا من سائر البلاد ، فنحن أحقّ به ، وهو منا بحكم جميع أولى الأمر منا الذين إجماعُهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ، ومن هاجر منا إلى غيرنا فلا حَظّ لنا فيه ، والمكان الذى اختاره أسعدُ به ، فكما لا ندَع إسماعيلَ بن القاسم فكذلك لا ننازع فى محمد بن هانىء سوانا ، والعدلُ أولى ماحُرِص عليه ، والنصف أفضل ما دُعى إليه ، بعد التفصيل الذى ليس هذا موضعه ، وعلى ما ذكرنا من الأنصاف تراضى الكل .

وهذه بغداد حاضرةُ الدنيا ومَعْدِن كل فضيلة ، والمحلة التى سبق أهلُها إلى حَمْل ألوية المعارف ، والتدقيق فى تصريف العلوم ، ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء وحدّة الأفكار ونَفَاذ الخواطر ، وهذه البصرة وهى عين المعمور فى كل ما ذكرنا ، وما أعلم فى أخبار بغداد تأليفا غير كتاب أحمد بن أبى طاهر ، وأما سائر التواريخ التى ألفها أهلُها فلم يخصُّوا بلدتهم بها دون سائر البلاد ، ولا أعلم فى أخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة ، وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب إلى

أبى سفيان فى خطط البصرة وقطائعها ، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبدالقاهر كريزى النسب وَصَفَاها وذكرا[١] أسواقها ومحالهاوشوارعها ، ولاأعلم فى أخبار الكوفة غير كتاب عمر بن شبة ، وأما الجبال وخُراسان وطبرستان وجُرْجان وكِرْمَان وسِجِسْتان والسِّند وأرمينية وأذربيجان وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا أعلم فى شىء منها تأليفا قصد به أخبار ملوك تلك النواحى ، وعلمائها وشعرائها وأطبائها ، ولقد تاقت النفوس[٢] إلى أن يتصل بها تأليف فى أخبار فقهاء بغداد ، وما علمناه علم[٣] ، على أنهم العلية الرؤساء ، والأكابر العظماء ، ولوكان فى شىء من ذلك تأليف لكان الحكم فى الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تآليفهم ، وكما بلغنا كتاب حمزة بن الحسن الأصبهانى فى أخبار أصبهان ، وكتاب الموصلى وغيره فى أخبار مصر ، وكما بلغنا سائر تآليفهم فى أنحاء العلوم ، وقد بلغنا تأليف القاضى أبى العباس محمد بن عبدون القيروانى فى الشروط ، واعتراضه على الشافعى رحمه الله تعالى ، وكذلك بلغنا رد القاضى أحمد بن طالب التميمى على أبى حنيفة وتشيعه على[٤] الشافعى ، وكتب ابن عبدوس[٥] ومحمد بن سحنون وغير ذلك من خوامل تآليفهم[٦] دون مشهورها .

وأما جهتنا فالحكم فى ذلك ما جرى به المثل السائر « أزهدالناس فى عالِمٍ أهلُه » وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبى حرمته إلافى بلده » وقد تيقنا ذلك بمالقى النبى صلى الله عليه وسلم من قريش ، وهم أوفر الناس أحلاما ، وأصحهم عقولا ، وأشدهم تثبتاً ، مع ماخُصُّوابه من سكناهم أفضلَ

---

(١) فى ا « فى وصفها وذكر أسواقها ومحالها ـ إلخ »
(٢) تاقت النفوس تتوق توقا : اشتاقت (٣) لعل الأصل « وما علمناه عمل »
(٤) فى ب « وتشنيعه على الشافعى »
(٥) فى نسخة عند ب « وكتب ابن عبدون »
(٦) فى ا « حواصل تآليفهم » محرفا

البِقَاع ، وتغذيتهم بأكرم المياه ، حتى خص الله تعالى الأوسَ والخزرج (١) بالفضيلة التى أبانهم (٢) بها عن جميع الناس ، والله يؤتى فضله من يشاء .

ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلِها للعالِم الظاهر فيهم الماهر منهم ، واستقلالهم كثيرَ ما يأتى به ، واستهجانهم حسناتِهِ ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدّة حياته ، بأضعاف مافى سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق مغير ومنتحل مدّع ، و إن توسط قالوا : غث بارد وضعيف ساقط ، و إن باكر الحيازة لقصب السَّبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفى أى زمان قرأ ؟ ولأمِّه الهَبَل ! و بعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شُفُوفاً بائنا يعليه على نظرائه أو سلوكا فى غير السبيل التى عهدوها فهنالك حَمِىَ الوطيسُ على البائس ، وصار غَرَضا للأقوال ، وهَدَفا للمطالب ، ونصبا للتسبب إليه ، ونهبا للألسنة ، وعُرْضَة للتطرق إلى عرضه ، ور بما نُحل مالم يَقُل ، وطُوِّق مالم يتقلد ، وألحق به مالم يَفُه به ولااعتقده قلبه ، و بالحَرَى وهوالسابق المبرِّز إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من المَتالف و ينجو من المخالف ، فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض وهمز ، واشتط عليه ، وعظم يسيرُ خَطْبه ، واستشنع هين سَقَطه ، وذهبت محاسنه ، وسُترت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل ، فتنكسر (٣) لذلك همته ، وتكلُّ نفسه ، وتبرد حميته ، وهكذا عندنا نصيب من ابتدأ يحوك شعراً ، أو يعمل بعمل رياسة (٤) ، فإنه لا يُفْلت من هذه الحبائل ، ولايتخلص من هذه النُّصُبِ إلا الناهض الفائت والمطفف المستولى على الأمد .

وعلى ذلك فقد جمع ماظنه الظان غير مجموع ، وألفت عندنا تآليف فى غاية الحسن ، لنا خَطَرَ السبق فى بعضها : فمنها كتاب « الهداية » لعيسى بن دينار ،

---

(١) الأوس والخزرج : هم أهل المدينة المنورة الذين هاجر إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فكان لهم شرف إيوائه ونصرته (٢) أبانهم : أى ميزهم وأظهرهم

(٣) فى ا « فتنكس لذلك همته » (٤) فى ا « أو يعمل رسالة »

وهى أرفع كتب جمعت فى معناها على مذهب مالك وابن القاسم ، وأجمعها للمعانى الفقهيَّة على المذهب ، فمنها كتاب الصلاة وكتاب البيوع وكتاب الجدار فى الأقضية وكتاب النكاح والطلاق ، ومن الكتب المالكية التى ألفت بالأندلس كتاب القصىّ مالك بن على ، وهو رجل قرشى من بنى فهرلقى أصحاب مالك وأصحاب أصحابه وهو كتاب حسن فيه غرائب ومستحسنات من الرسائل المولدات ، ومنها كتاب أبى إسحاق إبراهيم بن مزين فى تفسير الموطأ والكتب المستقصية لمعانى الموطأ وتوصيل مقطوعاته من تآليف ابن مزين أيضا ، وكتابه فى رجال الموطأ وما لمالك عن كل واحد منهم من الآثار فى مُوَطَّئه .

وفى تفسير القرآن كتاب أبى عبد الرحمن بقى بن مخلد فهو الكتاب الذى أقْطَعُ قطعا لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف فى الإسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره .

ومنها فى الحديث مصنفه الكبير الذى رتبه على أسماء الصحابة رضى الله تعالى عنهم ! فروى فيه عن ألف وثلثمائة صاحب ونيف ، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنف ومسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه و إتقانه واحتفاله فى الحديث وجودة شيوخه ، فإنه روى عن مائتى رجل وأربعة وثمانين رجلا ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلام مشاهير ، ومنها مصنفه فى فضل الصحابة والتابعين ومَنْ دونهم الذى أرْبَى فيه (١) على مصنف أبى بكر بن أبى شيبة ومصنف عبد الرزاق بن همام ومصنف سعيد بن منصور وغيرها وانتظم علما عظيما لم يقع فى شىء من هذه ، فصارت تآليف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام ، لا نظير لها ، وكان متخيِّراً لا يقلد أحداً ، وكان ذا خاصة

---

(١) أربى فيه : زاد

من أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه ! .

ومنها فى أحكام القرآن كتاب ابن أمية الحجارى ، وكان شافعى المذهب بصيرا بالكلام على اختياره ، وكتاب القاضى أبى الحكم منذر بن سعيد ، وكان داودى المذهب قوياً على الانتصار له ، وكلاهما فى أحكام القرآن غاية ، ولمنذر مصنفات منها كتاب « الإبانة ، عن حقائق أصول الديانة »

ومنها فى الحديث مصنف أبى محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح ، ومصنف محمد بن عبد الملك بن أيمن ، وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه على ماليس فى كثير من المصنفات ، ولقاسم بن أصبغ هذا تآليف حسان جداً ، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل وكلامه ، ومنها كتاب « المجتبى ، على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى » وهو خير منه وأنقى حديثاً وأعلى سنداً وأكثر فائدة ، ومنها كتاب فى فضائل قريش [وكِنَانَة] ، وكتابه فى الناسخ والمنسوخ ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس فى الموطأ ، ومنها كتاب « التمهيد » لصاحبنا أبى عمر يوسف بن عبد البر ، وهو الآن يعدّ فى[1] الحياة لم يبلغ سنّ الشيخوخة ، وهو كتاب لا أعلم فى الكلام على فقه الحديث مثله أصلا فكيف أحسن منه ، ومنها كتاب « الاستذكار » وهو اختصار التمهيد المذكور ، ولصاحبنا أبى عمر بن عبد البر المذكور كتبٌ لامثيل لها : منها كتابه المسمى بالكافى فى الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر كتاباً اقتصر فيه على ما بالمفتى الحاجة إليه وبوّبه وقربه فصار مغنياً عن التصنيفات الطوال فى معناه ، ومنها كتابه فى الصحابة ليس لأحد من المتقدمين مثله على كثرة ما صنفوا فى ذلك ، ومنها كتاب « الاكتفاء ، فى قراءة نافع وأبى عمرو بن العلاء ، والحجة لكل واحد منهما »

---

(١) فى ا « وهو الآن بعد فى الحياة »

ومنها كتاب « بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، مما يجرى فى المذاكرات ، من غرر الأبيات ونوادر الحكايات » ومنها كتاب « جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغى فى روايته »

ومنها كتاب شيخنا القاضى أبى الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن الفرضى فى المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال ، ولم يبلغ عبد الغنى الحافظ البصرى فى ذلك إلا كتابين ، و بلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين لا أعلم مثله فى فنه البتة ، ومنها تاريخ أحمد بن سعيد ، ماوضع فى الرجال أحد مثله إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلى البغدادى ، ولم أره ، وأحمد بن سعيد هو المتقدّم فى التأليف[(١)] القائم فى ذلك ، ومنها كتب محمد بن يحيى بن مفرج القاضى ، وهى كثيرة منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصرى ، وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهرى

ومما يتعلق بذلك شرح الحديث لعامر بن خلف السرقسطى ، فما شآه[(٢)] أبو عبيد إلا بتقدم العصر فقط .

ومنها فى الفقه « الواضحة » والمالكيون لا تمانع بينهم فى فضلها واستحسانهم إياها ، ومنها « المستخرجة من الأسمعة » وهى المعروفة بالعتبية ، ولها عند أهل إفريقية القدر العالى والطيران الحثيث ، والكتاب الذى جمعه أبو عمر أحمد بن عبد الملك ابن هشام[(٣)] الإشبيلى المعروف بابن الكوى[(٤)] ، والقرشى أبو مروان المعيطى فى جمع أقاويل مالك كلها على نحو الكتاب الباهر الذى جمع فيه القاضى أبو بكر محمد بن أحمد بن الحدّاد البصرى أقاويل الشافعى كلها ، ومنها كتاب « المنتخب » الذى ألفه القاضى محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة ، ومارأيت لمالكى قط كتابا أنبل منه فى جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها وتفريع وجوهها ، وتآليف قاسم بن محمد

---

(١) فى ا « المتقدم إلى التأليف » (٢) شآه : فاقه ، وزاد عليه
(٣) فى ا « ابن هاشم »
(٤) فى ا « المعروف بابن المكوى » وفى نسخة عند ب « الكورى »

المعروف بصاحب الوثائق ، وكلاهما حسن فى معناه ، وكان شافعى المذهب نظارا جاريا فى ميدان البغداديين

ومنها فى اللغة الكتاب « البارع » الذى ألفه إسماعيل بن القاسم يحتوى على لغة العرب ، وكتابه فى المقصور والممدود والمهموز لم يؤلف مثله فى بابه ، وكتاب الأفعال لمحمد بن عمر بن عبد العزيز[(١)] المعروف بابن القوطية بزيادات ابن طريف مولى العبيديين[(٢)] فلم يوضع فى فنه مثله ، وكتاب جمعه أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التيانى[(٣)] فى اللغة لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً وثقة نقل ، وهو أظن فى الحياة بعد

وههنا قصة لا ينبغى أن تخلو رسالتنا منها ، وهى أن أبا الوليد عبد الله بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الفرضى ، حدّثنى أن أبا الجيش مجاهدا صاحب الجزائر ودانية وجّه إلى أبى غالب أيام غلبته على مُرْسِية وأبو غالب ساكن بها ألفَ دينار أندلسية على أن يزيد فى ترجمة الكتاب المذكور « مما ألفه تمام بن غالب لأبى الجيش مجاهد» فرد الدنانير وأبى من ذلك ، ولم يفتح فى هذا بابا البتة ، وقال : والله لو بذل لى الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب ، لأنى لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب ، فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوّها ، واعجب لنفس هذا العالم [ونزاهتها]

ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد فى اللغة المعروف بكتاب « العالم » نحو مائة سفر على الأجناس فى غاية الإيعاب ، بدأ بالفلك وختم بالذرة ، وكتاب « النوادر » لأبى على إسماعيل بن القاسم ، وهو مبارٍ لكتاب « الكامل » لأبى العباس المبرد ، ولعمرى لئن كان كتاب أبى العباس أكثر نحواً وخبرا فإن كتاب أبى على لأكثر لغة وشعرا ، وكتاب «الفصوص» لصاعد بن الحسن[(٤)] الربَعى ، وهو جارٍ فى مضمار الكتابين المذكورين .

(١) فى ب ونسخة عند ا « لمحمد بن عامر العزى » (٢) فى ا « العبديين »

(٣) كذا فى ا وأصل ب ، وفى نسخة عند ب « اليتام »

(٤) فى نسخة عند ب « لصاعد بن الحسين » وانظر (ص ٧٥ من هذا الجزء)

ومن الأنحاء تفسير الحُوفِى لكتاب الكسائى، حسن فى معناه ، وكتاب ابن سيده فى ذلك المنبوز « بالعالم والمتعلم » وشرح له لكتاب الأخفش .

ومما ألف فى الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء فى أخبار شعراء الأندلس كتاب حسن ، وكتاب « الحدائق » لأبى عمر أحمد بن فرج عارض به كتاب الزهرة لأبى محمد بن داود رحمه الله تعالى ، إلا أن أبا بكر إنما أدخل مائة باب فى كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتى باب فى كل باب مائة بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبى بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئاً ، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد ، فبلغ الغاية ، وأتى الكتابُ فرداً فى معناه ، ومنها كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » جمعه أبو الحسن على بن محمد بن أبى الحسن الكاتب ، وهو حى بعد .

ومما يتعلق بذلك شرح أبى القاسم إبراهيم بن محمد [بن] الإفليلى لشعر المتنبى ، وهو حسن جداً .

ومن الأخبار تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازى فى أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم ، وذلك كثير جداً ، وكتاب له فى صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابنُ أبى طاهر فى أخبار بغداد وذكر منازل صحابة أبى جعفر المنصور بها ، وتواريخ متفرقة رأيت منها : أخبار عمر بن حفصون القائم برية ووقائعه وسيره وحروبه ، وتاريخ آخر فى أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقى القائم بالحوف(١) ، وفى أخبار بنى(٢) قيس والتُّجِيبيين وبنى الطوَيل والثغر ، وقد رأيت من ذلك كتباً مصنفة فى غاية الحسن ، وكتاب مجزأ فى أجزاء كثيرة فى أخبار رَيَّة وحصونها وحروبها وفقهائها وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق الليثى ، وكتاب محمد بن الحارث الخشنى فى أخبار

---

(١) فى ا « القائم بالجوف » (٢) فى ا « بنى قسىّ »

القُضَاة بقرطبة وسائر [بلاد] الأندلس ، وكتاب فى أخبار الفقهاء بها ، وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى فى أنساب مشاهير أهل الأندلس فى خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب فى الأنساب وأوسعها ، وكتاب قاسم بن أصبغ فى الأنساب فى غاية الحسن والإيعاب والإيجاز ، وكتابه فى فضائل بنى أمية ، وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره ، وانتشر ذكره ، ومنها كتب مؤلفة فى أصحاب المعاقل والأجناد الستة بالأندلس ، ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى ، رأيت منها أخبار شعراء إلبيرة فى نحو عشرة أجزاء ، ومنها كتاب الطوالع فى أنساب أهل الأندلس ، ومنها كتاب التاريخ الكبير فى أخبار أهل الأندلس تأليف أبى مروان بن حَيَّان نحو عشرة أسفار من أجل كتاب ألف فى هذا المعنى ، وهو فى الحياة بعدُ لم يتجاوز الاكتهال[1] ، وكتاب « المآثر العامرية » لحسين بن عاصم فى سير ابن أبى عامر وأخباره ، وكتاب الأقشتين[2] محمد بن عاصم النحوى فى طبقات الكتاب بالأندلس ، وكتاب سكن بن سعيد فى ذلك ، وكتاب أحمد بن فرج فى المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم ، وكتاب أخبار أطباء الأندلس لسليمان بن جلجل .

وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن إسحاق وهى كتب حسان رفيعة ، وكتب محمد بن الحسن المذحِجِىِّ أستاذنا رحمه الله تعالى ! وهو المعروف بابن الكتانى وهى كتب رفيعة حسان ، وكتب التصريف لأبى القاسم خلف بن عياش الزهراوى ، وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا إنه لم يؤلف فى الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل فى الطبائع لنَصْدُقَنَّ ، وكتب ابن الهيثم فى الخواص والسموم والعقاقير من أجل الكتب وأنفعها .

---

(١) فى ا « لم يتجاوز الاكتحال » محرفا ، وانظر ص ١٧٠ الآتية

(٢) فى ب « الأفشين »

وأما الفلسفة فإنى رأيت [فيها] رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السَّرَقُسْطى المعروف بالحمار دالة على تمكنه من هذه الصناعة ، وأما رسائل أستاذنا أبى عبد الله محمد بن الحسن المذحِجِىّ فى ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة .

وأما العدد والهندسة فلم يُقْسَمْ لنا فى هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به ، فلسنا نثق بأنفسنا فى تمييز المحسن من المقصر فى المؤلفين فيه من أهل بلدنا إلا أنى سمعت مَنْ أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتُّفق على رسوخه فيه يقول : إنه لم يؤلف فى الأزياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمح[١] ، وهما من أهل بلدنا ، وكذلك كتاب [المساحة المجهولة][٢] لأحمد بن نصر فما تقدم إلى مثله فى معناه .

وإنما ذكرنا التآليف المستحقة للذكر ، والتى تدخل تحت الأقسام السبعة التى لا يؤلف عاقل عالم إلا فى أحدها ، وهى إما شىء [يخترعه][٣] لم يُسْبق إليه ، أو شىء ناقص يتمه ، أو شىء مستغلق يشرحه ، أو شىء طويل يختصره دون أن يخل بشىء من معانيه ، أو شىء متفرق يجمعه ، أو شىء مختلط يرتبه ، أو شىء أخطأ فيه صاحبه[٤] يصلحه .

وأما التآليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهى عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها .

وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقل لذلك تصرفهم فى هذا الباب ، فهى على كل حال غير عَرِيَّة عنه ، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال ، نظار على أصوله ، ولهم فيه تآليف : منهم خليل بن إسحاق ، ويحيى بن السمينة ، والحاجب موسى بن حدير[٥]

(١) فى نسخة « ابن السمع » واتفقت ا ، ب على ما أثبتناه

(٢) هذه التسمية لا توجد فى ب

(٣) كلمة « يخترعه » وقعت متأخرة فى ا (٤) فى ا « مؤلفه »

(٥) فى ب « ابن جدير »

وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد ، وكان داعية إلى الاعتزال لا يستتر بذلك ، ولنا على مذهبنا الذى تخيرناه من مذاهب أصحاب الحديث[(١)] كتاب فى هذا المعنى ، وهو وإن كان صغير الجرم قليل عدد الورق يزيد على المائتين زيادة يسيرة فعظيم الفائدة لأنا أسقطنا فيه المَشَاغب كلها ، وأضربنا عن التطويل جملة ، واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحِسِّ وبديهة العقل [لها] بالصحة ، ولنا فيما تحققنا به تآليف جمة[(٢)] ، منها ماقد تم ، ومنها ما شارف التمام ، ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين الله تعالى على باقيه ، لم نقصد به قصدَ مُبَاهاة فنذكرها ، ولا أردنا السمعة فنسميها ، والمراد بها ربنا جل وجهه ، وهو ولى العَوْن فيها ، والمَلىُّ بالمجازاة عليها ، وما كان لله تعالى فسيبدو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وبلدنا هذا ــ على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء ــ فقد ذكرنا من تآليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجودُ ذلك على قرب المسافة فى هذه البلاد من العراق التى هى دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها .

ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابى فى الشعر لم نُبَاهِ به إلا جريراً والفرزدق ، لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائل ، لا على طريقة المحدثين ، وإذا سمينا بقى بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخارى ومسلم بن الحجاج النيسابورى وسليمان بن الأشعث السجستانى وأحمد بن شعيب النسائى ، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد لم نباه به إلا القفال ومحمد بن عقيل الفريابى ، وهو شريكهما فى صحبة المزنى أبى[(٣)] إبراهيم والتتلمذ له[(٤)] ،

---

(١) فى ا «من مذاهب أهل الحديث» (٢) فى ا « تآليف جملة »
(٣) فى ب « المزنى بن إبراهيم » (٤) فى ا « والتلمذة له »

وإذا نعتنا عبد الله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار بهما إلا أبا الحسن ابن المفاس والخلال والديباجى ورُوَيْم بن أحمد . وقد شاركهم عبد الله فى أبى سليمان وصحبته ، وإذا أشرنا إلى محمد بن عمر [(١)] بن لبابة وعمه محمد بن عيسى وفضل بن سلمة لم نناطح بهم إلا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومحمد بن سحنون ومحمد ابن عبدوس ، وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرياحى وأبى عبد الله محمد بن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد .

ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القَسْطَلّى لما تأخر عن شأو بشار [بن برد] وحبيب والمتنبى ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد ابن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد بن فرج ، وعبد الملك ابن سعيد المرادى ، وكل هؤلاء فحل يُهاب جانبه ، وحصان ممسوح الغرة .

ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شُهَيد صديقنا وصاحبنا ، وهو حى بعد لم يبلغ سن الاكتهال [(٢)] ، وله من التصرف فى وجوه البلاغة وشِعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لسانى عمرو وسهل ومحمد بن عبد الله بن مسرة فى طريقه التى سلك فيها ، وإن كنا لا نرضى مذهبه ، فى جماعة يكثر تعدادهم .

وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه الله تعالى من البيان ، ولم نتزيد فيما رغب فيه إلا ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلقه بجوابه ، والحمد لله الموفق لعلمه ، والهادى إلى الشريعة المزلفة منه والموصلة ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم ، وشرف وكرم ، انتهت الرسالة .

---

(١) كذا فى أصل ا ونسخة عند ب ، وفى أصل ب « محمد بن عمرو بن لبابة »

(٢) فى ا « لم يبلغ سن الاكتحال » وانظر ص ١٦٧ من هذا الجزء

وكتب الحافظ ابن حجر على هامش قوله فيها « وإنما سكن على الكوفة خمسة أعوام وأشهرا » مانصه : صوابه أربعة أعوام ، انتهى .

وقال ابن سعيد ، بعد ذكره هذه الرسالة ماصورته : رأيتُ أن أذيِّلَ ما ذكره الوزيرُ الحافظ أبو محمد بن حزم من مفاخر أهل الأندلس بما حضرنى والله تعالى ولى الإعانة .

تذييل ابن سعيد على جواب ابن حزم

أما القرآن فمن أجل ما صنف فى تفسيره كتاب « الهداية ، إلى بلوغ النهاية » فى نحو عشرة أسفار ، صنفه الإمام العالم الزاهد أبو محمد مكى بن أبى طالب القرطبى ، وله كتاب تفسير إعراب القرآن ، وعد ابن غالب فى كتاب « فرحة الأنفس » تآليف مكى المذكور ، فبلغ بها ٧٧ تأليفا ، وكانت وفاته سنة ٤٣٧ ، ولأبى محمد بن عطية الغَرْناطى فى تفسير القرآن الكتاب الكبير الذى اشتهر وطار فى الغرب والشرق ، وصاحبه من فضلاء المائة السادسة .

وأما القراءات فلمكى المذكور فيها كتاب « التبصرة » وكتابُ « التيسير » لأبى عمرو الدانى مشهورٌ فى أيدى الناس .

وأما الحديث فكان بعصرنا فى المائة السابعة الإمام أبو الحسن على بن القطان القرطبى الساكن بحضرة مراكش ، وله فى تفسير غريبه[1] وفى رجاله مصنفات ، وإليه كانت النهاية والإشارة فى عصرنا ، وسمعت أنه كان اشتغل بجمع أمهات كتب الحديث المشهورة ، وحذف المكرر ، وكتاب رُزَيْن بن عمار الأندلسى فى جمع ما يتضمنه كتاب مسلم والبخارى والموطأ والسنن والنسائى والترمذى كتاب جليل مشهور فى أيدى الناس بالمشرق والمغرب ، وكتاب « الأحكام » لأبى محمد عبد الحق الإشبيلى مشهور متداول القراءة ، وهى أحكام كبرى ، وأحكام صغرى ، قيل : ووسطى ، وكتاب « الجمع بين الصحيحين » للحميدى مشهور .

---

(١) فى ا « غرائبه »

وأما الفقه فالكتاب المعتمد عليه الآن الذى ينطلق عليه اسم الكتاب عند المالكية حتى بالإسكندرية فكتاب « التهذيب » للبراذعى السرقسطى ، وكتاب « النهاية » لأبى الوليد بن رشد كتاب جليل معظم معتمد عليه عند المالكية ، وكذلك كتاب « المنتقى » للباجى .

وأما أصول الدين وأصول الفقه فللإمام أبى بكر ابن العربى الإشبيلى من ذلك مامنه كتاب «العواصم والقواصم» المشهور بأيدى الناس ، وله تصانيف[(١)] غير هذا ، ولأبى الوليد بن رشد فى أصول الفقه ما منه « مختصر المستصفى » .

وأما التواريخ فكتاب ابن حيان الكبير المعروف بالمتين فى نحو ستين مجلدة وإنما ذكر ابن حزم كتاب « المقتبس » وهو فى عشر مجلدات ، والمتين يذكر فيه أخبار عصره ، ويمعن فيها مما شاهده ، ومنه ينقل صاحب الذخيرة ، وقد ذَيل عليه أبو الحجاج البَيَّاسى أحد معاصرينا ، وهو الآن بإفريقية فى حضرتها تونس عند سلطانها تحت إحسانه الغمر ، وكتاب المظفر بن الأفطس ملك بَطَلْيَوْسَ المعروف بالمظفرى نحو كتاب المتين فى الكبر ، وفيه تاريخ على السنين ، وفنون آداب كثيرة ، وتاريخ ابن صاحب الصلاة فى الدوله اللمتونية ، وذكر ابن غالب أن ابن الصيرفى الغرناطى له كتاب فى أخبار دولة لمتونة ، وأن أبا الحسن السالمى له كتاب فى أخبار الفتنة الثانية بالأندلس ، بدأ من سنة ٥٣٩ ، ورتبه على السنين وبلغ به سنة ٥٤٧ ، وأبو القاسم خلف بن بشكوال له كتاب فى تاريخ أصحاب الأندلس من فتحها إلى زمانه ، وأضاف إلى ذلك من أخبار قرطبة وغيرها ما جاء فى خاطره[(٢)] ، وله كتاب « الصلة » فى تاريخ العلماء ، وللحميدى قبله « جذوة المقتبس » وقد ذيل كتاب الصلة فى عصرنا هذا أبو عبد الله بن الأبَّار البَلَنسى

---

(١) فى ا « وله تآليف فى غير هذا »

(٢) فى ا « ماجاء لخاطره »

صاحب كتاب سلطان أفريقية[١] ، وذكر ابنُ غالب أن الفقيه أباجعفر بن عبدالحق الخزرجى القرطبى له كتاب كبير بدأ فيه من بدء الخليقة إلى أن انتهى فى أخبار الأندلس إلى دولة عبد المؤمن ، قال : وفارقته سنة ٥٦٥ ، وأبو محمد بن حزم صاحب الرسالة المتقدمة الذكر له كتب جمة فى التواريخ ، مثل كتاب « نقط العروس ، فى تواريخ الخلفاء » وقد صنف أبو الوليد بن زيدون كتاب « التبيين فى خلفاء بنى أمية بالأندلس » على منزع كتاب التعيين فى خلفاء المشرق للمسعودى ، وللقاضى أبى القاسم صاعد بن أحمد الطليطلى كتاب « التعريف ، بأخبار علماء الأمم من العرب والعجم » وكتاب « جامع أخبار الأمم » وأبو عُمَر ابن عبد البر له كتاب « القصد والأمم ، فى معرفة أخبار العرب والعجم » وعريب بن سعد القرطبى[٢] له كتاب «اختصار تاريخ الطبرى » قد سعد باغتباط الناس به ، وأضاف إليه تاريخ إفريقية والأندلس ، ولأحمد بن سعيد بن محمد ابن عبد الله بن الفياض كتاب « العبر » وكتاب أبى بكر الحسين بن محمد الزبيدى فى أخبار النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس ، وكتاب القاضى أبى الوليد بن الفرَضى فى أخبار العلماء والشعراء وما يتعلق بذلك ، وليحيى بن حكم الغزَال تاريخ ألفه كله منظوما ، كما صنع أيضا بعده أبو طالب المتنبى من جزيرة شُقْر فى التاريخ الذى أورد منه صاحب الذخيرة ما أورد[٣] ، وكتاب «الذخيرة لابن بسام فى جزيرة الأندلس» ليس هذا مكان الإطناب فى تفضيلها[٤] وهى كالذيل على حدائق ابن فرج ، وفى عصرها صنف الفتح كتاب « القلائد » وهو مملوء بلاغة ، والمحاكمة بين الكتابين ذكرت بمكان آخر ، ولصاحب القلائد كتاب «المطمح» وهو ثلاث نسخ : كبرى ، ووسطى ، وصغرى ، يذكر فيها من

---

(١) فى ا « كاتب سلطان إفريقية » (٢) فى ب « عريب بن سعيد »
(٣) فى ا « ماأورد من كتاب الذخيرة » (٤) فى ا « تفصيلها »

الذين ذكرهم فى القلائد ومن غيرهم الذين كانوا قبل عصرهم ، وكتاب « سمط الجمان ، وسقط المرجان »[1] لأبى عمرو بن الإمام بعد الكتابين المذكورين ، ذكر مَنْ أخَلَّ بتوفيته حقه[2] من الفضلاء ، واستدرك من أدركه بعصره فى بقية المائة السادسة ، وذيل عليه — وإن كان ذيلا قصيرا — أبو بحر صفوان بن إدريس المُرْسى بكتاب « زاد المسافر » ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة ، وكتاب أبى محمد عبد الله بن إبراهيم الحِجَارى المسمى « بالمسهب ، فى فضائل المغرب » صنفه بعد الذخيرة والقلائد من أوّل ما عمرت الأندلس إلى عصره ، وخرج فيه عن مقصد الكتابين إلى ذكر البلاد وخواصّها مما يختص بعلم الجغرافيا ، وخلطهُ بالتاريخ وتفنن الأدب على ما هو مذكور فى غير هذا المكان ، ولم يصنف فى الأندلس مثل كتابه ، ولذلك فضله المصنف له عبد الملك بن سعيد ، وذيل عليه ، ثم ذيل على ذلك أبناه أحمد ومحمد ثم موسى بن محمد ثم على بن موسى كاتب هذه النسخة ومكمل كتاب «فلك الأدب[3]، المحيط بحلى لسان العرب» المحتوى على كتابى « المشرق ، فى حلى المشرق » و « المغرب ، فى حلى المغرب » فيكفى الأندلس فى هذا الشأن تصنيف هذا الكتاب بين ستة أشخاص فى ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥ ، وقد احتوى على جميع ما يذاكر به و يحاضر بحلاه من فنون الأدب المختارة على جَهْد الطاقة فى شرق وغرب على النوع الذى هو مذكور فى غير هذا الموضع ، ومن أغفلت التنبيه على عصره ، وغير ذلك من المصنفين المتقدّمى الذكر ، فيطلب الملتمس منهم فى مكانه المنسوب إليه كابن بسام فى شَنْتَرين ، والفتح فى إشبيلية ، وابن الإمام فى استِجَة ، والحِجَارى فى وادى الحجارة .

---

(١) فى ا « سمط الجمان ، وسقيط المرجان » (٢) فى ا « بتوفية حقه »
(٣) فى ا « فلك الأرب ، المحيط — إلخ »

وأما ماجاء منثورا من فنون الأدب[1] فكتاب « سراج الأدب » لأبى عبد الله ابن أبى الخصال الشقورى رئيس كتاب الأندلس ، صنفه على منزع كتاب « النـوادر » لأبى على ، و « زهر الآداب » للحُصْرى ، وكتاب « واجب الأدب » لوالدى موسى بن محمد بن سعيد ، واسمه يغنى عن المراد به ، وكتاب « اللآلىء » لأبى عبيد البكرى على كتاب « الأمالى » لأبى على البغدادى مفيد فى الأدب ، وكذلك كتاب « الاقتضاب ، فى شرح أدب الـكتاب » لأبى محمد ابن السِّيد البَطَلْيَوْسى ، وأما شرح « سقط الزند » له فهو الغاية ، ويكفى ذكره عند أرباب هذا الشأن وثناؤهم عليه ، وشروح أبى الحجاج الأعلم لشعر المتنبى والحماسة وغير ذلك مشهورة .

وأما [كتب] النحو فلأهل الأندلس من الشروح على « الجمل » ما يطول ذكره ، فمنها شرح ابن خروف ، ومنها شرح الرُّنْدى ، ومنها شرح شيخنا أبى الحسن بن عصفور الإشبيلى ، وإليه انتهت علوم النحو ، وعليه الإحالة الآن من المشرق والمغرب ، وقد أتيت له من إفريقية بكتاب « المقرب » فى النحو فتلقى باليمين من كل جهة ، وطار بجناح الاغتباط ، ولشيخنا أبى على الشلوبين كتاب « التوطئة » على الجزولية وهو مشهور ، ولابن السِّيد وابن الطراوة والسُّهَيلى من التقييدات فى النحو ما هو مشهور عند أصحاب هذا الشأن معتمد عليه ، ولأبى الحسن[2] بن خروف شرح مشهور على كتاب سيبويه .

وأما [كتب] علم الجغرافيا فيكفى فى ذلك كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى الأونبى وكتاب « معجم ما استعجم من البقاع والأماكن » وفى كتاب « المسهب » للحجَارى فى هذا الشأن وتذييلنا عليه فى هذا الـكتاب الجامع ما جمع زبد الأولين والآخرين [فى ذلك] .

---

(١) فى نسخة عند ب « وأما الـكتب التى فى فنون الأدب فمنها ــ إلخ »

(٢) فى ا « ولابن الحسن بن خروف » محرفا

وأما [كتب علم] الموسيقى فكتاب أبى بكر بن باجة الغَرْناطى فى ذلك فيه كفاية وهو فى المغرب بمنزلة أبى نصر الفارابى بالمشرق ، وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التى عليها الاعتماد ، وليحيى الخُدُجِّ المرسى كتاب الأغانى الأندلسية على منزع الأغانى لأبى الفرج ، وهو ممن أدرك المائة السابعة .

وأما [كتب] الطب فالمشهور بأيدى الناس الآن فى المغرب ، وقد سار أيضاً فى المشرق لنبله ، كتابُ « التيسير » لعبد الملك بن أبى العلاء بن زُهْر ، وله كتاب « الأغذية » أيضا مشهور مغتبط به فى المغرب والمشرق (١) ، ولأبى العباس بن الرومية الإشبيلى من علماء عصرنا بهذا الشأن كتاب فى الأدوية المفردة ، وقد جمع أبو محمد المالَقِى الساكن الآن بقاهرة مصر كتابا فى هذا الشأن حشر عليه ما سمع به فقدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقى وكتاب الزهراوى وكتاب الشريف الإدريسى الصقلى وغيرها وضبطه على حروف المعجم ، وهو النهاية فى مقصده .

وأما [كتب] الفلسفة فإمامها فى عصرنا أبو الوليد بن رُشْد القُرْطُبى ، وله فيها تصانيف جَحَدها لما رأى انحرافَ منصور بنى عبد المؤمن عن هذا العلم ، وسجنه بسببها ، وكذلك ابن حبيب الذى قتله المأمون بن المنصور المذكور على هذا العلم بإشبيلية ، وهو علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه (٢) إظهاره ، فلذلك تخفى تصانيفه .

وأما [كتب] التنجيم فلابن زيد الأسقف القرطبى فيه تصانيف ، وكان مختصا بالمستنصر بن الناصر المروانى ، وله ألف كتاب « تفصيل الأزمان ، ومصالح الأبدان » وفيه من ذكر منازل القمر ، وما يتعلق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريبه ، وكان مطرف الإشبيلى فى عصرنا قد اشتغل بالتصنيف فى هذا الشأن ، إلا أن أهل بلده كانوا ينسبونه إلى الزندقة (٣) بسبب اعتكافه على هذا الشأن فكان لا يظهر شيئاً مما يصنف

ثم قال ابن سعيد : أخبرنى والدى قال : كنت يوما فى مجلس

(١) فى ا « فى الغرب والشرق » (٢) كلمة « صاحبه » ساقطة فى ا

(٣) فى ا « ينسبونه للزندقة »

صاحب سَبْتة أبى يحيى بن أبى زكريا صهر ناصر بنى عبد المؤمن ، فجرى بين أبى الوليد الشَّقَنْدى و بين أبى يحيى بن المعلم الطنجى نزاع فى التفضيل بين البرين ، فقال الشقندى : لولا الأندلس لم يذكر برالعُدْوة ، ولا سارت عنه فضيلة ، ولو لا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم ، فقال الأمير أبو يحيى : أتريد أن تقول كون أهل برنا عرباً وأهل بركم بربر ، فقال : حاش لله ! فقال الأمير : والله ما أردت غير هذا ، فظهر فى وجهه أنه أراد ذلك ، فقال ابن المعلم : أتقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العُدْوة ، فقال الأمير : الرأى عندى أن يعمل كل واحد منكما رسالة فى تفضيل بره ، فالكلام هنا يطول و يمر ضياعا ، وأرجو إذا أخليتما له فكركما يصدر عنكما ما يحسن تخليده ، ففعلا ذلك .

رسالة للشقندى فى فضل الأندلس

فكانت رسالة الشَّقَندى : الحمد لله الذى جعل لمن يفخر بالأندلس(١) أن يتكلم ملء فيه ، و يطنب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يَثْنِيه ، إذ لا يقال للنهار : يا مظلم ، ولا لوجه النعيم : يا قبيح .

وقد وَجَدْتَ مكان القول ذا سعة فإن وجدت لسانا قائلا فَقُلِ

أحمده على أن جعلنى ممن أنشأته ، وحبانى بأن كنت ممن أظهرته ، فامتدّ فى الفخر باعى ، وأعاننى على الفضل كرمُ طباعى ، وأصلى على سيدنا محمد نبيه الكريم ، وعلى آله وصحبه الأكرمين(٢) ، وأسلم تسليما .

أما بعد ؛ فإنه حرك منى ساكناً ، وملأ منى فارغا ، فخرجت عن سجيتى فى الإغضاء ، مكرها إلى الحمية والإباء ، منازعٌ(٣) فى فضل الأندلس أراد أن يخرق

---

(١) فى ا « يفخر بجزيرة الأندلس »

(٢) فى ا « وعلى آله وصحبه الطاهرين »

(٣) « منازع » بالرفع هو فاعل حرك فى قوله « حرك منى ساكنا »

الإجماع ، ويأتى بمالم تقبله[1] النواظر والأسماع ، إذ مَنْ رأى ومن سمع لايجوز عنده ذلك ، ولايضله من تاهَ فى تلك المسالك ، رام أن يفضل بر العُدْوة على بر الأندلس فرَام أن يفضل على اليمين اليسار ، ويقول : الليل أضوأ من النهار ، فيا عجبا كيف قابَلَ العوالى بالزِّجاج ، وصادم الصفاة بالزُّجاج ، فيا من نفخ فى غير ضَرَم ، ورام صَيْدَ البُزَاة بالرخَم ، وكيف تتكثر بما جعله الله قليلا ، وتتعزز بما حكم الله أن يكون ذليلا ؟ ما هذه المباهتة التى لاتجوز ؟ وكيف تبدى أمام الفتاة العجوز ؟ سَلِ العيونَ إلى وجه مَنْ تميل ؟ واستخبر الأسماع إلى حديث من تصغى ؟

لشَتَّان ما بين اليزيدين فى الندى يزيدِ سُلَيم والأغرِّ بن حاتم[2]

اقن حيَاءَكَ أيها المغرد بالنحيب[3] ، المتزين بالخَلَق المتحبِّبُ إلى الغوانى بالمشيب الخضيب ، أين عَزَب عقلك ؟ وكيف نكص على عقبه فهمك ولبك ؟ أبلغت العصبية من قلبك ، أن تطمس على نورى بصرك ولُبِّك ؟ أما قولك « الملوك منا » فقد كان الملوك منا أيضاً ، وما نحن إلا كما قال الشاعر :

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويوم نُسَاء ويوم نُسَرُّ

إن كان الآن كرسىٌّ جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بنى عبد المؤمن ـ أدامها الله تعالى ! ـ فقد كان عندنا بخلافة القرشيين الذين يقول [فيهم] مشرقيهم :

وإنى من قوم كرام أعزة لأقدامهم صيغت رؤس المنابر

خلائف فى الإسلام فى الشرك قادة بهم وإليهم فخر كل مفاخر

ويقول مغربيهم :

(٢) فى ا « لاتقبله »

(٣) البيت لربيعة بن ثابت الرقى

(٤) فى ا « المقرد بالنجيب المتزين بالحلق »

ألسنا بنى مروان كيف تبدلت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منـــا تهللت له الأرض واهتزت إليه المنابر

وقد نشأ فى مدتهم من الفضلاء والشعراء ما اشتهر فى الآفاق ، وصار أثبت فى صحائف[1] الأيام ، من الأطواق فى أعناق الحمام[2]

وسار مسير الشمس فى كل بلدة وهَبَّ هبوب الريح فى البر والبحر

ولم تزل ملوكهم فى الاتساق كما قيل :

إن الخلافة فيكم لم تزل نَسَقاً كالعقد منظومة فيه فرائده

إلى أن حكم الله بنثر سلكهم ، وذهاب ملكهم ، فذهبوا وذهبت أخبارهم ، ودَرَسوا ودرست آثارهم :

جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم بعد الممات جَمالُ الكُتْبِ والسير

فكم مكرمة أنالوها ، وكم عثرة أقالوها :

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسناً لمن وعى

وكان من حَسَنات ملكهم المنصور بن أبى عامر ، وما أدراك الذى بلغ فى بلاد النصارى غازيا إلى البحر الأخضر ، ولم يترك أسيرا فى بلادهم من المسلمين ، ولم يبرح فى جيش الهرقل وعزمة الإسكندر ، ولما قضى نَحْبه كتب على قبره :

آثاره تنبيك عن أوصافه حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله أبدا ولا يحمى الثغور سواه

وقد قيل فيه من الأمداح ، وألف له من الكتب ، ما سمعت وعلمت ، حتى قصد من بغداد ، وعم خيره وشره أقاصى البلاد ، ولما ثار بعد انتشار[3] هذا النظام ملوك الطوائف وتفرقوا فى البلاد ، وكان فى تفرقهم اجتماعٌ على النعم لفضلاء العباد ،

---

(١) فى ا « أثبت على صحائف الأيام » (٢) فى ب « فى أعناق الحمام من الأطواق »
(٣) فى ب « بعد انتشار »

إذ نَفَّقُوا سوق العلوم ، وتباروا فى المثوبة على المنثور والمنظوم ، فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول : العالِمُ الفلانى عند الملك الفلانى ، والشاعر الفلانى مختص بالملك الفلانى ، وليس منهم إلا مَنْ بذل وُسْعَه فى المكارم ، ونبهت الأمداح من مآثره ما ليس طولَ الدهر بنائم ، وقد سمعت ما كان من الفتيان العامرية مجاهد ومُنْذر وخيران ، وسمعت عن الملوك العربية بنو عباد و بنو صُمادح و بنو الأفطس و بنو ذى النون و بنو هود ، كل منهم قد خُلد فيه من الأمداح ، ما لو مدح به الليل لصار أضوأ من الصباح ، ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادى النَّوَاسم بين الرِّياض ، وتفتك فى أموالهم فتكة البَرَّاض ، حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم فى أمداحه أن حلف أن لا يمدح أحدا منهم بقصيدة إلا بمائة دينار ، وأن المعتضد بن عباد على ما اشتهر من سَطْوته و إفراط هيبته كَلَّفه أن يمدحه بقصيدة فأبى حتى يعطيه ما شَرَطه فى قَسَمه ، ومن أعظم ما يُحْكى من المكارم التى لم نسمع لها أختا أن أبا غالب اللغوى ألف كتابا ، فبذل له مجاهد العامرى ملك دانية ألفَ دينار ومركوبا وكُسًا على أن يجعل الكتاب باسمه ، فلم يقبل ذلك أبو غالب ، وقال : كتاب ألفته لينتفع به الناس ، وأُخَلِّد فيه همتى ، أجعل فى صدره اسمَ غيرى ، وأصرف الفخر له ، لا أفعل ذلك ، فلما بلغ هذا مجاهدا استحسن أَنَفَتَه وهمته ، وأضعف له العطاء ، وقال : هو فى حل من أن يذكرنى فيه ، لا نصدّه عن غرضه ، و إن كان كل ملوك الأندلس المعروفين بملوك الطوائف قد تنازعوا فى مُلَاءَة الحُضْر (١) ، فإنى أخص منهم بنى عباد ، كما قال الله تعالى (فيهما فاكهة ونخل ورمان) (٢) فإن الأيام لم تزل بهم كأعياد ، وكان لهم من الحنو على الأدب ، ما لم يقم به بنو حمدان فى حلب ، وكانوا هم و بنوهم ووزراؤهم

---

(١) أخذ هذه الفقرة من قول الخنساء :

جارى أباه فأقبلا وهما يتنازعان ملاءة الحضر

(٢) فى الآية الكريمة ذكر الاسم الأعم وهو الفاكهة ، ثم ذكر اسمين يدخلان تحته وهو النخل والرمان .

صدوراً فى بلاغتى النظم والنثر ، مشاركين فى فنون العلم ، وآثارهم مذكورة ، وأخبارهم مشهورة ، وقد خَلَّدوا من المكارم التامة ، ماهومتردد فى ألسن الخاصة والعامة ، و بالله إلا سميت لى بمَنْ تفخَرُون قبل هذه الدعوة المهدية ، أبسقموت الحاجب ؟ أم بصالح البرغواطى ؟ أم بيوسف ابن تاشفين الذى لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس فى مدحه ماأجروا له ذكرا ، ولارفعوا لملكه قدرا ؟ و بعدما ذكروه بوساطة المعتمد بن عباد فإن المعتمد قال له ، وقد أنشدوه : أيعلم أمير المسلمين ماقالوه ؟ قال : لاأعلم ولكنهم يطلبون الخبز(١) ، ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها :

بنتم و بنَّا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جَفَّتْ مآقينا
حالت لفقدكُمْ أيامُنَا فغدت سوداً وكانت بكم بيضا ليالينا(٢)

فلماقرىء عليه هذان البيتان قال للقارئ : يطلب مناجوارى سوداً و بيضاً ، قال : لا يامولانا ، ماأراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا لأن ليالى الحزن ليالٍ سود(٣) ، فقال : والله جيد ، اكتب له فى جوابه : إن دموعنا تجرى عليه ، ورؤوسنا توجعنا من بعده ، فليت العباس بن الأحنف قد عاش حتى يتعلم من هذا الفاضل رقة الشوق :

ولا تُنْكِرَنْ مهما رأيت مقدما على حُمُرٍ بَغْلاً فثَمَّ تناسُبُ

فاسكتوا فلولا هذه الدولة ، لما كان لكم على الناس صولة :

و إن الورد يقطف من قتَاد و إن النار تُقْبَسُ من رماد

و إنك إن تعرضت للمفاضلة(٤) بالعلماء فأخبرنى : هل لكم فى الفقه مثل عبد الملك ابن حبيب الذى يعمل بأقواله إلى الآن ، ومثل أبى الوليد الباجى ، ومثل أبى بكر

---

(١) فى ب « يطلبون الخير » (٢) المحفوظ « حالت لبعدكم »
(٣) فى ا « لأن أيام الحزن ليال سود » (٤) فى ب « للمناضلة »

ابن العربى ، ومثل أبى الوليد بن رشد الأكبر ، ومثل أبى الوليد بن رشد الأصغر ؟ وهو ابن ابن الأكبر، نجوم الإسلام ، ومصابيح شريعة محمد عليه السلام ، وهل لكم فى الحفظ مثل أبى محمد بن حزم الذى زهد فى الوزارة والمال ومَالَ إلى رتبة العلم ، ورآها فوق كل رتبة ، وقال وقد احترقت[1] كتبه :

دعونى من إحراق رَقٍّ وكاغِدٍ وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
فان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذى تضمنه القرطاس ، إذ هو فى صدرى[2]

ومثل أبى عمر بن عبد البر صاحب «الاستيعاب»[3] و «التمهيد» ومثل أبى بكر بن الجد حافظ الأندلس فى هذه الدولة ، وهل لكم فى حُفَّاظ اللغة كابن سيده صاحب كتاب «المحكم» وكتاب «السماء»[4] العالم الذى إن أعمى الله بصره فما أعمى بصيرته ، وهل لكم فى النحو مثل أبى محمد بن السِّيد وتصانيفه ؟ ومثل ابن الطراوة ، ومثل أبى على الشلوبين الذى بين أظهرنا الآن ، وقد سار فى المغارب والمشارق ذكره ، وهل لكم فى علوم اللحون والفلسفة كابن باجة ، وهل لكم فى علم النجوم والهندسة والفلسفة ملك كالمقتدر بن هُود صاحب سَرَقُسْطَة ، فإنه كان فى ذلك آية ، وهل لكم فى الطب مثل ابن طُفَيل صاحب رسالة « حى بن يقظان » المقدم فى علم الفلسفة ، ومثل بنى زُهْر أبى العلاء ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه أبى بكر ثلاثة على نَسَق ؟ وهل لكم فى علم التاريخ كابن حَيَّان صاحب « المتين » و « المقتبس » ؟ وهل عندكم فى رؤساء علم الأدب مثل أبى عُمَر بن عبد ربه صاحب « العقد » ؟ وهل لكم فى الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء إقليمه والاجتهاد فى حشد محاسنهم مثل ابن بَسَّام صاحب «الذخيرة» ؟ وهَبْ أنه كان يكون لكم مثله فما تصنع الكَيِّسة فى البيت الفارغ[5] وهل لكم فى بلاغة النثر كالفتح بن عُبَيْد الله الذى إن مدح رفع ، وإن ذم وضع ،

---

(١) في ا « وقال وقد أحرقت كتبه » (٢) فى ا « بل هو فى صدرى »
(٣) في ا «الاستذكار» مكان «الاستيعاب» وكلاهما له (٤) فى ب « السمار »
(٥) يريد أنه ليس فى إقليمهم من يفخر به فما عسى أن يقول المؤلف

وقد ظهر له من ذلك فى كتاب « القلائد » ما هو أعدل شاهد ، ومثل ابن أبى الخصال فى ترسُّله (١) ، ومثل أبى الحسن سَهْل بن مالك الذى بين أظهرنا الآن فى خطبه ، وهل لكم فى الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد فى قوله :

وليل بسُدِّ النهر أنسا قطعته   بذات سِوارٍ مثل منعطف النهر
نَضَتْ بردها عن غصن بان منعم   فيا حسن ما انشق الكمام عن الزهر

وقوله فى أبيه :

سَمَيْدَعٌ يهب الآلاف مبتدئا   و بعد ذلك يُلْفَى وهو يعتذر (٢)
له يد كل جبار يقبلها   لولا نداها لقلنا إنها الحجر

ومثل ابنه الراضى فى قوله :

مرُّوا بنا أُصُلاً من غير ميعاد   فأوقدوا نار قلبى أى إيقاد
لا غرو أن زاد فى وجدى مرورهم   فرؤية الماء تذكى غلة الصادى

وهل لكم ملك ألف فى فنون الأدب (٣) كتابا فى نحو مائة مجلدة مثل المظفر بن الأفطس ملك بَطَلْيَوْسَ ولم تشغله الحروبُ ولا المملكة عن همة الأدب ؟ وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار فى قصيدته التى سارت أشرد من مثل ، وأحب إلى الأسماع من لقاء حبيب وصل ؟ التى منها :

أثْمَرْتَ رُمْحَكَ من رؤوس ملوكهم   لما رأيت الغصن يُعْشَقُ مُثْمِرَا
وصبَغْتَ دِرْعَك من دماء كُماتِهم   لما رأيت الحسْنَ يلبس أحْمَرَا

ومثل ابن زيدون فى قصيدته التى لم يُقَلْ مع طولها فى التشبيب (٤) أرق منها ، وهى التى يقول فيها :

كأننا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثنا   والسعد قد غض من أجفان واشينا

---

(١) فى ا « فى ترسيله »   (٢) فى ا « يلفى وهو معتذر »
(٣) فى ا « فى فنون الآداب »   (٤) فى ا « فى النسيب »

سران فى خاطر الظَّلْماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفْشِينا[١]

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وَهْبُون فى بديهته بين يدى المعتمد بن عباد و إصابته الغرضَ حين استحسن المعتمد قول المتنبى :

إذا ظفرت منك المَطِىُّ بنظرة أثاب بها مُعْيِي المطى ورَازِمُهْ[٢]

فارتجل

لئن جادشعر ابن الحسين فإنما تُجِيد العطايا واللُّهَا تفتح اللَّهَا

تنبأ عُجْباً بالقريض ولو دَرَى بأنك تروى شعره لتألّها

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دَرَّاج الذى قال فيه الثعالبى «هو بالصقع الأندلسى كالمتنبى بصقع الشام» الذى إن مدح الملوك قال مثل[٣] قوله :

ألم تعلمى أن الثواء هو التَّوَى وأن بيوتَ العاجزين قبورُ

وأن خطيرات المهالك ضُمَّنٌ لراكبها أن الجزاء خَطير

تخوفُنى طول السفار و إنه بتقبيل كفِّ العامرى جدير

مجيرالهدى والدين من كل مُلْحِدٍ وليس عليه للضلال مجير

تلاقت عليه من تميم و يعرب شموس تلاقت فى العلا و بدور[٤]

هُمُ يَسْتقلون الحياة لراغب و يستصغرون الخطب وهو كبير

ولما توافوا للسَّلام ورُفِّعَتْ عن الشمس فى أفق الشروق ستور

وقد قام من زُرْق الأسنة دونها صفوف ومن بيض السيوف سطور

رأواطاعَةَ الرحمن كيف اعتزازها وآياتِ صنع الله كيف تنير

وكيف استوى بالبر والبحر مجلس وقام بعبء الراسيات سرير

فجاؤا عَجَالَى والقلوب خوافق ووَلَّوْا بِطَاءً والنواظر صُورُ

---

(١) وقع فى ب « سران فى خاطر الظمآن » محرفا

(٢) فى ب « إذا ظفرت منك العيون بنظرة »

(٣) انظر ترجمته وأكثر الأبيات التى رواها المؤلف فى ابن خلكان (١١٦/١ بتحقيقنا)

(٤) فى ا « شموس تلاقى فى العلا وبدور »

يقولون والإجلال يخرس ألسنا ... وحازت عيون مِلْأَها وصدور
لقد حاط أعلام الهدى بك حائط ... وقدّر فيك المكرماتِ قديرُ

وأنا أقسم بما حازته هذه الأبيات ، من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح سيد بنى حَمْدان لسَلاَ به عن مدح شاعره الذى ساد كل شاعر ، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ماتفنن فيه كل ناظم وناثر

وإن ذكر الغربة عن الأوطان ، ومكابدة نوائب الزمان ، قال :

قالت وقد مزج الفراق مدامعا ... بمدامع وترائبا بترائب
أتفرق حتى بمنزلِ غربة ... كم نحن للأيام نهبة ناهب
ولئن جنيت عليك تَرْحَةَ راحل ... فأنا الزعيم لها بفرحة آيب[١]
هل أبصرت عيناك بدراً طالعاً ... فى الأفق إلا من هلال غارب

وإن شَبَّه قال :

كمعاقل من سوسن قد شيدت ... أيدى الربيع بناءها فوق القضب
شُرُفَاتها من فضة وحُمَاتُهَا ... حول الأمير لهم سيوف من ذهب

وهل من شعرائكم مَنْ تعرَّض لذكر العفة فاستنبط مايسحر به السحر ، ويطيب به الزهر ، وهو أبو عمر[٢] بن فرج فى قوله :

وطائعة الوصال عففت عنها ... وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت فى الليل سافرةً فباتت ... دياجى الليل سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها ... إلى فتن القلوب لها دواعى
فملَّكتُ النهى جَمَحَاتِ شوقى ... لأجرىَ فى العفاف على طباعى[٣]
وبت بها مبيت السَّقْبِ يظما ... فيمنعه الكِعَامُ من الرضاع

(١) فى ا « ولئن جنيت عليك نزحة راحل » ولها وجه، لكن « ترحة راحل » أوفق لمقابلتها « بفرحة آئب » (٢) فى ب « أبو عمرو بن فرج »
(٣) فى ب « فملكت النهى حجاب شوقى »

كذاك الروض ما فيه لمثلى سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات فأتخذ الرياض من المراعى

وهل بلغ أحد من مُشَبِّهى شعرائكم أن يقول مثل قول أبى جعفر اللماى :

عارضٌ أقبل فى جنح الدجا يتهادى كتهادى ذى الوجا
بددت ريحُ الصَّبا لؤلؤهُ فانبرى يوقد عنها سرجا

ومثل قول أبى حَفْص بن بُرْد :

وكأن الليل حين لوى ذاهبا والصبح قد لاحا
كِلَّةٌ سوداء أحرقها عامدٌ أسرج مصباحا

وهل منكم مَنْ وصف ما تحدثه الخمرة من الحُمْرَة على الوَجْنة بمثل قول الشريف الطليق :

أصبحت شمسا وفوه مغربا ويَدُ الساقى المحيِّ مشرقا
وإذا ما غربت فى فمه تركت فى الخد منه شفقا

بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان ، ويفخر كل إنسان(١)

وهل منكم من عمد إلى قول امرىء القيس :

سَموْتُ إليها بعد ما نام أهلُها سُمُوَّ حَبَاب الماء حالاً على حال

فاختلسه اختلاسَ النسيم لنفحة الأزهار ، وسلبه(٢) بلطفٍ استلابَ الشمس لرُضَاب طَلِّ الأسحار ، فلطفه تلطيفا يمتزج بالأرواح ، ويغنى فى الارتياح عن شرب الراح ، وهو ابن شُهَيْد فى قوله :

ولما تَمَلَّأ من سكره ونام ونامت عيونُ الحرس(٣)
دنوت إليه على رِقْبَةٍ دنوّ رفيق درى ما التمس(٤)

---

(١) فى ب « ويفخر على كل إنسان »
(٢) فى ا « واستلبه .. .. استلاب ثغر الشمس »
(٣) فى ا « عيون العسس » (٤) فى ب « دنوت إليه على قربة »

أدب إليه دبيب الكرى وأسمو إليه سموّ النَّفَسْ
أقبل منه بياض الطلى وأرشف منه سواد اللَّعَسْ
فبتُّ به ليلتى ناعماً إلى أن تبسم ثغر الغَلَسْ

وقد تناول هذا المعنى ابن أبى ربيعة على عظم قدره وتقدمه فعارض الصَّهيل بالنُّهاق ، وقابل العَذْب بالزُّعَاق ، فقال وليته سكت :

ونفضت عنى العين أقبلت مشية الـحُبَاب ورُكنى خيفة القوم أزْوَرُ(١)

وأنا أقسم لوزار جمل محبوبة له لكان ألطف فى الزيارة من هذا الأزور الركن المنفض للعيون لكنه إن أساء هنا فقد أحسن فى قوله :

قالت لقد أعييتنا حجة فأت إذا ما هَجَعَ الساهر(٢)
واسْقُطْ علينا كسقوط الندى ليلة لا ناهٍ ولا زاجر

ولله در محمد بن سَفَر أحد شعرائنا المتأخرين عصراً ، المتقدمين قدراً ، حيث نقل السعى إلى محبوبته فقال وليته لم يزل يقول مثل هذا ، فبمثله ينبغى أن يتكلم ، ومثله يليق أن يدوّن :

وواعدتها والشمس تجنح للنوى بِزَوْرَتها شمساً وبدر الدجى يَسْرى
فجاءت كما يمشى سنى الصبح فى الدجى وطوراً كما مر النسيم على النهر
فعطّرت الآفاق حولى فأشعرت بمقدمها والعَرْف يُشْعِرُ بالزهر
فتابعت بالتقبيل آثار سعيها كما يتقصَّى قارئ أحرُفَ السطر
فبت بها والليل قد نام والهوى تنبه بين الغصن والحِقْفِ والبدر
أعانقها طوراً وألثم تارة إلى أن دعتنا للنوى راية الفجر
ففضت عقوداً للتعانق بيننا فيا ليلة القدر اتركى ساعة النفر

(١) كذا ، والذى فى الديوان « وخفض عنى الصوت أقبلت مشية ـ إلخ »
(٢) كذا ، وحفظى « إذا ماهجع السامر »

وهل منكم من قيد بالإحسان فأطلق لسانه الشكر ، فقال وهو ابن اللَّبَّانة :

بنفسى وأهلى جيرة ما استعنتهم على الدهر إلا وانثنيت مُعَانَا

أراشوا جناحى ثم بَلُّوهُ بالندى فلم أستطع من أرضهم طَيَرَانَا

ومن يقول وقد قَطَع عنه ممدوحُه ما كان يعتاده منه من الإحسان ، فقابل ذلك بقطع مدحه له ، فبلغه أنه عتبه على ذلك ، وهو ابن وَضَّاح :

هل كنت إلا طائرا بثنائكم فى دَوْحِ مجدكم أقوم وأقعد

إن تسلبونى ريشكم وتقلصوا عنى ظلالكم فكيف أغَرِّدُ

وهل منكم شاعر رأى الناسَ قد ضَجُّوا من سماع تشبيه الثغر بالأقاح ، وتشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الخدود بالشقائق ، فتلطَّف لذلك فى أن يأتى به فى منزع يصير خَلَقه فى الأسماع جديداً ، وكَليلَه فى الأفكار حَديداً ، فأغرب أحسن إغراب ، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب ، وهو ابن الزقاق :

وأغْيَدٍ طاف بالكؤس ضُحًا وحَثّها والصباحُ قد وضحا

والروض أهدى لنا شقائقه وآسه العنبرى قد نفحا

قلنا وأين الأقاح قال لنا أودعته ثغر من سقى القدحا

فظل ساقى المدام يجحد ما قال فلمَّا تبسَّم افتضحا

وقال :

أدِيرَاهَا على الروض المندَّى وحكم الصبح فى الظلماء ماضى

وكأس الريح تنظر عن حَبَاب ينوب لنا عن الحدق المراض

وما غربت نجوم الأفق لكن نقلن من السماء إلى الرياض

وقال :

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الرياح

زرتها والغمام يجلد منها زهراتٍ تروق لون الراح

قلت ما ذنبها فقال مجيباً سرقت حمرة الخدود الملاح

فانظر كيف زاحم بهذا الاختيال المخترعين ؟ وكيف سابق بهذا المبتدعين ؟

وهل منكم من برع فى أوصاف الرياض والمياه وما يتعلق بذلك فانتهى إلى غاية السباق ، وفضح كل من طمع بعده فى اللحاق ، وهو أبو إسحاق ابن خفاجة القائل :

وعشىٍّ أنسٍ أضجعتنى نشوة فيها يُمَهَّدُ مضجعى ويُدَمَّثُ(١)
خلعت على بها الأراكة ظلها والغصن يصغى والحمام يحدث
والشمس تجنح للغروب مريضة والرعد يَرْقِى والغمامة تَنْفِثُ

والقائل :

لله نهر سال فى بطحاء أشهى وروداً من لَمَى الحسناء
متعطف مثل السِّوار كأنه والزهر يكنفه مَجَرُّ سماء
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة فى بردة خضراء(٢)
وغدت تحف به الغصون كأنها هُدْبٌ تحف بمقلة زرقاء
ولطالما عاطيت فيه مدامة صفراء تخضب أيدىَ الندماء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء(٣)

والقائل :

حث المدامة والنسيم عليل والظل خفاق الرواق ظليل
والروض مهتز المعاطف نعمة نشوان تعطفه الصبا فيميل

---

(١) ورد هذا البيت فى ا هكذا :

وعشى أنس أضجعتنا نشوة فيه تمهد مضجعى وتدمث

(٢) فى ا « قد رق حتى ظن فرضا مفرغا »

(٣) هذا البيت لايوجد فى ا

رَيَّان فَضَّضه الندى ثم انجلى عنه فذَهَّبَ صفحتيه أصيلُ

والقائل :

أذِنَ الغمامُ بديمة وعُقَار فامزج لُجَيناً منهما بنُضَار
واربع على حكم الربيع بأجرع هزج الندامى مفصح الأطيار(١)
متقسم الألحاظ بين محاسن من ردف رابية وخَصْر قرار
نثرت بحجر الروض فيه يد الصَّبَا درَر الندى ودراهم الأنوار
وهفت بتغريد هنالك أيكةٌ خفاقة بمهبِّ ريح عَرَارِ
هزت له أعطافها ولربما خلعت عليه مُلاءَةَ النوار

والقائل :

سقيا لها من بطاح خز ودَوْح نهرٍ بها مطل
إذ لا ترى غير وجه شمس أطَل فيه عذار ظِل

والقائل :

نهر كما سال اللمى سلسَالُ وصَباً بليلٌ ذيلها مكسال
ومَهَبُّ نفحة روضة مطلولة فى جانبيها للنسيم مجال
غازلتها والأقحوانة مَبْسِم والآس صدغ والبنفسج خال

والقائل :

وساق كحيل اللحظ فى شأوحُسْنه جماحٌ وبالصبر الجميل حِرَانُ
ترى للصبا ناراً بخديه لم يَثُرْ لها من سوادَىْ عارضيه دخانُ
سقاها وقد لاح الهلال عشية كما اعوجَّ فى درع الكَمِىِّ سنانُ
عقاراً نماها الكرم فهى كريمة ولم تَزِنْ بابن المزن فهى حَصَانُ

(١) اربع : احبس نفسك ، والأجرع : أصله رملة لاتنبت ، وأراد روضة ليصح المعنى ، وهزج الندامى : أراد أنهم يغنون على الشراب .

وقد جال من جَوْن الغمامة أدهم ... له البرق سوط والشَّمَالُ عنان[١]

وضمخ درع الشمس نحر حديقة ... عليه من الطل السقيط جُمَانُ

ونمت بأسرار الرياض خميلة ... لها النَّوْر ثغر والنسيم لسان

والقائل فى وصف فرس ولم يخرج عن طريقته :

وأشقر تضرم منه الوغى ... بشعلة من شعل الباس

من جلنار ناضر لونه ... وأذنه من ورق الآس

يطلع للغرة فى شقرة ... حبابة تضحك فى كاس

وهل منكم من يقول مُنادما[٢] لنديمه وقد باكر رَوْضاً بمحبوب وكأس ، فألفاه قد غطى محاسنه ضباب ، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك ، وهو أبو الحسن بنُ بَسَّام :

إلا بادر فما ثان سوى ما ... عهدت الكأس والبدر التمام

ولا تكسل برؤيته ضباباً ... تَغَصُّ به الحديقة والمدام[٣]

فإن الروض ملتثم إلى أن ... توافيه فينحط اللثام

وهل منكم مَنْ تغزَّل فى غلام حائك بمثل قول الرصافى :

قالوا وقد أكثروا فى حبه عذلى ... لو لم تهم بمذال القدر مبتذل

فقلت لو كان أمرى فى الصبابة لى ... لاخترت ذاك ولكن ليس ذلك لى

علقته حَبَبِيَّ الثَّغْرِ عاطره ... حُلْو اللمى ساحر الأجفان والمقل

غُزَيِّلٌ لم تزل فى الغزْل جائلة ... بنانه جَوَلَانَ الفكر فى الغزَلِ

جذلان تلعب بالمحواك أنمله ... على السَّدى لعب الأيام بالأجل[٤]

ضما بكفيه أو فحصا بأخمصه ... تخبط الظبى فى أشراك مُحْتبل[٥]

---

(١) الشمال : ريح الصبا ، ووقع فى ب « والسنان عنان » محرفا

(٢) فى ا « مناديا لنديمه » (٣) فى ا « تعض به الحديقة »

(٤) فى ا « لعب الأيام بالأمل » (٥) محتبل : ناصب الحبالة ، وفى ب « مختبل »

ومثل قوله فى تغلب مسكة الظلام على خلوق الأصيل :

وعَشِيٍّ رائق منظـــره قد قطعناه على صرف الشَّمُولْ
وكأن الشمس فى أثنائه ألصقت بالأرض خدًّا للنزول
والصَّــبَا ترفع أذيال الربا ومُحيّاً الجوّ كالنهر الصقيل
حبـــذا منزلنا مغتبقا حيث لا يطرقنا غير الهديل
طائر شادٍ وغصن منثن والدجى تشرب صهباء الأصيل

وهل منكم من يقول فى مُوَشح فيما يجره هذا المعنى :

ورداء الأصيل تطويه كف الظلام

وهو أبو قاسم بن الفرس .

وهل منكم من وصف غلاما جميل الصورة راقصا بمثل قول ابن خروف :

ومُنَزع الحركات يلعب بالنهى لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأودا كالغصن وسط رياضه متلاعبا كالظبى عند كناسه
بالعقل يلعب مدبراً أو مقبلا كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضم للقدمين منه رأسه كالسيف ضَمَّ ذبابه لرياسه

وهل منكم من وصف خالا بأحسن من قول النشار :

ألوّامى على كلفى بِيَحْيَى متى مِنْ حُبِّه ألْقَى سَرَاحا(١)
وبين الخد والشفتين خال كزنجى أتى روضاً صَبَاحا
تَحَيَّرَ فى جَنَاه فليس يدرى أيجنى الورد أم يجنى الأقاحا

وهل منكم الذى اهتدى إلى معنى فى لثم وردة الخدِّ وَرَشْف رُضَاب الثغر لم يهتد إليه أحد غيره ، وهو أبو الحسن [سلام](٢) بن سلام المالَقِى فى قوله :

---

(١) وقع هذا البيت فى ب هكذا :

ألوامى على كلفى بحبى متى من حبه أرجو سراحا

(٢) هذا الاسم لايوجد فى ا

لما ظفرت بليلة من وصله والصبُّ غيرُ الوصل لا يَشْفيه
أنْضَجْتُ وردة خده بتنفسى وطفقت أرشف ماءها مِنْ فِيهِ

وهل منكم مَنْ هجا من غير النطق بإقذاع فبلغ ما لم يبلغه المقذع ، وهو المخزومى فى قوله :

يود عيسى نزول عيسى عساه من دائه يريح
وموضع الداء منه عُضْوٌ لا يرتضى مَسَّه المسيحُ

ولما أقذع أتى أيضاً بأبدع ، فقال :

يا فارس الخيل ولا فارس إلا على متن جواد الخِصَى
زدت على موسى وآياته تُفَجِّر الماء وتُخْفِى العصا

وهل منكم من مَدَح بمعنى فبلغ به النهاية من المدح ، ثم نقله إلى الهجاء فبلغ به النهاية من الذم ، وهو اليكى(١) فى قوله مادحا :

قوم لهم شرف العلا فى حِمْيَرٍ وإذا انتموا لمتونة فهمُ همُ
لما حَوَوْا أحراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فتلثموا

وفى قوله هاجيا :

إن المرابط باخلٌ بنواله لكنه بعياله يتكرم
الوجه منه مُخَلَّقٌ لقبيح ما يأتيه فهو مِنَ أجله يتلثم (٢)

وهل منكم مَنْ هجا أشتر العين بمثل قول أبى العباس بن حَنون(٣) الإشبيلي :

يا طلعة أبدت قبائح جمة فالكل منها إن نظرتَ قبيحُ
أبعينك الشتراء عين ثَرَّةٌ منها ترقرقَ دمعُها المسفوح
شترت فقلنا زورق فى لُجَّة مالت بإحدى دفتيه الريح(٤)

(١) فى ب « البكى » بموحدة (٢) فى ا « الوجه منه مخلق بقبيح ما يأتيه »
(٣) فى ب « جنون » (٤) فى ا « شترت فقلت زورق »

وكأنما إنســانها ملاحها قد خاف من غرق فظل يميح

وهل منكم مَنْ حضر مع عدوّ له جاحدٍ لما فعله معه من الخير ، وأمامهما زجاجة سوداء فيها خمر ، فقال له الحسود المذكور : إن كنت شاعرا فقل فى هذه ، فقال ارتجالا ، وهو ابن مُجير(١) :

سأشكو إلى الندمان أمر زجاجة تَرَدَّتْ بثوب حالك اللون أسْحَمِ
نصبُّ بها شمس المدامة بيننا فتغرب فى جنح من الليل مظلم
وتجحــد أنوار الحميَّا بلونها كقلب حسود جاحدٍ يدَ منعمِ

وهل منكم من قال لفاضل جمع بينه و بين فاضل ، وهو أبو جعفر الذهبى :

أيها الفاضل الذى قد هدانى نحو من قد حمدتُهُ باختبار(٢)
شكر اُللهُ ما أتيت وجازا كَ ولا زلت نجم هدى لسارى
أى برق أفاد أى غمــام وصبـاح أدى لضوء نهار
و إذا ما غدا النسيم دليلى لم يحلنى إلا على الأزهــار

وهل منكم أعمى قال فى ذهاب بَصَره وسواد شعره ، وهو التُّطِيلى(٣) :

أما اشْتَفَتْ مِنِّىَ الأيامُ فى وطنى حتى تضايق فيما عنّ من وطرى
ولاقَضَتْ من سواد العين حاجتها حتى تـكر على ما طل فى الشعر

وهل منكم الذى طار فى مشارق الأرض ومغاربها قولُه ، وهو أبو القاسم محمد بن هانىء الإلبيرى :

فتقت لـكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر
وجنيتم ثمر الوقائع يانعـا بالنصر من ورق الحديد الأخضر

---

(١) فى ا « ابن مجبر » وضبطه بالحركات بوزن مكرم ، وأثبتنا ما فى ب
(٢) فى ب « نحو من قد حمدته باختيار »
(٣) فى ب « وهو الطليطى » محرفا

وقد سمعت فائيته فى النجوم ، ولولا طولها لأنشدتها هنا ، فإنها أحسن ما قيل فى معناها .

وهل منكم من قال فى الزهد مثل قول أبى وهب العباسى القرطبى :

أنا فى حالتى التى قد ترانى إن تأمّلت أحسنُ الناس حالا

منزلى حيث شئت من مستقر الـ ـأرض أسقى من المياه زلالا

ليس لى كسوة أخاف عليها من مغير ولن ترى لىَ مالا(١)

أجعل الساعد اليمين وسادى ثم أثنى إذا انقلبت الشمالا

ليس لى والد ولا مولود لا ولا حزت مذ عقلت عيالا(٢)

قد تلذذت حقبة بأمور فتأملتها فكانت خيالا

ومثل قول أبى محمد عبد الله بن العسال الطليطلى :

انظر الدنيا فإن أبـ ـصرتها شيئاً يدوم

فاغْدُ منها فى أمان إن يساعدك النعيم

وإذا أبصرتها منـ ـك على كره تهيم

فاسْلُ عنها واطرحها وارتحل حيث تقيم

وهل نشأ عندكم من النساء مثل وَلّادة المَرْوَانية التى تقول مُدَاعبة للوزير ابن زيدون ، وكان له غلام اسمه « على » :

ما لابن زَيْدُون على فَضْله يغتابنى ظلما ولا ذنب لى(٣)

ينظرنى شَزْرًا إذا جئته كأنما جئت لأخصى على

ومثل زينب بنت زياد المؤدب الوادى آشية التى تقول :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لَهُمُ عندى وعندك من ثار

---

(١) فى ا « ولا ترى لى مالا »

(٢) فى ا « ليس لى والد ولا لى مولو * د ولا حزت »

(٣) حفظى فى صدره * إن ابن زيدون على فضله *

وشَنُّوا على أسماعنا كل غارة　　وقَلَّ حُماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتُهُم من مقلتيك وأدمعى　　ومن نَفَسِى بالسيف والماء والنار

وأنا أختم هذه القطع المتخيرة بقول أبى بكر بن بقى ليكون الختام مسكا :

عاطيته والليل يسحب ذيله　　صهباء كالمسك الفتيق لناشق
وضممته ضم الكمى لسيفه　　وذؤابتاه حمائل فى عاتقى
حتى إذا مالت به سِنَةُ الكرى　　زحزحته شيئا وكان مُعَانِقِى
باعدته عن أضلع تشتاقه　　كيلا ينامَ على وِسَادٍ خافق

وبقول القاضى أبى حفص بن عمر القرطبى :

همُ نظروا لواحظها فهاموا　　وتشرب لب شاربها المدام
يخاف الناس مقلتها سواها　　أيذعر قلب حامله الحسام
سما طرفى إليها وَهْوَ باكٍ　　وتحت الشمس ينسكب الغمام
وأذكر قدَّهَا فأنوح وجداً　　على الأغصان تنتدب الحمام
وأعقبَ بينها فى الصدر غما　　إذا غربت ذكاء أتى الظلام

وبقوله أيضاً :

لها رِدْفٌ تعلق فى لطيف　　وذاك الردف لى ولها ظَلُومُ(١)
يُعَذبنى إذا فكرت فيه　　ويُتْعبها إذا رامت تقوم

وقد أطلت عِنَان النظم ، على أنى اكتفيت عن الاستدلال على النهار بالصباح ، فبالله إلا ما أخبرتنى : مَنْ شاعركم الذى تقابلونَ به شاعرا ممن ذكرت ؟ لا أعرف لكم أشهر ذكراً ، وأضخم شعراً ، من أبى العباس الجراوى ، وأولى لكم أن تجحدوا فخره ، وتنسوا ذكره ، فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم فى قوله من قصيدة يمدح بها خليفة :

---

(١) فى ا « لها ردف تعلق من لطيف »

إذا كان أَمْلاَكُ الزمان أراقماً فإنك فيهم دائمَ الدهر ثعبان(١)

فما أقبح ما وقع « ثعبان » وما أضعف ما جاء « دائم الدهر » ولقد أنشدت أحد ظرفاء الأندلس هذا البيت ، فقال : لا ينكر هذا على مثل الجراوى ، فسبحان من جعل روحه ونسبه وشعره تتناسب فى الثقالة :

فرسان الأندلس

وإن أردت الافتخار بالفرسان ، والتفاضل بالشجعان ، فمن كان قبلنا منهم فى مدة المنصور بن أبى عامر ومدة ملوك الطوائف أخبارُهم مشهورةٌ ، وآثارهم مذكورة ، وكفاك من أبطال عصرنا ما سمعت عن الأمير أبى عبد الله بن مَرْدَنِيش وأنه كان يدفع فى مواكب النصارى(٢) ويشقها يمينا ويسارا منشداً :

أكرّ على الكتيبة لا أبالى أحَتْفِى كان فيها أم سواها

حتى إنه دفع يوما فى موكب من النصارى فصرع وقتل ، وظهر منه ما أعجبت(٣) به نفسه ، فقال لشيخ من خواصه ، عالم بأمور الحرب مشهور بها : كيف رأيت ؟ فقال له : لو رآك السلطان زاد فيما لك فى بيت المال ، وأعلى مرتبتك ، أمن يكون رأس جيش يقدم هذا الإقدام ، ويتعرض بهلاك نفسه إلى هلاكهم ، فقال له : دعنى فإنى لا أموت مرتين ، وإذا مت أنا فلاعاش مَنْ بعدى

والقائد أبو عبد الله بن قادوس(٤) الذى اشتهر من شجاعته ومواقعه فى النصارى وحسن بلائه ما صير النصارى من رُعْبه والإقرار بفضله فى هذا الشأن أن يقول أحدهم لفرسه إذا سقاه فلم يقبل على الماء : مالك ؟ أرأيت ابن قادوس(٤) فى الماء ، وهذه مرتبة عظيمة .

* والفضلُ ماشهدت به الأعداء *

ولقد أخبرنى مَنْ أثق به أنه خرج من عسكر فى كتيبة مجردة برسم الغارة

(١) الأملاك : جمع ملك ، بزنة كتف وأكتاف ، والأراقم : جمع أرقم ، وهو أخبث الحيات .

(٢) فى ا « وأنه كان يدفع فى المواكب ويشقها »

(٣) فى ا « ما أعجبته به نفسه » (٤) فى ا « بن قادس » فى كل المواضع

على بلاد النصارى ، فوقع فى جمع كبير منهم ، فجهد جهده فى الخلاص منهم والرجوع إلى العسكر ، فجعل يقاتل مع أصحابه فى حالة الفرار إلى أن كبا بأحد جنده فرسُه ، وفر عنه ، فناداه مستغيثاً ، فقال : أُصبر ، ثم نظر إلى فارس من النصارى قد طرق(١) فقال : اجر إلى هذا النصرانى ، فخذ فرسه ، وركض نحوه ، فأسقطه ، وقال لصاحبه : اركب ، فركب ونجا معه سالما .

وأمثال هذا كثير ، و إنما جئت بحَصَاة من ثَبير(٢) .

شمائل أهل الأندلس

وأما كرم النفس وشمائل الرياسة فأنا أحكى لك حكاية تتعجب منها ، وهى مما جرى فى عصرنا ، وذلك أن أبا بكر بن زُهْر نشأت بينه و بين الحافظ أبى بكر ابن الجد عداوة مفرطة للاشتراك فى العلم والرياسة وكثرة المال والبلدية ، فأجرى ابن زُهْر يوما ذكره فى جماعة من أصحابه ، وقال : لقد آذانا هذا الرجل أشد أذِيَّة ، ولم يقصر فى القول عند أمير المؤمنين وعند خواص الناس وعوامهم ، فقال له أحد عوامهم : إنى أذكر لك عليه عقدا فيه مخاصمة فى موضع مما يعز عليه من مواضعه ، ومتى خاصمته فى ذلك بلغت منه فى النكاية أشد مبلغ ، فخرج ابن زُهْر ، وأظهر الغضب الشديد ، والإنكار لذلك ، وقال لوكيله : أمثلى يجازى على العداوة بما يجازى به السفل والأوباش ؟ وإنى أجعل ابن الجد فى حل من موضع الخصام وأمر بأن يحمل له العقد ، ثم قال : وإنى والله ما أروم بذلك أن أصالحه(٣) ، فإن عداوته من حسد(٤) ، وأنا أسأل الله تعالى أن يُديمها ، لأنها مقترنة بدوام نعم الله على

فضائل البلاد

و إن تعرضت إلى ذكر البلاد ، وتفسير محاسنها ، وما خَصَّها الله تعالى به مما حرمه على غيرها ، فاسمع ما يميت الحسود كمداً .

إشبيلية

أما إشبيلية فمن محاسنها اعتدالُ الهواء ، وحسن المبانى ، وتزيين الخارج

---

(١) فى ب « قد طرف »

(٢) ثبير — بفتح الثاء — اسم جبل ، يريد أنه أتى بقليل من كثير

(٣) فى ا «ما أروم بذلك أصالحه» (٤) فى ب «فإن عداوته شديدة من حسد»

والداخل ، وتمكن التمصر ، حتى إن العامة تقول : لو طاب لبَنُ الطير فى إشبيلية وُجِد ، ونهرها الأعظم الذى يصعد المدفيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر ، وفيه يقول ابن سفر :

شق النسيم عليه جَيْبَ قميصه ... فانساب من شَطَّيه يطاب ثاره

فتضاحكت وُرْقُ الحمام بدَوْحها ... هزأ فضم من الحياء إزارَهُ

وزيادته على الأنهار كون ضفتيه مطرزتين(١) بالمَنَازه والبساتين والكروم والأنْسَام(٢) متصل ذلك اتصالا لايوجد على غيره .

وأخبرنى شخص من الأكياس دخل مصر وقد سألته عن نيلها أنه لاتتصل بشطيه البساتين والمنازه اتصالها بنهر إشبيلية ، وكذلك أخبرنى شخص آخر دخل بغداد ، وقد سعد هذا الوادى بكونه لا يخلو من مَسَرَّة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر لاناهٍ عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤدِّ السكرُ إلى شر وعَرْبدة ، وقد رام مَنْ وليها من الولاة المظهرين للدين قَطْعَ ذلك ، فلم يستطيعوا إزالته ، وأهله أخف الناس أرواحا ، وأطبعهم نوادر ، وأحملهم لمزاح بأقبح مايكون من السب ، قد مَرَنوا على ذلك ، فصار لهم دَيْدَنا حتى صار عندهم مَنْ لا يبتذل فيه ولا يتلاعن ممقوتا ثقيلا ، وقد سمعت عن شَرَفِ إشبيلية الذى ذكره أحد الوشاحين فى مُوَشحة مدح بها المعتضد بن عياد

إشبيليا عروس وبعلها عباد ... ،تاجها الشرف وسلكها الواد

أى شرف قد حاز ما شاء من الشرف إذ عم أقطار الأرض خيره ، وسفر ما يعصر من زيتونه من الزيت حتى بلغ الإسكندرية ، وتزيد قُراه على غيرها من القرى بانتخاب مبانيها ، وتهمم سكانها فيها داخلا وخارجا ، إذ هى من تبييضهم لها نجوم فى سماء الزيتون .

---

(١) فى ا « مطرزة بالمنازه »

(٢) الأنسام : جمع نسيم على غير قياس ، وفى ا « الأنشام »

وقيل لأحد مَنْ رأى مصر والشام : أيها رأيت أحسن هذان أم إشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل إشبيلية : وشرفها غابة بلا أسد ، ونهرها نيل بلا تمساح ، وقد سمعت عن جبال الرحمة بخارجها ، وكثرة ما فيها من التين القوطى والشعرى ، وهذان الصنفان أجمع المتجولون فى أقطار الأرض أنْ ليس فى غير إشبيلية مثلٌ لهما ، وقد سمعت مافى هذا البلد من أصناف أدَوات الطرب كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة(١) والفنار والزلامى والشقرة والنورة ، وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه، والبوق ، و إن كان جميع هذا موجودا فى غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر وأوجد ، وليس فى بر العُدْوة من هذا شىء إلا ما جُلب إليه من الأندلس ، وحسبهم الدف وأقوال واليرا وأبو قرون ودبدبة السودان وحماقى البرابر ، وأما جواريها ومراكبها براً و بحراً ومطابخها وفواكهها الخضراء واليابسة فأصناف أخذت من التفضيل بأوفر نصيب ، وأما مَبَانيها فقد سمعت عن إتقانها واهتمام أصحابها بها وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجارى والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك ، وأما علماؤها فى كل صنف رفيع أو وضيع جداً أو هزلا فأكثر من أن يُعَدُّوا ، وأشهر من أن يذكروا ، وأما ما فيها من الشعراء والوشّاحين والزجالين فمالو قسموا على بر العُدْوَة ضاق بهم ، والكل ينالون خير رؤسائها ورِفْدَهم ، وما من جميع ما ذكرت فى هذه البلدة الشريفة إلا وقَصْدى به العبارة عن فضائل جميع الأندلس ، فما تخلو بلادها من ذلك ، ولكن جعلت إشبيلية ، بل الله جَعَلَها أم قُرَاها ، ومركز فخرها وعُلاَها ، إذ هى أكبر مدنها ، وأعظم أمصارها .

قرطبة وأما قرطبة فكرسى المملكة فى القديم ، ومركز العلم ومَنَار التقى ومحل التعظيم

---

(١) فى ا « والكنيرة والغنار »

والتقديم ، بها استقرت ملوك الفتح وعظماؤه ، ثم الملوك المَرْوَانية ، وبها كان يحيي ابن يحيي راوية مالك ، وعبد الملك بن حبيب ، وقد سمعت من تعظيم أهلها للشريعة ، ومنافستهم فى السودَدِ بعلمها ، وأن ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها ، ويرفعون أقدارهم ، ويصدرون عن آرائهم ، وأنهم كانوا لا يقدِّمون وزيراً ولا مشاوراً مالم يكن عالما ، حتى إن الحكَم المستنصر لما كره له العلماء شربَ(١) الخمر همَّ بقطع شجرة العنب من الأندلس ، فقيل له : فإنها تعصر من(٢) سواها ، فأمسك عن ذلك ، وأنهم كانوا لا يقدمون أحداً للفَتْوَى ولا لقبول الشهادة حتى يطول اختباره ، وتعقد له مجالس المذاكرة ، ويكون ذا مال فى غالب الحال خوفاً من أن يميل به الفقر إلى الطمع فيما فى أيدى الناس فيبيع به حقوق الدين ، ولقد أخبرت أن الحكم الربضى أراد تقديم شخص من الفقهاء يختص به للشهادة ، فأخذ فى ذلك مع يحيي بن يحيي وعبد الملك وغيرهما من أعلام العلماء ، فقالوا له : هو أهل ، ولكنه شديد الفقر ، ومن يكون فى هذه الحالة لا تأمنه على حقوق المسلمين ، لا سيما وأنت تريد انتفاعه وظهوره فى الدخول فى المواريث والوصايا وأشباه ذلك ، فسكت ولم يرَ(٣) منازعتهم ، وبقى مهموماً من كونهم لم يقبلوا قوله ، فنظر إليه ولده عبد الرحمن الذى ولى الملك بعده ، وعلى وجهه أثر ذلك ، فقال : ما بالك يا مولاى؟ فقال : ألا ترى لهؤلاء الذين نقدمهم ونُنَوِّه عند الناس بمكانهم ، حتى إذا كلفناهم ما ليس عليهم فيه شَطَط ، بل[ما] لا يعيبهم(٤) ، ولا مما هو يرزؤهم ، صَدُّونا عنه ، وغلقوا أبواب الشفاعة ، وذكر له ما كان منهم ، فقال : يا مولاى ، أنت أولى الناس بالإنصاف ، إن هؤلاء ما قدمتهم أنت ولا نَوَّهْتَ بهم ، وإنما قدمهم ونوه بهم علمُهم ، أوَكُنْتَ تأخذ قوما جهالا فتضعهم فى مواضعهم ؟ قال :

(١) فى ا « بغض الخمر » وليس بشىء مع « كره »

(٢) فى ب « تعصر فى سواها » (٣) فى ب « ولم يرد منازعتهم »

(٤) فى ا « بل ما لا يعنيهم »

لا ، قال : فأنصفهم فيما تعبوا فيه من العلم لينالوا به لذة الدنيا وراحة الآخرة ، قال : صدقت ، ثم قال : وأما كونهم لم يَقْبلوا هذا الرجل لشدة فقره فالعلة فى ذلك تنحسم بما يبقى لك فى الصالحات ذكراً ، قال : وما هو ؟ قال : تعطيه من مالك قَدْرَ ما يلحق به من الغنى ما يؤهله لتلك المنزلة ، ويزيل عنك خجل ردهم لك ، وتكون هذه مكرمة ما سبقك إليها أحد ، فَتَهَلّل وجْهُ الحكم وقال : إلى إلى إنها والله شِنْشِنَة عَبْشَمية وإن الذى قال فينا لصادق :

وأبناء أملاك خضارم سادة صغيرهُمُ عند الأنام كبيرُ

ثم استدعى عبدَ الملك بن حبيب وسأله عن قدر ما يؤهله لتلك المرتبه من الغنى ، فذكر له عدداً ، فأمر له به فى الحين ، ونَبَّهَ قدره بأن أعطاه من إصطبله مركوباً ، وكانت هذه أكرومة لا خفاء بعظمها .

* يفنى الزمان وما بَنَتْهُ مُخَلَّد *

ثم إنه إذا كان له من الغنى ما يكفه(١) عن أموال الناس ، ومن الدين ما يصده عن محارم الله تعالى ، ومن العلم مالا يجهل به التصرف فى الشريعة ، أباحوا له الفتوى والشهادة ، وجعلوا علامة لذلك بين الناس القلانِسَ(٢) والرداء .

وأهلُ قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية ، حتى إنهم كانوا لا يُوَلُّون حاكما إلا بشرط أن لا يعدل فى الحكم عن مذهب ابن القاسم .

وقال ابن سارة لما دخل قرطبة : الحمدُ لله قد وافيت قرطبة دار العلوم ، وكرسى السلاطين ، وهى كانت مجمع جيوش الإسلام ، ومنها نصر الله على عَبَدَة الصليب .

---

(١) فى ب « ما يكفيه عن أموال الناس » ويكفه : يمنعه ويحجبه .

(٢) فى ا « القالس والرداء »

يقال : إن المنصور بن أبى عامر - حين تم له ملك البرين ، وتوفرت الجيوش والأموال - عَرَضَ بظاهر قرطبة خيلَه ورَجْله ، وقد جمع من أقطار البلاد ما ينهض به إلى قتال العدوّ وتدويخ بلاده ، فنيف الفرسانُ على مائتى ألف ، والرَّجَّالة على ستمائة ألف ، وبها حتى الآن من صناديد المسلمين وقوّادهم مَنْ لا يَفْتُر عن محاربة[1] ، ولا يمل من مضاربة ، [مَنْ] أسماؤهم بأقاصى بلاد النصارى مشهورة ، وآثارهم فيها مأثورة ، وقلوبهم على البعد بخوفهم معمورة .

ويحكى أن العمارة فى مبانى قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت إلى أن كان يمشى فيها بضوء[2] السُّرُج المتصلة عشرة أميال ، وأما جامعها الأعظم فقد سمعت أن ثُرَيَّاته من نواقيس النصارى ، وأن الزيادة التى زاد فى بنائه ابنُ أبى عامر من تراب ٍ نَقَله النصارى على رؤسهم مما هُدِم من كنائس بلادهم ، وقد سمعت أيضاً عن قنطرتها العظمى وكثرة أرحِى واديها ، يقال : إنها تنيف على خمسة آلاف حجر ، وقد سمعت عن كنبانيتها وما فضل الله تعالى به تربها من بركة وما ينبت فيها من القمح وطيبه ، وفيها جبال الورد الذى بلغ الربع منه مرات إلى ربع درهم ، وصار أصحابه يرون الفضل لمن قطف بيده ما يمنحونه منه ، ونهرها إن صغر عندها عن عظمه عند إشبيلية فإن لتقارب بَرَّيْه هنالك وتقطُّع غُدُره ومُرُوجه معنى آخر وحلاوة أخرى ، وزيادة أنس ، وكثرة أمان من الغرق ، وفى جوانبه من البساتين والمروج ما زاده نضارة وبهجة .

وأما جَيّان فإنها لبلاد الأندلس قلعة ، إذ هى أكثرها زرعا ، وأصرمها أبطالا ، وأعظمها منعة ، وكم رامتها عساكر النصارى عند فترات الفتن فرأوها أبعدَ من العَيّوق ، وأعز منالاً من بيض الأنوق ، ولا خلت من علماء ولا من جيان

---

(١) فى ب « ممن لا يفتر عن محاربة »

(٢) فى ا « لضوء السرج »

شعراء ، ويقال لها « جيان الحرير » لكثرة اعتناء باديتها وحاضرتها بدود الحرير .

ومما يعد فى مفاخرها ما بيَيَّاسَة إحدى بلادِ أعمالها من الزعفران الذى يسفر براً وبحراً ، وما فى أبدة من الكروم التى كاد العنب لا يباع فيها ولا يشترى كثرة ، وما كان بأبدة من أصناف الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ، فإنهن أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والدك ، وإخراج القروى(١) والمرابط والمتوجه .

غرناطة

وأما غَرْنَاطة فإنها دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأبصار ، ومطمح الأنفس ، لها القَصَبة المنيعة ذات الأسوار الشامخة ، والمبانى الرفيعة ، وقد اختصت بكون النهر يتوزع على ديارها وأسواقها وحماماتها وأرحاها(٢) الداخلة والخارجة و بساتينها ، وزانها الله تعالى بأن جعلها مرتبة على بَسِيطها الممتدّ الذى تفرعت(٣) فيه سبائك الأنهار بين زَبَرْجَد الأشجار ، ولنسيم نَجْدها وبهجة منظر حُورها فى القلوب والأبصار ، استلطافٌ يَرُوق الطباع(٤) ، ويحدث فيها ما شاءه الإحسان من الاختراع والابتداع ، ولم تخل من أشراف أماثل ، وعلماء أكابر وشعراء أفاضل ، ولو لم يكن لها إلا ما خصَّها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها من الشواعر مثل نَزْهُون القلاعية وزينب بنت زياد ، وقد تقدم شعرهما ، وحفصة بنت الحاج(٥) ، وناهيكَ فى الظرف والأدب ، وهل ترى أظرف منها فى جوابها للحسيب الوزير الناظم الناثر أبى جعفر ابن القائد الأجل أبى مَرْوَان بن سعيد ، وذلك أنهما باتا بحور مؤمل على ما يبيت به الروض والنسيم ، من طيب النفحة ونضارة النعيم ، فلما حان الانفصال قال أبو جعفر :

---

(١) كذا فى ا ونسخة عند ب ، وفى أصل ب « القرى »
(٢) فى أصل ب « وأرجائها » (٣) فى ب « تفرعت »
(٤) فى ا « يرق الطباع » (٥) فى ب « بنت الحجاج »

رعى الله ليلا لم يَرُعْ بمذمم عشية وارانا بحُورٍ مؤمل[1]
وقد خفقت من نحو نجد أريجة إذا نفَحَتْ هبت بريا القَرَنْفُلِ
وغَرَّد قُمْرِىٌّ على الدَّوْح وانْثَنَى قضيبٌ من الريحان من فوق جدول
ترى الروض مسرورا بما قد بدا له عناق وضم وارتشافُ مُقَبَّلِ

وكتبه إليها بعد الافتراق ، لتجاوبه على عادتها فى ذلك ، فكتبت له مالا يخفى فيه قيمتها :

لعمرك ما سُرَّ الرياض بوصلنا ولكنه أبدى لنا الغل والحسد
ولا صَفَّقَ النهر ارتياحا لقربنا ولا صَدَحَ القُمْرِى إلا بما وجد
فلا تُحْسِنِ الظن الذى أنت أهله فما هو فى كل المواطن بالرشَدْ
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه لأمرٍ سوى كيما تكون لنا رَصَدْ

وأما مالَقَة فإنها قد جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة التى لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر ، والبروج التى شابهت نجوم السماء ، كثْرة عدد وبهجة ضياء ، وتخلل الوادى الزائر لها فى فصلى الشتاء والربيع فى سرر بطحائها ، وتوشيحه لحضور أرجائها[2] ، ومما اختصت به من بين سائر البلاد التين الربى المنسوب إليها ، لأن اسمها فى القديم ربة ، ولقد أخبرت أنه يُبَاع فى بغداد على جهة الاستطراف ، وأما مايسفر منه المسلمون والنصارى فى المراكب البحرية فأكثر من أن يعبر عنه بما يحصره ، ولقد اجتزت بها مرة ، وأخذت على طريق الساحل من سُهَيل إلى أن بلغت إلى بليش قدر ثلاثة أيام متعجباً فيما حَوَته هذه المسافة من شجر التين ، وإن بعضها ليجتنى جميعها الطفل الصغير من لزوقها بالأرض ، وقد حوَتْ ما يتعب الجماعة كثرة ، وتين بليش هو الذى قيل فيه لبربرى : كيف رأيته ؟ قال : لا تسألنى مالقة

---

(١) فى ب « لم يرح بمذمم » ووقع عجزه في ا « رعانا ووارانا بحور مؤمل »
(٢) كذا فى ا ، ب ، وأحسبه محرفا عن « وتوشيحه لحصور أرجائها »

عنه ، وصُبَّ فى حلقى بالقفة ، وهو لعمر الله معذور ، لأنه نعمة حرمت بلاده منها ، وقد خُصَّت بطيب الشراب الحلال والحرام ، حتى سار المثل بالشراب المالقى ، وقيل لأحد الخلعاء(١) ، وقد أشرف على الموت : اسأل ربك المغفرة ، فرفع يديه وقال : يارب ، أسألك من جميع مافى الجنة خمر مالَقَةَ وزبيبى إشبيلية ، وفيها تنسج الحُلل الموشية التى تجاوز أثمانها الآلافَ ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء فمن دونهم ، وساحلها محط تجارة لمراكب المسلمين والنصارى

المرية وأما المَرِيَّة فإنها البلد المشهور الذكر ، العظيم القدر ، الذى خص أهله باعتدال المزاج ، ورونق الديباج ، ورقة البشرة ، وحسن الوجوه والأخلاق ، وكرم المعاشرة والصحبة ، وساحلها أنظف السواحل وأشرحها وأملحها منظراً ، وفيها الحَصَا المُلوَّن العجيب الذى يجعله رؤساء مراكش فى البراريد والرخام الصقيل الملوكى ، وواديها المعروف بوادى بجَانَةَ من أفرج الأودية ، ضَفَّتاه بالرياض كالعِذَارين حول الثغر ، فحق أن ينشد فيها :

أرض وطئت الدر رضراضا بها والترب مسكا والرياض جنانا

وفيها كان ابن ميمون القائد الذى قَهَرَ النصارى فى البحر ، وقطع سفرهم فيه ، وضرب على بلاد الرمانية ، فقتل وسبى ، وملأ صدور أهلها رعبا ، حتى كان منه كما قال أشجع :

فإذا تنبه رُعْتَهُ وإذا غفا سَلَّتْ عليه سيوفَكَ الأحلامُ

وبها كان محط مراكب النصارى ، ومجتمع ديوانهم ، ومنها كانت تسفر لسائر البلاد بضائعهم ، ومنها كانوا يوسقون جميع البضائع التى تصلح لهم ، وقصد بضبط ذلك بها حصر ما يجتمع فى أعشارهم ، ولم يوجد لهذا الشأن مثلها ، لكونها(٢) متوسطة

---

(١) فى ب « لأحد الخلفاء » محرفا

(٢) فى ا « لكونها موسطة »

ومتسعة قائمة بالوارد والصادر ، وهى أيضا مصنع للحُلل المَوْشِية النفيسة .

مرسية

وأما مُرْسِيَةُ فإنها حاضرة شرق الأندلس ، ولأهلها من الصَّرامة والإباء ماهو معروف مشهور ، وواديها قسيم وادى إشبيلية ، كلاهما يَنْبَع من شَقُورة ، وعليه من البساتين المتهدبة الأغصان ، والنواعير المطربة الألحان ، والأطيار المغردة ، والأزهار المتنضدة ، ماقد سمعت ، وهى من أكثر البلاد فواكه وريحانا ، وأهلها أكثر الناس راحات وفرجا لكون خارجها معينا على ذلك بحسن منظره ، وهى بلدة تجهز منها العروس التى تنتخب شورتها لاتفتقر فى شىء من ذلك إلى سواها ، وهى للمرية ومالقَة فى صنعة الوشى ثالثة ، وقد اختصت بالبُسُط التنتلية التى تسفر لبلاد المشرق ، وبالحصْر التى تغلف[1] بها الحيطان المبهجة للبصر ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره ، ولم تخل من علماء وشعراء وأبطال .

بلنسية

وأما بَلَنْسِيَةُ فإنها لكثرة بساتينها تعرف بمطيب الأندلس ، ورُصافتها من أحسن متفرجات الأرض ، وفيها البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء والرونق ، ويقال إنه لمواجهة الشمس لتلك البحيرة يكثر ضوء بَلَنْسِيَة إذهى موصوفة بذلك ، ومما خصت به النسيج البلنسى الذى يسفر لأقطار المغرب ، ولم تخل من علماء ولاشعراء ، ولافرسان يكابدون مضايقة الأعداء[2] ، ويتجرعون فيها النعماء ممزوجة بالضراء ، وأهلها أصلح الناس مذهبا وأمتنهم دينا ، وأحسنهم صحبة ، وأرفقهم بالغريب .

جزيرة ميورقة

وأما جزيرة مَيُورْقة فمن أخصب بلاد الله تعالى أرجاء ، وأكثرها زرعا ورزقا وماشية ، وهى على انقطاعها من البلاد مستغنية عنها ، يصل فاضل خيرها إلى غيرها ، إذ فيها من الحضارة والتمكن والتمصر وعظم البادية مايغنيها ، وفيها من الفوائد مافيها ، ولها فضلاء وأبطال اقتصروا على حمايتها من الأعداء المحدقة بها ،

---

(١) فى ا « التى تقلف »

(٢) فى ا « مصاقبة الأعداء »

من كل مَنْ جعل الحسام خليله لا يبتغى أبدا سواه معينا

هذا ـ زان الله تعالى فَضْلَكَ بالإنصاف ، وشرف كرمك بالاعتراف ! ـ ماحضرنى الآن فى فضل جزيرة الأندلس ، ولم أذكر من بلادها إلا ما كُلٌّ بلد منها مملكة مستقلة يليها ملوك بنى عبد المؤمن على انفراد ، وغيرها فى حكم التبع .

وأما علماؤها وشعراؤها فإنى لم أعرض منهم إلا لمن هو فى الشهرة كالصباح ، وفى مسير الذكر كمسير الرياح ، وأنا أحكى لك حكاية جرت لى فى مجلس الرئيس الفقيه أبى بكر بن زُهْر ، وذلك أنى كنت يوماً بين يديه ، فدخل علينا رجل عجمى من فضلاء خراسان ، وكان ابن زُهْر يكرمه ، فقلت له : ما تقول فى علماء الأندلس وكتابهم وشعرائهم ؟ فقال : كَبُرْت ، فلم أفهم مقصده ، واستبردت ماأتى به ، وفهم منى أبو بكر بن زُهْر أنى نظرته نظر المستبرد المنكر ، فقال لى : أقرأت شعر المتنبى ؟ قلت : نعم ، وحفظت جميعه ، قال : فعلى نفسك إذن فلتنكر ، وخاطِرَكَ بقلة الفهم فلتتهم ، فذكرنى بقول المتنبى :

كَبُرْتُ حول ديارهم لما بَدَتْ منها الشموسُ وليس فيها المشرق

فاعتذرت للخراسانى ، وقلت له : قد والله كبرت فى عينى بقدر ما صغُرَتْ نفسى عندى ، حين لم أفهم نبُلَ مقصدك ، فالحمد لله الذى أطلع من المغرب هذه الشموس ، وجعلها بين جميع أهله بمنزلة الرؤس ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه المختار من صفوة العرب ، وعلى آله وصحبه ، صلاةً متصلة إلى غابر الحِقب[(1)] .

كملت رسالة الشَّقَنْدى ، وهو أبو الوليد إسماعيل بن محمد ، وشَقَنْدَة المنسوب إليها : قرية مطلة على نهر قرطبة مجاورة لها من جهة الجنوب .

قال ابن سعيد : وهو ممن كان بينه و بين والدى صحبة أكيدة ، ومجالسات

---

(١) فى ا « على غابر الحقب »

أنس عديدة ، ومزاورات تتصل ، ومحاورات لا تكاد تنفصل ، وانتفعت بمجالسته ، وله رساله فى تفضيل الأندلس يعارض بها أبا يحيى فى تفضيل بر العُدْوة أو رد فيها من المحاسن ما يشهد له بلطافة المنزع ، وعذوبة المَشْرع ، وكان جامعا لفنون من العلوم الحديثة والقديمة ، وعنى بمجلس المنصور ، فكانت له فيه مشاهد غير ذميمة وولى قضاء بياسة(١) وقضاء لُورْقَة ، ولم يزل محفوظ الجانب ، محمود المذاهب ، سمعته ينشد والدى قصيدةً فى المنصور وقد نهض للقاء العدو ، منها :

إذا نَهَضْتَ فإن السيف منتهض ترمى السعود سهاما والعدا غَرَضُ
لك البسيطة تطويها وتنشرها فليس فى كل ما تنويه معترض

قال : وسمعته يقول له : أنشدت الوزير أبا سعيد بن جامع قصيدة أوّلها :

استوقفِ الركب قد لاحت لك الدار وأسأل بربع تناءت عنه أقمار
لا خَفَّفَ الله عنى بعد بينهمُ فإننى سرت والأحباب ما ساروا

ومنها :

ألا رعى الله ظبيا فى قبابهم منه لهم فى ظلام الليل أنوار

وله :

عللانى بذكر مَنْ همتُ فيه وعِدَانى عنه بما أرتجيه
وإذا ما طربتما لارتياحى فاجعلا خمرتى مُدامَةَ فيهِ
ليت شعرى وكم أطيل الأمانى أى يوم فى خلوة ألتقيه
وإذا ما ظفرت يوما بشكوى قال لى أين كل ما تدَّعيه
لا دموع ولا سقام فماذا شاهدٌ عنك بالذى تدعيه(٢)
قلت دعنى أمُتْ بدائى فإنى لو بَرَانى الغرامُ لا أبديه

---

(١) فى نسخة عند ب « قضاء بلنسية » وما أثبتناه يوافق مافى ا وأصل ب

(٢) تكررت فى القافية كلمة « تدعيه » وهو من عيوب القافية ، وكونه في بيتين متجاورين أشد عيباً

وقال فى عُوّاده لما مرض :

إنى مرضت مرضة أُسْقِطَ منها فى يدى[١]
فكان فى الإخوان مَنْ لم أره فى العود
فقلت فى كلهمُ قولَ امرىء مقتصد
إير الذى قد عادنى فى أُست الذى لم يَعُدِ[٢]

مات بإشبيلية سنة ٦٢٩ انتهى .

وقال ابن سعيد : أنشدنى والدى للحافظ أبى الطاهر[٣] السِّلفى ، قال : وكفى به شاهداً ، و بقوله مفتخرا :

بلاد أَذَرْبِيجَانَ فى الشرق عندنا كأَندلس بالغرب فى العلم والأدب
فما إن تكاد الدهر تلقى مميزا مِنَ أُهليهما إلاوقد جَدَّ فى الطلب

وحَكَى غيرُ واحد كابن الأبار أن عباس بن ناصح الشاعر لما توجه من قرطبة إلى بغداد ، ولقى أبا نُوَاس ، قال له : أنشدنى لأبى الأجرب ، قال : فأنشدته ، ثم قال : أنشدنى لبكر الكنانى ، فأنشدته ، وهذان شاعران من الأندلس .

واعلم أننا[٤] إن تتبعنا كلام الأندلسيين وحكاياتهم الدالَّةَ على سَبْقهم طال بنا الكتاب ، ولم نستوف المراد ، فرأينا أن نذكر بعضا من ذلك بحسب ما اقتضاه الحال وأبداه ، ليكون عنوانا دالا على ماعداه .

* يَكْفِى من الحَلْىِ ما قد حَفَّ بالعنق *

بعض حكايات الأندلسيين

ولنبدأ مانسوقه من أخبار الأندلسيين وأشعارهم وحكاياتهم فى الجدّ والهزل ، والتولية والعزل ، بقول الفقيه الزاهد أبى عمران موسى بن عمران المارتلى ، وكان سكن إشبيلية :

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب « أسقطت منها فى يدى »
(٢) فى ا « فى إست من لم يعد » ويلزم عليه قطع همزة الوصل ، وأثبتنا ما فى ب
(٣) فى ا « أبى الظاهر » (٤) فى ا « واعلم أنا إن تتبعنا »

لا تبك ثوبك إن أبليت جِدَّته ... وابك الذى أبلتِ الأيام من بدنك
ولا تكونَنَّ مختالا بجدته ... فربما كان هذا الثوبُ من كفنك[1]
ولا تَعَفْهُ إذا أبصرته دنساً ... فإنما اكتسب الأوساخ من دَرَنك[2]

وقال أبو عمرو اليَحْصُبى اللوشى :

شَرِّدِ النوم عن جفونك وانظر ... حكمة توقظ النفوس النياما
فحرام على امرىء لم يشاهد ... حكمة الله أن يذوق المناما

وقال أيضا :

ليس للمرء اختيار فى الذى ... يتمنى من حراك وسكون
إنما الأمر لربٍّ واحد ... إن يَشَأْ قال له كن فيكون

وقال أبو وهب القرطبى[3] :

تنام وقد أعد لك السهاد ... وتوقن بالرحيل وليس زَادُ
وتصبح مثل ماتمسى مضيعا ... كأنك لست تدرى ماالمراد
أتطمع أن تفوز غدا هَنيئاً ... ولم يك منك فى الدنيا اجتهاد
إذا فرَّطْتَ فى تقديم زرع ... فكيف يكون من عدمٍ حصاد

وقيل : إن الأبيات السابقة التى أولها * أنا فى حالتى التى - إلى آخره * وجدت فى تركته بخطه فى شقف ، و بعضهم ينسبها لغيره ، واسم أبى وهب المذكور عبدالرحمن ، وذكره ابن بَشْكُوال فى الصِّلة ، وأثنى عليه بالزهد والانقطاع ، وكان فى أول أمره قد حسب عامةُ الناس أنه مختلّ العقل ، فجعلوا يؤذونه و يرمونه بالحجارة ، و يصيحون عليه : يامجنون ، ياأحمق ، فيقول :

يا عاذلى أنت به جاهل ... دعنى به لست بمغبون

---

(١) فى ا « فربما كان ذاك الثوب عن كفنك »
(٢) فى ا « فإنما اكتسب الاوساخ من بدنك » والدرن : الوسخ
(٣) فى نسخة عند ب « أبو وهب الفرضى »

أما ترانى أبدا والها ... فيه كمسحور ومفتون
أحْسَنُ ما أسمع فى حبه ... وصْفى بمختلٍّ ومجنون

وقال الخطيب أبو محمد بن برطلة :

بأربعة أرجو نجاتى وإنها ... لأكْرَمُ مذخورٍ لدىَّ وأعظم
شهادة إخلاصى وحبى محمدا ... وحسن ظنونى ثم أنىَ مسلمُ

وقال ابن حبيش :

قالوا تصبر عن الدنيا الدنية أو ... كن عبدها واصطبر للذل واحتملِ(١)
لابدّ من أحد الصبرين ، قلت نعم ... الصبر عنها بعون الله أوفق لى

وقال ابن الشيخ :

اطلب لنفسك فوزها واصبر لها ... نظر الشفيق وخَفْ عليها واتّقِ
من ليس يرحم نفسه ويصدها ... عما سيهلكها فليس بمشفق

وقال أبو محمد القرطبى :

لعمرك ماالدنيا وسرعة سيرها ... بسكانها إلا طريق مجاز(٢)
حقيقتها أن المُقام بغيرها ... ولكنهم قد أُولِعُوا بمجاز(٣)

وقال الشميس :

لله فى الدنيا وفى أهلها ... معميات قد فككناها
من بَشَرٍ ، نحن فمن طبعنا ... نُحِب فيها المال والجاها
دعنى من الناس ومن قولهم ... فإنما الناس أخِلاَّهَا(٤)
لم تُقْبل الدنيا على ناسك ... إلا وبالرحب تلقّاها

---

(١) فى ا «قالوا تصبر على الدنيا — إلخ» (٢) فى ب «وسرعة سيرها * لسكانها»
(٣) المجاز فى هذا البيت اسم مكان من «جاز المكان» إذا تجاوزه وتعداه
(٤) فى ا «فإنما الناسك خلاها» وأخلاها : جمع خليل ، وأصله «أخلاء»

وإنما يعرض عن وصلها مَنْ صَرَفَتْ عنه مُحَيَّاها

وقال أبو القاسم بن بقى :

ألا إنما الدنيا كَرَاحٍ عتيقة أراد مُدِيرُوهَا بها جَلَبَ الأنس
فلما أداروها أثارت حقودهم فعاد الذى راموا من الأنس بالعكس

وقال أبو محمد عبد الله بن العسال الطلَيْطلى :

انظر الدنيا فإن أبــصرتها شَيْئاً يدوم
فاغْدُ منها فى أمان إن يساعِدْكَ النعيم
وإذا أبصرتها منــك على كره تهيم
فاسْلُ عنها واطَّرحها وارتحل حيث تقيم

وقال ابن هشام القرطبى :

وأبى المدامة لا أريد بشربها صَلَفَ الرقيع ولا انهماك اللاهى(1)
لم يبق من عهد الشباب وطيبه شئ كعهدى لم يَحُلْ إلا هى
إن كنت أشربها لغير وفائها فتركتها للنــاس لا لله

وقال أبو محمد بن السِّيد البَطَلْيَوْسى مما نسبه إليه فى « المغرب » :

أخو العلم حَىٌّ خالد بعد موته وأوصاله تحت الـتراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى يُظَنُّ من الأحياء وهو عديم

وقال أبو الفضل بن شرف :

لعمرك ما حَصَلْتُ على خطير من الدنيا ولا أدركت شَيَّاً
وها أنا خارج منها سليباً أقلب نادما كلتا يديَّا
وأبكى ثم أعلم أن مبكا ىَ لا يُجْدِى فأمسح مقلتيا
ولم أجزع لهول الموت لكن بكيت لقلة الباكى عليا

---

(1) فى ا « وأبى المدامة ما أريد بشربها »

وأن الدهر لم يعلم مكانى ... ولا عرفت بَنُوهُ ما لديا
زمان سوف أُنْشَرُ فيه نشرا ... إذا أنا بالحِمام طُوِيتُ طَيّاً
أُسَرُّ بأننى سأعش ميتا ... به ويسوءنى أنْ مُتُّ حيا

وقال الزاهد العارف بالله سيدى أبو العباس بن العريف نفعنا الله تعالى به :

سلوا عن الشوق مَنْ أهوى فإنهمُ ... أدنى إلى النفس من وهمى ومن نَفَسِى
فَمَنْ رسولى إلى قلبى ليسألهم ... عن مشكل من سؤال الصب ملتبس
حلوا فؤادى فما يَنْدَى ، ولو وطئوا ... صخرا لجاد بماء منه منبجس
وفى الحشا نزلوا والوهم يجرَحُهم ... فكيف قرّوا على أذكى من القَبَسِ (١)
لأنهضنَّ إلى حشرى بحبهم ... لا بارك الله فيمن خانهم ونَسِى

قلت : وقد زرت قبره المعظم بمراكش سنة عشر وألف ، وهو ممن يتبرك به فى تلك الديار ، ويستسقى به الغيث ، وهو من أهل المَرِية ، وأحضره السلطان إلى مراكش فمات بها ، وله كرامات شهيرة ومقامات كبيرة ، نفعنا الله تعالى به ! .

كان أهل الاندلس على مذهب الأوزاعى ثم صاروا المذهب مالك

واعلم أن أهل الأندلس كانوا فى القديم على مذهب الأوزاعى ، وأهل الشام منذ أول الفتح ، ففى دولة الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل - وهو ثالث الولاة بالأندلس من الأمويين - انتقلت الفتوى إلى رأى مالك بن أنس وأهل المدينة ، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعاً ، بل والمغرب ، وذلك برأى الحكم واختياره ، واختلفوا فى السبب المقتضى لذلك ، فذهب الجمهور إلى أن سببه رحلة علماء الأندلس إلى المدينة ، فلما رجعوا إلى الأندلس وصَفُوا فضل مالك وسعة علمه ، وجلالة قدره ، فأعظموه كما قدمنا ذلك ، وقيل : إن الإمام مالكا سأل بعضَ الأندلسيين عن سيرة مَلك الأندلس ، فوصف له سيرته ،

(١) فى ب « والوهم يخرجهم » ، وأذكى : أى أشد التهابا واشتعالا .

فأعجبت مالكا لكون سيرة بنى العباس فى ذلك الوقت لم تكن بمرضية ، وكابد لما صنع أبو جعفر المنصور بالعلوية بالمدينة من الحبس والإهانة وغيرهما على ما هو مشهور فى كتب التاريخ ، فقال الإمام مالك رضى الله تعالى عنه لذلك المخبر : نسأل الله تعالى أن يزين حَرَمَنَا بملككم ، أو كلاما هذا معناه ، فَنُمِيت المسألة إلى ملك الأندلس ، مع ما علم من جلالة مالك ودينه ، فحمل الناسَ على مذهبه ، وترك مذهب الأوزاعى ، والله تعالى أعلم .

من شعر ابن يغمور

وحكى أن القاضى الزاهد أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن أبى يغمور لما ندبه أهل الأمر لولاية القضاء بمدينة فاس استعفى ، فلم يُقْبل منه ، وخرج إلى تلك الناحية ، وخرج الناس لوداعه ، فأنشد :

عليكم سلام الله إنىَ راحلٌ ... وعيناى من خوف التفرق تدمع
فإن نحن عشنا فَهْوَ يجمع بيننا ... وإن نحن متنا فالقيامة تجمع

وأنشد أصحابه رحمه الله تعالى ، ولا أدرى هل هى له أو لغيره :

كنا نعظم بالآمال قدركُمُ ... حتى انقضت فتساوى عندنا الناسُ
لم تفضلونا بشىء غير واحدة ... هى الرجاء فسوّى بيننا اليأس

وأنشد أيضا :

بَلَوْتُهُمُ مذ كنت طفلا فلم أجد ... كما أشتهى منهم صديقا وصاحبا
فصوّبت رأيى فى فرارىَ منهمُ ... وشمرت أذيالى وأمعنت هاربا

وأنشد لغيره فى الكتمان :

أخفى الغرام فلا جوارحه ... شعرت بذاك ولا مفاصله
كالسيف يصحبه الحِمَامُ ولم ... يعلم بما حملت حمائله

وأنشد :

قد كنت أمرض فى الشبيبة دائما ... والموت ليس يمر لى فى البال

والآن شبتُ وصحتى موجودة ° وأرى كأن الموت فى أذيالى

ولما أنشده تاج الدين بن حمويه السرخسى الوافد على المغرب من المشرق قول بعضهم :

فلا تَحْقِرَنَّ عدوًّا رماكَ ° وإن كان فى ساعديه قِصَرْ
فإن السيوف تحزُّ الرقابَ ° وتعجز عما تنال الإبر

قال : حسن جيد ، ولكن اسمع ما قال شاعرنا القَسْطَلِّى ، وأنشد :

أثرنى لكشف الخطب والخطب مشكل ° وكِلْنِى لليث الغاب وهو هَصُورُ
فقد تخفض الأسماء وهى سواكن ° و يعمل فى الفعل الصريح ضمير
وتنبو الردينيات والطول وافر ° و يبعد وَقْعُ السهم وهو قصير

الوزير أبو محمد عبد الرحمن ابن مالك المعافرى

وكان الوزير الكريم أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافرى أحد وزراء الأندلس كثير الصنائع جزل المواهب عظيم المكارم، على سنن عظماء الملوك وأخلاق السادة ، لم ير بعده مثله فى رجال الأندلس ، ذاكرا للفقه والحديث ، بارعا فى الآداب ، شاعرا مجيدا ، وكاتبا بليغا ، كثير الخدم والأهل ، ومن آثاره الحمام بجوفى الجامع(١) الأعظم من غَرْنَاطة ، وزاد فى سقف الجامع من صحنه وعوّض أرجل قِسِيه أعمدة الرخام ، وجلب الرؤس والموائد من قرطبة ، وفرش صحنه بكدان الصخر(٢) ، ووجَّهه أميرُه على بن يوسف بن تاشفين إلى طُرْطُوشة برسم بنائها ، فلما حلّها سأل قاضيها فكتب له جملة من أهلها ممن ضعفت حاله وقل تصرفه من ذوى البيوتات ، فاستعملهم أمناء ، ووسَّع أرزاقهم ، حتى كمل له ما أراد من عمله ، ومن عجز أن يستعمله وصله من ماله ، فصدر عنها وقد أنعش خلقا ، رضى الله تعالى عنه ورحمه ! .

ومن شعره فى مجلس أطرب به سماعه ، و بسطه احتشاد الأنس فيه واجتماعه ،

---

(١) فى ب « بجوفى الجامع الأعظم »
(٢) فى ب « بكذان الصخر »

فقال :

لا تلمنى إذا طربت لشجو   يبعث الأُنس فالكريم طَرُوبُ[1]
ليس شَقُّ الجيوب حقا علينا   إنما الحق أن تُشَقَّ القلوبُ

وقطف غلام[2] من غلمانه نوّارة ومَدَّ بها يده إلى أبى نصر الفتح بن عبيد الله ، فقال أبو نصر:

و بَدْرٍ بدا والطَّرف مطلع حسنه   وفى كفه من رائق النَّوْرِ كوكبُ
يروح لتعذيب النفوس و يغتدى   و يطلع فى أفق الجمال و يغرب

فقال أبو محمد بن مالك :

و يحسد منه الغصن أى مهفهف   يجىء على مثل الكثيب و يذهب

وقد سبق هذا .

وكتب إلى الفتح من غير تروّ : يا سيدى ، جرت الأيام بفراقك ، وكان الله جارك فى انطلاقك ، فغيرك [مَنْ][3] روّع بالظّعَن ، وأوقد للوداع جاحم الشَّجَن ، فإنك من أبناء هذا الزمن ، خليفة الخضر لا يستقرّ على وطن ، كأنك والله يختار لك ما تأتيه وما تدعه ، موكل بفضاء الأرض تذرعه[4] ، فحسب من نوى بعشرتك الاستمتاع ، أن يعدّك من العوارى السريعة الارتجاع ، فلا يأسف على قلة الثوى[5] و ينشد :

* وفارقت حتى ما أبالى من النَّوَى[6] *

ومات رحمه الله تعالى بغرناطة سنة ٥١٨ ، وحضر جنازته الخاصة والعامّة ،



---

(١) فى ب « لا تلمنى بأن طربت لشجو »   (٢) فى ب « وخطف غلام »

(٣) ليست فى ب   (٤) هذا عجز بيت من عينية ابن ذريق ، وصدره :

* كأنما هو فى حل ومرتحل *

(٥) الثوى : الإقامة ، وأصله ممدود ، ووقع فى ب « النوى » بالنون ــ وهو تحريف

(٦) فى ب « وفارقت حتى لا أبالى من أهوى » محرفا

وهو من محاسن الأندلس ، رحمه الله تعالى ! .

بين المعتمد والبطليوسي النحلي

ومن نوادر الاتفاق أن جارية مَشَتْ بين يدى المعتمد ، وعليها قميص لا تكاد تفرق بينه و بين جسمها ، وذوائبُها تخفى آثار مشيها ، فسكب عليها ماء ورد كان بين يديه ، وقال :

عُلِّقْتُ جائلة الوشاح غريرة تختال بين أسـنة و بواتر[1]

وقال لبعض الخدم : سر إلى أبى الوليد البَطَلْيَوْسى المشهور بالنحلى ، وخذه بإجازة هذا البيت ، ولا تفارقه حتى يفرغ منـه ، فأجاب النحلى لأول وقوع الرقعة بين يديه :

راقت محاسنها ورقَّ أديمُهَا فتكاد تبصر باطنا من ظاهر
وتمايلت كالغصن فى دِعْصِ النقَا تَلْتَفُّ فى ورق الشباب الناضر[2]
يَنْدَى بماء الورد مسبل شعرها كالطل يسقط من جناح الطائر
تُزْهَى برونقها وعـز جمالها زهو المؤيد بالثناء العاطـر
ملك تضاءلت الملوك لقدره وعَنَا له صرف الزمان الجائر
و إذا لمحتَ جبينـه ويمينـه أبصرتَ بدراً فوق بحر زاخر

فلما قرأها المعتمد استحضره ، وقال له : أحسنت ، أومعنا كنت ؟ فقال له : ياقاتل المَحْل ، أما تلوت (وأوحى ربك إلى النحل) ؟ .

وأصبح المعتمد يوما ثَمِلاً فدخل الحمام ، وأمر أن يدخل النحلى معه ، فجاء وقعد فى مسلخ الحمام حتى يستأذن عليه ، فجعل المعتمد يحبق فى الحمام وهو خال ، وقد بقيت فى رأسه بقية من السكر ، وجعل كلما سمع دوىَّ ذلك الصوت يقول : الجوز ، اللوز ، القسطل ، ومر على هذا ساعة ، إلى أن تذكر النحلى ، فصادفه[3] ،

---

(١) فى ا « علقت جائلة الوشاح عزيزة » وهى أنسب بعجز البيت ، ولكن ما أثبتناه موافقا لما فى ب صحيح مستقيم

(٢) فى ب « والتف فى ورق الشباب » (٣) فى ا « فصادمه »

فلما دخل قال له : من أى وقت أنت هنا ؟ قال : من أول ما رتب مولانا الفواكه فى النصبة ، فغشى عليه من الضحك ، وأمر له بإحسان ، والنصبة : مائدة يصبون فيها هذه الأصناف .

ولما استحسن المعتمد قول المتنبي :

إذا ظفرت منك المَطِىُّ بنظرة أثاب بها مُعْيِي المَطِىِّ ورَازِمُه[(١)]

قال ابن وهبون بديهة :

لَئِنْ جَادَ شِعْرُ ابنِ الْحُسَيْنِ فإنما تُجِيدُ العَطَايا ، واللُّهَا تَفْتَحُ اللَّهَا

تَنَبَّأَ عُجْباً بالقريض ، ولو دَرَى بأنك تَرْوِى شِعْرَهُ لتألَّهَا

وقد تقدم ذكرهما[(٢)] ، فأمر له بمائتى دينار .

ولما قال ابن وهبون المذكور :

غاض الوفاء فما تلقاه فى رَجُل ولا يمر لمخلوق على بال[(٣)]

قد صار عندهمُ عنقاء مغربة أو مثل ماحدثوا عن ألف مثقال

فقال له المعتمد : عنقاء مغربة وألف مثقال يا عبد الجليل عندك سواء ؟ فقال : نعم ، قال : قد أمرنا لك بألف دينار و بألف دينار أخرى تنفقها .

وذكر القرطبي صاحب « التذكرة » فى كتابه قمع الحرص بالزهد والقناعة ، ماصورته : روينا أن الإمام أبا عمر بن عبدالبر رضى الله تعالىعنه بلغه وهو بشاطبة أن أقواما عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزه ، فقال : (ابن عبد البر يفتى بجواز أكل طعام الأمراء ويحتج له)

قل لمن ينكر أكلى لطعــام الأمراء

أنت من جهلك هذا فى محــل السفهاء

لأن الاقتداء بالصالحين ، من الصحابة والتابعين ، وأئمة الفتوى من المسلمين ، من السلف الماضين ، هو مِلاكُ الدين ، فقدكان زيد بن ثابت ـ وكان من الراسخين

(١) فى ب « إذا ظفرت منك العيون »

(٢) انظر ص ١٨٤ من هذا الجزء (٣) فى ا « ولا يمر بمخلوق على بال »

فى العلم - يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد ، وكان ابن عمر رضى الله تعالى عنهما - مع ورعه وفضله - يقبل هدايا صهره المختار بن أبى عبيد ، ويأكل طعامه ، ويقبل جوائزه ، وقال عبد الله بن مسعود - وكان قد ملىء علما - لرجل سأله ، فقال : إن لى جارا يعمل بالربا ، ولا يجتنب فى مكسبه الحرام ، يدعونى إلى طعامه ، أفأجيبه ؟ قال : نعم ، لك المهنأ وعليه المأثم ، مالم تعلم الشىء بعينه حراما ، وقال عثمان ابن عفان رضى الله تعالى عنه - حين سئل عن جوائز السلاطين - : لحم ظبى ذكى ، وكان الشعبى - وهو من كبار التابعين وعلمائهم - يؤدب بنى عبد الملك بن مروان ، ويقبل جوائزه ويأكل طعامه ، وكان إبراهيم النخعى وسائر علماء الكوفة والحسن البصرى - مع زهده وورعه - وسائر علماء البصرة وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأَبَانُ بن عثمان والفقهاء السبعة بالمدينة - حاشى سعيد بن المسيب - يقبلون جوائز السلطان ، وكان ابن شهاب يقبلها ، ويتقلب فى جوائزهم ، وكانت أكثر كسبه ، وكذلك أبو الزناد ، وكان مالك وأبو يوسف والشافعى وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء ، وكان سفيان الثورى - مع ورعه وفضله - يقول : جوائز السلطان أحبّ إلى من صلة الإخوان ، لأن الإخوان يَمُنُّون والسلطان لا يمن ، ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير ، وقد جمع الناس فيه أبوابا ، ولأحمد بن خالد فقيه الأندلس وعالمها فى ذلك كتاب حمله على وضعه وجمعه طعنُ أهل بلده عليه فى قبوله جوائز عبد الرحمن الناصر ، إذ نقله إلى المدينة بقُرْطبة ، وأسكنه دارا من دور الجامع قربه ، وأجرى عليه الرزق من الطعام والإدام والناض[1] ، وله ولمثله فى بيت المال حظ ، والمسئول عن التخليط فيه هو السلطان ، كما قال عبد الله بن مسعود « لك المهنأ وعليه المأثم ، مالم تعلم الشىء

---

(١) الإدام - بكسر الهمزة ، بزنة الكتاب - كل ما تغمس فيه العيش ليسهل بلعه ، والناض : أراد به الدراهم والدنانير

بعينه حراما » ومعنى قول ابن مسعود هذا قد أجمع العلماء عليه ، فمن علم الشىء بعينه حراما مأخوذا من غير حله كالجريمة[١] وغيرها وشبهها من الطعام أو الدابة وما كان مثل ذلك كله من الأشياء المتعينة غصبا أو سرقة أو مأخوذة بظلم بين لاشبهة فيه فهذا الذى لم يختلف أحد فى تحريمه ، وسقوط عدالة آكله ، وأخذِه وتملكه ، وما أعلم من علماء التابعين أحدا تورَّع عن جوائز السلطان ، إلا سعيد ابن المسيب بالمدينة ، ومحمد بن سيرين بالبصرة ، وهما قد ذهبا مثلا فى التورع ، وسلك سبيلهما فى ذلك أحمد بن حنبل وأهل الزهد والورع والتقشف ، رحمة الله تعالى عليهم أجمعين ! والزهد فى الدنيا من أفضل الفضائل ، ولا يحل لمن وفقه الله تعالى وزهد فيها أن يحرم ما أباح الله تعالى منها ، والعجب من أهل زماننا يعيبون الشبهات ، وهم يستحلون المحرمات ، ومثالهم عندى كالذين سألوا عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما عن المحرم يقتل القُرَاد والحلمة ، فقال للسائلين له : من أنتم ؟ فقالوا : من أهل الكوفة ، فقال : تسألوننى عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما ! وروى ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أتاك من غير مسألة فكله وتموّله » وروى هذا الحديث أيضا عن عبد الله ابن عمر رضى الله تعالى عنهما « ما أتاك من غير مسألة فكله وتموله » وروى أبو سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم معناه ، وفى حديث أحدهما « إنما هو رزق رزقكه الله تعالى » وفى لفظ بعض الرواة « ولا تردَّ على الله رزقه » وهذا كله [مركب][٢] مبنى على ما أجمعوا عليه ، وهو الحق ، فمن عرف الشىء المحرم بعينه فإنه لا يحل له ، المسألة من كلام ابن عبد البر ، انتهى .

---

(١) فى ا « كالحريمة » بالحاء المهملة

(٢) لاتوجد هذه الكلمة فى ب

وحضر ابن مجير(٢) مع عدوّ له جاحد لمعروفه ، وأمامهما زجاجة سوداء فيها خمر ، فقال له الحسود : إن كنت شاعرا فقل فى هذه ، فقال ارتجالا :

* شأشكو إلى الندمان ـ إلى آخر الحكاية *

وقد تقدمت فى رساله الشقندى(١) رحمه الله تعالى .

أبو بكر يحيي بن مجير الفهرى

وابن مجير هو أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجير الفهرى ، كان فى وقته شاعر المغرب ، ويشهد له بقوّة عارضته وسلامة طبعه قصائدُه التى صارت مثالا ، و بعدت على قربها مَنَالاَ ، وشعره كثير يشتمل على أكثر من تسعة آلاف وأربعمائة بيت ، واتصل بالأمير أبى عبد الله بن سعد بن مردنيش ، وله فيه أمداح ، وأنشد يوسف بن عبد المؤمن يهنيه بفتح :

إن خير الفتوح ما جاء عَفْوًا مثل مايخطب الخطيب ارتجالا

وكان أبو العباس الجراوى حاضراً ، فقطع عليه لحسادة وجدها ، وقال : يا سيدنا اهتدم بيت وضاح :

خير شراب ما كان عفواً كأنه خطبة ارتجالا

فبدر المنصور ، وهو حينئذ وزير أبيه وسنه قريب العشرين ، وقال : إن كان اهتدمه فقد استحقه لنقله إياه من معنى خسيس إلى معنى شريف ، فسر أبوه بجوابه ، وعجب الحاضرون .

ومر المنصور أيام إمرته باوقبة من أرض شِلْبَ ، فوقف على قبر الحافظ أبى محمد بن حَزْم ، وقال : عجباً لهذا الموضع ، يخرج منه مثل هذا العالم ، ثم قال: كل العلماء عيال على ابن حزم ، ثم رفع رأسه وقال : كما أن الشعراء عيال عليك يا أبا بكر ، يخاطب ابن مجير .

---

(١) فى ا «ابن مجبر» بالباء الموحدة ، وضبطه بالحركات كزنة مكرم اسم مفعول

(٢) انظر ص ١٩٤ من هذا الجزء

ومن شعر ابن مجير يصف خيل المنصور من قصيدة فى مدحه :

له حَلْبَةَ الخيل العِتَاقِ كأنها نَشَاوى تهاوتْ تَطْلُبُ العَزْفَ والقصْفَا (١)
عرائس أغنتها الحجول عن الحِلَى فلم تبغ خلخالا ولا التمست وقفا
فمن يقَقٍ كالطرس تحسب أنه وإن جردوه فى مُلاَءته التفا
وأبلق أعطى الليل نصف إهابه وغار عليه الصبح فاحتبس النصفا
ووَرْد تغشَّى جلده شفق الدجى فإذ حازه دَلَّى له الذيل والعرفا
وأشقر مَجَّ الراح صرفاً أديمه وأصفر لم يمسح بها جلده صرفا
وأشهب فِضِىّ الأديم مُدَنَّر عليه خطوط غير مفهمة حرفا
كما خطرَ الزاهى بمهرق كاتب فجر عليه ذيله وهو ما جَفَّا (٢)
تهبُّ على الأعداء منها عواصف ستنسف أرض المشركين بها نسفا
ترى كل طرف كالغزال فتمترى أظَبياً ترى تحت العجاجة أم طِرْفَا
وقد كان فى البيداء يألف سِرْبَه فربته مهراً وهى تحسبه خِشْفَا
تناوله لفظ الجواد لأنه على ما أردتَ الجرىَ أعطاكه ضعفا

ولما اتخذ المنصور مقصورة الجامع بمراكش بدار ملكها ، وكانت مدبرة على انتصابها إذا استقر المنصور ووزراؤه بمُصَلاّه ، واختفائها إذا انفصلوا عنها ، أنشد فى ذلك الشعراء فقال ابنُ مجير من قصيدة أولها :

أعلمتنى ألْقِى عصا التسيار فى بلدة ليست بدار قرار

إلى أن قال :

طَوْراً تكون بمن حَوَته محيطةً فكأنها سور من الأسوار
وتكون حينا عنهمُ محبوّة فكأنها سر من الأسرار

(١) فى ب « نشاوى تهادت »
(٢) فى ب « كما خطخط الراهى بمهرق كاتب » وما أثبتناه موافق لما فى ا

وكأنها علمت مقادير الورى فتصرفت لهـــمُ على مقدار
فإذا أحَسَّتْ بالإمام يزورها في قومه قامت إلى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعــده كتكوّن الهالات للأقمار

وممن روى عنه أبو على الشلوبين وطبقته، وتوفي بمراكش سنة ٥٨٨، وعمره ٥٣ سنة، رحمه الله تعالى!

وقد حكى الشريفُ الغرْناطي شارحُ المقصورة هذه الحكاية بأتم مما ذكرناه، فقال عن الكاتب ابن عياش [كاتب المنصور الموحدى](١) قال: كانت لأبى بكر بن مجير وِفادةٌ على المنصور فى كل سنة، فصادف فى إحدى وفاداته فراغُه من إحداث المقصورة التى كان أحدثها بجامعه المتصل بقصره فى حضرة مراكش، وكانت قد وُضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتخفض لدخوله، وكان جميعُ من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والأدباء قد نظموا أشعاراً أنشدوه إياها فى ذلك، فلم يزيدوا على شكره، وتَجْزِيته الخيرَ فيما جَدَّد من معالم الدين وآثاره، ولم يكن فيهم من تصدَّى لوصف الحال، حتى قام أبو بكر ابن مجير فأنشد قصيدتَه التى أولها * أعلمتنى ألقى عصا التسيار * واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها * طورا تكون - إلخ * فطرب المنصور لسماعها، وارتاح لاختراعها، انتهى.

وقد بطلت حركات هذه المقصورة الآن، و بقيت آثارها حسبما شاهدته سنة عشر وألف، والله تعالى وارثُ الأرض ومَنْ عليها.

ومن نظم ابن مجير أيضا ما كتب به إلى السلطان ملك المغرب - رحمه الله تعالى! - وقد ولد له ولد(٢)، أعنى لابن مجير:

---

(١) لاتوجد هذه الزيادة فى أصل ا، وهى موجودة فى ب على ما أثبتناه، وفى نسخة عند ا «كاتب يعقوب المنصور الموحدى»

(٢) فى ا «وقد ولد له ابن»

وُلِدَ العَبْدُ الذى إنعامُكم طينَةٌ أنشىء منها جَسَدُهْ
وَهْوَ دون اسمٍ لعلمى أنه لا يُسَمِّى العبدَ إلا سَيِّدُهْ

وقوله :

من شعر الأندلسيين

ملك ترويك منه شيمة أنست الظمآن زُرْقَ النُّطَفِ
جمعت من كل مجد فحكت لفظة قد جمعت من أحرف
يعجب السامع من وصفى لها ووراء العجز ما لم أصِفِ
لو أعار السهمَ ما فى رأيه من سَدَاد وهُدًى لم يصف
حلمه الراجح ميزانُ الهدى يزن الأشياء وَزْنَ المنصف

وقال ابن خفاجة :

صح الهوى منك ولكننى أعجب من بَيْنٍ لنا يُقْدَرُ
كأننا فى فلك دائر فأنت تخفى وأنا أظهر

وهما الغاية فى معناهما ، كما قاله ابن ظافر — رحمه الله تعالى ! —

وقال الأعمى التِّطِيلى :

أما اشتفت منىَ الأيامُ فى وطنى حتى تُضَايق فيما عز من وطرى(١)
فلاقضَت من سَوَاد العين حاجتها حتى تكر على ما طل فى الشعر(٢)

وقال القاضى أبو حفص بن عمر القرطبى :

هُمُ نظروا لواحظها فهاموا وتشرب لُبَّ شار بها المُدَامُ
يخاف الناس مقلتها سواها أيَذْعَرُ قلبَ حامله الحُسَام
سما طرفى إليها وهو باكٍ وتحت الشمس ينسكب الغمامُ
وأذكر قدّها فأنوح وجداً على الأغصان تنتدب الحمام

(١) فى ب « إذا اشتفت منى الأيام — إلخ »
(٢) فى نسخة « ظل فى الشعر »

فأعقب بَيْنُهَا فى الصدر غما إذا غَرَبَتْ ذُكاءُ أتى الظلام (١)

وقال الحاجب عبد الكريم بن مغيث :

طارت بنا الخيل ومن فوقها شُهْبُ بزاةٍ لِحَمَامِ الحَمَام

كأنما الأيدى قسىٌّ لها والطير أهداف وهُنَّ السهام

وقال أخوه أحمد :

اشرب على البستان من كف مَنْ يسقيك من فيهِ وأحداقه

وانظر إلى الأيكة فى برده ولاحِظِ البدر بأطواقه

وقد بدا السَّرْوُ على نهره كخائضٍ شمر عن ساقه

وقال أبو العباس أحمد بن أبى عبد الله بن أمية البَلَنْسِىُّ :

إذا كان ودى وهو أنفس قربة يُجَازَى ببغض فالقطيعة أحزم

ومن أضيع الأشياء ود صرفته إلى غير من تحظى لديه وتكرم

سرعة ارتجال الأندلسيين

ومن حكايات أهل الأندلس فى خلع العذار والطرب والظرف وغير ذلك كسرعة الارتجال ماحكاه صاحب « بدائع البدائه » قال : أخبرنى مَنْ أثق به بما هذا معناه ، قال : خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليد بن زَيْدُون ومعهما الوزير ابن خلدون من إشبيلية إلى منظرة لبنى عباد بموضع يقال له لقَنْت (٢) تحف بها مُرُوجٌ مشرقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة عن ثغور النُّوَّار ، فى زمان ربيع سقت الأرضَ السحبُ فيه بوسْمِيِّها ووليِّها ، وجَلَتْهَا فى زاهر ملبسها و باهر حُلِيِّهَا ، وأردافُ الربا قد تأزرت بالأُزُرِ الخضر من نبَاتها ، وأجيادُ الجداول قد نظم النوار قلائدَهُ حولَ لبَّاتها ، ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم عند هَبَّاتها ، وهناك من البَهَار ما يُزْرى على مَدَاهن النُّضار ، ومن

(١) ذكاء — بضم الذال ، بزنة الغراب — اسم للشمس

(٢) فى ا « الفنت » وفى نسخة عندا « القنت » والتصويب عن الروض

النرجس الريان ما يهزأ بنواعس الأجفان ، وقد نَوَوْا الانفرادَ للهو والطرب ، والتنزه فى روض النبات والأدب ، و بعثوا صاحباً لهم يسمى خليفة هو قِوَام لذتهم ، ونظامُ مسرتهم ، ليأتيهم بنبيذ يُذْهِبُون الهم بذهبه فى لُجَيْن زجاجه ، ويرمونه منه بما يقضى بتحريكه للهَرَب عن القلوب و إزعاجه ، وجلسوا لانتظاره ، وترقب عَوْده على آثاره ، فلما بصروا به مقبلا من أوّل الفجِّ بادروا إلى لقائه ، وسارعوا إلى نحوه وتلقائه ، واتفق أن فارسا من الجند ركض فرسَه فصدمه ووطىء عليه فهشم أعظمه وأجرى دمه ، وكسر قُمْعُل[1] النبيذ الذى كان معه ، وفرق من شمْلهم ما كان الدهر [قد] جمعهُ ، ومضى على غُلَوائه راكضا حتى خفى عن العين ، خائفا من متعلق به يحين بتعلقه الحين ، وحين وصل الوُزَراء إليـه ، تأسفوا عليه ، وأفاضوا فى ذكر الزمان وعدوانه ، والخطب و إلوائه[2] ، ودخوله بطَوَامِّ المضرات ، على تمـام المسرات ، وتكديره لأوقات المنعمات ، بالآفات المؤلمات ، فقال ابن زيدون :

أنلهو والحتوف بنـا مطيفه ونأمَنْ والمنونُ لنـا مُخيفه

فقال ابن خلدون :

وفى يوم وما أدراك يوم مضى قمعالنا ومضى خليفه

فقال ابن عمار :

هما فَخّارَتَا راحٍ ورَوْحٍ تكسرتا فأشقاف وجيفـه

بين ابن شهيد وابن أبى عامر

وذكر ابن بسام ما معناه أن أبا عامر بن شُهَيد حضر ليلة عند [الحاجب أبى عامر ابن][3] المظفر بن المنصور بن أبى عامر بقرطبة ، فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق ، ولم تزل تسهر فى خدمتهم إلى أن هم جند الليل بالانهزام ، وأخذ فى تقويض

(١) القمعل ـ بزنة قنفذ ـ القدح الضخم ، ومثله القمعول كعصفور ، ووقع فى ب « قمعال النبيذ » كما جاء فى بيت ابن خلدون ، وفى ا « قمصال النبيذ »

(٢) فى ا « ذكر الزمان وعدوانه ، والخطب وألوانه »

(٣) زيادة فى ب وحدها

خيام الظلام ، وكانت تسمى أسماء ، فعجب الحاضرون من مكابدتها السهر طول ليلتها على صغر سنها ، فسأله المظفر وصفها ، فصنع ارتجالا :

أفدى أسماء من نديم ملازم للكؤس راتب
قد عجبوا فى السهاد منها وهى لعمرى من العجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لاترقدُ الكواكب

ابن شهيد عند القاضى ابن ذكوان

وحكى ابن بسام ما معناه أن ابن شُهيد المذكور كان يوما مع جماعة من الأدباء عند القاضى ابن ذكوان ، فجيء بيا كورة باقلاًّ ، فقال ابن ذكوان : لاينفرد بها إلا من وصفها ، فقال ابن شُهيد : أنا لها ، وارتجل :

إن لآليك أحْدَثَتْ صَلَفَا فاتخذت من زُمُرُّدٍ صدفا
تسكن ضراتُها البحوروذى تسكن للحسن روضة أنُفَا(١)
هامت بلحف الجبال فاتخذت من سندس فى جِنانها لُحُفَا
شبهتها بالثغور من لطف حسبك هذا من رمز من لطفا(٢)
جاز ابنُ ذكوان فى مكارمه حدود كَعْبٍ وما به وُصِفَا(٣)
قدم دُرَّ الرياض منتخبا منه لأفراس مدحه علفا
أكْلُ ظريف وطعم ذى أدب والفول يهواهُ كل من ظرفا(٤)
رخص فيه شيخ له قدر فكان حسبى من المنى وكَفَى

بين ابن شهيد وجماعة من أصحابه

وقال ابن بسام : إن جماعة من أصحاب ابن شُهيد المذكور قالوا له : يا أباعامر ، إنك لآتٍ بالعجائب ، وجاذب بذوائب الغرائب ، ولكنك شديدُ الإعجاب بما يأتى منك ، هاز لعطفك عند النادر يُتَاح لك(٥) ، ونحن نُريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا ، وكان الذى طلبوه منه زبدة التعنيت ، لأن المعنى إذا كان جلفا ثقيلا

---

(١) فى ب «يسكن ضراتها النحور» (٢) فى ا «حسبك هذا من رفد من لطفا»
(٣) يريد كعب بن مامة الإيادى ، وله قصة فى الكرم مشهورة متعالمة .
(٤) فى ب « والنول يهواه كل من ظرفا» (٥) يتاح لك : يتهيأ لك

على النفس ، قبيح الصورة عند الحس ، كَلَّت الفكرة عنه وإن كانت ماضية ، وأساءت القريحة فى وصفه وإن كانت محسنة ، وكان فى المجلس (١) بابٌ مخلوع معترض على الأرض ، ولبد أحمر مبسوط قد صففت (٢) خفافهم عند حاشيته ، فقال مسرعا :

وفِتْيَةٍ كالنجوم حُسْناً ... كلهمُ شاعر نبيـــــل
متقـد الجانبين ماضٍ ... كأنه الصارم الصَّقيل (٣)
راموا انصرافى عن المعالى ... والحدّ من دونهـا فليل (٤)
فالشـــدُّ فى أمرها فَسِيحٌ ... كلٌّ كثيرٍ له قليـــلُ
فى مجلس زانه التصـابى ... وطاردت وصـفَه العقولُ (٥)
كأنمـا بابه أســـــير ... قد عرضت دونه نُصولُ
يراد منـــه المقال قسرا ... وَهْوَ على ذاك لايقول
ننظر من لبـدِهِ لدينا ... بَحْرَ دم تحتنا يسـيل
كأنْ أخفافنا عليـــه ... مراكبٌ ما لها دليـــل
ضلت فلم تدر أين تجرى ... فهل على شطه تَقِيـلُ

فعجب القوم من أمره ، ثم خرج من عندهم ، فمر على بعض معارفه من الطرائفيين وبين يديه زنبيل ملآن خرشفا (٦) ، فجعل يده فى لجام بغلته ، وقال : لا أتركك أو تصف الخرشف (٦) ، فقد وصفه صاعد فلم يقل شيئاً ، فقال له ابن شهيد : ويحك ! أعلى مثل هذه الحال ؟ قال : نعم ، فارتجل :

هل أبْصَرَتْ عيناك يا خليلى ... قنافذا تبـاع فى زنبيـــل
من خرشف معتمد جليـــل ... ذى إبر تنفذ جلد الفيـل

(١) فى ا « وكان مافى المجلس — إلخ » (٢) فى ا « قد رصت خفافهم »
(٣) فى ا « منفذ الجانبين » (٤) فى ا « والغرب من دونها كليل »
(٥) فى ا « راده التصابى » (٦) كذا فى ب ، وفي ا « حرشفا » بالمهملة

كأنهـا أنياب بنت الغول لو نَخَسَتْ فى اُستِ امرىء ثقيل (١)
لقفزته نحو أرض النيـل ليس يرى طى حشا منـديل (٢)
نقل السخيف المائن الجهول وأ كل قوم نازِحِى العقولِ
أقسمت لا أُطْعِمُها أ كيلى ولا طعمتهـا على شمـــول

بين أبى العلاء زهر وابن رزين

وقال فى « بدائع البدائه » : دخل الوزيرُ أبو العلاء زُهْر ابن الوزير أبى مروان عبد الملك بن زُهْر على الأمير عبد الملك بن رَزِين فى مجلس أنس ، و بين يديه ساق يسقى خمرين من كاسه ولحظه ، و يبدى درين من حبابه ولفظه ، وقد بدا خَطّ عِذاره فى صحيفة خده (٣) ، وكمل حسنه باجتماع الضد منه مع ضده ، فكأنه بسحر لحظه أبدى ليـلا فى شمس ، وجعل يومه فى الحسن أحسن من أمس ، فسأله ابنُ رزين أن يصنع فيه ، فقال بديها :

تضاعف وجدى أن تبدَّى عِذاره ونم فخان القلبَ منى اصطباره (٤)
وقد كان ظنى أن سيمحق ليله بدائع حسن هام فيهـا نهاره
فأظهر ضد ضده فيـه إذ وَشَتْ بعنبرِه فى صفحة الخـد ناره

واستزاده ، فقال بَدِيهاً :

محيَتْ آية النهار فأضحى بَدْرَ تم وكان شمسَ نهار
كان يُعْشِي العيون نورًا إلى أن شغل الله خَـدَّه بالعذار

وصنع أيضاً :

عذار ألَمَّ فأبدى لنـــا بدائع كنا لها فى عَمَى
ولو لم يجنّ النهار الظلا م لم يستبِنْ كوكب فى السما

وصنع أيضاً :

---

(١) في ا « كأنها أنياب نبت الغول »
(٢) فى نسخة عند ب « لقذفته نحو أرض النيل »
(٣) فى ا « فى صفحة خده » (٤) فى ا « تضاعف وجدى إذ تبدى »

تمت محاسن وجهه وتكاملت لما استدار به عذار مونِقُ
وكذلك البدر المنير جماله فى أن يكنفه سماء أزرق انتهى

عبد الله بن عاصم صاحب الشرطة فى قرطبة

وحكى الحميدى وغيره أن عبد الله بن عاصم صاحبَ الشرطة بقرطبة كان أديباً شاعراً سريع البديهة ، كثير النوادر ، وهو من جلساء الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموى ملك الأندلس ، وحكوا أنه دخل عليه فى يوم ذى غَيْم ، و بين يديه غلام حسن المحاسن ، جميل الزى ، كريم الأخلاق(١) ، فقال الأمير : ياابن عاصم ، مايصلح فى يومنا هذا ؟ فقال : عقار ينفد الدنان(٢) ، و يؤنس الغِزْلاَن ، وحديث كقطع الروض قد سقطت فيه مؤنة التحفظ ، وأرخى له عِنانُ التبسط ، يُديرها هذا الأغيد المليح ، فاستضحك الأمير ، ثم أمر بمراتب الغناء ، وآلات الصهباء ، فلما دارت الكأس ، واستمطر الأمير نوادره ، أشار إلى الغلام أن يُلح فى سَقْيه ، و يؤكد عليه ، فلما أكثر رفع رأسه إليه وقال على البديهة :

يا حَسَنَ الوجه لا تَكُنْ صَلِفاً ما لحسان الوُجُوه والصَّلَف
تُحْسِنُ أن تحسِّنَ القَبيحَ ولا ترثى لصبٍّ متيَّم دَنِفِ

فاستبدع الأمير بديهته ، وأمر له ببدرة ، و يقال : إنه خيره بينها و بين الوصيف ، فاختارها نفيا للظِّنة عنه ، انتهى .

بين ابن ظافر والملك الأشرف الأيوبى

قلت : أذكرتنى هذه الحكاية ما حكاه على بن ظافر عن نفسه إذ قال : كنت عند المولى الملك الأشرف بن العادل بن أيوب سنة ٦٠٣ بالرها ، وقد وردتُ إليه فى رسالة ، فجعلنى بين سمعه و بصره ، وأنزلنى فى بعض دوره بالقلعة بحيث يقرب عليه حضورى فى وقت طلبتى أو إرادة الحديث معى ، فلم أشعر فى بعض الليالى وأنا نائم فى فراشى إلا به ، وهو قائم على رأسى ، والسكر قد غلب عليه ،

(١) فى ا « لين الأخلاق »
(٢) فى ا « عقار تنفر الذبان »

والشمع تزهر حَواليه ، وقد حف مماليكه به ، وكأنهم الأقمار الزواهر ، فى ملابس كالرياض ذات الأزاهر ، فقمت مُرَوّعا ، فأمسكنى و بادر بالجلوس إلى جانبى بحيث منعنى عن القيام عن الوساد ، وأبدى من الجميل ما أبدلنى بالنفاق بعد الكساد ، ثم قال : غلبنى الشوق إليك ، ولم أرد(١) إزعاجك والتثقيل عليك ، ثم استدعى مَنْ كان فى مجلسه من خواص القوالين ، فحضروا وأخذوا من الغناء فيما يملأ المسامع التذاذاً ، و يجعل القلوب من الوجد جُذاذاً ، وكان له فى ذلك الوقت مملوكان هما نَيِّرا سماء ملكه ، وواسطتا در سلكه ، وقطبا فلك طربه ووَجْده ، وركنا بيت سروره ولهوه ، وكانا يتناوبان فى خدمته ، فحضر أحدهما فى تلك الليلة وغاب الآخر ، وكان كثيراً ما يُداعبنى فى أمرهما ، و يستجلب منى القول فيهما والكلام فى التفضيل بينهما ، فقلت للوقت :

يا مالكا لم يحك سيرته ماضٍ ولا آتٍ من البشر
اجْمَعْ لنا تفديك أنفُسُنَا فى الليل بين الشمس والقمر

فطرب ، وأمر فى الحال بإحضار الغائب منهما(٢) ، فحضر والنومُ قد زاد أجفانه تفتيرا ، ومعاطفه تكسيرا ، فقلت بين يديه بديهة(٣) فى وصف المجلس :

سقى الرحمن عَصْرًا قد مضى لى بأكناف الرُّهَا صَوْبَ الغمام
وليلا باتت الأنوار فيه تعاون فى مدافعة الظلام
فنور من شموع أوْ ندامى ونور من سقاة أو مدام(٤)
يطوف بأنجم الكاسات فيه سُقَاة مثل أقمار التمام
تريك به الكؤس جمود ماء فتحسب راحها ذَوْبَ الضِّرام
يُميلُ به غصُونا من قدود غناءٌ مثل أصوات الحمام

---

(١) فى ا « ولم أر بإزعاجك » (٢) فى ا « باستدعاء الغائب منهما »
(٣) فى ا « بديها » (٤) فى ا « فنور من شعاع »

فكم من مَوْصِلِيٍّ فيه يَشْدُو فينسى النفسَ عاديةَ الحِمام[1]
وكم من زُلْزُلٍ للضرب فيه وكم للزمر فيه من زُنَامِ
لدى موسى بن أيوب المرجَّى إذا ماضنَّ غيثٌ بانسجام
ومن كمظفر الدين المليك الْـأجَلِّ الأشرف النَّدْب الهمام
فما شمس تقاس إلى نجوم تحاكى قدره بين الكرام
فدام مُخَلداً فى الملك يبقى إذا ماضن دهر بالدوام

فلما أنشدتها قام فوضع فرجية من خاص ملابسه كانت عليه على كَتِفِي ، ووضع شربوشه بيده على رأس مملوك صغير كان لى ، انتهى.

بعض بدائه ابن ظافر

ولابن ظافر هذا بدائع : منها ماحكاه عن نفسه إذ قال : ومن أعجب مادهيت به ورميت ، إلا أن الله بفضله نصر ، وأعطى الظفر ، وأعان خاطرى الكليل ، حتى مضى مَضَاء السيف الصقيل ، أننى كنت فى خدمة مولانا السلطان الملك العادل بالإسكندرية سنة إحدى وستمائة مع من ضمته حاشية العسكر[2] المنصور من الكُتَّاب والحواشى والخدام ، ودخلت سنة اثنتين وستمائة ونحن بالثغر مقيمون فى الخدمة ، مرتضعون لأفاويق النعمة ، فحضرتُ فى جملة مَنْ حضر الهناء ، من الفقهاء بالثغر والعلماء ، والمشايخ والكبراء ، وجماعة الديوان والأمراء ، واتَّفقَ أن كان اليومُ من أيام الجلوس لإمضاء الأحكام والعرض لطوائف الأجناد ، فلم يبق أحد من أهل البلد ولا من أهل المعسكر إلا حضر مهنيا ، ومَثَل شاكراً وداعيا ، فحين غَصَّ المجلس بأهله ، وشرق بجمع السلطان وحَفْله ، وخرج مولانا السلطان إلى مجلسه ، واستقرّ فى دَسْته ، أخرج من بركة قبَائه كتابا ناوله للصاحب الأجل صفى الدين أبى محمد عبدالله بن على وزيردولته ، وكبير جملته ، وهو مفضوض الختام،

---

(١) الموصلى : أراد به إسحاق الوصلى وأباه إبراهيم نديما الرشيد

(٢) فى ا « حاشيتا المعسكر »

مفكوك الفِدام ، ففتحه فإذا فيه قطعة وردت من المولى الملك المعظم كتبها إليه يتشوقه ويستعطفه لزيارته ، ويرققه ويستحثه على عود ركابه إلى بلاد الشام ، المثاغرة بها[1] ، وقَمْع عدوها ، ويعرض بذكر مصر وشدة حرها ، ووَقْد جمرها ، وذلك بعد أن كان وصل إلى خدمته بالثغر ثم رجع إليها ، والأبيات :

أروى رماحك من نحور عداكا وانهب بخيلك من أطاع سواكا
واركب خيولا كالثعالى شُزَّبًا واضرب بسيفك من يشق عصاكا
واجلب من الأبطال كل سَمَيْدَعٍ يَفْرِى بعزمك كلَّ من يشناكا[2]
واسترعِفِ السمرَ الطوال ورَوِّها واسْقِ المنية سيفك السفاكا
وسِرِ الغداة إلى العُدَاة مبادرا بالضرب فى هام العدو دِرَاكا
وانكح رماحَكَ للثغور فإنها مشتاقة أن تبتنى بعلاكا
فالعز فى نصب الخيام على العدا تُرْدِى الطغاة وتدفع الملاكا
والنصر مقرون بهمتك التى قد أصبحت فوق السِّماك سماكا
فإذا عزمت وجدت مَنْ هو طائع وإذا نهضت وجدت من يخشاكا[3]
والنصر فى الأعداء يوم كريهة أحلى من الكأس الذى رَوَّاكَا
والعجز أن تضحى بمصرٍ راهنا وتحلّ فى تلك العراص عراكَا
فأرح حَشَاشَتَكَ الكريمة من لظى مصرٍ لكى نَحْظَى الغداة بذاكا
فلقد غدا قلبى عليك بحرقة شغفا ولا حر البلاد هناكا
وانهض إلى راجى لقاك مسارعا فَمُنَاه من كل الأمور لقاكا[4]
وابرد فؤاد المستهام بنظرة وأعد عليه العيش من رؤياكا
واشف الغداةَ غليلَ صَبٍّ هائم أضحى مناه من الحياة مناكا[5]

---

(١) فى ب « للمشاغرة بها »
(٢) فى ا « يغرى بعزمك » محرفا
(٣) فى ا « وجدت من هو ضائع »
(٤) فى ا « فمناى من كل الأمور ».
(٥) فى ب « عليل صب هائم » بالعين المهملة

فسعادتى بالعادل الملك الذى ملك الملوك وقارن الأفلاكا
فبقيت لى يا مالكى فى غبطة وجُعِلْتُ من كل الأمور فِدَاكا

فلما تلا الصاحبُ على الحاضرين محكم آياتها ، وجَلاَ منها العروس التى حازت من المحاسن أبعد غاياتها ، أخذ الناسُ فى الاستحسان لغريب نظامها ، وتنَاسُق التئامها ، والثناء على الخاطر الذى نظم [بديع] أبياتها ، وأطلع من مشرق فكره آياتها ، فقال السلطان : نريد مَنْ يجيبه عنا بأبيات على قافيتها ، فالتفت مسرعاً إلى وأنا عن يمينه ، وقال : يامولانا مملوكك فلان هو فارس هذا الميدان ، والمعتاد للتخلص من مضايق(١) هذا الشان ، ثم قطع وصلا(٢) من درج كان بين يديه ، وألقاه إلى ، وعمد إلى دواته فأدارها بين يدى ، فقال له السلطان : أهكذا على مثل هذا الحال ؟ وفى مثل هذا الوقت ؟ فقال: نعم، أنا [قد] جربته فوجدته مُتَّقد الخاطر، حاضر الذهن ، سريع إجابة الفكر ، فقال السلطان : وعلى كل حال قُمْ إلى هنا لتنكف عنك أبصار الناظرين ، وتنقطع عنك ضوضاء الحاضرين ، وأشار إلى مكان عن يمين البيت الخشب الذى هو بالجلوس فيه منفرد ، فقمتُ وقد فقدت رجلى انخذالا ، وذهنى اختلالا ، لهيبة المجلس فى صَدْرى ، وكثرة من حضره من المترقبين لى ، المنتظرين حلول فاقرة الشماتة بى(٣)، فما هو إلا أن جلست حتى ثاب إلىَّ خاطرى ، وانثال الكلامُ على سرائرى ، فكنت أتوهّم أن فكرى كالبازى الصَّيود لايرى كلمة إلا أنشب فيها مَنْسِرَه ، ولا معنى إلا شك فيه ظُفُرَهُ ، فقلت فى أسرع وقت :

وَصَلَتْ من الملك المعظم تحفة ملأت بفاخر درها الأسلاكا
أبيات شعر كالنجوم جلالة فلذا حكت أوراقُهَا الأفلاكا

---

(١) فى ب « للتخلص فى مضايق » (٢) فى ا « قطع وصلين »

(٣) الفاقرة : الداهية التى تكسر فقار الظهر ، ووقع فى ب « فاترة » محرفا

عجباً وقد جاءت كمثل الروض إذ لم تُذْوِها بالحرّ نارُ ذَكَاكَا
جلت الهموم عن الفؤاد كمثل ما تجلو بغُرَّة وجهك الأحلاكا
كقميص يوسف إذ شفت يعقوب ريَّاهُ شفتنى مثله رياكا
قد أعجزت شعراء هذا العصر كلهمُ فَلِمْ لا تعجز الأملاكا
ما كان هذا الفضل يمكن مثله أن يحتويه من الأنام سواكا
لم لا أغيب عن الشآم وهل له من حاجة عندى وأنت هناكا
أم كيف أخشى والبلاد جميعها مَحْمِيَّة فى جاه طعن قنَاكَا
يكفى الأعادى حر بأسك فيهمُ أضعاف ما يكفى الولىَّ نداكا
ما زرت مصر لغير ضبط ثغورها فلذا صبرت فُدِيتَ عن رؤياكا
أمُّ البلاد علاَ عليها قدرها لا سيما مذ شُرِّفَتْ بخُطَاكا
طابت وحُقَّ لها ولم لا وهى قد حَوَتِ المعلَّى فى القداحِ أخاكا
أنا كالسحاب أزور أرضاً ساقيا حِيناً وأمنح غيرها سقياكا
مكثى جهاد للعدوِّ لأننى أغزوه بالرأى السديد دِرَاكَا
لولا الرباط وغيره لقصدت بالسير الحثيث إليك نيْلَ رضاكا
ولئن أتيت إلى الشآم فإنما يحتثُّنِى شوق إلى لقياكا
إنى لأمنحك المحبة جاهداً وهواى فيما تشتهيه هواكا
فافخر فقد أصبحت بى و ببأسك الحامى وكل مملَّكٍ يخشاكا
لازلت تقهر من يعادى ملكنا أبدا ، ومَنْ عاداك كان فداكا
وأعيش أبصر ابنك الباقى أبا وتعيش تخدم فى السعود أباكا

ثم عدت إلى مكانى وقد بيضتها ، وحليت بزهرها ساحة القرطاس وروّضتها ، فلما رآنى السلطانُ قد عدت قال لى : هل عملت شيئا[1] ؟ ظنامنه أن العمل فى تلك

(١) فى ا « قال : عملت شيئا »

اللمحة القريبة معجز متعذر ، و بلوغ الغرض فيها غير متصور ، فقلت : قدأجبت، فقال : أنشدنا[(١)] ، فصمتَ الناسُ ، وحدقت الأبصار ، وأصاخت الأسماع ، وظنّ الناسُ بى الظنون ، وترقبوا منى ما يكون ، فما هو إلا أن توالى الإنشاد لأبياتها حتى صفقت الأيدى إعجابا ، وتغامزت الأعين استغرابا ، وحين انتهيت إلى ذكر مولانا الملك الـكامل ، بأنه المعـلى فى البنين إذاضربت قِدَاحهم[(٢)] ، وسردت أمداحهم ، اغرورقت عيناه دمعا لذكره ، وأبان صمته مخفى المحبة حتى أعلن بسره ، وحين انتهيت إلى آخرها فاض دمعه ، ولم يمكنه دفعه ، فمدّ يَدَه مستدعيا للورقة ، فناولتها إلى يد الصاحب ، فناولها له ، وعندحصولها فى يده قام من غير إشعارلأحد بما دار من إرادة القيام فى خَلَده ، ستراً لما ظهر عليه من الرقة على الموالى الأولاد ، وكتما لما عليه من الوجد بهم والمحبة لهم ، وانفض المجلس .

و إنما حمل الصاحب على هذا الفعل الذى غرر بى [فيه] وخاطر بى بالتعريض له أشياء كان يقترحها [على] فأنفذ فيها من بين يديه ، و يخف الأمر منها على لدالّتِي عليه ، منها أننى كنت فى خدمته سنة ٥٩٩ بدمشق ، فورد عليه كتاب من الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر تقى الدين صاحب حَماة ، وقد بعث صحبته نسخة [من ديوان شعره][(٣)] فتشاغل بتسويد جواب كتابه ، فلما كتب بعضه التفت إلى وقال : اصنع أبياتا أكتبها إليه فى صَدْر الجواب ، وأذكر فيها شعره ، فقلت له : على مثل هذه الحال ؟ فقال : نعم ، فقلت بقدر ما أنجز بقية النسخة :

أيا ملـكا قد أوسعَ الناسَ نائلا وأغرقهـم بَذْلاً وَعَمَّهُمُ عدلا
فديناكَ هَبْ للناس فضلا يزينهم فقدحزت دون الناس كلهم الفضلا

---

(١) فى ا « فقال أنشد »

(٢) فى ا «إذاضربت أقداحهم »

(٣) زيادة فى ب وحدها

ودونك فامنحهم من العلم والحجا كما مَنَحَتْهُمْ كَفُّكَ الجود والبذلا

إذا حُزْتَ أوفى الفضل عفوا فما الذى تركت لمن كان القريض له شغلا

وماذا عسى مَنْ ظل بالشعر قاصدا لِبَابِكَ أن يأتى به جَلَّ أو قَلَّا

فلا زلت فى عز يدوم ورفعةٍ تحوز ثناء يملأ الوعر والسهلا

ووقع لابن ظافر أيضا من هذا النمط أنه دخل فى أصحاب له يَعُودون صاحبا لهم، وبين يديه بركة [قد] راق ماؤها، وصَحَتْ سماؤها، وقد رُصَّ تحت دساتيرها نارنج فتن قلوب الحُضَّار، وملأ بالمحاسن عيون النظار، فكأنما رفعت صوالج فضة على كرات من النضار، فأشار الحاضرون إلى وصفها، فقال بديها :

أبدعْتَ ياابن هلال فى فسقية جاءت محاسنها بما لم يعهد

عجبا لأمواه الدساتير التى فاضت على نارنجها المتوقد

فكأنهنَّ صوالج من فضة رفعت لضرب كرات خالص عسجد

أمثلة من ارتجال ابن قلاقس الإسكندرى

ومن بديع الارتجال ما حكاه المذكور عن ابن قَلَاقس الإسكندرى رحمه الله تعالى إذ قال : دخل الأعز أبو الفتوح بن قلاقس على بلال بن مدافع بن بلال الفزارى، فعرض عليه سيفا قد نظم الفِرِنْدُ فى صفحته جوهره، وأذكى الدهر ناره وجمد نهره، وألبسه من سِلْخ الأفاعى رِداءً وجسمه رَدَى، لا يمنع من برقه بدر مجن ولا ثريا مغفر، ولا يسلم من حدّه من ثبت ولا ينجو لطوله من فر، فهو يبكى للنفاق ويضحك، ويُرْعِدُ للغيظ ويفتك، وأمره بصفة شانه، فقال على لسانه :

أروق كما أروع فإن تَصِفْنِى فإنى رائق الصفحات رائع(١)

تدافع بى خطوب الدهر حتى نقلت إلى بلال عن مدافع

وقال أيضا فيه :

---

(١) فى ا « أروق كما أروع وإن تصفنى » وأروع : أخيف

رب يوم له من النَّقْع سحب مالها غير سائل الدم وَدْقُ[1]
قد جَلَته يمنى بِلَال بحدِّى فكأنى فى راحة الشمس بَرْقُ

وقال أيضا فيه :

أنا فى الكريهة كالشِّهاب الساطع من صفحة تبدو وحدٍّ قاطع
فكأنما استمليت تلك وهذه من وصف كف بلال بن مدافع[2]

وقال أيضا فيه :

انظر لِمُطَّرِدِ المياه بصفحتى ولنار حَدِّى كم بها من صالى
قد عاد شدّى فى المضايق شيمتى كبلال بن مدافع بن بلال

وسأله صاحبٌ له وَصْفَ مشط عاج قد أشبه الثريا شكلا ولونا ، وشق ليلا من الشعر حَوْنا ، فقال :

ومتيم بالآبنوس وجسمه عاج ومن أدهانه شرفاته
كتمت دَيَاجِى الشعر منه بدرها فوشت به للعين عَيُّوقَاته

وقال فيه :

وأبيض ليل الآبنوس إذا سرى تمزق عن صُبْحٍ من العاج باهر
وإن غاص فى بحر الشعور رأيته تُبَشِّرنا أطرافه بالجواهر

وقال فيه :

ومشرق يشبه ضوء الضحى حسنا ويسرى فى الدجى الفاحم[3]
وكلما قلب فى لمة أضحكها عن ثغره الباسم

وجلس بمصر فى دار الأنماط يوما مع جماعة ، فمرت بهم أُمرأة تعرف بابنة أمين الملك ، وهى شمس تحت سَحَاب النقاب ، وغصن فى أوراق الشباب ، فحدّقوا

(١) فى ا « ماله غير فائر الدم ودق »
(٢) فى ا « فكأنما استمكيت ذاك وهذه » محرفا
(٣) فى ا « ومشرق يشبه لون الضحى »

إليها تحديق الرقيب إلى الحبيب ، والمريض إلى الطبيب ، فجعلت تتلفت تَلَفُّتَ الظبى المذعور ، أفرَقَه القانصُ فهرب[١] ، وتتثنى تَثَنِّى الغصن الممطور عانقه النسيم فاضطرب ، فسألوه العمل فى وصفها ، فقال : هذا يصلح أن يعكس فيه قول العطار الأزدى القيروانى :

أعرضن لما أن عرضن ، فإن يكن حذرا فأين تلفت الغزلان

ثم صنع :

لهـا ناظر فى ذَرَا ناضر كما ركب السنّ فوق القناة
لوت حين ولت لنا جيدها فأى حياة بدَت من وفاة
كما ذُعِرَ الظبى من قانص فمر وكرر فى الالتفات

ثم صنع أيضا :

ولطيفة الألفاظ لـكن قلبهـا لم أشك منه لَوْعَةً إلا عَتَـا
كملت محاسنها فودَّ البدر أن يحظى ببعض صفاتها أو ينعتا
قد قلت لمـا أعرضت وتعرضت يا مؤيسا يا مطمعا قل لى متى
قالت أنا الظبى الغرير وإنمـا وَلّى وأوجس نبـــوة فتلفتا

قال على بن ظافر : وحضر يوما عند بنى خليف بظاهر الإسكندرية فى قصر رسا بناؤه وسما ، وكاد يمزق بمزاحمته أثواب السما ، قد ارتدى جلابيبَ السحائب ، ولاث عمائم الغمائم ، وابتسمت ثنايا شرُفاته ، واتسمت بالحسن حنَايا غرفاته ، وأشرف على سائر نواحى الدنيا وأقطارها ، وحَبَتْه الرياضُ بمـا ائتمنتها عليه السحب من ودائع أمطارها[٢] ، والرمل بفنائه قد نثر تبره فى زبرجد كرومه[٣] ، والجوّ قد بعث بذخائر الطيب لَطِيمةَ نسيمه ، والنخل قد أظهرت جواهرها ، ونشرت

---

(١) أفرقه : أخافه ، والقانص : الصياد
(٢) فى ا « وحبته السحب بما ائتمنت الرياض عليه من ودائع أمطارها »
(٣) فى ا « نثر تبره وزبرجد كرومه »

غدائرها ، والطَّلُّ ينثر لؤلؤه فى مسارب النسيم ومساحبه ، والبحر يرعد غيظا من عبث الرياح به ، فسأله بعضُ الحضور أن يصف ذلك الموضع الذى تمت محاسنه ، وغُبِط به ساكنه ، فجاشت لذلك لُجُجُ بحره ، وألقت إليه جواهره لترصيع لَبَّةِ ذلك القصر ونَحْرِه ، فقال :

قصر بمَدْرَجَة النسيم تحدثت ... فيه الرياض بسرها المستور
خَفَضَ الخورْنَقُ والسَّديرُ سموّه ... وثنى قصور الروم ذات قُصُورِ (١)
لاث الغمام عمامة مِسْكِيَّةً ... وأقام فى أرض من الكافور
غنى الربيع به محاسن وصفه ... فافترّ عن نَوْرٍ يروق ونُورِ
فالدَّوْحُ يسحب حلة من سندس ... تُزْهَى بلؤلؤ طلها المنثور
والنخل كالغِيدِ الحسان تقرطت ... بسبائك المنظوم والمنثور
والرمل فى حُبُكِ النسيم كأنما ... أبدى غصون سوالف المذعور
والبحر يرعد متنه فكأنه ... دِرْعٌ تشنُّ بمعطفى مقرور
وكأننا والقصر يجمع شملنا ... فى الأفق بين كواكب وبدور
وكذاك دهر بنى خليف لم يزل ... يثنى المعاطف فى حَبِيرِ حُبُورِ

ثم قال ابن ظافر : وأخبرنى الفقيه أبو الحسن على بن الطوسى المعروف بابن السيورى الإسكندرى النحوى بما هذا معناه ، قال : كنت مع الأعز بن قلاَقِس فى جماعة ، فمر بنا أبو الفضائل بن فتوح المعروف بالمصرى ، وهو راجع من المكتب ، ومعه دواته ، وهو فى تلك الأيام قُرَّة العين ظرفا وجمالا ، ورَاحة القلب قُرْباً ووصالا ، كل عين إلى وجهه مُحَدِّقة ، ولمشهد خديه بخَلُوق الخجل مُخَلَّقة ، فاقترحنا عليه أن يتغزل فيه ، فصنع بديها :

---

(١) قصور الروم : جمع قصر ، وذات قصور : أى تقصير عنه

علقتــه متعلقــا بالخط معتكفا عليــه
حمل الدواة ولا دوا ء لعاشق يُرْجَى لديه
فدماء حبات القلوب تلوح صِبْغاً فى يديه
لم أدر ما أشكو إليــه أهَجْرَهُ أم مُقْلَتَيه
والحب يخرسنى على أنى أُلَــكِّع سيبويه
مالى إذا أبصرته شُغْلٌ سوى نظرى إليه

عود إلى كلام أهل الأندلس

وقد آن وقت الرجعة إلى كلام الأندلسيين الذى حلا ، وأبعدنا عنه بما مر النُّجْعة فنقول :

ذكر الفتح فى قلائد العقيان ، كما قال ابن ظافر ، ما معناه : أخبرنى الوزير أبو عامر بن يشتغير(١) أنه حضر مجلس القائد أبى عيسى بن لَبُّون فى يوم سَفَرَتْ فيه أوْجُهُ المسرات ، ونامت عنه أعين المضرات ، وأظهرت سقاته غصونا تحمل بدورا ، وتطوف من المدام بنار ما زَجَتْ من الماء نورا ، وشموسُ الكاسات تطلع فى أكفها كالورد فى السوسان ، وتغرُبُ بين أقاحى نجوم الثغور(٢) فتذبل نرجِسَ الأجفان ، وعنده الوزيرُ أبو الحسن بن الحاج اللورقى ، وهو يومئذ قد بذل الجهد ، فى التحلى بالزهد ، فأمر القائد بعضَ السقاة أن يعرض عليه ذهبَ كاسِهِ ، ويحييه بزبرجدِ آسهِ ، ويغازله بطَرْفه ، ويميل عليه بعِطْفِهِ ، ففعل ذلك مَجِلاً ، فأنشد أبو الحسن مرتجلا :

ومهفهف مَزَجَ الفتورَ بشدة وأقام بين تبــذُّل وتمنع
يَثْنِيهِ من فعل المدامة والصِّبا سكرانِ سكرُ طبيعة وتطبع

---

(١) فى ب ونسخة عند ا « بشتغير »
(٢) فى ا « نجوم الثغر قنديل نرجس الأجفان » وفيه تحريف شنيع

أوْمَا إلى بكأسه فكففتها وَرَنَا فشفعها بلحظ مُطْمِع (١)
والله لولا أن يقال هوى الهوى منه بفضل عزيمة وتورع
لأخذت فى تلك السبيل بمأخذى فيما مضى ونزعت فيها منزعى

وحكى الحميدى أن عبد الملك بن إدريس الجزيرى كان ليلة بين يدى الحاجب ابن أبى عامر والقمرُ يبدو تارة ، ويخفيه السحاب تارة ، فقال بديها :

أرى بدر السماء يلوح حينا فيبدو ثم يلتحف السحابا
وذاك لأنه لما تبدَّى وأبصر وَجْهَكَ استحيا فغابا
مقالٌ لو نمى عنى إليه لراجعنى بتصديقى جوابا

وكان صاعد اللغوى صاحب كتاب « الفصوص » ـ وقد تكرر ذكره فى هذا الكتاب ـ كثيرا ما يمدح بلاد العراق بمجلس المنصور بن أبى عامر ، ويصفها ، ويقرظها فكتب الوزير أبو مروان عبدُ الملك بن شهَيْد والدُ الوزير أبى عامر أحمد بن شُهَيْد صاحب الغرائب ، وقد تقدم بعض كلامه قريبا ، إلى المنصور فى يوم بَرْد ـ وكان أخصَّ وزرائه به ـ بهذه الأبيات :

أما ترى برد يومنا هذا صيرنا للكُمُونِ أفذاذا
قد فُطِرَتْ صحة الكبود به حتى لكادت تعود أفلاذا
فادع بنا للشَّمول مُصْطليا نغذ سيراً إليك إغذاذا
وادعُ المسمَّى بها وصاحبه تدع نبيلا وتدعُ أستاذا
ولا تبالى أبا العلاء زها بخمر قُطْرُبُّلٍ وكلواذا
ما دام من أرملاط مشربنا دع دير عمى وطير ناباذا

وكان المنصور قد عزم ذلك اليومَ على الانفراد بالحرم ، فأمر بإحضار مَنْ جرى رَسْمُه من الوزراء والندماء ، وأحضر ابن شُهَيد فى محفة لنقرس كان يعتاده ،

(١) أوما : أشار ، وأصله أومأ بالهمز فقلبها ألفا

وأخذوا فى شأنهم ، فمر لهم يوم لم يشهدوا مثله ، ووقت لم يعهدوا نظيره ، وطَمَا الطربُ وسما بهم ، حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا يرقصون بالنوبة ، حتى انتهى الدور إلى ابن شُهَيد ، فأقامه الوزيرُ أبو عبد الله بن عباس ، فجعل يرقص وهو متوكىء عليه ، ويرتجل ويومىء إلى المنصور ، وقد غلب عليه السكر (١) :

هاكَ شيخاً قاده عُذْرٌ لكا   قام فى رقصته مستهلكا
لم يُطِقْ يرقصها مستثبتاً   فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها منفرداً   نقرسٌ أخنى عليه فاتكا
من وزير فيهمُ رقَّاصة   قام للسكر يناغى ملكا
أنا لو كنتُ كما تعرفنى   قمت إجلالا على رأسى لكا
قَهْقَهَ الإبريق منى ضاحكا   ورأى رِعْشَةَ رجلى فَبَكَى

قال ابن ظافر : وهذه قطعة مطبوعة ، وطرفها الأخير واسطتها ، وكان حاضرهم ذلك اليوم رجلٌ بغدادى يعرف بالفكيك (٢) ، حسن النادرة سريعها ، وكان ابن شُهَيد استحضره إلى المنصور فاستطبعه ، فلما رأى ابنَ شُهيد يرقص قائماً مع ألم المرض الذى كان يمنعه من الحركة قال: لله درك يا وزير ! ترقص بالقائمة ، وتصلِّى بالقاعدة، فضحك المنصور ، وأمر لابن شُهَيد بمال جزيل ، ولسائر الجماعة ، وللبغدادى .

وقال ابن بسام : حدث أبو بكر محمد بن أحمد بن جعفر بن عثمان المصحفى قال : دخلت يوما على أبى عامر بن شُهَيد ، وقد ابتدأتْ علته التى مات بها ، فأنِسَ بى ، وجرى الحديثُ إلى أن شكوت له تجنّى بعض أصحابى على ، ونفاره عنى ، فقال لى : سأسعى فى إصلاح ذات البين ، فخرجت عنه ، واتفق لقائى لذلك المتجنى على مع بعض أصحابى (٣) وأعزهم على ، فلما رآنى ذلك الصديق مُوَلِّيا

---

(١) فى ا « وقد غلبه السكر »   (٢) انظر (ص ١١٤ من هذا الجزء)
(٣) فى ا « مع بعض إخوانى »

عنه أنكر عليه ، وسأله عن السبب الموجب ، فأخبره ، وزادا فى مشيهما حتى لحقا بى ، وعزم على فى مكالمة صاحبى ، وتعاتبنا عتابا أرق من الهواء (١) ، وأشهى من الماء على الظَّماء ، حتى جئنا دار أبى عامر ، فلما رآنا جميعاً ضحك وقال : مَنْ كان الذى تولى إصلاح ما كنا سُرِرنا بفساده ؟ قلنا : قد كان ما كان ، فأطرق قليلا ثم أنشد :

مَنْ لا أسَمِّى ولا أبوح به   أصلح بينى و بين من أهوى
أرسلت مَنْ كابَدَ الهوى فدَرَى   كيف يداوى مواقع البلوى
ولى حقوقٌ فى الحب ثابتة   لكنَّ إلْفِى يعـدُّها دَعْوَى

وقد ذكرنا فى هذا الكتاب من غرائب أبى عامر بن شُهَيد فى مواضع متفرقة الغرائبَ ، وقدمنا فى الباب الرابع حكايتَه مع المرأة الداخلة فى رمضان لجامع قرطبة وحكينا [ها] هناك بلفظ « المطمح » فلتراجع .

وعبر ابن ظافر عن معناها بقوله : إن أبا عامر كان مع جماعة من أصحابه بجامع قرطبة فى ليلة السابع والعشرين [من رمضان] ، فمرت امرأة به من بنات أجِلاَّء قرطبة ، قد كملت حسناً وظَرْفا ، ومعها طفل يتبعها كالظبية تستتبع خِشْفًا ، وقد حفت بها الجوارى ، كالبدر حُفّ بالدرارى ، فحين رأت تلك الجماعة ، المعروفة بالخلاَعة ، وقد رمقوا ذلك الظبى بعيون أسودٍ رأت فريسة (٢) ، ارتاعت وتخوّفت أن تخطف [منها] تلك الدرة النفيسة ، فاستَدْنَتْ إليها خِشْفَها ، وألزمته عِطْفَها ، فارتجل ابن شهيد قائلا :

* وناظرة تحت طَىِّ القناع إلخ *

ومرت فى الباب الرابع هذه الأبيات .

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب « أرق من الهوى ... الظما »
(٢) فى ا « بعيون الأسود رأت الفريسة »

وقال الرئيس أبو الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدى : لما نعيت أبا عامر بن شُهَيد إلى أبى عبد الله [بن] الخياط الشاعر ، وكان قد عرف ما بينهما من المنافسة ، فبكى وأنشدنى لنفسه بديهة :

لمـــا نعى الناعى أبا عامرٍ أيقَنْتُ أنى لست بالصابر

أوْدَى فتَى الظرف وتِرْبُ الندى وســيد الأول والآخر

وقال ابن بَسَّام : اصطبح المعتصم بن صُمَادح يوما مع ندمائه ، فأبرز لهم وصيفة مهدوية متصرفة فى أنواع اللعب المطرب من الدك ، وحضر أيضا هناك لاعب مصرى ساحر فكان لعبه حسنا ، فارتجل أبو عبد الله بن الحداد :

كذا فَلْتَلُحْ قمراً زاهرا وتَجنى الْهوَى ناظراً ناضرا

وسَيْبُكَ سيب نَدًى مُغْدِق أقام لنــا هاميا هامرا

وإنَّ ليومك ذا رَوْنقاً منيرا كنور الضحى باهرا(١)

صباح اصطباح بإسفاره لحظنا مُحَيَّاً العلا سافرا

وأطلعت فيه نجوم الكؤس فما زال كوكبها زاهرا

وأسمعتنا لاحِناً فاتنــــا وأحضرتنا لاعبا ساحرا(٢)

يرفرف فوق رؤس القيان فننظر ما يُذْهِلُ الناظرا

ويحفظها ذَيْلُ سِرْباله فننظر طالعهـا غائرا

فظاهرها ينثنى باطنــا وباطنهـا ينثنى ظـاهرا

وثَنَّاه ثانٍ لألعابه دقائق تثنى الحجا حائرا

وفى سَوْرة الراح من سحره خواطر دَلَّهتِ الخاطرا

إذا وَرَدَ اللحظ أثناءها فما الوهم عن وردها صادرا

(١) فى ا « منيرا لنور الضحى باهراً » وليس بشيء ، بل هو غث
(٢) فى ا « وأسمعتنا لاعبا فاتنا » وما أثبتناه موافقا لما فى ب أدق

ومن حسن دهرك إبداعه   فما أنفك عارضها ماطرا
وسَعْدُكَ يجتلب المغربات   فيجعل غائبها حاضرا

قال : وحضر الأديب أحمد بن الشقاق عند القائد ابن درى(١) بجيان ، هو وأبو زيد ابن مَقَانَا الأشبونى ، فأحضر لهما(٢) عنبا أسود مُغَطًّى بورق أخضر ، فارتجل ابن الشقاق :

عنب تَطَلَّعَ من حَشَى ورق لنا   صُبِغَتْ غلائلُ جلده بالإثمد(٣)
فكأنه من بينهن كواكب   كسفت فلاحت فى سماء زَبَرْجَدِ

قال : وحضر ابنُ مرزقان ليلةً عند ذى النون بن خلدون ، و بحضرته وصيفة تحمل شمعة ، فاستحسنها ابن مرزقان ، فقال بديها :

يا شمعة تحملها أخرى   كأنها شمس علت بدرا
امتحنت إحداكما مُهْجَتِى   بمثل ما تمتحن الأخرى

قال : دخل الأديب غانم يومًا على باديس صاحب غَرْنَاطة ، فوسع له على ضيق كان فى المجلس ، فقال بديها :

صَيِّرْ فؤادك للمحبوب منزلة   سَمُّ الخياط مجالٌ للمحبيْنِ
ولا تسامح بغيضاً فى معاشرة   فقلما تَسَعُ الدنيا بغيضَيْنِ

وأخذه من قول الخليل « ما تضايق سم الخياط بمتحابين ، ولا اتسعت الدنيا لمتباغضين »(٤) .

وكان الخليل على نُمْرُقَة صغيرة ، والمجلس متضايق ، فدخل عليه بعضُ أصحابه ، فرحب به وأجلسه معه على النمرقة ، فقال له الرجل : إنها لا تسعنا ، فقال ما ذكر .

---

(١) فى ب « القائد ابن دريد »   (٢) فى ا « فأحضرهما »
(٣) فى ا « عنب تطلع من حشى ورق له »   (٤) فى ا « بمتباغضين »

وقال ابن بسام أيضا : أمر الحاجب المنذر بن يحيى التُّجيبي صاحب سَرَقُسْطَة بعرض بعض الجند فى بعض الأيام ، ورئيسُهم مملوك له رومى يقال له خيار فى نهاية الجمال ، فجعل ينفخ فى القَرْن ليجتمع أصحابه على عادة لهم فى ذلك ، فقال ابن هند الدانى فيه ارتجالا :

أعَنْ بابل أجفانُ عينيك تنفث ... ومن قوم موسى أنت للعهد تنكث
أفى الحق أن تحكى سَرَافيلَ نافخا ... وأمكث فى رَمْسِ الصدود وألبث
عساك ، نبيَّ الحسن ، تأتى بآية ... فتنفخ فى ميت الصدود فيُبْعَثُ

قال : وكان بقرطبة غلام وَسِيم ، فمر عليه ابن فرج الجيَّانى ، ومعه صاحب له ، فقال صاحبه : إنه لصبيح لولا صفرة فيه ، فقال ابن فرج ارتجالا :

قالوا : به صُفْرَةٌ عابت محاسنه ... فقلت : ما ذاك من عيب به نزلا
عيناه تطلب فى أوتار من قتلت ... فلست تلقاه إلا خائفاً وجلا

قال : وكان يوما مع ثُلَّة من أهل الأدب فى مجلس أنس ، فاحتاج رب المنزل إلى دينار ، فوجَّه إلى السوق ، فدخل به عليهم غلام من الصيارف فى نهاية الجمال ، فرمى بالدينار إليهم مِن فيه تماجُناً ، فقال ابن فرج :

أبصرت دينارا بكفٍّ مهفهف ... يُزْهَى به من كثرة الإعجاب
أوْما به من فيه ثم رمى به ... فكأنه بدر رَمَى بشهاب(١)

قال : وخرج الأديب أبو الحسن بن حصن الإشبيلى إلى وادى قُرْطُبة فى نزهة ، فتذكر إشبيلية ، فقال بديها :

ذكرتُك يا حمْصُ ذكرَى هوًى ... أمات الحسودَ وتعنيته(٢)
كأنك والشمسُ عند الغروب ... عروسٌ من الحسن منحوته

---

(١) أوما : أشار ، وأصله أومأ ــ بالهمز ــ

(٢) حمص : اسم لإشبيلية ، سماها به الذين دخلوها أيام الفتح ، لأنهم كانوا من أهل حمص .

غدا النهر عقدك والطود تاجـــك والشمس أعـلاه ياقوته انتهى

وعبر بعضهم، وهو صاحب «بدائع البدائه»(١) عن بعض حكايات صاحب القلائد بما يقاربها فى المعنى، فقال: إن المستعين بن هُودٍ ملكَ سَرَقُسْطة والثغور ركب نهر سَرَقُسْطة يوما لتفقد بعض معاقله، المنتظمة بجيد ساحله، وهو نهر رق ماؤه وراق، وأزرى(٢) على نيل مصر ودجلة العراق، قد اكْتَنَفَتْهُ البساتين من جانبيه، وألقت ظلالها عليه، فما تـكاد عين الشمس أن تنظر إليه، هـذا على اتساع عرضه، و بعد سطح مائه من أرضه، وقد توسَّط زووقه زوارق حاشيته توسُّطَ البدر للهَالَة، وأحاطت به إحاطة الطفاوة بالغزالة(٣)، وقد أعدُّوا من مكايد الصيد ما استخرج ذخائر الماء، وأخاف حتى حُوتَ السماء، وأهِلَّة الهالات(٤) طالعة من الموج فى سحاب، وقانصة من بنات الماء(٥) كُلَّ طائرة كالشهاب، فلا ترى إلا صُيُودًا كقِصَدِ الصوارم(٦)، وقدود اللَّهاذم، ومعاصم الأبكار النواعم، فقال الوزير أبو الفضل بن حسداى والطربُ استهواه، وبديع ذلك المرأى قد استرقَّ هَوَاه:

لله يوم أنيـــق واضحُ الغُرَرِ ... مفضَّض مُذْهَبُ الآصال والبكر
كأنما الدهر لمـا ساء أعتبنا ... فيه بعُتْبَى فأبدى صفح معتذر
نسير فى زورق حَفَّ السرور به ... من جانبيـه بمنظوم ومنتثر
مَـدَّ الشراع به قدًّا على ملك ... بَذ الأوائل فى أيامـه الأخر
هو الإمام الهمام المستعين حَوَى ... علياء مؤتمن فى هَدْيِ مقتدر
تحوى السفينةُ منـــه آيةً عجبا ... بحر تجمع حتى صار فى نَهَرِ
تثار من قعره النينان مُصْعدةً ... صيدا كما ظفر الغواص بالدرر

---

(١) فى «بدائع البداية» محرفا (٢) فى ا «وزرى على نيل مصر»

(٣) الغزالة: الشمس، والطفاوة ــ بضم الطاء ــ دارتها

(٤) فى ا «وأهلة الأهلات» (٥) فى ا «نبات الماء» محرفا

(٦) فى ب «صيودا كصيد الصوارم»

وللنـــدامى به عَبٌّ ومرتشف كالريق يعذب فى وِرْدٍ وفى صَدَرِ
والشَّرْبُ فى وُدِّ مولى خُلْقه زَهَر يذكو وبهجته أبهى من القمر

ثم قال ما معناه : وقوله « نينان » غير معروف ، فإن نونا لم يجىء[1] جمعها على نينان وقد كان سيبويه لحن بشار بن برد فى قوله فى صفة السفينة :

تلاعَبُ نينانُ البحور وربمـا رأيت نفوس القوم من جريها تجرى

فغيره بشار بـ « تيار البحور » وقد قال أبو الطيب يصف خيلا :

فهنَّ مع السِّيدان فى البر عُسَّل وهُنَّ مع النينان فى البحر عُوَّمُ

والمستعين بن هود هو أحمد بن المؤتمن على أمر الله يوسف بن المقتـدر بالله أحمد ابن المستضىء بالله سليمان بن هود ، الجُذَامى ، رحم الله تعالى الجميع ! .

وعبر المذكور عن قضية ابن وهْبُون فى هلال شوال بما نصه : خرج ابن وهبون يوماً لنظر هلال شوال ، وأبو بكر بن القَبْطُرْنة الوزير يسايره ، وهو يومئذ غلام يُخْجل البدر ، ويذوى الغُصْنَ النَّضْر ، وصفحته لم يسطرها العِذَارُ بأنقاسه ، ووردة خدّه لم يسترها الشَّعر بآسه ، فارتجل عبد الجليل :

يا هلالُ اسْتَتِرْ بوجهك عنى إن مولاكَ قابضٌ بشمالى
هَبْكَ تحكى سناه خداً بخدّ قم فجئنى لقـــدّه بمثال[2]

وقد ذكرنا هذه الحكاية فى غير هذا الموضع بلفظ الفتح فى « القلائد » ولـكننا أعدناها هنا لتعبير صاحب « البدائع » عنها محاكياً لطريقته .

وذكر ابن بَسَّام أن الوزير أبا عبد الله بن أبى الخصال وقف بباب بعض القضاة ، واستأذن عليه ، فحجب عنه ، فـكتب إليه بَديهاً :

جئناكَ للحاجة المطول صاحبُهَا وأنت تَنْعَمُ والإخوانُ فى بُوسِ
وقد وقفنا طويلا عنـــد بابكم ثم انصرفنا على رأى ابن عَبْدُوسِ

---

(١) فى ا « فإن نونا لم يجمع عليه »
(٢) فى ب « قم فجئنى لخده بمثال » ولا معنى له بعد ما ذكر فى صدره

أشار به إلى قول الوزير أبى عامر بن عبدوس :

لنا قاضٍ له خُلُقٌ ... أقلُّ ذميمِهِ النَّزَقُ
إذا جئناهُ يحجبنا ... فنلعنه ونفترق

وهو تمليح مليح ، سامح الله تعالى الجميع !.

وقال أبو جعفر الكاتب القرطبى الربضى :

وأبى المدامة ما أريد بشربها ... صَلَفَ الرقيع ولا انهماكَ اللاهى
لم يبق من عصر الشباب وطيبه ... شىء كعهدى لم يَحُلْ إلا هى
إن كنتُ أشربها لغير وفائها ... فتركتها للناس لا لله

و بعضهم ينسبها لأبى القاسم عامر بن هشام ، والصواب كما قال ابن الأبار الأوّل.

وقال أبو جعفر المذكور فى فوارة رخام كَلَّفه وصْفَها وَالِى قرطبة :

ما شَغَلَ الطَّرف مثل فائرة ... تمج صِرْفَ الحياة مِنْ فيها
اشرب بها والحَبابُ فى جذَل ... يظهره حسنها و يخفيها(١)
تكاد من رقة تضمنها ... تخطبها العين إذ توافيها
كأنها دُرَّة مُنَعمة ... زهراء قد ذاب نصفُهَا فيها

ومن شعره أيضا :

ضحك المشيب برأسه ... فبكى بأعين كاسِهِ
رجُلٌ تخوّنه الزما ... ن ببؤسه و بباسه
فجرى على غُلَوَائه ... طَلَقَ الجموح بناسه
أخذا بأوفر حَظِّه ... لرجائه من ياسه

وقال أحد بنى القَبْطُرْنة الوزراء :

---

(١) فى ا « يظهره حسنه ويخفيها »

ذكرتُ سليمى ونارُ الوغى بقلبى كساعة فارقتها
وأبصرت قَدَّ القنا شبهها وقد مِلْنَ نحوى فعانقتها

وهذا معنى بديع ماأراه سُبق به

وقال أبو الحسن بن الغليظ المالقى : قلت يوما للأديب أبى عبد الله بن السراج المالقى ، ونحن على خرير(١) ماء : أجزْ :

* شربنا على ماء كأن خريره *

فقال مبادرا :

* بُكاء محبٍّ بان عنه حَبيبُ *

فمن كان مشغوفا كئيبا بإلفه فإنىَ مشغوف به وكئيب

وكتب أبو بكر البَلَنْسِى إلى الأديب أبى بَحْر صَفْوان بن إدريس هذين البيتين يستجيزه القسيم الأخير منهما :

خليلى أبا بحر وماقَرْقَفُ اللّمى بأعْذَبَ من قولى خليلى أبابحر
أجز غير مأمورٍ قسيماً نظمتهُ تأمل على مَجْرَى المياه حِلَى الزهر(٢)

فأجازه :

تأمل على مجرى المياه حِلَى الزّهْرِ كعهدك بالخضراء والأنجم الزُّهْرِ
وقد ضحكت للياسمين مباسمٌ سرورا بآداب الوزير أبى بكر
وأصغت من الآس النضير مسامعٌ لتسمع ما يتلوه من سُوَرِ الشعر

وقال ابن خفاجة :

وماالأنس إلا فى مُجَاج زجاجة ولا العيشُ إلا فى صرير سرير
وإنى وإن جئت المشيبَ لمولَعٌ بطرة ظل فوق وجه غدير

---

(١) فى ا « ونحن على جرية ماء »
(٢) فى ا « تأمل على نحر المياه حلى الزهر » وهو بديع

وقال ابن خفاجة أيضا(١) :

وأسْوَدٍ يسبح فى لجة لا تكتم الحصباءَ غُدْرَانُهَا
كأنها فى شكلها مقلة وذلك الأسود إنسانهـا

وكتب الوزير الشهير أبو الوليد بن زيدون إلى الوزير أبى عبد الله بن عبد العزيز أثر صدوره عن بَلَنْسِية :

راحت فصحَّ بها السقيم ريح مُعَطَّرة النسيم
مقبولة هبت قَبو لاً فهى تعبق فى الشميم
أفضيضُ مسك أم بَلَنْـ سية لريَّاهَا نميم
بلد حبيب أفقـه لفتًى يحلُّ به كريم
ايه أبا عبـد الإلٰـه نداءَ مغلوب العَزيم
إن عيل صبرى من فرا قك فالعذابُ به أليم
أو أتبعتـك حنينهَا نَفْسِى فأنت لها قسيم
ذكرى لعهدك كالعَـرَا ر سرى فبرَّح بالسليم
مهما ذممت فما زما نى فى ذمامك بالذميم(٢)
زمن كمألوف الرضا ع يشوق ذكراه الفطيم
أيام أعقـد ناظرى فى ذلك المرأى الوسيم(٣)
وأرى الفتوّة غضـة فى ثوب أواه حليم
الله يعلم أن حبـك من فؤادى فى الصميم
ولئن تحمل عنك لى جسم فعن قلب مقيم
قل لى بأى خلال سر ك فيك أُفْتَنُ أو أهيم(٤)

---

(١) فى ا « وله » مكان « وقال ابن خفاجة أيضا »

(٢) فى ب « فما زمانى فى زمانك بالذميم » وليس بشىء

(٣) فى ا « أعقد ناظرىَّ بذلك المرأى » (٤) فى ب « أقبل أو أهيم » وليس بذاك

أَلمجدك العمم الذى نَسَقَ الحديثَ مع القديم
أم ظَرْفِكَ الغَضِّ الجَنَى أم عرضك الصافى الأديم
أم برك العذب الجِمَا م وبِشْرِكَ الغض الجميم [١]
إنْ أشممت تلك الطلاقة قة فالندى منها مغيم
أم بالبدائع كاللآ لى من نَثِير أو نظيم
لبلاغة إن عدّ أهلوها فأنت بها زعيم
فِقَرٌ تسوغ بها المدا م إذا يكرِّرُهَا النديم
إن الذى قسم الحظو ظ حَبَاكَ بالخلق العظيم
لا أستزيد الله نعمى فيك لا بل أستديم
فلقد أقر العينَ أنك غُرَّةُ الزمن البهيم
حسبى الثناء بحسن برِّك مابدا برقٌ وشِيمْ
ثم الدعاء بأن تهنأ طول عيشك فى نعيم
ثم السلام تبلغنه فغيب مُهْدِيه سليم

ولما ورد إشْبِيلِيَةَ نزل بدار الوزير الكاتب ذى الوزارتين أبى عامر بن مسلمة [٢] ، وهو يبنى مجلسا ، فصنع أبياتا كتبت فيه :

عُمِّرَ مَنْ يعمر ذا المجلسا أطْوَلَ عمرٍ يُبهج الأنفُسَا
وبعد ذا عوّض من داره عَدْناً ومن ديباجه السندسا
ولقى النور بها والرضا ووقى الأسواء والأبؤسا
ودام عَبَّاد لعضد الهدى يحرس حتى يفنىَ الأحرسا
معتضد بالله إحسانه جَمٌّ إذا ما الدهر يوما أسا

(١) فى ا « ونشرك الغض الجميم »
(٢) فى ب «أبى عامر بن سلمة »

الملك الغمر الندى المقتنى من كل حمدٍ عِلقَه الأنفَسا
إن رام يوما وصفَ عليائه مفوَّهٌ مقتدر أخْرِسَا
لا زال بدرًا طالِعاً نيِّراً يكشف عن آمالنا الْحِنْدِسَا

وقال فيه أيضا :

أدرها فقد حَسُنَ المجلس وقد آن أن تُتْرَعَ الأكؤس
ولا تنس أنَّ أوان الربيع إذا لم تجد فَقْدَهُ الأنفُسُ
فإن خلال أبى عامر بها يُحْقَرُ الورد والنرجسُ

وكتب إلى الوزير أبى المعالى المهلب بن عامر يستدعيه :

طابت لنا ليلتنا الخاليه فلنُتْبِعَنْها هــذه الثانيه
أبا المعالى نحن فى راحة فانقل إلينا القدَمَ العاليه
لأنهـا عاطلة إن تَغِبْ عنا فزرنا كى تُرَى حاليه
أنت الذى لو تُشْتَرَى ساعة منه بدهر لم تـكن غاليه

وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر المذكور معاتبا :

تباعَدْنَا على قرب الجــوار كأنَّا صدنا شَـــطُّ المزار (١)
تطلع لى هـلال الهجر بدرا وصار هلال وصلك فى سرار
وشاع شنيع قطعك لى بوصلى فهـلاَّ كان ذلك فى استتـار
أيجمل أن تُرَى عنى صَـبُورا فأصبح مولعا دون اصـطبار
وكنت أزيد سمعك من عتابى ولـكن عاقنى فَرْطُ الْخُمار
فَرَاعِ مودتى واحفظ جوارى فإن الله أوصى بالجـــوار
وزرنى مُنْعِما من غـير أمر وآنس موحشا من عقر دارى (٢)

(١) فى ا « كأنا صدنا شحط المزار »
(٢) فى ا « وزدنى منعما من غيرأمر »

فكتب إليه ابنُ زيدون :

هواى وإن تناءت عنك دارى | كمثل هواى فى حال الجوار
مقيم لاتغيره عَوادٍ | تباعد بين أحيان المزار(١)
رأيتك قُلْتَ إن الهجر بدر | متى خَلَت البدور من السرار
ورابك أننى جَلْد صبور | وكم صبر يكون عن اصطبار
ولم أهجر لعتْبٍ ، غير أنى | أضرت بى معاقرة العقار
وإن الخمر ليس لها خمار | يبرح بى فكيف مع الخمار
وهل أنسَى لديك نعيم عيش | كوَشْيِ الخد طُرِّز بالعذار
وساعات يجول اللهو فيها | مجال الظل فى حَدَقِ النهار
وإن يكُ فرَّ عنك اليوم جسمى | فُدِيتَ فما لقلبى من فرار
وكنت على البعاد أجلَّ شىء | لدىَّ فكيف إذ أصبحت جارى

وكان أبو العطَّاف إذ ورد إشبيلية رسولا قد سأله أن يُرِيَهُ شيئاً من شعره ، فمطله به ، حتى كتب إليه شعرا يستبطئه ، فأجابه ابن زيدون فى العروض والقافية:

أفدْتَنِي من نفائس الدرر | ما أبرزته غوائصُ الفكر
من لفظة قارَنَتْ نظائرها | قران سُقْمِ الجفون للحوَرِ

وهى أكثر مما ذكر .

وكتب رحمه الله تعالى ـ أعنى ذا الوزارتين ابن زيدون ـ إلى ولاّدة :

أضْحَى التنَّائى بديلاً من تَدَانينا | وناب عن طيب دُنْيَانَا تجَافينا(٢)
ألاَّ وقد حَانَ صُبْحُ الليل صبحنا | حَيْنٌ فقام بِنَا للحين ناعينا(٣)
مَنْ مُبْلغ الْمُلْبِسِينَا بانتزاحِهِم | حزناً مع الدهر لايَبْلَى ويُبْلينا

(١) الأحيان: جمع حين ، وهو الوقت ، وهو يريد تباعد ما بين أوقات الزيارة فتجعل بين كل زيارتين أمداً بعيدا (٢) هكذا فى ب ، وفى ا « وآن عن طيب دنيانا تجافينا » والذى أحفظه « وناب عن طيب لقيانا تجافينا » وهو كذلك فى القلائد وفيما مضى من هذا الكتاب
(٣) فى ا ، ب « وألا وقد قام » و « صبحنا حينا فقام لنا » محرفا فى عدة مواضع

إن الزمان الذى ما زال يضحكنا أنسا بقربهم قد عاد يُبْكِينَا
غِيظَ العِدَامن تساقينا الهوى فدَعَوْا بأن نَغَصَّ فقال الدهر آمينا
فانحلَّ ما كان معقودا بأنفسنا وأُنبتَّ ما كان موصولا بأيدينا
بالأمس كنا وما يُخْشَى تفرقُنَا واليوم نحن وما يرجى تلاقينا(١)
يا ليت شعرى ولم نُعْتِبْ أعادِيَكم هل نال حظا من العُتْبَى أعادينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأيا ولم نتقلَّدْ غيره دِينَا
كنا نرى اليأس تُسْلينا عوارضه وقد يئسنا فما لليأس يغرينا
بنتم و بنا فما ابتلَّتْ جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسَى لولا تأسِّينَا
حالت لفقدكم أيامُنَا فغدت سودًا وكانت بكم بيضا ليالينا
إذ جانب العيش طَلْقٌ من تألُّفنا ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
و إذ هَصَرنا فنون الوصل دانية قطوفُها فجنينا منه ماشينا
ليُسْقَ عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
لاتحسبوا نأيكم عنا يغيرنا إن طال ما غير النأىُ المحبِّينَا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ياسارىَ البرق غادِ القصرَ فاسق به مَنْ كان صِرْفَ الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عَنَّى تذكرنَا إلْفاً تذكرُه أمسى يُعَنِّينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا مَنْ لو على البعد حَيًّا كان يحيينا
من لايرى الدهر يقضينا مساعفة فيه وإن لم يكن عنا يقاضينا
من بيت ملك كأن الله أنشأه مسكا وقد أنشأ الله الورى طينا(٢)

---

(١) فى ا « وقد نكون وما يخشى تفرقنا .. فاليوم نحن »
(٢) الولادة المكتوب إليها بنت المستكفى بالله

أو صاغه وَرِقاً مَحْضاً وتوّجه ... من ناصع التبر إبداعا وتحسينا
إذا تأوّد آدته رفاهيـــــــةً ... تُومُ العقودِ وأدمته البُرَى لِينا (١)
كانت له الشمس ظئرا فى تكلله ... بل ما تجلى لها إلا أحايينا
كأنما أُثْبِتت فى صحن وجنته ... زُهْرُ الكواكب تعويذا وتزيينا (٢)
ما ضرأن لم نكن أكفاءه شرفا ... وفى المودة كافٍ من تكافينا
يا روضة طالما أجنت لواحِظَنَا ... وردا جَلاَه الصبا غضا ونَسْرِينا (٣)
ويا حياة تَمَلَّيْنَا بزهرتها ... مُنًى ضروبا ولذاتٍ أفانينا
ويا نعيما خطرنا من غضارته ... فى وَشْى نُعْمَى سحبنا ذيله حينا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة ... وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
إذا انفردْتِ وما شوركت فى صفة ... فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينا
ياجنة الخلد أبدِلْنَا بسلسلها ... والكوثر العذب زَقُّوما وغِسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا ... والسعد قدغض من أجفان واشينا
سران فى خاطرِ الظلماء تكتمنا ... حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
لاغروفى أن ذكرنا الحزن حين نهت ... عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنا قرأنا الأسى يومَ النوى سُوَرا ... مكتوبة وأخذنا الصبر تَلْقِينَا
أما هواك فلم نعدل بمشربه ... شربا وإن كان يروينا فيظمينا
لم نجفُ أفق جمال أنت كوكبه ... سالين عنه ولم نَهْجُره قالينا
ولا اختيارا تجنبناك عن كَثَبٍ ... لكن عَدَتْنا على كره عوادينا
نأسى عليك إذا حُثَّتْ مشعشعةً ... فينا الشَّمولُ وغنَّانَا مغنينا
لا أكؤس الراح تُبْدِى من شمائلنا ... سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا

---

(١) تأود : تثنى، وآدته : أثقلته وأعجزته، وتوم العقود : فاعل آد، وأدمته : أسالت دمه، والبرى : الخلاخيل، واحدها برة، ورفاهية ولينا : منصوبان لأن كلا منهما مفعول لاجله، ووقع فى ب « إذا تأود أدته ... تدمى العقول » محرفا أشنع تحريف

(٢) فى ب « كأنما نبتت فى صحن وجنته » (٣) فى ب « جناه الصبا »

دومى على العهد ما دمنا محافِظَةً فالحر من دان إنصافا كما دِينَا
فما استعضنا خليلًا عنك يحبسنا ولا استفدنا حبيبا عَنك يغنينا(١)
ولَوْ صَـبَا نحونا من أفق مطلعه بدرُ الدجى لم يكن حاشاك يُصْبِينا
أبلى وفاء و إن لم تبذلى صـلَةً فالطيفُ يقنعنا والذكر يكفينا
وفى الجواب مَتَاعٌ لَوْ شَفَعْتِ به بيضَ الأيادى التى ما زلت تولينا(٢)
عليك منى سـلام الله ما بقيت صبابة بك نخفيها وتخفينـا

و إنما ذكرت هذه القصيدة – مع طولها – لبراعتها ، ولأن كثيرا من الناس لايذكر جملتها ، و يظن أن ما فى القلائد وغيرها منها هو جميعها ، وليس كذلك ، فهى و إن اشتهرت بالمشرق والمغرب لم يذكر جملتها إلا القليل ، وقد كنت وقفت بالمغرب على تسديس لها لبعض علماء المغرب ، ولم يحضرنى منـه الآن إلا قوله فى المطلع :

ما للعيون بسهم الغَنْج تصمينا وعن قِطَاف جَنَى الأعطاف تحمينا
تألف كان يحيينا و يضنينـا تفرق عاث فى شمل المحبينـا
أضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب دنيانا تجافينا

وما أحسن قوله فى هذا التسديس :

ما للأحبة دانوا بالنوى ورأوا تعريض عهد اللقا بالبعد حين نأوا
رَعَاهُمُ الله كانوا للعهود رَعَـوْا فغيرتهم وشاة بالفسـاد سَعَوا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدَعَوْا بأن نَغَصَّ فقال الدهر آمينـا

وقد ذكرنا فى الباب الرابع موشحة ابن الوكيل التى وطأ فيها لنونية ابن زيدون هذه فلتراجع .

---

(١) فى ب « حبيبا منك يغنينا » وفى الديوان « حبيباً عنك يثنينا »
(٢) فى ب « وفى الجواب امتناع قد شغفت به »

رجع - وقال ذو الوزارتين ابن زيدون يتغزل :

وضح الصبح المبين وجلا الشكَّ اليقينُ
ورأى الأعداء ما غـــرتهمُ منك الظنون
أمَّـلوا ما ليس يمنى ورَجَـوْا ما لا يكون
وتمنـوا أن يخون الـــعبدَ مولًى لا يخون
فإذا الغيب سـليم و إذا العهد مَصُـون
قل لمن دان بهجرى وهوانى إذ يدين
أرخَصَ الحبُّ فؤادى لك والعِلْقُ ثمين
يا هـــلالا تتراءا هُ نفوسٌ لا عيـون
عجبـا للقلب يقسو منك والعطف يلين
ما الذى ضرك لو سُرَّ بمرآك الحزينُ
وتلطفت بصـــبٍّ حَيْنه فيك يحين
فوجوه اللطف شَتَّى والمعـاذير فنـون

وقال أيضا :

إليك من الأنام غدا ارتياحى وأنت من الزمان مدى اقتراحى
وما اعترضَتْ همومُ النفس إلا ومن ذكراك ريحانى وراحى
فديتك إنَّ صبرى عنك صبرى لدى عطشى عن الماء القراح
ولى أمل لَوِ الواشون كفوا لأطلع غرسُـه ثمرَ النجاح
وأعجب كيف يغلبنى عـدوٌّ رضاك عليه من أمضى سلاحى
ولما أن جلَتك لى اختلاسا أكفُّ الدهر للحَين المُتَاح (١)

---

(١) الحين - بفتح الحاء وسكون الياء - الموت والهلاك ، والمتاح : المقدر

رأيت الشمس تطلع فى نقاب ... وغصن البان يرفل فى وشاح
فلو أسطيع طِرْتُ إليك شوقا ... وكيف يطير مقصوصُ الجناح
على حالَىْ وصال واجتناب ... وفى يومى دُنُوٍّ وانتزاح
وحسبى أن تطالعك الأمانى ... بأفقك فى مساء أو صباح
فؤادى من أسًى بك غيرُ خالٍ ... وقلبى من هوًى لك غير صاح
وأن تهدى السلام إلى شوقا ... ولو فى بعض أنفاس الرياح

وقال :

كم ذا أريد ولا أراد ... لله ما لقى الفؤاد
أصْفِى الوداد إلى الذى ... لم يَصْفُ لى منه الوداد
كيف السلو عن الذى ... مثواه من قلبى السواد
يقضى علَىَّ دلاله ... فى كل حين أو يكاد
ملك القلوب بحسنه ... فلها إذا أمرَ انقياد
يا هاجرى كم أستفيد الصبر عنك فلا أفاد
أفلا رثيت لمن يبيت وحَشْوُ مقلته السهاد
إن أجْنِ ذنباً فى الهوى ... خطأ فقد يكبو الجواد
كان الرضا وأعيذه ... أن يعقب الكونَ الفسادُ(١)

وقال :

متى أنبيك ما بى ... يا راحتى وعذابى
متى ينوبُ لسانى ... فى شرحه عن كتابى
الله يعلم أنى ... أصبحت فيك لِمَابِى(٢)

---

(١) الكون والفساد : من اصطلاح الفلاسفة ، يساوى الوجود والعدم ونحوهما
(٢) فى ب « كتابى » وما أثبتناه موافقا لما فى ا هو ما فى الديوان

فمـــا يلذ منامى ولا يسوغ شرابى
يا فتنــة المتعزِّى وحجــة المتصابى[١]
الشمسُ أنت توارت عن ناظرى بالحجاب
ما النور شَفَّ سناه على رقيق السحاب
إلا كوجهك لمـا أضاء تحت النقاب

وقال :

هل لداعيك مجيب أم لشاكيك طبيب
يا قريبا حين ينأى حاضرا حين يغيب
كيف يسلوك محبٌّ زانه منك حبيب
إنمـا أنت نسيم تتلقاه القـــلوب
قد علمنا عـــلم ظن هو لاشك مُصيبُ
إنَّ سر الحسن ممـا أضمرت تلك القلوب

وقال :

أنى تُضَيِّع عهدَكْ أم كيف تخلف وعدك
وقد رأتك الأمانى رضاً فعلم تتعـدَّك
ياليت شعرى وعندى ماليس فى الحب عندك
هل طال ليلك بعدى كَطول ليلى بعدك[٢]
سلنى حيـاتى أهَبْهَا فلست أملك رَدَّكْ
الدهر عبدىَ لمـا أصبحت فى الحب عبدك

وقال رحمه الله تعالى ، وقد أمره السلطان أن يعارض قطعاً كان يغنى بهـا واستحسن ألحانها :

---

(١) فى ب « يافتنة المتعرى » (٢) فى ب « بطول ليلى بعدك » وأثبتنا ما فى ا

يُقَصِّرُ قربُكَ ليلى الطويلاَ ... ويَشْفِي وصالُكَ قلبى العليلا
وإن عَصَفَتْ منك ريح الصدود ... فقَدْتُ نسيم الحياة البليلا[(١)]
كما أننى إن أطلت العثار ... ولم يبد عذرى وَجْهاً جميلا
وجدت أبا القاسم الظَّافِرَ المـؤيد بالله مولى مقيـلا
لأقلامه فعـل أسيافه ... يظل الصَّرِيرُ يبارى الصَّليلاَ

وقال يهنيه بالقدوم من السفر :

أيهـا الظافر أبشر بالظَّفَرْ ... واجْتَلِ التأييد فى أبهى الصور
وتفيأ ظل سـعدٍ يُجْتنى ... فيه من غرس المنى أحلى الثمر
ورِدِ النجحَ فكم مستوحش ... شائق منك إلى أنس الصَّدَرْ
كان من قربك فى عيش ندٍ ... عاطر الآصال وَضَّاح البُكَرْ
فثوى دونك مثوى قلق ... يشتكى من ليله مَطْلَ السحر
قل لساقينا يجد أكؤسه ... ولشادينا يُطِلْ قطع الوتر

ومنهـا :

لىَ فيه المثـل السائر فى ... جالب التمر إلى أرضِ هَجَرْ
ثم قد وفق عبد عَظمت ... نعمة المولى عليه فشكر
لا عَدَا حظك إقبال يرى ... قاضياً أبناءه كل وَطَرْ
واصطبح كأس الرضا من ملك ... سرت فى إرضائه أزكى السير
حين صممت إلى أعدائه ... فانتحتهم منك صَمَّاء الغير[(٢)]
فاض غَمْرٌ للندى من فوقهم ... كان يروى شر بهم منه الغَمَرْ
سبق الناس فصلّى سابق ... إذ رأى آثاره مثل الزهر

وهى طويلة .

---

(١) فى ب « تقد نسيم الحياة البليلا » ولا معنى له

(٢) فى ا « صماء العبر »

وقال رحمه الله تعالى :

لم يكن هجر حبيبي عن قِلاَ ... لا ولا ذاك التجنِّى مَللاَ
سره دعوى ادعائى ثم لم ... يَدْرِ ما غاية صبرى فابتلى
أنا راضٍ بالذى يرضى به ... لىَ من لو قال مُتْ ما قلت لا
مَثَل فى كل حسن مثل ما ... صار حالى فى هواه مثلا
يا فتيتَ المسكِ ياشمسَ الضحى ... يا قضيب البان - يا ظبى الْفَلاَ
إن يكن لى أملٌ غير الرضا ... منك لا بُلِّغْتُ ذاك الأملا

وقال رحمه الله تعالى :

أذكَرْتَنِى سالفَ العيش الذى طابا ... يا ليت غائب ذاك الوقت قد آبا
إذ نحن فى روضة للوصل أنعمها ... من السرور غمامٌ فوقها صابا
إنى لأعجب من شوق يطالبنى ... فكلما قيل فيه قد قضى ثابا
كم نظرة لك عندى قد علمت بها ... يوم الزيارة أن القلب قد ذابا
قلب يطيل مُعاصاتى لطاعتكم ... فإن أُكَلِّفْهُ يوما سلوة يابى(١)

وقال رحمه الله تعالى :

عاودت ذكر الهوى من بعد نسيانى ... واستحْدَثَ القلبُ بعد العشق سلوانى
من حب جارية يبدو بها صَنَمٌ ... من اللُّجَين عليها تاجُ عِقيانِ(٢)
غريرة لم تُفَارقها تمائمها ... تَسْبى القلوب بساجى الطرف وَسْنَانِ(٣)
لأستجِدَّنَّ فى عشق لها زَمَناً ... يُحْيي سَوَالفَ أيامى وأزمانى(٤)
حَتَّى يَكُونَ لِمَنْ أحْبَبْتُ خاتمة ... نَسَخْتُ فى حُبِّها كُفرًا بإيمانِ

وقال رحمه الله تعالى :

(١) يابى : يمتنع ، وأصله يأبى فقلب الهمزة الساكنة ألفا لانفتاح ماقبلها
(٢) اللجين : الفضة، والعقيان: الذهب (٣) وسنان: وصف من الوسن، وهو النوم
(٤) فى ب « لأستجدن من عشق لها بدلا »

أنت معنى الهوى وسر الدموع　　وسبيل الهوى وقصد الوَلُوعِ
أنت والشمس ضَرَّتانِ ولكن　　لك عند الغروب فضل الطلوع
ليس يا مُؤْنِسِى نكافك العتـــب دلالا من الرضا الممنوع
إنمـا أنت والحسود مُعَنًّى　　كوكب يستقيم بعد الرجوع

وقال رحمه الله تعالى :

يا ليلُ طُلْ لا أشتهى　　إلا كَعهدى قصرك (١)
لو بات عندى قمرى　　ما بِتُّ أرعى قمرك
ياليـــل خبر أننى　　ألتذ عَنْهُ خــبرك (٢)
بالله قل لى هل وَفَى　　فقــال لا بل غَدَرَكْ

وقال رحمه الله تعالى :

لئن فاتنى منك حظ النظر　　لأكتفينْ بسماع الخبر
و إن عرضت غفلة للرقيب　　فحسبى بتسليمةٍ تختصر (٣)
أحاذر أن يتجنَّى الوشاة　　وقد يُسْتَدام الهوى بالحذر
فأصـــبر مستيقنا أنه　　سيحظى بنيل المنى مَنْ صبر

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

أيها البدر الذى يمـــلأ عَيْنَىْ من تأمل
حمل القلب تباريـــح التجنِّى فتحمل
ثم لاتيأس فكم قد　　نيل أمر لم يؤمل

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

أجدُّ ومن أهواه فى الحب عابث　　وأُوفِى له بالعهد إذ هو ناكث

(١) فى ب « إلا لعهدى نصرك »
(٢) فى ب « ألتذ عندى خبرك »
(٣) فى ب « فحسبى تسليمة »

حبيب نأى عنى مع القرب والأسى مقيم له فى مُضْمَر القلب ماكث
جفانى بألطاف العِدَا وأزاله عن الوصل رأىٌ فى القطيعة حادث
تَغَيرت عن عهدى ومازلت واثقا بعهدك لكن غيرتك الحوادث
وما كُنْتُ إذ ملكتُكَ القلبَ عالما بأنىَ عن حتفى بكفىَ باحث
ستبلى الليالى والوداد بحاله مقيم وغَضٌّ وهو للأرض وارث
فلو أننى أقسمت أنك قاتلى وأنىَ مقتول لما قيل حانث(١)

وقال رحمه الله تعالى :

يا غزالا أصارنى موثَقاً فى يد المِحَنْ
إننى مذ هجرتنى لم أذق لذة الوَسَنْ
ليت حظى إشارة منك أو لحظة تعن
شافعى يا معذبى فى الهوى وَجْهُكَ الحسن
كنتُ خلوا من الهوى وأنا اليوم مُرْتَهَنْ
كان سرى مكتما وهو الآن قد عَلَنْ
ليس لى عنك مذهب فكما شئت لى فكن

وقال رحمه الله تعالى :

أيوحش لى الزمان وأنت أنسى ويظلم لى النهار وأنت شمسى ؟
وأغرس فى محبتك الأمانى وأجنى الموت من ثمرات غرسى
لقد جازيت غدْرًا عن وفائى وبعت مودتى ظلما ببخس(٢)
ولو أن الزمان أطاع حكمى فديتك من مكارهه بنفسى

ومحاسن ابن زيدون كثيرة ، وقد ذكرنا منها فى غير هذا المحل جملة .

---

(١) فى ا « وإنى لمقتول لما قيل حانث » وليس بشىء

(٢) فى ا « لقد جازيت غدرا عن وفاء »

وسألت جارية من جوارى الأندلس ذا الوزارتين أبا الوليد ابن زيدون أن يزيد على بيت أنشدته إياه ، وهو :

يا مُعْطِشى من وصال كنت وارده   هل منك لى غُلَّة إن صحت واعطشى (١)

قال : وكانت الجارية المذكورة تتعشق فتى قرشيا ، والوزير يعلم ذلك ، وهى لا تعلم أنه يعلم ، فقال :

كسوتَنِى من ثياب السقم أسبغَهَا   ظلما وصيّرْتَ من لحف الضَّنَى فُرُشى
أنى بصرف الهوى عن مقلة كحلت   بالسحر منك وخدّ بالجمال وُشِى (٢)
لما بدا الصدغ مسودا بأحمره   أرى التشاكل بين الروم والحبش
أوفى إلى الخدّ ثم انصاع منعطفا   كالعقرُبان انثنى من خوف محترِشِ (٣)
لو شئت زرت وسلك الليل منتظم   والأفق يختال فى ثوب من الغبَش (٤)
جفا إذا التذَّتِ الأجفان طيب كرى   جفنى المنامَ وصاح الليل يا قُرَشى (٥)
هذا وإن تَلِفَتْ نفسى فلا عجب   قد كان قتلى فى تلك الجفون حشى

البطليوسى وأولاد ابن الحاج

وكان لابن الحاج صاحب قرطبة ثلاثة أولاد من أجمل الناس صورة : رحمون ، وعزون ، وحسون ، فأولع بهم الحافظ الشهير أبو محمد بن السيد البَطَلْيَوْسى صاحب « شرح أدب الكاتب » وغيره وقال فيهم :

أخفيتُ سُقْمِىَ حتى كاد يخفينى   وهمتُ فى حب عزون فعزونى
ثم ارحمونى برحمون وان ظمئت   نفسى إلى ريق حسون فَحَسُّونى

قال : ثم خاف على نفسه ، فخرج عن قرطبة ، وهو القائل :

نفسى الفداء لجؤذر حلو اللمى   مستحسن بصدوده أفنانى

---

(١) فى ا « يامعطشي عن وصال »
(٢) أنى : بمعنى كيف ، وصرف الهوى : تحويله ، ووقع فى الديوان « إنى بصرت الهوى »
(٣) فى ا « أرقى إلى الخد » وأثبتنا مافى ب والديوان
(٤) فى الديوان « وسلك النجم » (٥) فى الديوان « طعم كرى » وفى ا « طيف كرى »

فى فيه سِمْطًا جوهرٍ يروى الظما ... لو عَلَّـــنِى ببَرُوده أحيانى

وهذان البيتان تخرج منهما عدة مقطعات كما لا يخفى

من ملح أشعار أهل الأندلس

وقال أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى الإشبيلى المعروف بالأبيض ، فى تهنئة بمولود ، قال ابن دِحية : وهذا أبدع ما قيل فى هذا المعنى :

أصاخت الخيل آذانا لصرخته ... واهتز كل هِزَبْرٍ عندما عطسا[١]

تعشَّقَ الدرعَ مذ شدّت لفائفه ... وأبغضَ المهد لما أبصر الفرَسَا

تعلم الركضَ أيام المخاض به ... فما امتطى الخيل إلا وهو قد فرَسَا[٢]

وقال الوزير الكاتب أبو عامر السالمى فى غلام يرشّ الماء على خديه فتزداد حمرتهما :

لقد نعمت بحمام تطلع فى ... أرجائه قمر والحسن يكمله

أبصرته كلما راقت محاسنه ... ونعمة الجسم والأرداف تُخْجِلُه

يرش بالماء خديه فقلت له ... صف لى لما أحمر الياقوت تَصْقله

فقال طرفى سَفَّاكٌ بصارمه ... دماء قوم على خَدِّى فأغسله

وقال أيضا :

أوقد النار بقلبى ... ثم هَبَّتْ ريح صده

فشرار النار طارت ... فانطفت فى ماء خده

وهو تخييل عجيب :

وقال ابن الخياط المكفوف الأندلسى فى المعنى المشهور :

لم يخل من نوَبِ الزمان أديب ... كلا فشأن النائبات عجيب[٣]

وغضَارة الأيام تأبى أن يرى ... فيها لأبناء الذكاء نصيب

وكذاك من صَحِبَ الليالى طالبا ... جدا وفهما فاتَهُ المطلوبُ

وكان ابن الزّقاق الأندلسى الشاعر المشهور ــ وقد تكرر ذكره فى هذا الكتاب[٤]

(١) الهزبر : الأسد (٢) فرسا ، هنا : فعل ماض بمعنى افترس أقرانه

(٣) فى ا « فشأن النائبات تنوب » (٤) فى ا « فى هذا التأليف »

من ملح ابن الزقاق

مرات كثيرة - يسهر فى الليل ، و يشتغل بالأدب ، وكان أبوه فقيراً جداً ، فلامه ، وقال له : نحن فقراء ، ولا طاقة لنا بالزيت الذى تسهر عليه ، فاتفق أن برع فى الأدب والعلم ونَظْم الشعر ، فقال فى أبى بكر بن عبد العزيز صاحب بَلَنْسِية قصيدة أوّلها :

ياشمسَ خدرٍ مالَها مغربُ أرامة حَزْوك أم يثرب[1]

ذهبت فاستَعْبَرَ طَرْفِى دما مفضض الدمع به مُذْهَبُ

ومنها :

ناشدتك الله نسيمَ الصبا أنَّى استقرتْ بعدنا زينب

لم نَسْرِ إلا بشَذَا عَرْفها أولا فماذا النفسُ الطيبُ

إيه وإن عذبنى حبها فمن عذاب النفس مايَعْذُبُ

فأطلق له ثلثمائة دينار ، فجاء بها إلى أبيه وهو جالس فى حانوته مُكبٌّ على صنعته ، فوضعها فى حجره ، وقال : خذها فاشتر بها زيتا .

وقال رحمه الله تعالى فى غلام رَامَ يرمى حجرا فشَدَخَ وجهه :

وأحوى رمى عن قِسِىِّ الحَوَرْ سهاما يفُوِّقهن النظر

يقولون وجنته قُسِّمتْ ورَسْم محاسنه قد دَثَر

وما شقَّ وجنته عابثا ولكنها آية للبشر

جلاها لنا الله كيما نرى بها كيف كان انشقاق القمر

وقال أيضا :

بأبى وغير أبى أغَنُّ مهفهف مَهْضُوم ما خَلْفَ الوشاح خميصُهُ

لبس السواد ومزقته جفونه فأتى كيوسُفَ حين قُدَّ قميصُهُ

---

(١) فى ب « أرامة خدك أم يثرب » محرفا

وقال أيضا :

سقتني بيمناها وفيها فلم أزل يجاذبني من ذا ومن هٰذه سُكْرُ
ترشَّفْتُ فاها إذ ترشفت كأسها فلا والهوى لم أدر أيهما الخمر

وقال :

رَقَّ النسيمُ وراق الروضُ بالزهر فنبِّهِ الكأس والإبريق بالوتر
ما العيش إلا اصطباح الراح أو شَنَبٌ يغني عن الراح من سَلْسال ذي أشَرِ
قل للكواعب غُضِّي للكرى مُقَلاً فأعيُنُ الزهر أولى منك بالسهر
وللصباح ألا فانشر رداء سَنًى هذا الدجى قد طوته راحة السحر
وقام بالقهوة الصهباء ذو هَيَفٍ يكاد مِعْطَفه ينقدُّ بالنظر
يطفو عليها إذا ما شَجَّها دررٌ تخالها اخْتُلِسَتْ من ثغره الخصِرِ (١)
والكأس من كفه بالراح محدقة كهالَةٍ أحدقت فى الأفق بالقمر

وقال :

تضوّع عن أنفاسا وأشرقن أوجها فهنَّ منيراتُ الصباح بواسمُ
لئن كن زُهْراً فالجوانح أبرج وإن كن زَهْراً فالقلوب كمائم (٢)

وهو من بديع التقسيم

من ملح السميسر

وقال السميسر :

تحفظ من ثيابك ثم صنها وإلا سوف تلبسها حداداً
وميز فى زمانك كل حبر وناظِرْ أهلَه تَسُدِ العبادا
وظُنَّ بسائر الأجناس خيرا وأما جنس آدم فالبعادا

---

(١) شجها : أراد مزجها بالماء ، وأراد بالدرر الحبب الذى يطفو فوق الخمر ، وثغره الخصر : البارد

(٢) زهراً فى الصدر جمع أزهر أو زهراء ويراد بها النجوم ، والأبرج : جمع برج وهو منزلة الكواكب ، والكمائم : جمع كمامة ، وهى غلاف الزهر

أرادونى بجمعهم فردُّوا على الأعقاب قد نكصوا فرادى
وعادوا بعد ذا إخوان صدق كبعض عقارب رجعت جرادا

لابن رزين

وقال ابن رَزِين ، وهو من رجال الذخيرة :

لأسَرِّحَنَّ نواظرى فى ذلك الروض النضير
ولآكلنك بالمنى ولأشربنك بالضمير

لسلطان بلنسية

وقال سلطان بَلَنْسِيَة عبد الملك بن مروان بن عبد الله بن عبد العزيز :

ولا غرو بعدى أن يسوّد معشر فيضحى لهم يوم وليس لهم أمسُ(١)
كذاك نجومُ الجوّ تبدو زواهرا إذا ما توارت فى مغار بها الشمسُ

للبطليوسى المتلمس

وتحاكم إلى أبى أيوب سليمان بن محمد بن بطال البَطَلْيَوْسى المعروف بالمتلمس غلامان جميلان لأحدهما وَفْرَة شقراء ، وللآخر سوداء : أيهما أحسن ؟ والمتلمس المذكور هو صاحب كتاب « الأحكام ، فيما لا يستغنى عنه الحكام » فقال :

وشادِنَيْنِ ألمَّا بى على مِقَةٍ تنازعا الحسنَ فى غايات مستبق
كأن لمة ذا من نَرْجِسٍ خُلقت على بَهَارٍ وذا مسك على وَرِقِ
وحكّما الصبَّ فى التفضيل بينهما ولم يخافا عليه رشوة الحدق
فقام يُدْلِى إليه الريم حجته مبيِّناً بلسان منه منطلق(٢)
فقال : وجهىَ بدر يُستضاء به ولون شعرى مصبوغ من الغَسَقِ
وكحل عينىَ سحرٌ للنهى وكذا والسحر أحسَنُ ما يُعْزَى إلى الحدق
فقال صاحبه : أحسنت وصفك لـكن فاستمع لمقال فىّ مُتَّفَق
أنا على أفقى شمس النهار ، ولم تغرب وشُقْرة شعرى حمرة الشفق
وفَضْل ماعيب فى عينىَّ من زَرَقٍ أن الأسنة قد تُعْزَى إلى الزَّرَقِ
قضيت للمّةِ الشقراء حيث حكت نُورًا كذا حبها يقضى على رَمَقِى(٣)

---

(١) فى ا « وليس بهم أمس » وليس بشىء
(٢) فى ب « فقام يبدى إليه الريم حجته » (٣) فى ب « حيث حكت لونى »

فقام ذو اللمة السوداء يرشقنى سهام أجفانه من شدة الَحنَقِ
وقال جُرْتَ فقلت الجورمنك على قلبى ولى شاهد من دمعى الغَدِقِ
فقلت عفوك إذأصبحت متهما فقال دونك هذا الحبل فاختنق

لابن غالب

وقال أبو محمد عبد الله بن غالب .

ومُهَفْهَفٍ خَنِثِ الجفون كأنما من أرجُلِ النمل استفاد عذارا
فتخاله ليلا إذا استقبلته وتخال ما يجرى عليه نهارا

لابن فرج السميسر

وقال أبو القاسم خلف بن فرج السميسر المتقدم :

الناس مثل حباب والدهر لجة ماء
فعالم فى طُفُوّ وعالم فى انطفاء

لابن برد

وقال أحمد بن بُرْد الأندلسى فى النرجس ، وهو البَهَار عند الأندلسيين ، ويسمى العَبْهَر(١) :

تنبه فقد شق البهار مُغَلّسًا كمائمه عن نَوْرِه الَخضِلِ النَّدِى
مَدَاهِنُ تبرٍ فى أنامل فضة على أذرع مخروطة من زبرجد

لابن عبدون

وقال الوزير عبد المجيد بن عبدون فى دار أنزله بها المتوكل بن الأفطس وسقفُها قديم ، فهطل عليه المطر منه :

أيا ساميا من جانبيه إلى العلا (سموّ حَبَاب الماء حالا إلى حال)
لعبدك دار حل فيها كأنها (ديار لسلمى عافياتٌ بذى الخال)
يقول لها لما رأى من دثورها (ألا عم صباحا أيها الطلل البالى)
فقالت ولَمْ تعبأ برد جوابه (وهل يَعِمَنْ من كان فى العصر الخالى)(٢)
فَمُرْ صاحب الإنزال فيها بفاصل (فإن الفتى يَهذِى وليس بِفَعَّالِ)

---

(١) فى ب « ويسمى العنبر »
(٢) فى ا « ولم تعيا برد جوابه »

لأبى الفضل ابن حسداى

قيل: وهو أبو عُذْرَة[1] تضمين لامية امرئ القيس ، وقد أولع الناس بعده بتضمينها وقال أبو الفضل بن حسداى ، وكان يهوديا فأسلم ، ويقال : إنه من ولد موسى على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام :

توريد خدك للأحداق لذات ... عليه من عَنْبر الأصداغ لاماتُ

نيرانُ هجرك للعشاق نار لَظًى ... لكن وصالك إن واصلت جنات

كأنما الراح والراحات تحملها ... بدورُ تمٍّ وأيدى الشَّرْبِ هالاتُ

حشاشة ما تركنا الماء يقتلها ... إلا لتحيا بها منا حشاشات

قد كان من قبلها فى كأسها ثقل ... فخفَّ إذ مُلئت منها الزجاجات

وقد تبارى المشارقة والمغاربة من المتقدمين والمتأخرين فى هذا الوزن والقافية ، ولولا خوف السآمة لذكرت من ذلك الجملة الشافية الكافية .

بين ابن عبد ربه ويحيى القلفاط

ومن سرعة جواب أهل الأندلس أن ابن عبد ربه كان صديقاً لأبى محمد يحيى القلفاط الشاعر ، ففسد ما بينهما بسبب أن ابن عبد ربه [صاحب العقد] مر به يوماً وكان فى مشيه اضطراب ، فقال : أبا عمر ما علمت أنك آدر[2] إلا اليوم لما رأيت مشيك ، فقال له ابن عبد ربه : كذبتك عِرْسُك أبا محمد ، فعزَّ على القلفاط كلامه ، وقال له : أتتعرض للحرم ؟ والله لأرينَّكَ كيف الهجاء ، ثم صنع فيه قصيدة أولها :

ياعِرْسَ أحمد أنى مُزْمِعٌ سفراً ... فودِّعينىَ سراً من أبى عمرا

ثم تهاجيا بعد ذلك ، وكان القلفاط يلقبه[3] بطلاس لأنه كان أطلس اللحية ، ويسمى كتاب العقد حبل الثوم ، فاتفق اجتماعهما يوما عند بعض الوزراء ، فقال الوزير للقلفاط : كيف حالك اليوم مع أبى عمر ؟ فقال مرتجلا :

حَالَ طِلَاسٌ لى عن رائه ... وكنت فى قُعْدُدِ أبنائه[4]

---

(١) يقال « فلان أبو عذرة كذا » إذا كان أول من فعله

(٢) في ب « ماعلمت أنك اير » محرفا (٣) فى ب « يلقب بالقلفاط » وأثبتنا ما فى ا ومايؤيده مايذكر فى الأبيات الآتية (٤) فى ا « عن رأيه » وكلاهما مستقيم

فبدر ابن عبد ربه وقال :

إن كنت فى قعدد أبنائه فقد سقى أمَّكَ من مائه

فانقطع القلفاظ خجلا ، وعاش ابن عبد ربه ٨٢ سنة ، رحمه الله تعالى !

ومن الحكايات فى مروءة أهل الأندلس ماذكره صاحب « الملتمس » فى ترجمة الكاتب الأديب الشهير أبى الحسين بن جبير صاحب الرحلة ، وقد قدمنا ترجمته فى الباب الخامس من هذا الكتاب ، وذكرنا هنالك أنه كان من أهل المروآت عاشقاً فى قضاء الحوائج والسعى فى حقوق الإخوان ، وأنشدنا هنالك قوله :

* يحسب الناس بأنى متعب * إلى آخره

وقد ذكر ذلك كله صاحب « الملتمس » ثم قال ـ أعنى صاحب الملتمس ـ :

من مروءة ابن جبير الرحالة

ومن أغرب مايحكى أنى كنت أحرَصَ الناس على أن أصاهر قاضى غرناطة أبا محمد عبد المنعم بن الغرس[1]، فجعلته ـ يعنى ابن جبير ـ الواسطة حتى تيسر ذلك ، فلم يوفق الله [ما] بينى و بين الزوجة ، فجئته وشكوت له ذلك ، فقال : أنا ما كان القصد لى فى اجتماعكما ، ولكن سعيت جَهْدِى فى غرضك ، وها أنا أسعى أيضاً فى افتراقكما ، إذ هو من غرضك ، وخرج فى الحين ففصل القضية ، ولم أر فى وجهه أولا ولا آخراً عنوانا لامتنانٍ ولا تصعيب ، ثم إنه طرق بابى ، ففتحت له ، ودخل وفى يده محفظة فيها مائة دينار مؤمنية ، ثم قال : ياابن أخى ، اعلم أنى كنت السبب فى هذه القضية ، ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذى وجدته الآن عند عمك ، فبالله إلا ماسَرَرْتنى بقبوله ، فقلت له : أنا ما أستحي منك فى هذا الأمر ، والله إن أخذت هذا المال لأتلفنه فيما أتلفت فيه مال والدى من أمور الشباب ، ولايحل لك أن تمكننى منه[2] بعد أن شرحت لك أمرى ، فتبسم وقال : لقد احتلْتَ فى الخروج عن المنة بحيلة ، وانصرف بماله ، انتهى

(١) فى ا « بن الفرس »

(٢) فى ا « أن تمكننى به »

من شعر أبى عمران المارتلى الزاهد

ثم قال صاحب « الملتمس » وتذاكرنا يوماً معه حالة الزاهد أبى عمران[1] المارتلى ، فقال : صحبته مدّة فما رأيت مثله ، وأنشدنى شعرين مانسيتهما ، ولا أنساهما ماستطعت ، فالأول قوله :

إلى كم أقول فلا أفعل ... وكم ذا أحوِّمُ ولا أنزل
وأزجر عينى فلا ترْعَوِى ... وأنصح نفسى فلا تقبل
وكم ذا تَعَلَّلُ لى ويحها ... بعلَّ وسوف وكم تمطل
وكم ذا أؤمل طول البقا ... وأغفل والموت لا يغفل
وفى كل يوم ينادى بنا ... منادى الرحيل ألا فارحلوا
أمن بعد سبعين أرجو البقا ... وسبع أتت بعدها تعجل
كأنْ بى وشيكا إلى مصرعى ... يُساق بنعشى ولا أمهل
فياليت شعرىَ بعد السؤال ... وطول المقام لما أنقل

والثانى قوله :

اسمع أُخَىَّ نصيحتى ... والنصح من مَحْضِ الديانة
لا تقربَنَّ إلى الشها ... دة والوساطة والأمانة
تسلم مِنَ أن تعزى لزو ... ر أو فضول أو خيانة

قال : فقلت له : أراك لم تعمل بوصيته فى الوَسَاطة ، فقال : ماساعدتنى رقة وجهى على ذلك ، انتهى

رجع إلى نظم الأندلسيين

من شعر أبى الصلت أمية بن عبد العزيز

وقال أبو الصلت[2] أمية بن عبد العزيز :

أفضل مااستُصْحِبَ النبيلُ فلا ... تعدل به فى المقام والسفر

---

(١) فى نسخة عند ب « أبى عثمان »

(٢) فى ب « وقال ابن أبى الصلت أمية ــ إلخ » وليس بشىء أصلا

جرم إذا ما التمست قيمته جَلَّ عن التبر وهو من صفر (١)
مختصر وهو إذ تفتِّشه عن مُلَح العلم غير مختصر
ذو مقلة تستبين ما رمقت عن صائب اللحظ صادق الخبر (٢)
تحمله وهو حامل فلكا لو لم يَدُرْ بالبنان لم يَدُرِ
مسكنه الأرض وهو ينبئنا عن كل مافى السماء من خبر
أبدعه ربُّ فكرة بعدت فى اللطف عن أن تقاس بالفكر
فاستوجب الشكر والثناء به من كل ذى فطنة من البشر
فهو لِذِى اللب شاهد عجب على اختلاف العقول والصور (٣)

قلت : وهى من أحسن ماسمعت فى الاصطرلاب

وأمر رحمه الله تعالى أن يكتب على قبره :

سَكَنْتُكِ يا دار الفناء مصدّقا بأنى إلى دار البقاء أصير
وأعظم مافى الأمر أنى صائر إلى عادل فى الحكم ليس يجور
فياليت شعرى كيف ألقاه عندها وزادى قليل والذنوب كثير
فإن أكُ مَجْزِيًّا بذنبى فإننى بِشَرِّ عقاب المذنبين جدير
وإن يك عفو من غَنِيٍّ ومفضل فثم نعيم دائم وسرور

من شعر ابن خفاجه

وقال ابن خفاجة ، وهو مما أورده له صاحب الذخيرة :

لقد زار من أهوى على غير موعد فعاينت بَدْرَ التِّمِّ ذاك التلاقيا
وعاتبته والعتب يحلو حديثه وقد بلغت روحى لديه التراقيا
فلما اجتمعنا قلت من فَرَحِى به من الشعر بيتا والدموع سواقيا
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظنّ أن لا تلاقيا

(١) فى ب «جرم إذاما التبست قيمته» (٢) فى ا «عن صائب اللحظ صادق النظر»
(٣) فى ا « على اختلاف العقول والفطر»

من مجون أهل الأندلس

ومن مُجُون الأندلسيين هذه القصيدة المنسوبة لسيدى أبى عبد الله[١] بن الأزرق ، وهى:

عم باتصال الزمن ولا تبالى بمن
وهو يواسى بالرضا من سمج أو حسن
أو من عجوز تحتظى والظهر منها منحنى[٢]
أو من مليح مسعد موافق فى الزمن
مهما تبدى خده يبدو لك الورد الجنى
والغصن فى أثوابه إذا تمشى ينثنى
لا أم لى لا أم لى إن لم أبرد شجنى
وأخلعنَّ فى المجو ن والتصابى رَسَنِى
وأجعل الصبر على هجر الملاح دَيْدَنى
يا عاذلى فى مذهبى أرداك شربُ اللبن
أعطيت فى البطن سِناً نا إن تخالف سَنَنِى[٣]
أى فتى خالفنى يوما ولمَّا يلقنى
فإننى لناصح وإننى وإننى
فلا تكن لى لاحِيًا وفى الأمور اسْتَفْتِنِى
فلم أزل أعرب عن نصحى لمن لم يلحنى
وإن تُسَفِّهْ نظرى ومذهبى وتنهنى
فالصفعَ تستوجبه نعم ونَتْفَ الذقنِ
والزبل فى وجهك يعلو باتصال الزمن
وبعد هذا أشتفى منك ويبرا شجنى

(١) فى نسخة عند ب « لسيدى عبد الله بن الأزرق »

(٢) فى ا « عجوز تختطى » (٣) فى ا « أعطيت في البطن نتانا »

وأضرب الـكف أما م ذلك الوجه الدنى
طقطق طقٍ طقطق طقٍ أصخ بسمع الأذن
قحقح قح قحقح قح الضحك يغلبنّـــنى(١)
قد كان أولى بك عن هذى المخازى تنثنى
النّفْى تستوجبــه لواسط أو عدن
عرضت بالنفس كذا إلى ارتكاب المحن
أفدى صديقا كان لى بنفسـه يسـعدنى
فتـارة أنصـــحه وتارة ينصـــحنى
وتارة ألعنـــه وتارة يلعنـــنى
وربما أصـفعه وربما يصـــفعنى
أستغفر الله فهـــذا القول لايعجبنى
ياليت هـذا كله فيما مضى لم يكن
أضحكت والله بذا الـــحديث من يسمعنى
دهر تولى وانقضى عنى كطيف الوَسَنِ
يا ليتنى لم أره وليتــه لم يرنى
دَنّست فيـه جانبى وملبسى بالدَّرَنِ
وبعت فيه عيشتى لـكن ببخس الثمن
كأننى ولست أد رى الآن ما كأننى
والله ما التشبيه عنـــد شاعر بهين
لكنه أنطقنى بالقول ضِيقُ العَطَنِ

(١) فى ب « الضحك يغلبنى » ولا يتم به الوزن ، وفى ا « الضحك يغلبلبنى » وهو هذيان ، وزيادة نون التوكيد على ما فى ب يتم الوزن .

وا حسرتى وا أسفى زلت وضاعت فطنى
لو أنصف الدهر لما أخرجنى من وطنى
وليس لى من جنة وليس لى من مسكن
أسرح الطرف وما لى دمنة فى الدمن(١)
وليس لى من فرس وليس لى من سكن
يا ليت شعرى وعسى يا ليت أن تنفعنى
هل أمتطى يوما إلى الـــشرق ظهور السفن
وأجتلى ما شئته فى المنزل المؤتمن(٢)
حينئذ أخلع فى هذى القوافى رَسَنِى
وتحسن الفكرة بالــعُدوس والسمنسنى(٣)
واللحم مع شحم وَمَعْ طوابق الــكبش الثنى(٤)
والبيض فى المقلاة بالز يت اللذيذ الدهن
وجلدة الفروج مشـــويا كثير السمن
مَنْ منقذى أفديه من ذا الجوع والتمسكن
وعلة قد استوى فيهـا الفقير والغنى(٥)
هـل للثريد عودة إلىَّ قـد شوقنى
تغوص فيـه أنملى غوص الأكول المحسن
ولى إلى الأسفنج شو ق دائم يطربنى
وللأرُزِّ الفضلُ إذ تطبخـه باللبن
وللشــواء والرقا ق من هيام أنثنى

(١) هذا البيت فى ا بعد الذى يليه هنا موافقا لما فى ب
(٢) فى ا « فى المنزل المؤمن » (٣) فى ب « الفكرة بالفدوش » محرفا
(٤) فى ب « واللحم مع شحم كذا ـ إلخ » (٥) فى ا « وقلة قد استوى »

وأُسكت عن الجبن فإنَّ نتْنَه يذهلني
ظاهرها كالورد أو باطنها كالسوسن
أى امرىء أبصرها يوما ولم يفتتن
تهيم فيها فِكَرِ الأستاذ والمؤذن
لو كان عندى معدن لبعت فيها معدنى
لكننى عزمت أن أبيع كم البدن
والكم قد أكسبه بعد ولا يكسبنى
لاتنسبوا لى سفها فالجوع قد أرشدنى
وهات ذكر الكسكسو فهو شريف وَسَنِى
لاسيما إن كان مصنوعا بِفَتْلٍ حسن(١)
أرفع منه كورا بهن تدوى أذنى
وإن ذكرت غير ذا أطعمة فى الوطن
فابدأ من المثوّما ت بالجبنّ الممكن
من فوقها الفروج قد أنهى فى التسمن
وثنِّ بالعصيدة التى بها تطربنى
لاسيما إن صنعت على يدى ممركن
كذلك البلياط بالز يت الذى يقنعنى
تطبخه حتى يرى يحمر فى التلوّن
والزبزبنُّ فى الصحا ف حسب أهل البطن
فاسمع قضايا ناصح يأتى بنصح بين(٢)

(١) فى ب « إن كان مصنوعا بفعل حسن »
(٢) فى ا « فاسمع قضاء ناصح »

من أُقتنى النقى منى فهو نعم المقتـــنى(١)
وإن فى شاشية الـــفقير أنسا للغنى
تبعدنى عن وصلها عن وصلها تبعدنى
تؤنسنى عن اللقـا عن اللقـا تؤنسنى(٢)
فأضلعى إن ذكرت تهفو كمثل الغصن
كم رمت تقريبا لها لـكنه لم يهن
وصدنى عن ذاك قـــلة الوفا بالثمن
إيه خليــــلى هذه مطاعم لـكننى
أعجب من ريقك إذ يسيل فوق الذقن
هل نلت منها شبعا فذكرهـا أشبعنى
وإن تكن جوعان يا صاح فـكل بالأذن
فليس عند شاعر غير كلام الألسن(٣)
يصوّر الأشياء وهـــى أبدا لم تَـكُنِ
فقوله يريك ما ليس يرى بالممكن
فاسمح وسامح واقتنع واطوحَشَاك واسْـكُنِ
ولننصرف فقصدنا إطراف هذا الموطن

وقال ابن خفاجة رحمه الله تعالى : من شعر ابن خفاجة

درسوا العلوم ليملـكوا بجِدَالهم فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة فى أخذ مال مساجد وكنائس

وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيرا .

---

(١) ورد هذا البيت فى ا هكذا :
من اقتنى التفين فهـــــو الآن نعم المقتنى
(٢) فى ا « تؤيسنى » فى الموضعين (٣) فى ا « سوى كلام الألسن »

لابن الأبار

وقال – فيما أظن – الفقيهُ الكاتب المحدث الأديب الشهير أبو عبد الله محمد ابن الأبار القُضَاعى ، وقد تكرر ذكره فى هذا الكتاب فى مواضع :

لقد غضبت حتى على السمط نخوة ... فلم تتقلد غير مبسمها سمطا

وأنكرتِ الشيبَ المُلِمَّ بلمتى ... ومَنْ عرف الأيام لم ينكر الوخطا

ترجمة ابن الابار

وقال ابن سعيد فى القدح المعلى فى حقه : كاتب مشهور ، وشاعر مذكور ، كتب عن ولاة بَلَنْسِية ، وورد رسولا حين أخذ النصارى بمُخَنَّق تلك الجهات ، وأنشد قصيدته السينية :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى مَنْجاتها دَرَسَا

وعارضه جمع من الشعراء ما بين مخطىء ومحروم ، وأغرى الناس بحفظها إغراء بنى تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم (١) ، إلا أن أخلاقه لم تُعِنْه على الوفاء بأسباب الخدمة ، فقلصت عنه تلك النعمة ، وأخر عن تلك العناية ، وارتحل إلى بجاية ، وهو الآن بها عاطل من الرُّتب ، خال من حِلَى الأدب ، مشتغلٌ بالتصنيف فى فنونه ، متنفل [منه] بواجبه ومسنونه ، ولى معه مجالسات آنقُ من الشباب ، وأبهج من الروض عند نزول السحاب ، ومما أنشدنيه من شعره :

يا حبذا بحديقةٍ دولابُ ... سكنت إلى حركاته الألبابُ (٢)

غَنَّى ولم يطرب وسَقَّى وَهْوَلم ... يشرب ومنه العود والأكواب

لو يدعى لطف الهواء أو الهوى ... ما كنتُ فى تصديقه أرتابُ

وكأنه مما شَدَا مستهزىء ... وكأنه مما بكى نَدّاب

وكأنه بنثاره ومداره ... فلك كواكبه لها أذناب

وقال أبو المعالى القيجاطى :

---

(١) أخذ هذا من قول الشاعر :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

(٢) فى ا « سكنت إلى حركاتها الألباب »

فقلت يا ر بعهم أين مَنْ أحببته فيك وأين النديم
فقال عهـد قد غدا شمله كمثل ما ينثر در نظـيم

لجماعة من شعراء الأندلس

وقال أبو عمرو بن الحكم القبطلى ، وقبطلة : من أعمال وادى إشبيلية :

كم أقطع الدهر بالمِطَال ؟ ساءت وحق الإله حالى
رحلت أبغى بكم نجاحا فلم تفيدوا سوى ارتحالى
وعَدْتُمُ ألف ألف وعد لـكننى عـدت بالمحال

وقال أبو عمران القلعى :

طلعْتَ علىَّ والأحوال سود كما طلع الصباح على الظلام
فقل لى كيف لا أوليك شعرى و إخلاص التحية والسـلام

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن أيوب المرسى:

أنا سكران ولـكن من هوى ذاك الفـلانى
كلـما رمت سُـلُوًّا لم يزل بين عيـانى

وقال :

حبيبى ما لصـبك من مراد سوى أن لا تدوم على البعاد
و إن كان ابتعادك بعد هذا مقيما فالسـلام على فؤادى(١)

قال ابن سعيد : وكان المذكور إذا غنى هذه الأشعار اللطيفة على الأوتار ، لم يبق لسامعه عند الهموم من ثار ، مع أخلاق كريمة ، وآداب كانسكاب الدِّيمة(٢) ، انتهى.

وقال ابن سعيد : فى أبى بكر محمد بن عمار البرجى كاتب ابن هود القائل لمن يشهد حربا تحت رايات ابن هود إلخ :

---

(١) فى ا « فإن يدم ابتعادك بعد هذا »
(٢) الديمة : المطر الدائم الذى لا ينقطع

يا ابن عمار لقد أحـــييت لى ذاك السميا
فى حِـــلَى نظم ونثر عُلقًا فى مســمعيا[1]
ولقد حزت مكانا من ذُرَى الملك عليا
مثل ماقد حاز لــكن عش بنعماك هنيا

وقال أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز الإشبيلى المعروف بابن صاحب الرد :

يا أبدع الخلق بلا مِرْية وَجْهُــك فيه فتنة الناظرين
لا سـيما إذ نلتــقى خطرة فيغلب الورد على اليـاسمين
طوبى لمن قد زرته خاليا فمتَّعَ النفس ولو بعد حين
من ذلك الثغر الذى وِرْدُهُ ما زال فيــه لذة الشاربين
وما حوى ذاك الإزار الذى لم يَعْــدُ عنه أمل الزائرين

وهذه الأبيات يقولها فى غلام كان أدباء إشبيلية قد فتنوا به ، وكان مروره على داره .

وحكى عنه أنه أعطاه فى زيارة خمسين دينارا ، ومرت أيام ثم صادفه عند داره ، فقال له : أتريد أن أزورك ثانية ؟ فقال[له] : لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وهذا الجواب ـ على ما فيه من قلة الأدب ، وهتك حجاب الشريعة ـ من أشد الأجوبة إصابةً للغرض ، والله تعالى يسمح له ، فقد قال ابن سعيد فى حقه : إن بيته بإشبيلية من أجل البيوت ، ولم يزل له مع تقلب الزمان ظهور وخُفُوت ، وكان أديبا شاعرا ذَوَّاقا لأطراف العلوم ، انتهى .

أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير

ومن المشهورين بالمجون والخلاعة بالأندلس ـ مع البلاغة والبراعة ـ أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير الــكاتب ، وهو من بيت مشهور من جزيرة شقر ، من

---

(١) فى ا « علقا من مسمعيا »

عمل بَلَنْسِيَة ، وكتب عن ولاة من بنى عبد المؤمن ، ثم استكتبه السلطان ابن هود حين تغلب على الأندلس ، وربما استوزره فى بعض الأحيان ، وقال ابن سعيد: وهو ممن كان والدى يكثر مجالسته ، ولم أستفد منه إلا ما كنت أحفظه فى مجالسته[١] ، وكان شديد التهور ، كثير الطيش ، ذاهبا بنفسه كل مذهب ، سمعته مرة وهو فى محفل يقول : تقيمون القيامة لحبيب[٢] والبحترى والمتنبى ، وفى عصركم من يهتدى إلى ما لم يهتدوا إليه ؟ فأهوى له شخص له قِحَةٌ و إقدام ، فقال : يا أبا جعفر ، فأرنا برهان ذلك ، ما أظنك تَعْنى إلا نفسك ، فقال : نعم ، ولم لا ؟ وأنا الذى أقول مالم يتنبه[٣] إليه متقدم ، ولا يهتدى لمثله متأخر :

يا هل ترى أظْرَفَ من يومنا   قَلّد جيدَ الأفق طوقَ العقيق
وأنطق الوُرْقَ بعيدانها   مرقصةً كل قضيب وَرِيقْ
والشمس لا تشرب خمر الندى   فى الأرض إلا بكئوس الشقيق

فلم ينصفوه فى الاستحسان ، وردوه فى الغيظ إلى أضيق مكان ، فقلت له : ياسيدى ، هذا هو السحر الحلال ، فبالله إلا مازدتنى[٤] من هذا النمط ، فقال :

أدرها فالسماء بدت عروساً   مُضَمَّخة الملابس بالغوالى
وخد الروض حمره أصيلٌ   وجفن النهر كحل بالظلال
وجيدُ الغصن يَشْرَقُ من لآل   تضىء بهن أكناف الليالى

فقلت : زد وعُدْ ، فعاد والارتياح قد ملك عِطْفه ، والتيه قد رفع أنفه ، فقال :

لله نهر عند ما زرته   عاين طرفى منه سحراً حلال
إذ أصبح الطل به ليلة   وجال فيه الغصن شبه الخيال[٥]

فقلت : زد ، فأنشد :

---

(١) في ا « أحفظ فى مجالسته »   (٢) حبيب : هو أبو تمام حبيب بن أوس
(٣) فى ا « مالم ينته إليه متقدم »   (٤) فى ا « إلا مازدتنا »
(٥) فى ا « إذ صبح الظل به ليلة »

ولما ماج بحر الليل بينى … وبينكم وقد جددت ذكرا
أراد لقاءكم إنسانُ عينى … فمد له المنام عليه جسراً

فقلت : إيه ، فقال :

ولما أن رأى إنسان عينى … بصحن الخد منه غريق ماء
أقام له العذار عليه جسراً … كما مد الظلام على الضياء

فقلت : أعد ، فأعاد ، وقال : حَسْبُك لئلا تكثر عليك المعانى ، فلا تقوم بحق قيمتها ، وأنشد :

هات المدام إذا رأيت شبيهها … فى الأفق يا فَرْدًا بغير شبيه
فالصبح قد ذبح الظلام بنَصْله … فغدت تخاصمه الحمائمُ فيه

ثم قال : وكان قد تهتك فى غلام لابن هود ، ولكثرة انهزام ابن هود ربما انهزم مع العلج ، وفيه يقول :

ألفتُ الحربَ حتى علمتْنِى … مقارعة الحوادث والخطوب
ولم أك عالما وأبيك حربا … بغير لواحظ الرشأ الرَّبِيبِ
فها أنا بين تلك و بين هذى … مصاب من عدو أو حبيب

ولما هرب العلج[١] إلى سبتة أحسن إليه القائم بها أبو العباس البنتى[٢] ، فلم يقنع بذلك الإحسان ، وكان يأتى بما يوغر صدره ، فقال يوما فى مجلسه : رميت مرة بقوس ، فبلغ السهم إلى كذا ، فقال ابن طلحة لشخص بجانبه : لو كان قوس قزح مابلغ إلى كذا ، فشعر بقوله ، فأسرها فى نفسه ، ثم بلغه أنه هجاه بقوله :

سمعنا بالموفَّق فارتحلنا … وشافِعُنَا له حسب وعلم
ورُمْتُ يداً أقبلها وأخرى … أعيش بفضلها أبدا وأسمو

---

(١) فى ا « ولما هرب بالعلج »
(٢) كذا في ب ، وفى ا « أبو العباس السبتى »

فأنشدنا لسان الحال فيه يد شَـــلاّ وأمر لايتم

فزاد فى حنقه ، وبقى مترصداً له الغوائل ، فحفظت عنه أبيات [قالها] وهو فى حالة استهتار فى شهر رمضان ، وهى :

يقول أخو الفُضُول وقد رآنا على الإيمان يغلبنا المجون
أتنتهكون شهر الصوم هَـلاَّ حماه منكم عقـل ودين
فقلت اصْحَبْ سوانا ، نحن قوم زنادقة مذاهبنا فنـون
ندينُ بكل دين غير دين الرعاع فمـا به أبداً ندين
نحىَّ على الصَّبوح الدَّهْرَ ندعو وإبليس يقـول لنـا أمين (١)
فياشهر الصيام إليك عنـا إليك ففيك أكفرمانـكون (٢)

فأرسل إليه مَنْ هجم عليه وهو على هذه الحال ، وأظهر أنه يرضى العامة بقتله ، فقتله ، وذلك سنة ٦٣١ ، انتهى . وحاكى الكفر ليس بكافر ، والله سبحانه وتعالى للزلات غير الكفر غافر .

عود إلى ملح أهل الأندلس

وقال محمد بن أحمد الإشبيلى بن البناء :

كأنك من جنس الكواكب كنت لم يَفُتْكَ طلوعا حالهُـا وتواريا
تجلَّيْتَ من شرق تروق تلألؤا فلما انتحيت الغرب أصبحت هاويا

ولما أمر المستنصر الموحِّدى بضرب ابن غالب الدانى ألف سوط وصلبه وضرب بإشبيلية خمسمائة ، فمات ، وضرب بقية الألف حتى تناثر لحمه ، ثم صلب قال ابنه أبو الربيع (٣) يرثيه :

جهلا لمثلك أن يبكى لما قدرا وأن يقول أسى ياليتـه قبرا (٤)
فاضت دموعك أن قاموا بأعْظُمِهِ وقد تطاير عنه اللحم وانتثرا

---

(١) فى ب « نحى على الصبوح الزهر ندعو » محرفا
(٢) فى ا « ففيك أكفر ما يكون » (٣) فى ا « قال ابنه الربيع يرثيه »
(٤) فى ا « هلا لمثلك ان تبكى لما قدرا » وليس بشىء

ومنها :

ضاقت به الأرض مما كان حَمَّلَهَا   من الأيادى فملت شِلْوَهُ ضَجَرا

وعز جسمك أن يحظى به كفن   فما تسربل إلا الشمس والقمرا

وقال أبو العلاء عبد الحق المرسى رحمه الله تعالى :

يا أبا عمران دعنى والذى   لم يمل بى خاطرى إلا إليه

ما نديمى غير من يخدمنى   لا الذى يُجْلسنى بين يديه

يرفع الكُلْفة عنى ويرى   أنها واجبة منى عليه

وقال ابن غالب الكاتب بمَالَقَةَ :

لا تخش قولا قد عَقَدْتَ الألسنا   وابعث خيالك قدسَحَرْتَ الأعينا

واعطف علىَّ فإن روحى زاهق   وانظر إلى بنظرة إن أمكنا

لا يخدعَنَّكَ أن ترانى لابسا   ثوبى فقد أصبحت فيه مكفنا

ما زال سحرك يستميل خواطرى   بأرقَّ من ماء الصفاء وألْيَنَا

حتى غدوت ببحر حُبٍّ زاخر   فرمت بى الأمواج فى شط الضنا

وقال :

ما للنسيم لدى الأصيل عليلا   أتراه يشكو زَفْرَةً وغليلا

جَرَّ الذيولَ على ديار أحبتى   فأتى يجر من السَّقام ذيولا

وقال أبو عبد الله بن عساكر(١) الغسانى قاضى مالَقَةَ :

أهواكَ يا بَدْرُ وأهوى الذى   يَعْذِلُنى فيك وأهوى الرقيب

والجار والدار ومَنْ حَلَّها   وكل من مر بها من قريب

ما إن تَنَصَّرْتُ ولكننى   أقول بالتثليث قولا غريب

(١) فى ا « أبو عبد الله بن عسكر »

يطابق الألحان والكاس إذ تبسم عجبا والغزال الربيب

أبو أمية بن عفيرة قاضى إشبيلية

وكان أبو أمية بن عفير[١] قاضى إشبيلية — مع براعته ، وتقدمه فى العلوم الشرعية — أقوى الناس بالعلوم الأدبية المرعية ، وقد اشتهر بسرعة الخاطر فى الارتجال ، وعدم المناظر له فى ذلك المَجَال ، قال ابن سعيد : رأيته[٢] كثيرا ما يصنع القصائد والمقطعات ، وهو يتحدث أو يفصل بين الغرماء فى أكثر الأوقات ، ومن شعره :

ديارهم صاحِ نُصْبُ عينى وليس لى وصلة إليها[٣]

إلا سلامى لدى ابتعاد من بعد سُكانها عليها

وقوله رحمه الله تعالى :

ووجه تغرق الأبصار فيه ولكن يترك الأرواح هِيَا

أتانى ثم حَيَّانى حبيب به وأباحنى الخد الرَّقيما

فمر لنا مجون فى فنون سلكت به الصراط المستقيما

قلت : أما مجرد الارتجال فأمر عن الكثير صادر ، وأما كونه مع التحدث أو فصل الخصومات فهو نادر ، وقد حكينا منها فى هذا الكتاب من القسم[٤] الأول موارد ومصادر .

ويعجبنى من الواقع لأهل المشرق من ذلك قضية على بن ظافر ، إذ قال :

على ابن ظافر ويعقوب

بِتّ ليلة والشهابُ يعقوب بن أخت نجم الدين فى منزل اعترفت له مُشَيَّدات القصور ، بالانخفاض والقُصُور ، وشهدت له ساميات البروج ، بالاعتلاء والعُرُوج ، قد ابيضت حيطانه ، وطاب استيطانه ، وابتهج به سُكانه وقُطَّانه ، والبدرُ قد محا خِضابَ الظلماء ، مُحَياه فى زرقة قناع السماء ، وكسا الجدرانَ ثياباً من فضة ، ونَثَرَ كافورَه على مسك الثرى بعد أن سحقه ورَضَّه ، والروض قد ابتسم مُحَيَّاه ،

---

(١) في ب « بن غفير » بمعجمة أوله (٢) فى ا « رأيت كثيرا »

(٣) فى ا « ديارهم هى نصب عينى »

(٤) فى ب « فى القسم الأول » والمراد أنه حكى من النوع الأول الذى هو الارتجال المجرد

وَوَشَتْ بأسرار محاسنه ريَّاه ، والنسيمُ قد عانق قامات الأغصان فميَّلها ، وغصَبها مباسم نَوْرِها فقبَّلها ، وعندنا مُغَن قد وقع على تفضيله الإجماع ، وتغايرت على محاسنه الأبصار والأسماع ، إن بَدَا فالشمسُ طالعة ، وإن شَدَا فالوُرْق (١) ساجعة ، تُغازله مُقْلة سراج قد قصر على وجهه تحديقه ، وقابله فقلنا البدر قابل عَيُّوقَه ، وهو يغار عليه من النسيم كلما خفق وهَبَّ ، ويستجيش عليه بتلويح بارقه الموشَّى بالذهب ، ويُديم حرقته وسُهْدَه ، ويبذل فى إطافه طاقته وجَهْدَه ، فتارة يضمخه بخَلُوقه ، وتارة يُحليه بعقيقه ، وآونةً يكسوه أثواب شقيقه ، فلم نزل (٢) كذلك حتى نعِسَ طرْفُ المصباح ، واستيقظ نائم الصباح ، فصنعت بديها فى المجلس ، وكتبت بها إلى الأعز بن المؤيد رحمه الله تعالى أصف تلك الليلة التى ارتفعت على أيام الأعياد ، كارتفاع الرؤس على الأجياد (٣) ، بل فَضَلَتْ ليلاتِ الدهر ، كفضل البدر على النجوم الزُّهْر :

غبتَ عنى يا ابن المؤيد فى وقــــت شهىٍّ يلهى المحب المشوقا
ليلة ظَلَّ بدرها يُلْبِس الجد ران ثو باً مفضَّضاً مرموقا
وغدا الطل فيه ينثر كافو را فيعلو مسك التراب السَّحيقا
وتبدَّى النسيم يعتنق الأغــصان لما سرى عِنَاقاً رفيقا
بت فيها منادما لصديق ظل بين الأنام خِلاًّ صدوقا
هو مثل الهلال وجها صبيحاً ومثال النسيم ذهنا رقيقا
وغزال كالبدر وجهاً وغصن البان قدًّا والخمرة الصِّرْفِ ريقا
مظهر للعيون ردفا مَهيلاً وحَشًا ناحلا وقدًّا رشيقا
إن تغنَّى سمعت ، داود أولا ح تأملت يوسف الصدّيقا

---

(١) الورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة ، وفى ا « وإن شدا فالورقاء ساجعة »
(٢) فى ب « فلم يزل كذلك » (٣) الأجياد : الأعناق ، واحدها جيد

وإذا قابل السراج رأينا ... منه بدرا يقابل العَيُّوقَا
وأظن الصباح هام بمرآ ... ه فأبدى قلبا حريقا خفوقا
هو نجم مالاح فى أُلجدْرِ كافو ... رُ بياضٍ إلا كساه خَلُوقا
مابدا نرجس الكواكب إلا ... قام من نومه يرينا الشقيقا(١)
وإذا مابدت جواهرها فى الجـ ... ـو أبدى فى الأرض منهم عقيقا
فغدونا تحت الدجى نتعاطى ... من رقيق الآداب خمرا رحيقا(٢)
وجعلنا رَيْحَاننا طيب ذكرا ... ك فخلناه عنبراً مفتوقا
ذاك وقت لولا مَغِيبُكَ عنه ... كان بالمدح والثناء خَلِيقَا

قال : فأجاب عنها من الوزن دون الروى :

قد أتتنى من الجمال قصيدٌ ... يالها من قصيدة غراء
جمعت رقة الهواء وطيب الـ ... ـمسك فى سبكها وصفو الماء
فأرتنا طباعه وشَذاه ... والذى حاز ذهنه من ذكاء
سيدى هل جمعت فيها اللآلى ... ياأخا المجد أم نجوم السماء(٣)
أفحمتنى حسناً وحَقِّ أياديـ ... ـك التى لا تعدُّ بالإحصاء
فتركت الجواب والله عجزا ... فابسُطِ العذر فيه يا مولائى
هل يسامى الثرى الثريا وأنَّى ... يَدَّعِى النجمُ فَرْطَ نور ذكاء

رجع إلى أهل الأندلس

وقال ابن السمان(٤) :

إياك أن تكثر الإخوان مغتنما ... فى كل يوم إلى أن يكثر العدد
فى واحدٍ منهم تصفى الوداد له ... من التكاليف مايفنى به الجلد

---

(١) فى ب « قام فى قومه يرينا الشقيقا »
(٢) فى ب « خمراً رقيقا » (٣) فى ا « سيدى هل جمعت فيه اللآلى »
(٤) فى أصل ا « ابن السماذ » وفى نسخة عندها كما فى ب

وله :

تحن ركابى نحو أرض ومالها ومالىَ من ذاك الحنين سوى الهم
وكم راغب فى موضع لا يناله وأمسيت منه مثل يونس فى اليم
بهذا قضى الرحمن فى كل ساخطٍ يموت على كره ويحيا على رغم

ولما قام الباجى بإشبيلية وخلع طاعة ابن هُودٍ ، وأبدل شعاره الأسود العباسىَّ فى البنود ، قال أبو محمد عبد الحق الزهرى القرطبى فى ذلك :

كأنما الراية السوداء قد نَعَبَتْ لهم غرابا ببين الأهل والولد[1]
مات الهوى تحتها من فرط رَوْعته فأظهر الدهر منها لبسة الكمد

وأنشدهما القائم الباجى فى جملة قصيدة

وقال الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حجاج الأعلم الإشبيلى :

أمسى الفَرَاشُ يطوف حول كؤوسنا إذ خالها تحت الدجى قنديلا
ما زال يخفق حولها بجناحه حتى رمته على الفراش قتيلا

وله :

لاموا على حب الصبا والكاس لما بدا وَضَحُ المشيب براسى
والغصن أحوج ما يكون لسَقْيه أيام يبدو بالأزاهر كاسى

وله ، وقد رأى على نهر قرطبة ثلاثين نفسا مصلوبين من قطاع الطريق :

ثلاثون قد صففوا كلهم وقد فتحوا أذْرُعًا للوداع
وما وَدَّعُوا غير أرواحهم فكان وداعا لغير اجتماع

وله فى فَتًى وسيم عَضَّ كلبٌ وجنته :

وأغيد وضاح المحاسِنِ باسم إذا قَامَرَ الأرواح ناظره قَمَرْ[2]

---

(١) فى ب « كأنما الراية السوداء قد نصبت ـ إلخ »
(٢) فى ب « وأغيد وضاح المباسم باسم »

تعمد كلب عَضَّ وجنته التى هى الورد إيناعا وأبقى بها أثر
فقلت لشُهْب الأفق كيف صُمَاتكم وقد أثَّرَ العوّاء فى صفحة القمر

من محاسن أبى الحجاج البياسى

وقال الفقيه أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسى المؤرخ الأديب ، المصنف الشهير ، وكان حافظا لنُكَت الأندلسيين حديثا وقديماً ، ذاكراً لفكاهاتهم التى صيرته للملوك خليلا ونديما(١) ، فى صبى من أعيان الجزيرة الخضراء ، تهافت فى حبه جماعة من الأدباء والشعراء ، وكان من القوم الذين هاموا بالمذكور ، وقاموا فيه المقام المشهور ، أديبٌ يقال له الفار ، فتسلط على البياسى حتى سافر من الجزيرة وكان يلقب بالقط :

عذرت أبا الحجاج من رب شيبة غدا لابساً فى الحب ثوبا من القار
وأجأه الفار المشارك للنوى ولم أر قطا قبله فر من فار

وله :

قد سلونا عن الذى تدريه وجفوناه إذ جفا بالتيه
وتركناه صاغِرًا لأناس خدعوه بالزور والتمويه
لمصل يسوقه لمصل وسفيه يقوده لسفيه(٢)

وله ، وقد كتب إلى بعض أصحابه يذكره بالأيام السوالف :

أباحسن لعمرك إن ذكرى لأيام النعيم من الصواب
أمثلى ليس يذكر عهد حمص وقد جمحت بنا خَيْلُ التصابى
ونحن نجرُّ أثواب الأمانى مُطَرزة هنالك بالشباب
وعهد بالجزيرة ليس ينسى وإن أغفلته عند الخطاب
هو الأحلى لدىَّ وإن حمانى عن العَسَل اجتماعٌ للذباب

وسار إلى المحبوب ، وكان كثير الاجتماع به فى جنة لوالده على وادى العسل ، فقال :

---

(١) فى ا « خديما ونديما »
(٢) فى ا « فمصل يسوقه لمصل »

جنة وادى العسل ... كم لى بها من أمل
لو لم يكن ذُبَابُهَا ... يمنع ذوق العسل

قال ابن سعيد : ولما التقينا بتونس بعد إيابى من المَشْرِق ، وقد ولج ظلام الشعر(١) على وجهه المُشْرق ، قلت لأبى الحجاج مشيراً إلى محبوبه ، وقد غطى هواه عنده على عُيُوبه :

خَلِّ أبا الحجاج هذا الذى ... قد كنت فيه دائم الوجد
وانظر إلى لحيته واعتبر ... مما جنى الشَّعْرُ على الخدّ

والله سبحانه يسمح للجميع ، فى هذا الهزل الشنيع ، ويصفح عنّا فى ذكره ، إنه مجيب سميع

ابن صارة وإخوان له

وقال صاحب « البدائع » ركب الأستاذ أبو محمد بن صارة مع أصحاب له فى نهر إشبيلية فى عشية سال أصيلها على لجين الماء عِقْيانا ، وطارت زَوَاريقها فى سماء النهر عقبانا ، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سُرَراً وأعكانا ، فى زَوْرَق يجول جولانَ الطرف ، ويسودُّ اسوداد الطِّرف ، فقال بديها :

تأمل حالنا والجوّ طَلْقٌ ... محياه وقد طفل المَسَاء
وقد جالت بنا عذراء حُبْلَى ... تجاذب مرطها ريح رخاء
بنهر كالسَّجنجل كوثرى ... تعبس وجهها فيه السماء

واتفق أن وقف أبو إسحاق بن خفاجة على القطعة واستظرفها واستلطفها(٢) ، فقال يعارضها على وزنها ورويها وطريقتها :

ألا يا حبذا ضَحِكُ الحميّاً ... بِحَانتها وقد عبس المَسَاء
وأدهم من جياد الماء مهر ... تنازح جـــله ريح رخاء(٣)

---

(١) فى ا « ورد كلام الشعر » (٢) فى ا « فاستطرفها واستطابها »
(٣) فى ا « وأدهم من جياد الماء نهد»

إذا بدت الكواكب فيه غَرْقَى رأيت الأرض تحسدها السماء

بين ابن خفاجة وابن وهبون

وقال الأديب ابن خفاجة فى ديوانه : صاحبتُ فى صَدَرِى من المغرب سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة أبا محمد عبد الجليل بن وهبون شاعر المعتمد ، وكان أبو جعفر ابن رشيق يومئذ قد تمنَّع ببعض حصون مُرْسِية ، وشرع فى النفاق ، فقطع السبيل ، وأخاف الطريق ، ولما حاذينا قلعته وقد احتدمت جَمْرَةُ الهجير ، وملَّ الركبُ رَسِيمه وذَميله ، وأخذ كل منا يرتادُ مَقِيله ، اتفقنا على أن لا نطعم طعاما ، ولا نذوق مناما ، حتى نقول فى صورة تلك الحال ، وذلك الترحال ، ما حضر ، وشاء الله أن أجْبَلَ ابن وهبون واعتذر(١) ، وأخذت عفو خاطرى ، فقلت أتربص به ، وأعرض بعظم لحيته :

ألا قل للمريض القلب مهلا فإن السيف قد ضمن الشفاء

ولم أر كالنفاق شكاه حُرٌّ ولا كدم الوريد له دواء(٢)

وقد دحى النجيع هناك أرضا وقد سمك العَجَاجُ به سماء(٣)

وديس به انحطاطا بطن واد مُذَ أعشب شعر لحيته ضراء

ابن خفاجة وأصحاب له

وقال ابن خفاجة أيضا : حضرت يوماً مع أصحاب لى ، ومعهم صبى متهم فى نفسه ، واتفق أنهم تحاوروا فى تفضيل الرمان على العنب ، فانبرى ذلك الصبى فأفرط فى تفضيل العنب ، فقلت بَدِيهاً أعبث به :

صِلْنِى لك الخير برمانة لم تنتقل عن كرم العهد

لا عنبا أمتصُّ عنقوده ثديا كأنى بعدُ فى المهد

وهل يرى بينهما نسبة مَنْ عَدَلَ الخصية بالنهد

فخجل خجلا شديدا وانصرف

---

(١) فى ا « وشاء الله إجبال ابن وهبون فاعتذر »

(٢) فى ب « ولم أر كالنفاق شكاة غر »

(٣) فى ب « وقد شمل العجاج به سماء »

قال : وخرجت يوماً بشاطبة إلى باب السَّمَّارين ، ابتغاء الفرجة على خرير ذلك الماء بتلك الساقية ، وذلك سنة ٤٨٠ ، وإذا بالفقيه أبى عمران بن أبى تلميذ[1] رحمه الله تعالى قد سبقنى إلى ذلك ، فألفيته جالسا على دكان كانت هناك مبنية لهذا الشأن ، فسلمت عليه ، وجلست إليه ، مستأنسا به ، فجرى أثناء ما تناشدناه ذكر قول ابن رشيق :

يامن يمـــر ولا تمر به القلوب من الفَـرَقْ
بعمامة من خـــدّه أو خدّه منهـا استرق
فـكأنه وكأنهـا قمـــر تَعَمَّمَ بالشفق
فإذا بدا وإذا انثنى وإذا شدا وإذا نطق
شَغَلَ الخواطر والجوا نح والمسامع والحدق

فقلت ، وقد أعجب بها جدا ، وأثنى عليها كثيرا : أحسن ما فى القطعة سياقة الأعداد ، وإلا فأنت تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذى قبله فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها ، وهل ينزل بإزاء قوله « وإذا نطق » قوله « شغل الحدق » وكأنه نازعنى القول فى هذا غاية الجهد ، فقلت بديهـا :

ومُهَفْهَف طَاوِى الحشا خَنِثِ المعاطف والنظر
ملأ العيون بصورة تليت محاسِنُهَا سور
فإذا رنا وإذا مشى وإذا شدا وإذا سفر
فضح الغـزالة والغما مة والحمامة والقمر

فُجَنَّ بها استحسانا ، انتهى

(١) هكذا فى ا ، وفى ب « بن أبى تليد »

قال ابن ظافر : والقطعة القافية ليست لابن رشيق ، بل هى لأبى الحسين[1] على بن بشر الكاتب أحد شعراء اليتيمة

بين السميسر وبعض رؤساء المرية

وكان بين السميسر الشاعر و بين بعض رؤساء الْمَرِيَّةِ واقع لمدح مدحه فلم يجزه عليه ، فصنع ذلك الرجل دعوة للمعتصم بن صمادح صاحب المرية ، واحتفل فيها بما يحتفل مثله فى دعوة سلطان مثل المعتصم ، فصبر السميسر إلى أن ركب السلطان متوجها إلى الدعوة ، فوقف له فى الطريق ، فلما حاذاه رفع صوته بقوله :

يا أيها الملك الميمون طائره ... وَمَنْ لذى مأتم فى وجهه عُرُسُ

لا تفرسنَّ طعاما عند غيركم ... إن الأسود على المأكول تفترسُ

فقال المعتصم : صدق والله ، ورجع من الطريق ، وفسد على الرجل ما كان عمله .

عباد ابن الحريش ورجل من سراة أصبهان

ونظير هذه الحكاية أن عَبَّاد بن الحريش كان قد مدح رجلا من كبار أصبهان أرباب الضيع والأملاك والتبع الكثير ، فمطله بالجائزة ، ثم أجازه بما لم يرضه ، فرده عليه ، و بعد ذلك بحين عمل الرجل دعوة غرم عليها ألوف دنانير كثيرة لأبى دُلَف القاسم بن عيسى العِجْلى على أن يجىء إليه من الكرج ، ووصل أبو دُلَف ، فلما وقعت عين عباد عليه وهو يساير بعض خواصه أومأ إلى ذلك السائر وأنشد بأعلى صوته :

قل له يا فَدَيْتُـــه ... قولَ عباد ذا سمج

جئتَ فى ألف فارس ... لغَـداء من الكرج

ما على النفس بَعْدَ ذَا ... فى الدناآت من حَرَجْ

فقال أبو دلف ، وكان أخوفَ الناس من شاعر : صدق والله ، أجىء من الكرج إلى أصبهان حتى أتغدَّى بها ؟ والله ما بعد هذا فى دناءة النفس من شىء !

---

(١) فى ا « لأبى الحسين بن على بن بشر »

ثم رجع من طريقه ، وفسد على الرجل كل ماغرمه ، وعرف من أين أتى ، وتخوف أن يعود عباد عليه بشر منها ، فسير إليه جائزة سنية مع جماعة من أصحابه ، فاجتمعوا به ، وسألوه فيه ، وفى قبول الجائزة ، فلم يقبل الجائزة ، ثم أنشد بديها :

* وهَبْتُ ياقوم لكم عرضه *

فقالوا : جزاك الله تعالى خيراً ! فقال :

* كرامةً للشعر لا للفتى *

لأنه أبخل من ذَرَّة على الذى تجمعه فى الشِّتَا انتهى

أبو الصلت وإخوان له

وذكر أبو الصَّلْت أمية بن عبد العزيز الأندلسى مامعناه : أنه عزم بمصر هو ورفقة له على الاصطباح ، فقصدوا بركة الحَبَش ، فى وقت ولاية الغَبَش ، وحلُّوا منها روضا بَسَم زهره ، ونسم عِطْره ، فأداروا كؤسا ، تُطْلِع من المدام شُموسا[1] ، وعاينوها نجوما ، تكون لشياطين الهموم رُجُومًا ، فطرب حتى أظهر الطرب نشاطه ، وأبرز ابتهاجه وانبساطه ، فقال :

لله يومى ببركة الحَبَشِ والجوّ بين الضياء والغَبَشِ
النيل تحت الرياح مضطرب كصارم فى يَمينِ مرتعش
ونحن فى روضةٍ مُفوَّفةٍ دُبِّج بالنَّور عِطْفُها ووُشِى
قد نسجتها يدُ الغمام لنا فنحن من نَوْرها على فُرُشِ
فعاطِنِى الراح إن تاركها من سَوْرة الهم غيرُ منتعش
وأسقنى بالكبار مُترَعَة فهنَّ أروى لشدة العطش
فأثقل الناس كلهم رجل دعاه داعى الصبا فلم يَطِشِ

(١) فى ا « وسقنى بالكبار مترعة » ومترعة : اسم المفعول من قولهم « أترع فلان كأسه » إذا ملأها ، وأروى : أشد ريا

وهذا أبو الصَّلت أمية من كبراء أدباء الأندلس العلماء الحكماء، وقد ترجمناه فى الباب الخامس فى المرتحلين من الأندلس إلى المشرق

وقال رحمه الله تعالى : كنت مع الحسن بن على بن تميم بن المعز بن باديس بالمهدية فى الميدان ، وقد وقف يَرْمى بالنشاب ، فصنعت فيه بَدِيهاً :

يا ملكا مذ خُلِقَتْ كفه　　لم تدر إلا الجود والباسا
إن النجوم الزهر مع بعدها　　قد حسدت فى قربك الناسا
ووَدَّتِ الأملاكُ لو أنها　　تحوّلت تحتك أفراسا
كما تمنّى البدر لو أنه　　عاد لنشابك برجاسا

للوزير الوقشى فى غلام أسود

وصنع الوزير أبو جعفر أحمد الوقشى وزير الرئيس أبى إسحاق بن همشك[1] صهر الأمير أبى عبد الله محمد بن مَرْدَنيش فى غلام أسود فى يده قضيب نَوْر بديها :

وزنجى أتى بقضيب نَوْرٍ　　وقد زُفَّتْ لنا بنتُ الكروم
فقال فتى من الفتيان صِفْهاَ　　فقلت الليل أقبل بالنجوم[2]

أبو يحي البكى

ولما أفرط أبو يحيي اليكى[3] فى هجاء أهل فاس تَعَسَّفوا عليه[4]، وساعدهم واليهم مظفر الخصى من قبل أمير المسلمين على بن يوسف ، والقائدُ عبدالله بن خيار الجيانى ، وكان يتولى أموراً سلطانية بها ، فقدموا رجلا ادعى عليه بدَيْن ، وشهد عليه به رجل فقيه يعرف بالزناتى ، ورجل آخر يكنى بأبى الحسين من مشايخ البلد ، فأثبت الحق عليه ، وأمر به إلى السجن ، فرفع إليه ، وسِيقَ سَوْقاً عنيفاً ، فلما وصل إلى بابه طلب ورقة من كاتبه ، وكتب فيها ، وأنفذها إلى مظفر مع العون الذى أوصله إلى السجن ، فكان ما كتب :

أرشوا الزناتى الفقيه بِبَيْضَةٍ　　يشهد بأن مظفرا ذو بيضتين

---

(١) فى نسخة عنده «بن هميشك»　(٢) فى ا «فقال فتى من الفتيان صفه»
(٣) فى ب «البكى» وانظر ص ٣١٩ الآتية (٤) فى ا «تعصبوا عليه»

واهدوا إليه دجاجة يَحْلِفْ لكم ... مانالك عبد الله عرس أبى الحسين

من شعر ابن مفيد

وقال أبو الحسن (١) على بن عتيق بن مؤمن القرطبى الأنصارى : عمل والدى محملا للكتب من قضبان تشبه سلما ، فدخل عليه أبو محمد عبدالله بن مفيد ، فرآه ، فقال ارتجالا :

أيها السيد الذكىُّ الجنانِ ... لا تقسنى بسلم البنيان
فضل شكلى على السلالم أنى ... محمل للعلوم والقرآن
حُزْتُ من حلية المحبين ضعفى ... واصفرارى ورقة الأبدان
فادعُ للصانع المجيد بفوزٍ ... ثم والِ الدعاء للإخوان

ثم عمل أيضاً :

أيها السيد الكريمُ المساعِى ... التفت صنعتى وحسن ابتداعى
أنا للنسخ محمل خف حملى ... أنا فى الشكل سُلم الإطلاع

لجماعة من أهل الأندلس

وقال أحمد بن رضى المالقى :

ليس المدامة مما أستريح له ... ولا مجاوبة الأوتار والنغم
وإنما لذتى كُتُبٌ أطالعها ... وخادمى أبدا فى نصرتى قلمى

وقال أبو القاسم البَلَوى الإشبيلى .

لمن أشكو مُصابى فى البرايا ... ولا ألقى سوى رجل مصابِ
أمور لو تَدَبَّرها حكيم ... لعاش مدى الزمان أخا اكتئاب
أما فى الدهر من أفشى إليه ... بأسرارى فيؤنس بالجواب
يئست من الأنام فما جليس ... يعز على نهاى سوى كتابى

وقال أبو زكريا يحيى بن صَفْوان بن إدريس صاحبُ كتاب « العجالة » و « زاد المسافر » وغيرهما :

---

(١) فى نسخة عند ب « أبو الحسين »

ليت شعرى كيف أنتم وأنا الصب المُعَنَّى
كل شىء لم تكونوا فيه لفظٌ دون مَعْنَى

وله فى نصرانى وَسِيم لقيه يوم عيد :

توحَّد فى الحسن من لم يزل يثلث والقلب فى صده(١)
يشف لك الماء من كفه ويقتدح النار من خده

وهذان البيتان نَسَبهما له بعضُ معاشريه ، وأبوه صفوان سابق الميدان .

ابن عمار وغلامان من بنى جهور

وقال ابن بسام : ساير ابن عمار فى بعض أسفاره غلامان من بنى جَهْور أحدهما أشقر العذار والآخر أخضره ، فجعل يميل بحديثه(٢) لمخضر العذار ، ثم قال ارتجالا :

تعلقته جهورى النِّجار حَلِيَّ اللَّمَى جوهرى الثنايا(٣)
من النَّفَرِ البيض أسد الزمان رقاق الحواشى كرام السجايا
ولا غرو أن تغرب الشارقات وتبقى محاسنها بالعَشَايا
ولا وصل إلا جمان الحديث نساقطه من ظهور المطايا
شَنِئْتُ المثلَّث للزعفران وملت إلى خضرة فى التفايا(٤)

ومعناه أن ابن عمار أبغض المثلث لدخول الزعفران فيه لشبهه بعذار الأشقر منهما، وأحبَّ خضرة التفايا(٤) ، وهو لون طعام يعمل بالكزبرة ، لشبهها بعذار الأخضر منهما .

ابن عمار وابن معيشة الكنانى

وقال أبو العرب ابن معيشة الكنانى السبتى : أخبرنى شيخ من أهل إشبيلية كان قد أدرك دولة آل عباد ، وكان عليه من أثر كبر السن ودلائل التعمير ما يشهد له بالصدق ، وينطق بأن قوله الحق ، قال : كنت فى صِبَاىَ حسنَ

(١) فى ا « يوحد فى الحسن » وضبطه مضارعا من التوحيد
(٢) فى ا « يميل فى حديثه »
(٣) النجار — بكسر النون ، بزنة الكتاب — هو الأصل ، ووقع فى ا « جهورى النجار حلو اللمي » محرفا (٤) فى ا « وملت إلى خضرة فى التغايا »

الصورة ، بديع الخلقة ، لا تلمحنى عينُ أحد إلا ملـكت قلبه ، وخلبت خلبه ، وسلبت لبه ، وأطلتُ كربه ، فبينا أنا واقف على باب دارنا إذا بالوزير أبى بكر ابن عمار قد أقبل فى موكب زَجِل ، على فرس كالصخرة الصماء قدت من قُنَّـةِ(١) الجبل ، فحين حاذانى ورآنى اشْرَأب إلى ينظرنى وبُهِت يتأملنى ، ثم دفع بمخصرة كانت بيده فى صدرى ، وأنشد :

كُفَّ هذا النهد عنى فبقلبى منـــه جُرْحُ
هو فى صـدرك نهد وهو فى صدرىَ رُمْحُ

ابن عمار وغلام لابن هود

وعبر فى « البدائع » على طريقة القلائد بما صورته : ذكر الفتح بن خاقان ما هذا معناه : أخبرنى ذو الوزارتين أبو المطرف بن عبـد العزيز أنه حضر عند المؤتمن بن هود فى يوم أجْرَى الجوّ فيه أشقَرَ برقه ، ورمى بنبل وَدْقِهِ ، وحملت الرياح فيه أوقار السحاب على أعناقها ، وتمايلت قاماتُ الأغصان فى الحُلَل الخضر من أوراقها ، والأزهار قد تفتحت عيونُها ، والكمائم قد ظهر مَكْنُونها ، والأشجار قد انصقلت بالقَطْر ، ونشرت ما يفوق ألوان البز و بَثّتْ ما يعلو العطر ، والراح قد أشرقت نجومها فى بروج الراح(٢) ، وحاكت شمسها شمس الأفق فتلفعت بغيوم الأقداح ، ومُدِيرها قد ذاب ظَرْفا فكاد يسيل من إهابه(٣) ، وأخجل خدّها حسناً فتكلل بعرق حَبابه ، إذا بفتًى رومى من أصبح فِتْيَان المؤتمن قد أقبل متدرعًا كالبدر اجتاب سحابا ، والخمر اكتست حَبَابا ، والطاوس انقلب حبابا ، فهو مَلَك حسناً إلا أنه جسد ، وغزال ليناً إلا أنه فى هيئة الأسد ، وقد جاء يريد استشارة المؤتمن فى الخروج إلى موضع كان عوّل فيه عليه ، وأمره أن يتوجه إليه ، فحين وصل إلى حضرته لمحهُ ابنُ عمار والسكر قد استحوذ على لُبِّه ، وانبثت سراياه

(١) قنة الجبل ـ بضم القاف وتشديد النون مفتوحة ـ أعلى مكان فيه
(٢) الراح الأول : اسم من أسماء الخمر ، والراح الثانية : اليد
(٣) الإهاب ـ بكسر الهمزة ـ الجلد

فى ضواحى قَلْبِه(١)، فأشار إليه وقربه ، واستبدع ذلك اللباسَ واستغربه ، وجَدَّ فى أن يستخرج تلك الدرة منْ ماء ذلك الدِّلاَص ، وأن يجلى عنه كما يجلى الخبث عن الخلاص ، وأن يوفر على ذلك الوفر نعمة جسمه ، ويكون هو الساقى على عادته القديمة ورَسْمِه ، فأمره المؤتمن بقبول أمره وامتثاله ، واحتذاء أمثاله ، فحين ظهرت تلك الشمس من حجبها ، ورمت شياطينَ النفوس من كُمْتِ المدام بشُهْبها ، ارتجل ابن عمار :

وهَوِيتُه يسقى المدام كأنه ... قمر يدور بكوكب فى مجلس
مُتَنَاوِح الحركات يَنْدَى عِطْفُه ... كالغصن هَزَّته الصَّبا بتنفس
يسقى بكأس فى أنامل سَوْسَنٍ ... ويدير أخرى من محاجر نرجس
يا حاملَ السيف الطويل نجادُهُ ... ومُصَرف الفرس القصير المجبس
إياك بادِرَةَ الوَغَى من فارس ... خَشِنِ القناع على عِذَارٍ أملس
جَهْم وإن حَسَرَ القناع فإنما ... كشف الظلام عن النهار المشْمِسِ
يطغى ويلعب فى دَلاَل عذاره ... كالمهر يلعبُ فى اللجام المجرس
سَلِّم فقد قصف القنا غصنَ النقَا ... وسطا بليث الغاب ظبىُ المكنس
عَنَّا بكأسك قد كفتنا مُقْلَةٌ ... حَوْراء قائمة بسكر المجلس

وصنع فيه أيضاً :

وأحْور من ظباء الروم عاط ... بسالفتيه من دمعى فريد
قسا قلباً وشَنَّ عليه دِرْعًا ... فباطنه وظاهره حديد
بكيت وقد دنا ونأى رضاه ... وقد يبكى من الطرب الجليد
وإنَّ فتًى تملكه بِرِقٍّ ... وأحرز حسنه لفتى سعيد(٢)

(١) كذا فى ب ، وفى بدائع البدائه « نواحى قلبه » وهو أظهر

(٢) فى ا « وإن فتى تملكه بنقد * وأحرز رقه »

المعتصم ابن صمادح

وقال فى «البدائع» مؤلفه ما نصه : خرج المعتصم بن صمادح صاحب المرية يوما إلى بعض متنزهاته ، فحل بروضة قد سَفَرَت عن وجهها البهيج ، وتنفست عن مسكها الأريج ، وماست معاطِفُ أغصانها ، وتكللت بلؤلؤ الطلّ أجيادُ قضبانها ، فتشوّف[١] إلى الوزير أبى طالب بن غانم أحَدِ كبراء دولته ، وسيوف صَوْلته ، فكتب إليه بديها بورقة كرنب بعود من شجرة :

أقبل أبا طالب إلينـــا ... واسْقُطْ سُقُوطَ النَّدَى علينا

وجلس المعتصم بن صمادح المذكور يوماً و بين يديه ساقية قد أخمدت ببردها حر الاوَار[٢] ، والتوى ماؤها فيها التواء فضة السوار ، فقال ارتجالا :

انظر إلى الماء كيف انحط من صَبَبِهْ ... كأنه أرْقَمٌ قد جد فى هَرَبِهِ[٣]

وقال السميسر :

بعض ما قيل فى البعوض

بعوضٌ شربن دمى قهوة ... وَغَنَّيْنَـنِي بضروب الأغانى[٤]

كأن عروقى أوتارهن ... وجسمى الرباب وهن الْقِنَانِى[٥]

[وقيل :[٦]

بعوض و برغوث و بق لزمننى ... حسبن دمى خمرا فلذ لها الخمر

فيرقص برغوث لزَمْرِ بعوضة ... و بَقُّهم سكت ليستمع الزمر

ومنه :

بق و برغوت أتوا ... نحوى وقدشدواعذابى

وأتى البعوض بزمره ... ياقوم أخرج من ثيابى][٦]

وأحسن منه قول ابن شرف القيروانى :

لك مجلس كملت بشارة لهونا ... فيه ، ولـكن تحت ذاك حديث[٧]

---

(١) فى ا « فتشوق » من الشوق (٢) الأوار ـ بضم الهمزة ـ شدة العطش
(٣) فى ا « انحط فى صببه » (٤) فى ب « بعود شربن دمى » محرفا
(٥) فى ب « وهن القيان » محرفا (٦) مابين المعقوفين ثابت فى ب وحدها
(٧) فى ا « لك مجلس كملت ستارة لهونا »

غَنَّى الذبابُ فظل يَزْمُرُ حوله فيه البعوضُ ويرقص البرغوث

والسابق إلى هذا المعنى أبو أحمد بن أيوب من شعراء اليتيمية إذ قال :

لا أعذل الليـل فى تطاوله لو كان يَدْرِى ما نحن فيه نَقَصْ

لى والبراغيث والبعوض إذا أجَنَّنا حِنْدِسُ الظلام قِصَصْ

إذا تغـنَّى بعوضُـه طَرَباً أطرب برغوثَه الغِنا فرقص

ونحو هذا قول الحُصْرى فيما نسبه إليه[1] ابن دحية :

ضاقت بلنسية بى وذاد عـنى غموضى

رَقْصُ البراغيث فيها على غناء البعوض

رجع إلى أهل الأندلس ، فنقول :

عود إلى أهل الأندلس

كان ابن سعد الخير البَلَنْسِى الشاعر كثير الذهول ، مفرط النسيان ، ظاهر التغفل ، على جودة نظمه ، ورطوبة طبعه ، وكان كثيراً مايسلك سكة الإسكافيين الذين يعملون الخِفافَ على بغلة له ، فاتخذت البغلة النفور من أطراف الأدم وفضلات الجلود الملقاة فى السكة عادةً لها ، واتفق أن عبر فى السكة راجلا ، ومعه جماعة من أصحابه ، فلما رأى الجلود الملقاة قفز ووثب راجعا على عقبيه ، فقال له أصحابه : ماهذا أيها الأستاذ ؟ فقال: البغلة نفرت ، فعجبوا من تغفله[2] كيف ظن مع مايقاسيه من ألم المشى ونَصَب التعب أنه راكب ؟ وأن حركته الاختيارية منه حركة الدابة الضرورية له ، فكان تغفله ربما أوقعه فى تهمة عنـد من لم يعرفه ، فاقترح عليه بعض الأمراء أن يصنع بيتين أول أحدهما كتاب وآخره ذئب ، وأول الآخر[3] جوارح وآخره أنابيب ، فصنع بديها :

كتاب نجيع لاح فى حَوْمة الوغى وقارَنَهُ نَسْرٌ هنالك أو ذِيبُ

---

(١) فى ا « فيما نسب إليه » (٢) فى ا « فعجبوا من تخلفه وتغفله »

(٣) فى ا « والأول الآخر » وليس بشىء

جوارح أهليـه حروفٌ وربما تَوَلَّتْهُ من نقط الطعان أنابيب

وقال الحميدى : ذكر لى أبو بكر المروانى أنه شاهد محبوبا الشاعر النحوى قال بديهة فى صفة ناعورة :

وذات حنين ما تغيضُ جفونُهَا من اللجج الخضر الصوافى على شَطِّ
وتبكى فتحيي من دموع جفونها رياضا تبـدت بالأزاهر فى بسط[1]
فمن أحمـر قانٍ وأصفر فاقع وأزهر مبيض وأدكن مُشْـمَطِّ
كأن ظروف الماء من فوق متنها لآلى جُمَـان قد نُظِمْنَ على قُرْطِ

وقال أبو الخطاب بن دِحْية : دخلت على الوزير الفقيه الأجل أبى بكر عبد الرحمن ابن محمد بن مغاور السلمى ، فوقع الـكلام فى علوم لم تـكن من جنس فنونه ، فقال بديها :

أيها العالم أُدَّركنى سماحا فلمثلى يحقُّ منـك السماح
إن تخالنى إذا نطقت عييا فبنانى إذا كتبت وقاح
أحرز الشأو فى نظام ونثر ثم أثنى وفى العنان جِمَاحُ
فبهزل كما تأود غُصْنٌ وبجـد كما تهز الصفاح

وقال : دخلت عليه منزله[2] بشاطبة فى اليوم الذى توفى فيه وهو يجود بنفسه ، فأنشد بديها :

أيها الواقف اعتبارا بقبرى استمع فيه قول عظمى الرميم
أودعونى بطن الضريح وخافوا من ذنوب كلومها بأديمى
ودعونى بما اكتسبت رهينا غلق الرهن عند مولى كريم

---

(١) وقع هذا البيت فى ا هكذا :

تبكى فنجنى مں دموع جفونها رياضا تبدى من أزاهير فى بسط

ووقع فى البدائع هكذا :

وتبكى فتجنى من دموع عيونها لآلى رياض بالأزاهر فى بسط

(٢) فى ا « دخلت عليه بمنزله »

وقال ابن طوفان : دعا أبى أبا الوليد النَّحْلى ، فلما قضوا وطرهم من الطعام سقيتهم ، وجعلت أُتْرِعُ الكاسات(١) ، فلمامشت فى النَّحْلى سَوْرة الحميَّا ارتجل :

لابن طوفان أيادٍ   قلَّ فيها مُشْبهوه
ملأ الكاسات حتى   قيل فى البيت أبوه

ونظيره قول المتفتِّل(٢) من شعراء الذخيرة فى الشاعر ابن الفراء :

فاذا ما قال شعرا   نفقت سوق أبيه

فى وصف الأهرام

وذكر فى «بدائع البدائه» أن جماعة من الشعراء فى أيام الأفضل خرجوا متنزهين إلى الأهرام ليروا عجائب مبانيها ، و يتأملوا ما سطره الدهر من العبر فيها ، فاقترح بعض من كان معهم العمل فيها ، فصنع أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى :

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا   على ما رأت عيناك من هَرَمَىْ مصر
أنافا بأعنان السماء فأشرفا   على الجو إشراف السماك أو النسر(٣)
وقد وافيا نَشْزًا من الأرض عاليا   كأنهما نَهْدَانِ قاما على صدر

وصنع أبو منصور ظافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وانظر   و بينهما أبو الهول العجيب
كعمار يبتن على رحيل   بمحبو بين بينهما رقيب(٤)
وفيض البحر عندهما دموع   وصوت الريح بينهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب   تخلف فهو محزون كئيب

فى وصف فرس

وقال ابن بسام : كان للمتوكل ابن الأفطس فرس أدهم أغر محجل على كفله ست نقط بيض ، فندب المتوكل الشعراء لصفته ، فصنع النَّحْلى أبو الوليد فيه بديها :

ركبَ البدرُ جوادا سابحاً   تقف الريح لأدنى مَهَلِهْ
لبس الليل قميصاً سابغاً   والثريا نقط فى كَفَلِهْ

---

(١) أترع الكاسات : أملؤها   (٢) فى ب «المتقبل» وفى البدائع «المعقبل»
(٣) فى البدائع «أنافا بأكناف السماء» وفيها وفى ا «السماك على النسر»
(٤) فى ا «كعماريتين على رحيل»

وغدير الصبح قد خيض به فبدا تحجيـــله من بلله
كلُّ مطلوب و إن طالت به رجله من أجله فى أجَـلِهْ

ثم انتدب الشعراء بعد ذلك للعمل فيه ، فصنع ابن اللَّبَّانة :

لله طِرْفٌ جال يا ابن محمد فحبت به حو باؤه التأميلا
لما رأى أن الظلام أديمه أهدى لأرْبَعِهِ الهدى تحجيلا
وكأنما فى الردف منه مَبَاسم تبغى هناك لرجـله تقبيلا

وقال فيه أبو عبد الله بن عبد البر الشنتريني من قطعة :

وكأنما عُمَرٌ على صَهَوَاته قمر تسير به الرياح الأربع

و يعنى بعمر المتوكل المذكور لأن اسمه عمر .

وقال أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجى قاضى إشبيلية :

لله إخوان تناءت دارهم حفظوا الوداد على النوى أوخانوا
يهدى لنا طيب الثنـاء ودادهم كالندِّ يهدى الطيب وهو دخان

وحكى أن أيوب بن سليمان السهيلى المروانى حضر يوما عند ابن باجة[١] الشاعر ، وأبوالحسن بنجودى هناك ، فتكلم المروانى بكلام ظهر فيه نُبْل وأدب ، فتشوف[٢] أبو الحسن بن جودى لمعرفته ، وكان إذ ذاك فتىَّ السن ، فقال له : من أنت أ كرمك الله تعالى ؟ فقال : هلا سألت غـيرى عنى فيكون ذلك أحسن لك أدبا ولى توقيراً ، فقال ابن جودى : قد سألت من المعرف عنك فلم يعرفك، فقال : يا هذا ، طالما مر علينا[٣] زمان يعرفنا من يجهل ، ولا يحتاج مَنْ يرانا فيه إلى أن يسأل ، وأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه وأنشد :

أنا ابن الألى قدعَوَّضَ الدهرعزهم بذلٍّ وقلوا واستحبوا التنكرا

(١) فى ا « عند ابن باجة ، والشاعر أبو الحسن بن جودى هناك »
(٢) فى ا « فتشوق » (٣) فى ا « لطالما مر علينا زمان »

ملوك على مر الزمان بمشرق وغَرْبٍ دهاهم دهرهم وتغيرا
فلا تُذْكِرَنْهُمْ بالسؤال مصابَهُمْ فإن حياة الرزء أن يتذكرا

ففطن ابن جودى أنه من بنى مروان ، فقام وقبل رأسه ، واعتذر إليه ، ثم انصرف المروانى ، فقال ابن باجة لابن جودى : أساء أدبك[1] بعدما عهدت منك ؟ كيف تعمد إلى رجل فى مجلسى تجدنى[2] قد قربته وأكرمته وخَصَصْته بالإصغاء إلى كلامه فتتقدم عليه بالسؤال عن نفسه ؟ فاحذر أن تكون لك عادة ، فإنها من أسوأ الأدب ، فقال ابن جودى : لم نزل[3] من الشيخ على ماقاله أبو تمام

* نأخذ من ماله ومن أدبه *

بكار المروانى

وحكى أن بكار المروانى لما ترك وَطَنه وخرج فى الجهاد وقتل ، قال صاحب السقط : إنه اجتمع به فى أشبونة فقال : قصدت منزله بها ، ونقرت الباب ، فنادى : من هذا ؟ فقلت : رجل ممن يتوسل لرؤياك بقرابة ، فقال : لاقرابة إلا بالتقى ، فإن كنت من أهله فادخل ، وإلا فتنحَّ عنى ، فقلت : أرجو فى الاجتماع بك والاقتباس منك أن أكون من أهل التقى ، فقال : ادخل ، فدخلت عليه فإذا به فى مُصَلاه وسبحة أمامه ، وهو يعدّ حبوبها ويسبح فيها ، فقال لى : ارفق على حتى أتمم وظيفتى من هذا التسبيح ، وأقضى حقك ، فقعدت إلى أن فرغ ، فلما قضى شغله عطف على وقال : ما القرابة التى بينى وبينك ؟ فانتسبت له ، فعرف أبى ، وترحَّم عليه ، وقال لى : لقد كان نعم الرجل ، وكان لديه أدب ومعرفة ، فهل لديك أنت مما كان لديه شيء ؟ فقلت له : إنه كان يأخذنى بالقراءة وتعلم الأدب ، وقد تعلقت من ذلك بما أتميز به ، فقال لى : هل تنظم شيئا ؟ قلت : نعم ، وقد ألجأنى الدهر إلى أن أرتزق به ، فقال : يا ولدى إنه بئسما يرتزق به ، ونعم ما يتحلى به

---

(١) فى ا « ساءنى أدبك »
(٢) فى ا « ترانى قد قربته »
(٣) فى ا « لم أزل »

إذا كان على غير هذا الوجه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة » ولكل تحلّ الميتة عند الضرورة ، فأنشدنى أصلحك الله تعالى مما على ذُكْرِك من شعرك ، قال : فطلبت بخاطرى شيئا أقابله به مما يوافق حاله فما وقع لى إلا فيما لا يوافقه من مُجُون ووصف خمر وما أشبه ذلك ، فأطرقت قليلا ، فقال : لعلك تنظم ، فقلت : لا ولكن أفكر فيما أقابلك به ، فقولى أكثره فيما حملنى عليه الصِّبا والسخف ، وهو غير لائق بمجلسك[١] ، فقال : يابنى ، ولا هذا كله إنا لانبلغ من تقوى الله إلى حدّ نخرج به عن السلف الصالح ، و إذا صح عندنا أن عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومفسر كتاب الله تعالى ينشد مثل قول القائل :

* إن يَصْدُقِ الطيرُ ننك لَمِيسا *

فمن نحن حتى نأبى أن نسمع مثل هذا ؟ والله لا نشذ[٢] عن السلف الصالح ، أنشدنى ما وقع لك غير متكلف ، فلم يمدّنى خاطرى إلى غير قولى من شعر أمْجُنُ فيه :

أبطأت عنى ، وإنى لفى اشتياق شديد
وفى يدى لك شىءٌ قد قام مثل العمود
لو ذقته مرة لم تعد لهذا الصدود

فتبسم الشيخ وقال : أما كان فى نظمك أطهر من هذا ؟ فقلت له : ماوفِّقت لغيره ، فقال : لابأس عليك ، فأنشدنى غيره ، ففكرت إلى أن أنشدته قولى :

ولما وقفت على رَبْعِهِمْ تجرَّعْتُ وجدىَ بالأجْرَعِ
وأرسل دمعى شرار الدموع لنار تأجَّج فى الأضْلُعِ[٣]

---

(١) فى ا « وهو لائق بغير مجلسك »
(٢) فى ا « ألا والله لأنشد عن السلف الصالح » محرفا
(٣) فى ا « وأرسل دمعى شداد الدموع » محرفا

فقال عذولى ، لمَّا رأى بكائىَ : رِفقاً على الأدْمُعِ (١)
فقلت له : هذه سنة لمن حفظ العهدَ فى الأرْبُعِ

قال : فرأيت الشيخ قد اختلط ، وجعل يجىء ويذهب ، ثم أفاق وقال : أعد بحق آبائك الكرام ، فأعدت ، فأعاد ما كان فيه وجعل يردد[هُ] ، فقلت له : لو علمت أن هذا يحركك ماأنشدتك إياه ، فقال : وهل حرك منى إلا خيرا وعظة ؟ يابنى إن هذه القلوب المخلاة لله كالوَرَق التى جفت ، وهى مستعدة لهبوب الرياح ، فإن هب عليها أقلُّ ريحٍ لعب بها كيف شاء ، وصادف منها طَوْعه ، فأعجبنى منزعه ، وتأنست به ، ولم أر عنده ما يعتاد من هؤلاء المتدينين من الانجماع والانكماش ، بل مازال يبسطنى ويحدثنى بأخبار فيها هزل ، ويذكرلى من تاريخ بنى أمية وملوكها ماأرتاح له ، ولاأعلم أكثره ، فلما كثر تأنسى به أهويتُ إلى يده كى أقبلها ، فضمها بسرعة ، وقال : ماشأنك ؟ فقلت : راغبا لك فى أن تنشدنى شيئا من نظمك ، فقال : أما نظمى فى زمان الصبا فكان له وقت ذهب ، ويجب للنظم أن يذهب معه ، وأما نظمى فى هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله ، وهو يثقل عليك ، فقلت له : إن أنصف سيدى الشيخ نفعنا الله تعالى به أنشدنى من نظم صباه ، ومن نظم شيخوخته (٢) ، فيأخذ كلانا بحظه ، فضحك وقال : ما أعصيك وأنت ضيف[وقريب] ولك حرمة أدب (٣) ووسيلة قصد ، ثم أنشدنى وقد بدا عليه الخشوعُ وخنقَته العَبْرة :

ثق بالذى سَوَّاكَ من عدم فإنك من عـدم
وانظر لنفسك قبل قَرْ عِ السن من فرط الندم
واحذر وُقِيتَ من الورى واصْحَبْهُمُ أعمى أصم

---

(١) فى ب « فقام عذولى » وفيها « وقفا على الأدمع »
(٢) فى ا « ومن نظم شيخه » وليس بشىء (٣) فى ا « ولك حرمة وأدب »

قد كنت فى تيــــه إلى   أن لاح لى أهدى عَلَمْ
فاقتدت نحو ضــيائه   حتى خرجت من الظلم(١)
لـكن قناديل الهوى   فى نور رشدى كالحمم

قال : فوالله لقد أدركنى فوق ما أدركه ، وغُلِبَ على خاطرى بما سمعت من هذه الأبيات ، وفعلت بى من الموعظة غاية لم أجد منها التخلص إلا بعد حين ، فقال لى الشيخ : إن هـذه يقظة يرجى معها خيرك ، والله مرشدك ومنقذك ، ثم قال لى : يابنى هذا ما نحن بسبيله الآن ، فاسمع فيما مضى والله ولىُّ المغفرة ، و إنا لنرجو منه غفران الفعل ، فـكيف القول ، وأنشد :

أطلَّ عذارٌ على خـــدّه   فظنُّوا سُلُوِّىَ عن مذهبى
وقالوا غُرَابٌ لوشك النَّوى   فقلت اكْتَسَى البدرُ بالغيْهب
وناديتُ قلبىَ أينَ المسيرُ   وبَدْرُ الدجى حَلَّ بالعقرب(٢)
فقال ولو رُمْتَ عن حُبِّه   رحيلا عَصَيْتُ ولم أذهب

قال : فسمعت [منه] ما يقصر عنه صدور الشعراء ، وشهدت له بالتقدم ، وقلت له : لم أر أحسن من نظمك فى جدٍ ولا هزل ، ثم قلت له : أأرويه عنك ؟ فقال : نعم ، ما أرى به بأسا بعد أُطلاع مَنْ يعلم السرائر ، على مافى الضمائر ، فما قدر هذه الفكاهة فى إغضاء(٣) من يغفر الـكبائر ؟ ويغضى عن العظائم ، قال : فقلت له : فإن أسبغت على النعمة بزيادة شىء من هـذا الفن فعلت ما تملك به قلبى آخرَ الدهر ، فقال : يا بنى لا مَلَكَ قلبك غير حب الله تعالى ! ثم قال : ولا أجمع عليك رد قول ومنعاً(٤) ، وأنشد :

أيها الشـادن الذى   حسـنه فى الورى غريب

---

(١) فى ا « فاقتدت لحوضيائه » (٢) فى ا « وبدر الدجى حل فى العقرب »
(٣) فى ا « فى إحصاء من يغفر » (٤) فى ا « رد قول ومعنى » محرفا

لَحْظُ ذاك الجمال يطفىء مابى من اللهيب
وعليه أحُومُ دهرى ولكننى أخيب
كلما رمت زورة قيض الله لى رقيب

قال : فمازج قلبى من الرقة واللطافة لهذا الشعر ما أعجز عن التعبير عنه ، فقلت له : زدنى زادك الله تعالى خيرا ، فأنشدنى :

ما كان قلبى يدرى قدر حبكم   حتى بعدتم فلم يقدر على الجَلَدِ
وكنت أحسب أنى لا أضيق به   ذَرْعًا فما حان حتى فتَّ فى عضدى
ثم استمرت على كره مَرِيرَتُهُ   فكاد يفرق بين الروح والجسد
عساكم أن تلافوا باللقا رَمَقى   فليس لى مهجة تقوى على الكمد

ثم قال : حسبك ، وإن كلفتنى زيادة فالله حَسْبُكَ ، فقلت له : قد وكلتنى إلى كريم غفور رحيم ، فبالله إلا ما زدتنى ، وأكبَبْتُ لأقبل رجليه ، فضمهما وأنشد :

لله من قال لما   شكوتُ فيه نُحولى
أما السبيل لوصل   فماله من وصول
فقلت حسبى التماح   بحسن وجْهٍ جميل
وجه تلوح عليه   علامة للقبول
فقال دعنى فهذا   تَعَرُّضٌ للفضول
فقلت عاتب وخاطب   بالأمن أهل العقول

فملأ سمعى عجائب ، وبسط أنسى ، وكتبت كل ما أنشدنى ، ثم قلت له : لولا خوفى من التثقيل عليك لم أزل أستدعى منك الإنشاد حتى لا تجد ما تنشد ، فقال : إن عدت إن شاء الله تعالى إلى هنا تذكرت ، وأنشدتك ، فما عندى مما

أضيفك غير ماسمعته[١] ، وماتراه ، ثم قام وجاء من بيت آخر فى داره بصَحْفة فيها حسًا من دقيق وكسور باردة ، فجعل يفتّ فيها ، ثم أشار إلى أن أشْرَبَ ، فشربت ، ثم شرب إلى أن أتينا على آخرها ، ثم قال لى : هذا غداء عمك نهاره ، وإنه لنعمة من الله تعالى أستديم بشكرها اتصالها ، قال : فقلت له : ياعم ، ومن أين عيشك ؟ فقال : يا بنى ، عيشتى بتلك الشبكة أصطاد بها فى سَوَاحل البحر ماأقتات به ، ولى زوجة و بنت يعود من غَزْلهما معذلك ما نجد به[٢] معونة ، وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس خيرٌ كثير ، جعلنا الله تعالى ممن يلقاه على حالة يرضاها ، وختم لنا بخاتمة لا يخاف معها فضيحة ! قال : فتركته وقمت وفى نيتى أن أعود إلى زيارته ، ونويت أن يكون ذلك بعد أيام خوف التثقيل ، فعدت إليه بعد ثلاثة أيام ، فنقرت الباب ، فكلمتنى المرأة بلسان عليه أثر الحزن ، وقالت : إن الشيخ خرج إلى الغَزْوِ ، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم ناله كالجنون ، فقلت له : ما شأنك ؟ فقال : إنى أريد أن أموت شهيداً فى الغزو ، وهؤلاء جيران لى قد عزموا على الغزو ، وأنا إن شاء الله تعالى ماضٍ معهم ، ثم احتال فى سيفٍ ورمح وتوجّه معهم ، وقال : نفسى هى التى قتلتنى بهواها ، أفلا أقتصُّ منها فأقتلها ، قال : فقلت لها : مَنْ خَلَّفَ للنظر فى شأنكم ؟ فقالت : ليس ذلك لك ، فالذى خلفنا له لا نحتاج معه[٣] إلى غيره ، فأدركنى من جوابها روعة ، وعلمت أنها مثله زهداً وصلاحا ، فقلت : إنى قريبه ، ويجب على أن أنظر فى حالكم بعده ، فقالت : ياهذا إنك لست بذى مَحْرَم ، ولنا من العجائز من ينظر منا ويبيع غَزْلَنَا ويتفقد أحوالنا ، فجزاك الله تعالى عنا خيراً ! انصرف عنا مشكوراً ، فقلت لها : هذه

---

(١) فى ا « غير ماسمعت »

(٢) فى ا « مانجد فيه معونة »

(٣) فى ا « لايحتاج معه إلى غيره »

دراهم خذوها لتستعينوا بها[١]، فقالت : ما اعْتَدْنا أن نأخذ شيئاً من غير الله تعالى ، وما كان لنا أن نُخِلَّ بالعادة ، فانصرفت نادما على مافاتنى من الاستكثار من شعر الشيخ والتبرك بزيادة دعائه ، ثم عدت بعد ذلك لداره سائلا عنه ، فقالت لى المرأة : إنه قد قبله الله تعالى ، فعلمت أنه قد قُتِلَ ، فقلت لها : أقتل ؟ فقرأت (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله ـ الآية) فانصرفت معتبراً من حاله ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ونفعنا به !.

وكانت للمروانيين بالأندلس يد عُلْيا ، فى الدين والدنيا .

وقال محمد بن أيوب المروانى ، لما كلف قوما حاجة له سلطانية فما نهضوا بها فكلفها رأس بنى مروان القائد سعيد بن المنذر ، فنهض بها : محمد بن أيوب المروانى

نهضت بما سألتك غير وَانٍ ... وقد صعبت لسالكها الطريق
وليس يَبِينُ فضل المرء إلا ... إذا كلفته مالا يطيق

وعتبه يوما سعيد بن المنذر فى كونه يتعرض لمدح خدام بنى مروان ، فقال له : أعز الله تعالى القائد الوزير ! إنكم جعلتمونى ذنباً وجعلونى رأساً ، والنفس تتوق إلى مَنْ يكرمها وإن كان دونها أكثر ممن يهينها[٢] وإن كان فوقها ، وإنى من هذا وهذا فى أمر لا يعلمه إلا الله الذى[٣] بلانى به ، ويا ويح الشجى من الخلى ، وأنا الذى أقول فيما يتخلل هذا المنزع :

نسبت لقوم ليتنى نَجْلُ غيرهم ... فلى نَسَبٌ يعلو وحظىَ يسفل
أقطِّع عمرى بالتعلل والمنى ... وكم يخدع المرء اللبيب التعلُّلُ
فمالى مكان أرتضيه لهمة ... ولا مال منه أستعف وأفضل

---

(١) فى ا « خذوها تستعينوا بها »
(٢) فى ا « أكثر منها إلى من يهينها » وهى أظهر وأحسن
(٣) فى ا « لايعلم إلا الذى أبلانى به »

ولكننى أفضى الحياة تجمُّلاً وهل يهلك الإنسان إلا التجمل

فقال له سعيد : قصدنا لومك فعطفت اللائمة علينا ، ونحن أحق بها ، وسننظر إن شاء الله تعالى فيما يرفع اللوم عن الجانبين ،ثم تكلم مع الناصر فى شأنه ، فأجرى له رزقا أغناه عن التكفف ، فكانت هذه من حسنات سعيد وأياديه .

للمطرف بن عمر المروانى

وقال المطرف بن عمر المروانى يمدح المظفر بن المنصور بن أبى عامر :

إن المظفر لا يزال مظفراً حكماً من الرحمن غيرمُبَدَّلِ

وهو الأحق بكل ماقدحازه من رفعة ورياسة وتفضل

تلقاه صدراً كلما قَلَّبته مثل السنان بمحفل و بجحفلِ

وحضر يوما مع شاعر الأندلس فى زمانه ابن دراج القَسْطَلِّى ، فقال له القسطلى : أنشدنى أبياتك التى تقول فيها :

* على قدر ما يصفو الخليل يكدر *

فأنشده:

تخيرت من بين الأنام مهذبا ولم أدر أنى خائب حين أخبر

فمازجنى كالراح للماء ، واغتدى على كل ما جَشَّمته يتصبر

إلى أن دهانى إذ أمنت غُروره سفاها ، وأدَّانى لما ليس يذكر

وكَدَّرعيشى بعد صفو ، و إنما على قدر مايصفو الخليل يكدر

فاهتز القَسْطَلِّى وقال : والله إنك فى هذه الأبيات لشاعر ، وأنا أنشدك فيما يقابلها لبلال بن جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدهم يومَ الفراق فعلت ما لم أفعل

ولكن جعل نفسه فاعلا وعرضت نفسك لأن يقال : إنك مفعول ، فقال : ومن أين يلوح ذلك ؟ فقال القسطلى : من قولك « وأدانى لما ليس يذكر » فما يُظَن فى ذلك إلا أنه[1] أداك إلى موضع فعل بك فيه ، فاغتاظ الأموى وقال : يا أبا عمر ،

(١) فى ا » إلا أنك أداك «

ومن أين جرت العادة بأن تمزح معى فى هذا الشأن ؟ فقال له : حلم بنى مروان يحملنا على أن نخرق العادة فى الحمل على مكارمهم ، فسكن غيظه .

وكتب المروانى المذكور إلى صاحب له يستعير منه دابة يخرج عليها للفرجة والخلاعه : أنهضَ الله تعالى سيدى بأعباء المكارم ، إن هذا اليوم قد تبسم أفْقُه ، بعد ما بكى وَدْقُه ، وصقلت أصداء أوراقه ، وفتحت حدائق أحداقه[١] ، وقام نَوْره خطيبا على ساقه ، وفضضت غُدْرَانه ، وتوّجت أغصانه ، وبرزت شمسه من حجابها ، بعد ما تلفعت بسحابها ، وتنبه فى أرجاء الروض أرجُ النسيم ، وعرف فى وجهه[٢] نَضْرَة النعيم ، وقد دعا كلٌّ هذا ناظِرَ أخيك إن أن يُجيله فى هذه المحاسن ، ويجدد نظره فى المنظر الذى هو غير مبتذل والماء الذى هو غير آسن[٣] ، والفحص اليوم أحسن ما ملح ، وأبدع ما حرن فيه وجمح ، فُجدْلى بإعارة ما أنهض عليه لمشاهدته ويرفع عنى خجل الابتذال ، بمناكبِ الأنذال ، لا زلت نَهَّاضا بالآمال ، مُسْعِفا بمراد كل خليل غير مقصر ولا آل[٤] .

بين الأمير هشام بن عبد الرحمن وأخيه

وكتب الأمير هشام بن عبد الرحمن إلى أخيه عبد الله المعروف بالبَلَنسى حين فرَّ كتابا يقول فى بعض فصوله : والعجب من فرارك دون أن ترى شيئاً .

فخاطبه بجواب يقول فيه : ولا تتعجب من فرارى دون أن أرى شيئاً ؛ لأننى خفت أن أرى مالا أقدر على الفرار بعده ، ولكن تعجب منى أن حصلت فى يدك بعد ما أفلت منك .

وقال له وزيره أحمد بن شعيب البَلَنْسى : أليس من العار أن يبلغ بك الخَوَر من هذا الصبى أن تجعل بينك وبينه البحر ، وتترك بلاد ملكك وملك

(١) فى ا « وفتحت أحداق حد ئقه » ولا يتم عليه السجع

(٢) فى ا « وعرف فى وجوهه »

(٣) ماء آسن : متغير ، من ركوده أومما خالطه

(٤) آل : اسم فاعل من « ألا فلان يألو » مثل دعا يدعو - ومعناه قصر

أبيك ؟ فقال : ما أعرف ماتقول ، وكل ما وُقى به إتلاف النفس ليس بعار ، بل هو محض العقل ، وأوّل ما ينظر الأديب فى حفظ رأسه ، فإذا نظر فى ذلك نظر فيما بعده .

وقال عبد الله بن عبد العزيز الأموى ويعرف بالحجر :

اجعل لنا منك حظا أيها القمرُ فإنما حظنا من وجهك النظر
رآك ناس فقالوا إن ذا قمر فقلت كفوا فعندى منهما الخبر
البدرُ ليس بغير النصف بهجته حتى الصباح وهذا كله قمر

وقال أبو عبد الله محمد بن محمد بن الناصر يرثى أبا مروان بن سراج :

وكم من حديث للنبى أبانه وألبسه من حسن منطقه وَشْياَ
وكم مصعب للنحو قد راض صعبه فعاد ذَلُولاً بعد ما كان قد أعيا

بين سعيد بن أضحى وبعض الشعراء

وحكى أنه دخل بعض شعراء الأندلس على الفقيه سعيد بن أضحى ، وكان من أعيان غَرْنَاطة ، فمدحه بقصيدة ، ثم بموشَّحة ، ثم بزجل ، فلم يعطه شيئاً ، بل شكا إليه فقرا ، حتى إنه بكى ، فأخذ الدواة والقرطاس وكتب ووضع بين يديه :

شكا مثال الذى أشكوه من عدم وساءه مثل ما قد ساءنى فبكى
إن المقلّ الذى أعطاك دمعته نعم الجواد فتى أعطاك ما ملكا

لابن خفاجة

وقال ابن خفاجة :

نهر كما سال اللّمَى سَلْسَال وَصَباً بَليلٌ ذيلُها مكسال[1]
ومَهَبُّ نفحة روضة مطلولة فيها لأفراس النسيم مَجَالُ
غازلته والأقحوانة مَبْسِم والآسُ صُدْغٌ والبنفسج خَالُ[2]

---

(١) الصبا ــ بفتح الصاد ــ الريح التى تهب من ناحية الشمال ، وبليل ــ بفتح الباء ، بزنة رطيب ــ وصف من البلل ، يريد أنها ريح ندية رطبة لأن ذلك أشد إنعاشا للبدن

(٢) شبه ثغره بالأقحوان ، وصدغه ــ وهو الشعر المتدلى على الصدغ ــ بالآس ، والخال ــ وهو النكتة السوداء تكون فى خده ــ بالبنفسج .

وقال :

وساقٍ كحيل الطَّرْف فى شأوحسنه جماحٌ ، وبالصبر الجميـل حِرَانُ(١)
تَرَى للصِّبا ناراً بخدّيه لم يَثُرْ لها من سَوَادَىْ عارضيه دُخَانُ
سقاها وقد لاح الهـلالُ عشيةً كما اعوجَّ فى درع الـكمى سِنَانُ
عقاراً نماها الـكَرْمُ فهى كريمة ولم تزن بابن المزن فهى حَصَانُ
وقد حان من جَوْنِ الغمامة أدهم له البرق سَوْطٌ والعنان عنان
وضمّ درع الشمس نحر حديقة عليك وفى الطّلِّ السقيط جُمَانُ
ونمَّتْ بأسرار الرياض خَميلَةٌ لهـا النَّوْرُ ثغر والنسيم لسان

وقال فى وصف فرس أصفر ، ولم يخرج عن طريقته :

وأشقر تضرم منه الوغى بشعْلة من شعَل الباس
من جُلَّنارٍ ناضر لونه وأذنه من ورق الآس
يطلع للغرة فى شقـرة حَبَابة تضحك فى الـكاس

وقال أبو بكر محمد بن سهل البكى يهجو(٢) : لأبي بكر محمد ابن سهل

أعِدِ الوضوء إذا نطقت به مستعجلامن قبل أن تَنْسَى
واحفظ ثيابك إن مررت به فالظل منه يُنَجِّسُ الشَّمْسَا

وقال ابن اللَّبَّانة :

أبصرته قَصَّر فى المِشْيَه لما بدت فى خده لحيه لابن اللبانة
قد كَتَبَ الشَّعْرُ على خدّه (أو كالذى مر على قريه)

وقال الوزير الـكاتب أبومحمد(٣) عبد الغفور الإشبيلى فى الأمير [الـكبير] أبى بكر سير

---

(١) فى ا « وساق كحيل اللحظ » (٢) فى ا « اليكى » وانظر ص ٢٩٩ من هذا الجزء
(٣) كذا فى ب ، وفى ا « أبو محمد بن عبد الغفور »

من أمراء المرابطين ، وكتب بها إليه فى غزاة غزاها :

سر حيث سرت يَحُلُّه النوّار وأراك فيه مرادك المقدار[1]
وإذا ارتحلت فشيعتْكَ سلامةٌ وغمامة لا دِيمة مِدْرارُ
تنفى الهجير بظلها وتنيم بالـ ـرش القتام وكيف شئت تُدَارُ
وقضى الإله بأن تعود مظفراً وقضت بسيفك نحرها الكفار[2]

هذا غير ما تمناه الجعفى حيث قال : حيث ارتحلت وديمة ، وما تكاد تنفذ معها عزيمة ، وإذا سَفَحَتْ على ذى سفر ، فما أحراها بأن تعوق عن الظفر ، ونعتها بمدرار ، فكان ذلك أبلغ فى الإضرار ، وما أحسن قول القائل :

فَسِرْ ذا راية خَفَقَتْ بنصر وعُدْ فى جَحْفَل بَهِجِ الجمال
إلى حِمْصٍ فأنت بها حلى تغاير فيه ربات الحجال[3]

بين الحجارى والقاضى اللوشى

وقال الحجارى فى « المسهب » : كتبت إلى القاضى أبى عبد الله محمد اللوشى أستدعى منه شعره لأكتبه فى كتابى ، فتوقّفَ عن ذلك وانقبض عنى ، فكتبت إليه :

يا مانعا شعره عن سَمْع ذى أدب نائى المحلِّ بعيد الشخص مغترب
يسير عنك به فى كل متَّجه كما يمر نسيمُ الريح بالعذب
إنى وحقِّك أهلٌ أن أفوز به وأسأل فديتك عن ذاتى وعن أدبى

فكان جوابه :

ياطالبا شعر مَنْ لم يَسْمُ فى الأدب ماذا تريد بنظم غير مُنْتَخَبِ
إنى وحقك لم أبخلْ به صَلَفاً ومن يضن على جيد بمخشلب[4]
لكننى صُنْتُ هَذْرِى عن روايته فمثله قل عن سامٍ إلى الرتب[5]

---

(١) فى ا « سرحل حيث تحله النوار * وأراد فيك »
(٢) فى ا « وقضت بسيفك نحبها الكفار » (٣) تغاير : تغالبها فى الغيرة
(٤) فى ب « بمختلب » محرفا (٥) فى ا « لكننى صنت قدرى عن روايته »

خذه إليك كما أكرهت مضطربا محللا ذَمَّ مولاه مَدَى الحقب

قال : ثم كتب لى مما أتحفنى به من نظمه محاسن أبهى من الأقمار ، وأرقَّ من نسيم الأسحار .

وقال صالح بن شريف فى البحر وهو [من][1] أحسن ما قيل فيه :

البحر أعظم مما أنت تحسبه من لم ير البحر يوما مارأى العجبا

طامٍ له حَبَبٌ طافٍ على زرق مثل السماء إذا ما مُلِّئت شهبا

وقال أيضاً :

ما أحسن العقل وآثاره لو لازم الإنسان إيثاره

يصون بالعقل الفتى نفسه كما يصون الحر أسراره

لا سيما إن كان فى غربة يحتاج أن يعرف مقداره

وقال ابن برطلة :

خطوب زمانى ناسبتنى غرابة لذلك يرمينى بهن مصيب

غريب أصابته خطوب غريبة (وكل غريب للغريب نسيب)[2]

وهذا من أحسن التضمين ، الذى يُزْرِى بالدر الثمين .

بين ابن بقى والتطيلى الأعمى

ودخل ابن بقى الحمام وفيه الأعمى التُّطيلى فقال له : أجز :

حَمَّامنا كزمانِ القَيْظ مُحْتَدِمٍ وفيه للبرد صر غيرُ ذِى ضَرَرِ[3]

فقال الأعمى :

ضدّان يَنْعَم جسمُ المرء بينهما كالغُصْن ينعم بين الشَّمْسِ والمطر

ولا يخفى حُسْنُ ما قال الأعمى :

---

(١) لاتوجد هذه الكلمة فى ب

(٢) هذا عجز بيت ينسب لامرىء القيس ، وصدره * أجارتنا إنا غريبان ههنا *

(٣) فى ب « وفيه للبرد برد غير ذى ضرر »

وقد ذكر فى « بدائع البدائه » البيتين معاً منسوبين إلى ابن بقى ، ولنذكر كلامه برمته لما اشتمل [عليه] من الفوائد ، ونصه : ذكر ابن بسام قال : دخل الأديبان أبو جعفر بن هريرة التُّطيلى المعروف بالأعمى وأبو بكر بن بقى الحمام ، فتعاطيا العمل فيه ، فقال الأعمى :

يا حسنَ حَمَّامنا وبهجته … مرأى من السحر كله حسن
ماء ونار حواهما كنف … كالقلب فيه السرور والحزن[١]

ثم أعجبه المعنى فقال :

ليس على لهونا مزيد … ولا لِحَمَّامِنَا ضريب
ماء وفيه لهيب نار … كالشمس فى ديمة تَصُوبُ
وأُبيضَّ من تحته رخام … كالثلج حين ابتدا يذوب[٢]

وقال ابن بقى :

* حمامنا فيه فصل القيظ – البيتين *

فقال الأعمى ، وقد نظر فيه إلى فتى صبيح :

هل استمالك جسمُ ابن الأمير وقد … سَالَتْ عليه من الحمام أنداء[٣]
كالغصن باشَرَ حرّ النار من كَثَب … فظل يَقْطُرُ من أعطافه الماء

وصف حمام

قلت : تذكرت هنا عند ذكر الحمام ماحكاه بدر الدين الحسن بن زفير الإربلى المتطبب إذ قال : رأيت ببغداد فى دار الملك شرف الدين هرون ابن الوزير الصاحب شمس الدين محمد الجوينى حماما متقن الصنعة ، حسن البناء ، كثير الأضواء ، قد احتفت به الأزهار والأشجار ، فأدخلنى إليه سائسه ، وذلك بشفاعة الصاحب بهاء الدين بن الفخر عيسى المنشىء الإربلى وكان سائس هذا

(١) فى ب « ماء ونار حماهما كنف » (٢) فى ب « وأبيض تحته رخام »
(٣) فى ا « جسم ابن الأمين »

الحمام خادما حبشيا كبير السن والقدر ، فطاف بى عليه ، وأبصرت مياهه وشبابيكه وأنابيبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية و بعضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوّت بأصوات طيبة ، ومنها أحواض رخام بديعة الصنعة والميـاه تخرج من سائر الأنابيب إلى الأحواض ومن الأحواض إلى بركة حسـنة الإتقان ، ثم منها إلى البستان ، ثم أرانى نحو عشر خلوات ، كلٌّ خلوة [منها] صنعتها أحسن من صنعة أختها ، ثم انتهى بى إلى خلوة عليها باب مُقْفَل بقفل حديد ، ففتحه ، ودخل بى إلى دهليز طويل كله مرخم[1] بالرخام الأبيض الساذج ، وفى صدر الدهليز خلوة مربعة تَسَع بالتقريب [نحو] أربعة أنفس إذا كانوا قعودا وتَسَع اثنين إذا كانوا نياما ، ورأيت من العجائب فى هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالا لا فرق بينه و بين صقال المرآة ، يرى الإنسان سائر بشرته فى أى حائط شاء منها ، ورأيت أرضها مُصَورة بفصوص حمر وصفر وخضر ومذهبة وكلها متخذة من بلور مصبوغ بعضه أصفر و بعضه أحمر ، فأما الأخضر فيقال : إنه حجارة تأتى من الروم ، وأما المذهب فزجاج ملبس بالذهب ، وتلك الصورة فى غاية الحسن والجمال ، على هيئات مختلفة فى اللون وغيره ، وهى ما بين فاعل ومفعول به ، إذا نظر المرء إليها تحركت شهوته ، وقال لى الخادم السائس : هذا صُنِع على هذه الصفة لمخدومى ، حتى إنه إذا نظر ما يفعل[2] هؤلاء بعضهم مع بعض من المُجامَعَة والتقبيل ووضع أيدى بعضهم على أعجاز بعض تتحرك شهوته سريعا ، فيبادر إلى مجامعة مَنْ يحبه .

قال الحاكى : وهذه الخلوة دون سائر الخلوات التى دخلت إليها [هى] مخصوصة بهذا الفعل ، إذا أراد الملك شرف الدين هرون الاجتماع فى الحمام بمن يهواه من

---

(١) فى ا « كله رخم » فعلا ماضياً مبنيا للمجهول

(٢) فى ا « إذا نظر إلى ما يفعله هؤلاء »

الجوارى الحسان والصور الجميلة والنساء الفائقات الحسن لم يجتمع به إلا فى هذه الخلوة ، من أجل أنه يرى كل محاسن الصور الجميلة مصوّرة فى الحائط ومجسمة بين يديه ، و يرى كل منهما صاحبه على هذه الصفة ، ورأيت فى صدر الخلوة حوض رخام مضلع وعليه أنبوب مركب فى صدره ، وأنبوب آخر برسم الماء البارد ، والأنبوب الأول برَسْم الماء الفاتر ، وعن يمنة الحوض (١) ويساره عمدان صغار منحوتة من البلور يوضع عليها مباخر الندّ والعود ، وأبصرت منها خلوة شديدة الضياء مفرحة بديعة قد أنفق عليها أموال كثيرة ، وسألت الخادم عن تلك الحيطان المشرقة المضيئة : من أى شىء صنعت ؟ فقال لى : ما أعلم .

قال الحاكى : فما رأيت فى عمرى ولا سمعت بمثل تلك الخلوة ، ولا بأحسن من ذلك الحمام ، مع أنى ما أحسن أن أصفهما كما رأيتهما ، فإنه لم تتكرر رؤيتى لهما ، ولا اتفق لى الظفر بصناعتهما ومباشرتهما ، وفى الذى ذكرت كفاية ، انتهى .

وصف دار جمال الملك البغدادى

ولما اتصل أبو القاسم على بن أفلح البغدادى الكاتب بأمير المؤمنين المسترشد بالله العباسى ، ولقبه جمال الملك ، وأعطاه أربع ديار فى درب الشاكرية اشترى دوراً أخرى إلى جانبها ، وهدم الكل ، وأنشأ داره الكبيرة ، وأعانه الخليفة فى فى بنائها ، وأطلق له أموالا وآلات البناء ، وكان فى جملة ما أطلق له مائتا ألف آجرة وأجريت الدار بالذهب ، وصنع فيها الحمام العجيب الذى فيه بيت مستراح فيه أنبوب إن فركه الإنسان يمينا خرج ماء حار و إن فركه شمالا خرج ماء بارد ، وكان على إيوان الدار مكتوباً (٢) :

إن عَجِبَ الراؤن من ظاهرى فباطنى لو علموا أعجب
شيدنى مَنْ كفُّه مُزْنة يهمل منها العارض الصَّيِّبُ

---

(١) فى ا « وعن يمينه الحوض ويساره عمدان — إلخ » وليس بشىء
(٢) فى نسخة « وكان على باب الدار » وفى ا « مكتوب »

ودبجت روضة أخلاقه فِيَّ رياضا نَوْرُهَا مُذْهَبُ
صدر كسا صدرى من نوره شمسا على الأيام لا تغرب

وكتب على الطرز :

ومن المروءة للفتى ما عاش دار فاخره
فاقنع من الدنيا بها واعمل لدار الآخره
هاتيك وافية بما وعدت، وهذى ساخره

وكتب على النادى :

وناد كأن جنان الخلود أعارته من حسنها رونقا
وأعطته من حادثات الزما ن أن لا تُلِمَّ به موثقَا
فأضحى يتيه على كل ما بنى مغربا كان أو مشرقا
تظل الوفود به عُكَّفاً وتُمْسِى الضُّيُوفُ بِهِ طُرَّقَا
بقيت له يا جمال الملو ك والفضل مهما أردت البقا
وسالمه فيك رَيْبُ الزمان ووقيت فيه الذى يُتَّقَى

بعض ما قيل فى الحمام

وعلى ذكر الحمام فما أحكم قول ابن الوردى فيما أظن :

وما أشبه الحمام بالموت لامرىء تذكر ! لكن أين مَنْ يتذكر
يُجَرَّدُ عن أهل ومال وملبس ويصحبه من كل ذلك مئزر

وقال الشهاب بن فضل الله :

وحمامكم كعبة للوفود تحج إليه حفاة عراه
يكرر صوت أنابيبه كتاب الطهارة باب المياه

وقد تمثل بهذين البيتين البرهان القيراطى فى جواب كتاب استدعاه فيه بعض أهل

عصره إلى الحمام ، وافتتح الجواب بقوله :

قد أجبنا وأنت أيضاً فصبحـــت بصُبْحَىْ سوالف وسلاف
و بساق يَسْبى العقول بساقٍ وقَوَام وفق العناق خـــلافى

ووصله بنثر تمثل فيه بالبيتين كما مر.

ولبعضهم :

إن حمامنا الذى نحن فيـه أى ماء به وأية نار
قد نزلنا به على ابن مَعِينٍ وروينا عنه صحيح البخارى

وألغز بعضهم فى الحمام بقوله :

ومنزل أقوام إذا ما تقابلوا تشابه فيه وغْـده ورئيسه
ينفِّس كربى إذ ينفس كربه ويعظم أنسى إذ يقل أنيسه
إذا ما أعرت الجوّ طَرْفاً تكاثرت عَلَى مَنْ به أقماره وشموسه

عود إلى ملح أهل الأندلس

رجع إلى ما كنا فيه من كلام أهل الأندلس ، فنقول :

وكان محمد بن خلف بن موسى البيرى متكلما متحققا برأى الأشـعرية ، وذا كرا لـكتب الأصول فى الاعتقاد[1] ، مشاركا فى الأدب ، مقدما فى الطب ، ومن نظمه يمدح إمام الحرمين رحمه الله تعالى :

حُبُّ حَبْرٍ يكنى أبا للمعالى هو دينى ففيه لا تعذلونى
أنا والله مغـرم بهواه عللونى بذكره عللونى

وكتب أبو الوليد بن الجنان الشاطبى يستدعى بعض إخوانه إلى مجلس أنس بما صورته : نحن فى مجلس أغْصَانُه النَّدَامى ، وغمامه الصهباء ، فبالله إلا ما كنت لروض مجلسنا نسيما ، ولزهر حديثنا شميما ، وللجسم روحا ، وللطيب ريحا ، و بيننا عذراء[2]

---

(١) كذا فى ب ، وفى ا « وذا كرا لـكتب الأصول والاعتقادات »
(٢) أراد بالعذراء الخمر ، ومن أسماء الخمر البكر

زُجَاجتها خدرها ، وحبابها ثغرها ، بل شقيقة حوتها كمامة ، أو شمس حجبتها غمامة ، إذا طاف بها معصم الساقى فوردة على غصنها ، أو شربها مقهقهةً فحمامة على على فنَنها ، طافت علينا طَوَفَانَ القمر على منازل الحلول ، فأنت وحياتك إكليلنا وقد آن حلولها فى الإكليل ، انتهى .

وقال أبو الوليد المذكور :

فوق خد الورد دمع   من عيون السُّحْبِ يذرف
برداء الشمس أضْحَى   بعدما سال يجفف

وتذكرت هنا بذكر الورد ماحكاه الشيخ أبو البركات هبة الله بن محمد النصيبى المعروف بالوكيل ، وكان شيخا ظريفاً فيه آداب كثيرة ، إذ قال : كنت فى زمن الربيع والوردِ فى دارى بنصيبين ، وقد أحضر من بستانى من الورد والياسمين شىء كثير ، وعملت على سبيل الولع دائرة من الورد تقابلها دائرة من الياسمين ، فاتفق أن دخل على شاعران كانا بنصيبين أحدهما يعرف بالمهذب والآخر يعرف بالحسن ابن البَرْقَعِيدى ، فقلت لهما : اعملا فى هاتين الدائرتين ، ففكرا ساعة ثم قال المهذب :

ياحسنها دائرة   من ياسمين مشرق
والورد قد قابلها   فى حُلة من شَفَقِ
كعاشق وحِبِّهِ   تغامزا بالحدق
فاحمر ذا من خجل   واصفر ذا من فَرَقِ(١)

قال : فقلت للحسن : هات ، فقال : سبقنى المهذب إلى ما لحته فى هذا المعنى ، وهو قولى :

ياحسنها دائرة   من ياسمين كالحلى

(١) الفرق ـ بفتح الفاء والراء جميعا ـ الخوف

والورد قد قابلها في حلة من خجل
كعاشق وحبه تغامزا بالمقل
فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من وَجَلِ

قال : فعجبت من اتفاقهما فى سرعة الاتحاد ، والمبادرة إلى حكاية الحال ، انتهى

وما ألطف قول بعضهم :

أرى الورد عند الصبح قد مد لى فماً يشير إلى التقبيل فى حالة اللمس (١)
و بعد زوال الشمس ألقاه وجنة وقد أثرت فى وسطها قبلة الشمس

وقال ابن ظافر فى « بدائع البدائه » : اجتمع الوزير أبو بكر بن القَبْطُرْنة والأديب أبو العباس بن صارة الأندلسيان فى يوم جلا ذهب برقه ، وأذاب ورق ودقه ، والأرض قد ضحكت لتعبيس السماء ، واهتزت ورَبَتْ عند نزول الماء ، فقال ابن القبطرنة :

هذى البسيطة كاعب أبرادُهَا حُلَلُ الربيع وحَلْيُهَا النوّار

فقال ابن صارة :

وكأن هذا الجوّ فيها عاشق قد شفه التعذيب والإضرار

ثم قال ابن صارة أيضا :

و إذا شكا فالبرق قلب خافق و إذا بكى فدموعه الأمطار

فقال ابن القبطرنة :

من أجل ذِلَّةِ ذا وعزة هذه يبكى الغمام وتضحك الأزهار

وتذكرت هنا ماحكاه ابن ظافر فى الكتاب المذكور أنه اجتمع مع القاضى الأعز يوما فقال له ابن ظافر : أجز :

---

(١) فى ا « فى ساعة اللمس »

* طار نسيمُ الروض من وكر الزَّهَرْ *

فقال الأعز : * وجاء مبلول الجناح بالمطر * انتهى

ويعجبنى قول ابن قرناص :

أظنّ نسيم الروض والزهر قد روَى حديثاً ففاحت من شَذَاه المسالك
وقال دنا فصلُ الربيع فكله ثغور لما قال النسيم ضواحك

لابن الزقاق

رجع إلى الأندلسيين ـ وماأرق قول ابن الزقاق :

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الرياح
زرتها والغمام يجلد منها زهرات تفوق لون الراح
قلت ما ذنبها فقال مجيبا سرقت حمرة الخدود الملاح

لابن خفاجة

وقال أبو إسحاق بن خفاجة :

تعلقته نشوان من خمر ريقه له رَشْفُهَا دونى ولى دونه السكر
ترقرق ماء مقلتاى ووجهه ويذكى على قلبى ووَجْنَته الجمر
أرق نسيبى فيه رقة حسنه فلم أدر أى قبلها منهما السحر(١)
وطبنا معاً شعراً وثغراً كأنما له منطق ثغر ولى ثغره شعر

لأبى الصلت

وقال أبو الصَّلت أمية بن عبد العزيز :

وقائلة : ما بال مثلك خاملا أأنت ضعيف الرأى أم أنت عاجز؟
فقلت لها : ذنبى إلى القوم أننى لما لم يحوزوه من المجد حائز
ومافاتنى شىء سوى الحظ وحده وأما المعالى فهى عندى غرائز(٢)

وقال :

جدّ بقلبى وعبث ثم مضى وما اكترث

---

(١) فى ا « أرق نسيبى فيه رقة نفسه »
(٢) فى ا « وأما المعالى فهى عندى عزائز »

وَاحَرَبَا من شادنٍ ... فى عُقَدِ الصبر نَفَثْ
يَقْتُلُ من شاء بعيـــنيه ومن شاء بعث

ليحيي بن هذيل

وقال الفاضل البليغ[1] يحيى بن هذيل أحد أعيان شعراء الأندلس :

نام طفل النبت فى حجر النُّعَامَى ... لاهتزاز الطَّلِّ فى مهد الخزامى[2]
وسقى الوَسْمِىُّ أغصان النقا ... فهوت تلـــثم أفواه الندامى
كحل الفجر لهم جَفْنَ الدجى ... وغدا فى وجنة الصبح لثاما
تحسب البـــدر مُحَيًّا ثَمِلٍ ... قد سـقته راحَةُ الصبح مُدَامَا
حوله الزهر كؤس قد غدت ... مسكة الليل عليهن ختاما

لمهيار الديلمى

وتذكرت هنا قول الآخر ، وأظنه مشرقيا[3] :

بكر العارضُ تحدوه النعامى ... فسقاكِ الرىَّ يا دار أُمَامَا
وتمشت فيك أرواح الصـبا ... يتأرَّجْنَ بأنفاس الخُـزَامَى
قدقضى حفظ الهوى أن تصبحى ... للمحبين مُنَاخًا ومُقَامَا
وبجرعاء الحمى قلبى ، فعج ... بالحمى واقرأ على قلبى السلاما
وترحَّلْ فتحـــدث عجبا ... أن قلبا سار عن جسم أقاما
قل لجيران الغضى آهًا على ... طيب عيش بالغضى لو كان داما
حَمِّلُوا ريح الصبا من نَشْرِكم ... قبل أن تحمل شِيحًا وثُمَامَا[4]
وابعثوا أشباحكم لى فى الـكرى ... إن أذنتم لجفونى أن تناما

وخرج بعض علماء[5] الأندلس من قُرْطُبَة إلى طُلَيْطُلَة ، فاجتاز بجرير[6] بن عكاشة الشجاع المشهور الذى ذكرنا فى هذا الباب مايدل على شجاعته وقوته وأيْدِهِ ، بقلعة رباح ، فنزل بخارجها فى بعض جنباتها ، وكتب إليه :

---

(١) فى ا « وقال البليغ الفاضل » (٢) فى ا « لاحتراز الطل فى مهد الخزامى »
(٣) هو من كلام مهيار الديلمى (٤) فى ا « حملوا ريح الصبا نشركم »
(٥) فى ا « بعض أدباء الأندلس » (٦) فى ا « بحريز بن عكاشة »

يا فريدا دون ثان	وهلالا فى العيـان
عدم الراح فصارت	مثل دهن البيلسان (١)

فبعث إليه بها ، وكتب معها :

جاء من شعرك روض	جاده صَوْبُ اللسان
فبعثناها سُـلافًا	كسجاياك الحسـان

لأبى عامر ابن شهيد

وقال الوزير أبو عامر بن شُهَيْد يتغزل :

أصباح شِيمَ أم برقٌ بَدَا	أم سنى المحبوب أو رى أزنُدَا (٢)
هَبَّ من مرقده منـكسرا	مسـبلا للـكم مرخٍ للرِّدَا
يمسح النعسة من عينى رَشاً	صائد فى كل يوم أسدا
أوردته لطفـــا آياته	صفوة العيش وأرعته ددا (٣)
فهو من دل عراه زبدة	من مريج لم تخالط زبدا (٤)
قلت هب لى ياحبيبى قبلة	تشف من عمك تبريح الصَّدَى
فانثنى يهتز من منـكبه	مائلا لطفا وأعطانى اليدا
كلما كلمـــــــنى قبلته	فهو إما قال قولا رُدِّدَا
كاد أن يرجع من لثمى له	وارتشاف الثغر منه أزْرَدَا (٥)
و إذا استنجزت يوما وعده	أمطل الوعد وقال اصْبِرْ غدا
شربت أعطافه ماء الصبا	وسقاه الحسن حتى عَرْبَدَا
فإذا بتُّ به فى روضـة	أغيد يغـذو نبَاتاً أغيدا (٦)
قام فى الليل بجيد أتْلَعٍ	ينفض اللمة من دمع الندى
ومكان عازبٍ عن جِيرة	أصدقاء وَهُمُ عين العِـدَا

(١) فى ا « مثل دهن البلسان » (٢) فى ا « وسنى المحبوب أورى زندا »
(٣) الدد : اللعب واللهو ، ووقع فى ب « صفوة للعيش أرعته ددا »
(٤) في ا « من صريح لم يخالط زبدا » (٥) كذا فى ب ، وفى ا « إذا ردا » وأحسبهما محرفين عن « أدردا » (٦) فى ب « أغيد يغزو بنانا أغيدا »

ذى نبات طيب أعراقه كعذار الشَّعْرِ فى خَدٍّ بدا
تحسب الهضبة منه جبلا وحُدُورَ الماء منه أبردا

لابن شهيد يرثى القاضى ابن ذكوان

وقال يرثى القاضى ابن ذكوان ، نجيب ذلك الأوان ، وقد افتنّ فى الآداب ، وسنّ فيها سنة ابن داب ، ومافارق ربيع الشباب شرخه ، ولا استَمْجَدَ فى الكهولة عَفاره ولا مَرْخه(١) ، وكان لأبى عامر هذا قسيمَ نفسِه ، ونسيمَ أنسِهِ :

ظننا الذى نادى محقا بموته لعظم الذى أنحى من الرزء كاذبا
وخلنا الصباح الطَّلْقَ ليلا وأننا هبطنا خداريا من الحزن كاربا
ثكلنا الدنا لمَّا استقل وإنما فقدناك يا خير البرية ناعبا(٢)
وما ذهبت إذ حل فى القبر نفسُه ولكنما الإسلام أدبر ذاهبا(٣)
ولما أبى إلا التحمل رائحاً منحناه أعناق الكرام ركائبا
يسير به النعش الأعز وحوله أباعد كانوا للمصاب أقاربا
عليه حفيف للملائك أقبلت تصافح شيخا ذاكر الله تائبا
تخال لفيف الناس حول ضريحه خليطا تخطَّى فى الشريعة هاربا(٤)
إذا ماامتروا سُحْبَ الدموع تفرعت فروع البكا عن بارق الحزن لاهبا
فمن ذا لفصل القول يسطع نوره إذا نحن ناوينا الألدَّ المناوبا(٥)
ومن ذا ربيع المسلمين يقوتهم إذا الناس شاموها بروقا كواذبا
فيا لَهْفَ قلبى آه ذابت حشاشتى مضى شيخنا الدفّاعُ عنا النوائبا
ومات الذى غاب السرور لموته فليس وإن طال السرى منه آيبا
وكان عظيما يُطْرِقُ الجمعُ عنده ويعنو له ربُّ الكتيبة هائبا
وذا مِقْول عَضْب الغِرَارين صارم يروح به عن حومة الدين ضاربا

(١) المرخ والعفار : شجران سريعا الورى ، وفى أمثالهم « فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار »
(٢) فى ا « ثكلت الدجى لما استقل » (٣) فى ا « وماذهبت إن حصل المرء نفسه »
(٤) فى ا « خليط قطاوافى الشريعة هاربا » (٥) فى ا « إذا نحن ناولنا الألد »

أبا حاتم صبر الأديبِ فإننى رأيت جميل الصبر أحلى عواقبا[١]
وما زلت فينا ترهب الدهر سطوة وصعبا به نُعْيِي الخطوبَ المصاعبا
سأستعتب الأيام فيك لعلها لصحة ذاك الجسم تطلب طالبا
لئن أفَلَتْ شمسُ المكارم عنكم لقد أسارت بدرًا لها وكواكبا

قال فى « المطمح » : ودبت إلى أبى عامر بن شُهَيد أيامَ العلويين عقارب ، برئت بها منه أباعد وأقارب ، واجهه بها صَرْفُ قطوب ، وانبرت إليه منها[٢] خطوب ، نَبَا لَهَا جَنْبُهُ[٣] عن المضجع ، و بقى بها ليالى يأرق ولا يهجع ، إلى أن أعلقت فى الاعتقال آماله[٤] ، وعقلته فى عقال أذهب ماله ، فأقام مرتهنا ، ولقى وَهَنا ، وقال :

لابن شهيد يشكو دهره

قريبٌ بمحتلِّ الهوان مجيد يجود ويشكو حزنه فيجيد
نعى صبره عند الإمام فياله عدوٌّ لأبناء الكرام حسود
وماضره إلا مزاح ورقة ثنته سفيهَ الذكر وهو رشيد
جنى ما جنى فى قُبَّة الملك غيره وطُوِّق منه بالعظيمة جِيدُ
وما فىَ إلا الشعر أثبتَهُ الهوى فسار به فى العالمين مريد[٥]
أفوه بما لم آته متعرضا لحسن المعانى تارة فأزيد
فإن طال ذكرى بالمجون فإنها عظائم لم يصبر لهن جليد[٦]
وهل كنت فى العشاق أول عاقل هوت بحجاه أعين وخدود
فراق وشجو واشتياق وذلة وجبار حفاظ على عتيد
فمن يبلغ الفتيان أنى بعدهم مقيم بدار الظالمين وحيد
مقيم بدارٍ ساكنوها من الأذى قيام على جمر الحمام قعود
ويسمع للحيات فى جنباتها بسيط كترجيع الصَّدَى ونشيد[٧]

(١) فى ب « أبا حاتم صبر الأديم » (٢) فى ا « وانبرت إليه منه خطوب »
(٣) فى ب « نبالها جفنه » وهو مثل خر عليهم السقف من تحتهم
(٤) فى ا « إلى أن علقته من الاعتقال حباله ، وعلقته فى عقال أذهل باله »
(٥) فى ا « فريد » (٦) فى ا ونسخة عند ب « فإننى * شقى بمنظوم الكلام سعيد » وفيهما إعادة البيت مرة أخرى كما هنا عن ب (٧) فى ا « ويسمع للجنان »

ولست بذى قيد يرن ، وإنما على اللحظ من سخط الإمام قيود
وقلت لصدّاح الحمام وقد بكى على القصر إلفا والدموع تجود
ألا أيها الباكى على مَنْ تحبه كلانا مُعَنًّى بالخلاء فريد
وهل أنت دانٍ من محب نأى به عن الإلف ساطان عليه شديد
فصفق من ريش الجناحين واقعا على القرب حتى ما عليه مزيد(١)
وما زال يبكينى وأبكيه جاهدا وللشوق من دون الضلوع وَقُودُ
إلى أن بكى الجُدْرَانُ من طول شجونا وأجهش باب جانباه حديد(٢)
أطاعت أمير المؤمنين كتائب تصرف فى الأموال كيف تريد
فللشمس عنها بالنهار تأخر وللبدر شحنا بالظلام صدود
إلا أنها الأيام تلعب بالفتى نحوس تهادى تارة وسعود
وما كنت ذا أيدٍ فأذعن ذا قوى من الدهر مبد صرفه ومعيد
وراضت صعابى سطوة علوية لها بارق نحو الندى ورعود
تقول التى من بيتها كف مركبى أقربك دانٍ أم مَدَاكَ بعيد(٣)
فقلت لها أمرى إلى مَنْ سمت به إلى المجد آباء له وجدود

مرض ابن شهيد وآخر شعر قاله

ثم قال : ولزمَتْه آخرَ عمره علة دامت به سنين ، ولم تفارقه حتى تركته يد جنين(٤) ، وأحسب أن الله أراد بها تمحيصه ، وإطلاقه من ذنب كان قَنِيصَهُ ، فطهره تطهيرا ، وجعل ذلك على العفو له ظهيرا ، فإنها أقعدته حتى حمل فى المِحَفّة ، وعاودته(٥) حتى غدت لرونقه مُشْتَفَّة ، وعلى ذلك فلم يعطل لسانه ، ولم يبطل إحسانه ، ولم يزل يستريح إلى القول ، ويزيح ما كان يجده من الغول ، وآخر شعر قاله قوله :

ولما رأيت العيش لوّى برأسه وأيقنت أن الموت لاشك لاحق

---

(١) فى ا « فصفق من ريش الجناحين واقفا » (٢) فى ب « إلى أن بكى الجذلان »
(٣) صدر البيت هكذا فى ا ، ب ، وأحسبه « خف مركبى » ووقع فى ا فى عجزه « أم نواك مديد » (٤) فى ا « تركته قد جنين » (٥) فى ا « وعادته »

تمنيت أنى ساكن فى عباءة ... بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
أرُد سقيطَ الطل فى فضل عيشتى ... وحيدا وأحسو الماء ثنى المعالق
خليلىَّ مَنْ ذاق المنية مرة ... فقد ذُقْتها خمسين قولة صادق (١)
كأنى وقد حان ارتحالى لم أفز ... قديما من الدنيا بلَمْحة بارق
فمن مبلغ عنى ابن حزم وكان لى ... يدًا فى مُلِماتى وعند مضايقى
عليك سلام الله إنى مفارق ... وحَسْبُكَ زادا من حبيب مفارق
فلا تنس تأبينى إذا ما ذكرتنى ... وتذكار أيامى وفضل خلائقى
وحرك له بالله من أهل فَنِّنَا ... إذا غيبونى كلَّ شهم غُرانِقِ (٣)
عسى هامتى فى القبر تسمع بعضه ... بترجيع شاد أو بتطريب طارق
فلى فى ادِّكارى بعد موتىَ راحة ... فلا تمنعوها لى عُلالَة زاهق
وإنى لأرجو الله فيما تقدمت ... ذنوبى به مما درى من حقائق (٤)

وكان أبو مروان عبد الملك بن غصن (٥) مستوليا على وزارة ابن عبيدة (٦) ولسانه ينشد : — بين ابن غصن وابن ذى النون وابن هود

وشيدت مجدى بين أهلى ولم أقل ... ألا ليت قومى يعلمون صنيعى

وهجا ابن ذى النون بقوله :

تلقبت بالمأمون ظلما ، وإننى ... لآمن كلبا حيث لست مُؤَمِّنَهْ
حرام عليه أن يجود ببشره ... وأما النَّدَى فانْدُبْ هنالك مَدْفنه
سطور المخازى دون أبواب قصره ... بحُجَّابه للقاصدين مُعَنْوَنَهْ

فلما تمكن منه المأمون سجنه ، فكتب إلى ابن هُودٍ من أبيات :

أيا راكب الوَجْناء بلغ تحية ... أميرَ جُذام من أسير مقيد

---

(١) فى ب « خليلى من رام المنية ... فقد رمتها »
(٢) فى ا « فلا تنس تأبينى إذا ما فقدتنى »
(٣) فى ب « وحرك له بالله مهما ذكرتنى ... كل سهم » (٤) فى ا « فيما درى من حقائق »
(٥) فى ب « عبد الملك بن حصن » (٦) فى ب « ابن عبدة »

ولمـا دهتنى الحادثات ولم أجـد لها وَزَرًا أقبلْتُ نحوك أعتـدى (١)

ومثلك من يُعْدِى على كل حادثٍ رمى بسهـام للردى لم ترصـد

فعلك أن تخـلو بفكرك ساعة لتنقذنى من طول همّ مجـدد

وها أنا فى بطن الثرى وهو حامل فيسِّرْ على رُقْبَى الشفاعة مولدى

حنانيك ألفـا بعـد ألف فإننى جعلتك بعد الله أعظم مقصدى

وأنت الذى يدرى إذا رام حاجة تضل بها الآراء من حيث يهتدى

فرق له ابن هود ، وتحيل حتى خلصه بشفاعته ، فلما قدم عليه أنشده :

حياتى موهـوبة من علاكا وكيف أُرَى عادلا عن ذَرَاكا (٢)

ولو لم يكن لك من نعمـــة علىَّ وأصبحت أبغى سـواكا

لناديت فى الأرض هل مُسْعِف مجيبٌ فلم يُصْغ إلا نَدَاكا

فطرب ابن هود ، وخلع عليه ثوبَ وزارته ، وجعله من أعلام سلطنته و إمارته

بين أبى عامر والرمادى

وقال المنصور بن أبى عامر للشاعر المشهور أبى عمر يوسف الرمادى : كيف ترى حالك معى ؟ فقال : فوق قدرى ودون قدرك ! فأطرق المنصور كالغضبان ، فانسلَّ الرمادى وخرج وقد ندم على ما بدر منـه ، وجعل يقول : أخطأت ، لا والله ما يفلح مع الملوك مَنْ يعاملهم بالحق ، ما كان ضرنى لو قلت له : إنى بلغت السماء ، وتمنطقت بالجوزاء ، وأنشد :

مَتَى يأت هذا الموتُ لا يلف حاجة لنفسِىَ إلا قد قَضَيْتُ قضاءَها

لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولمـا خرج كان فى المجلس من يَحْسُده على مكانه من المنصور ، فوجد فرصة فقال : وصل الله لمولانا الظفر والسعد ! إن هذا الصنف صنف زور وهذيان لا يشكرون نعمة ، ولا يَرْعَوْن إلاًّ ولا ذمة ، كلابُ مَنْ غَلَب ، وأصحاب من أخْصَب ، وأعداء من أجدب ، وحسبك منهم أن الله

(١) فى ا « أغتدى » محرفا ، وأعتدى : يريد به أطلب النصرة

(٢) عادلا : اسم الفاعل من « عدل عن كذا » إذا مال عنه ، ووقع فى ا « عاذلا » محرفا

جل جلاله يقول فيهم (والشعراء يتبعهم الغاوون ـ إلى ما لا يفعلون) والابتعاد منهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقوم الصدقُ يستحسن إلا منهم ؟ فرفع المنصور رأسه ، وكان مُحبا[1] فى أهل الأدب والشعر ، وقد اسودَّ وجهه ، وظهر فيه الغضب المفرط ، ثم قال : ما بال أقوام يشيرون فى شىء لم يُسْتَشَاروا فيه ، ويسيئون الأدب بالحكم فيما لا يدرون ، أيرضى أم يسخط ؟ وأنت أيها المنبعث للشر دون أن يُبْعث ، قد علمنا غرضك فى أهل الأدب والشعر عامة، وحسدك لهم ، لأن الناس كما قال القائل :

من رأى الناس له فضـــلا عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك فى هذا الرجل خاصة ، ولسنا إن شاء الله تعالى نُبَلِّغ أحدا غرضه فى أحد ، ولو بَلَّغنا كم بلغنا فى جانبكم ، وإنك ضربت فى حديد بارد ، وأخطأت وجه الصواب ، فزدت بذلك احتقارا وصَغَارا ، وأنى ما أطرقت من كلام الرمادى[2] إنكارا عليه ، بل رأيتُ كلاما يجلّ عن الأقدار الجليلة ، وتعجبت من تَهَدِّيه له بسرعة ، واستنباطه له على قلة[3] من الإحسان الغامر ما لا يستنبطه غيره بالكثير ، والله لو حكمته فى بيوت الأموال لرأيت أنها لا ترجح ما تكلم به قلبه ذرة ، وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام فى شخص قبل أن يؤخذ معه فيه ، ولا تحكموا علينا فى أوليائنا ولو أبصرتم منا التغير عليهم ، فإننا لا نتغير عليهم بغضا لهم وانحرافا عنهم ، بل تأديباً وإنكارا ، فإنا مَنْ نريد إبعاده لم نُظْهر له التغير ، بل تنبذه مرة واحدة ، فإن التغير إنما يكون لمن يراد استبقاؤه ، ولو كنتُ مائلَ السمع لكل أحد منكم فى صاحبه لتفرقتم أيدى سَبَا ، وجونبت أنا مجانبة الأجرب ، وإنى قد أطلعتكم على ما فى ضميرى فلا تعدلوا عن مرضاتى ، فتجنبوا سخطى بما جنيتموه على أنفسكم ، ثم أمر أن يُرَدَّ الرمادى وقال له : أعد على كلامك ، فارتاع ،

(١) فى ب « وكان محامى أهل الأدب » (٢) فى ا « من خطاب الرمادى »
(٣) فى ا « وعلى قلته من الإحسان »

فقال : الأمر على خلاف ما قدرت ، الثواب أولى بكلامك من العقاب ، فسكن لتأنيسه ، وأعاد ما تكلم به ، فقال المنصور : بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فم النابغة بالدر لكلام استملحه[1] منه ، وقد أمرنا لك بما لا يقصر عن ذلك ما هو أنوه وأحسن عائدة ، وكتب له بمال وخلع وموضع يتعيش[2] منه ، ثم رد رأسه إلى المتكلم فى شأن الرمادى ، وقد كاد يغوص فى الأرض لو وجد لشدة ما حل به مما رأى وسمع[3]

وقال : والعجب من قوم يقولون الابتعادُ من الشعراء أولى من الاقتراب ، نعم ذلك لمن ليس له مَفاخر يريد تخليدها ، ولا أيادٍ يرغب فى نشرها ، فأين الذين قيل فيهم:

على مُكْثِرِيهم رِزقُ من يعتريهم وعند المُقِلِّينَ السماحةُ والبَذْلُ

وأين الذى قيل فيه :

إنما الدنيا أبو دُلَف بين مَبْدَاه ومحتضره

فإذا ولّى أبو دلف وَلّتِ الدنيا على أثره

أما كان فى الجاهلية والإسلام أكرم ممن قيل فيه هذا القول ؟ بلى ، ولكن صحبة الشعراء والإحسان إليهم أحيَتْ غابر ذكرهم ، وخصتهم بمفاخر عصرهم ، وغيرهم لم تخلد الأمداح مآثرهم فَدَثَر ذكرهم ، ودرس فخرهم ، انتهى

من عدل المعتصم بن صمادح

ومن حكاياتهم فى العدل أنه لما بنى المعتصم بن صُمادح ملك الْمرية قصوره المعروفة بالصمادحية غَصَبُوا أحَد الصالحين فى جنة وألحقوها بالصمادحية ، وزعم ذلك الصالح أنها لأيتام من أقاربه ، فبينا المعتصم يوما يشرب على الساقية الداخلة إلى الصمادحية إذ وقعت عينه على أنبوب قصبة مشمع ، فأمر من يأتيه به ، فلما أزال عنه الشمع وجد فيه ورقة فيها « إذا وقفت أيها الغاصبُ على هذه الورقة فاذكر قول الله تعالى (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها

---

(١) فى ا « لكلام استحسنه منه »
(٢) فى ا « وموضع ينتعش منه »
(٣) فى ا « عما سمع ورأى » وليس بذاك

وعَزَّ فى الخطاب) لا إله إلا الله ، أنت ملك قد وسع الله تعالى عليك ، ومكن لك فى الأرض ، و يحملك الحرصُ على مايفنى أن تضم إلى جنتك الواسعة العظيمة قطعةَ أرضٍ لأيتام حرّمْتَ بها حلالها ، وخبثت طيبها ، ولئن تحجبت عنى بسلطانك ، واقتدرت على بعظم شأنك ، فنجتمع غدا بين يدى من لا يحجب عن حق ، ولا تضيع عنده شكوى » فلما استوعب قراءتها دمعت عيناه ، وأخذته خشية خيف عليه منها ، وكانت عادته رحمه الله تعالى ، وقال : على بالمشتغلين ببناء الصمادحية ، فأحْضِرُوا ، فاستفسرهم[1] عما زَعَم الرجلُ ، فلم يسعهم إلا صدقه ، واعتذروا بأن نَقْصَها من الصمادحية يَعيبها فى عين الناظر ، فاستشاط غضبا وقال : والله إن عيبها فى عين الخالق أقبحُ من عيبها فى عين المخلوق ، ثم أمر بأن تصرف إليه[2] ، واحتمل تعويرها لصمادحيته ، ولقد مر بعض أعيان المرية وأخيارها مع جماعة على هذا المكان الذى أخرجت منه جنة الأيتام فقال أحدهم : والله لقد عورت هذه القطعة هذا المنظر العجيب ، فقال له : اسكت ، فوالله إن هذه القطعة طراز هذا المنظر وفخره ، وكان المعتصم إذا نظر إليها قال : أشعرتم أن هذا المكان المعوج فى عينى أحسن من سائر ما استقام من الصمادحية ، ثم إن وزيره ابن أرقم لم يزل يلاطف الشيخ والأيتام حتى باعوها عن رضاً بما اشتهوا من الثمن ، وذلك بعد مدة طويلة ، فاستقام بها بناء الصمادحية ، وحصل للمعتصم حسن السمعة فى الناس ، والجزاء عند الله تعالى

عز الدولة ابن المعتصم ابن صمادح

ولما مات المعتصم بن صمادح ركب البحرَ ابنهُ ولى عهده الواثق عز الدولة أبو محمد عبد الله ، وفارق الملك كما أوصاه المعتصم والده وفى ذلك يقول :

لك الحمدُ بعدَ الملك أصبحْتُ خاملا ... بأرض اغتراب لا أُمِرُّ ولا أُحْلِى[3]

(١) فى ا « فاستقرهم » محرفا

(٢) فى ا « بأن تصرف عليه »

(٣) فى ا « لك الحمد بعد الملك أصبح خاملا »

وقد أصدأت فيها الجذاذة أنملى كما نَسِيَتْ رَكضَ الجياد بها رِجْلِي[١]
فلا مَسْمَعى يُصْغى لنَغْمة شاعر وكفى لا تمتــــد يوما إلى بذل

بين ابن اللبانة وعز الدولة بن المعتصم

قال ابن اللبانة الشاعر : ما علمت حقيقة جَوْر الدهر حتى اجتمعت ببجاية مع عز الدولة بن المعتصم بن صمادح فإنى رأيت منه خير من يجتمع به ، كأنه لم يخلقه الله تعالى إلا للملك والرياسة و إحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تنمُّ من تحت خموله كما ينم فِرِنْدُ السيف وكرمه من تحت الصدأ[٢] ، مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ وحسن استماعه و إسماعه ، ورقة طباعه ولطافة ذهنه ، ولقد ذكرته لأحد من صحبته من الأدباء فى ذلك المكان ووصفته بهذه الصفات ، فتشوق إلى الاجتماع به ، ورغب إلى فى أن أستأذنه فى ذلك ، فلما أعلمت عز الدولة قال : يا أبا بكر لتعلم أنا اليوم فى خمول وضيق لا يتسع لنا معهما ، ولا يجمل بنا الاجتماع مع أحد ، لاسيما مع ذى أدب ونَبَاهة يلقانا بعين الرحمة ، ويزورنا بمنة التفضل فى زيارتنا ، ونكابد من ألفاظ توجُّعه وألحاظ تفجعه ما يجدد لنا همًّا قد بلى ، ويحيى كَمَدًا قد فنى ، وما لنا قدرة على أن نجود عليه بما يرضى به عن همتنا ، فدعنا كأننا فى قبر ، نتدرع لسهام الدهر بدِرْعِ الصبر ، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاطَ اللحم بالدم ، وامتزجت امتزاج الماء بالخمر ، فكأنا لم نكشف حالنا لسوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا فلا تحمل غيرك محملك[٣] ، قال ابن اللبانة : فملأ والله سمعى بلاغة لا تصدر إلا عن سَدَاد ونفس أبية متمكنة من أعِنَّة البيان ، وانصرفت متمثلا :

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ولم يبق إلا صورة اللحم والدم
وكَائِنْ تَرَى من صامت لك معجب زيادَتُهُ أو نقصه فى التكلم

وكتب إليه ابنُ اللبانة :

---

(١) فى ا ونسخة عند ب « وقد أصدأت فيها الجذاذة منهلى »
(٢) فى ا « من تحت صداه »
(٣) فى ب « فلا محمل غيرك بحملك »

يا ذا الذى هز أمداحى بحليته ... وعَزَّهُ أن يهز المجد والكرما(١)
واديك لا زَرْعَ فيه اليوم تبذُلُه ... فَخُذْ عليه لأيام المُنَى سَلَمَا

فتحيل فى قليل بر ووجهه إليه وكتب معه(٢) :

المجد يخجل من يفديك من زمن ... ثناك عن واجب البر الذى علما
فدونَكَ النزرَ من مُصْفٍ مودتَهُ ... حَتَّى يوفيك أيام المنى السلما

من شعر عز الدولة بن المعتصم

ومن شعر عز الدولة المذكور :

أفدّى أبا عمرو وإن كان عاتبا ... فلا خير فى ود يكون بلا عتب
وما كان ذاك الود إلا كبارق ... أضاء لعينى ثم أظلم فى قلبى

وقال الشقندى فى الطرف : إن عز الدولة أشعر من أبيه ، وأما أخوه رفيع الدولة الحاجب أبو زكريا يحيى بن المعتصم فله أيضا نظم رائق ، ومنه ما كتب به إلى يحيى ابن مطروح يستدعيه لأنس :

من شعر رفيع الدولة بن المعتصم

يا أخى بل سيدى بل سندى ... فى مهمات الزمان الأنكد
لُحْ بأفق غاب عنه بدره ... فى اختفاء من عيون الحُسَّدِ
وتعجَّلْ فحبيبى حاضر ... وفمى يشتاق كأسى فى يدى

فأجابه ابنُ مطروح ، وهو من أهل باغة بقوله :

أنا عبد من أقل الأعبد ... قِبْلتى وَجْهٌ بأفق الأسْعَدِ
كلما أظمأنى ورد فما ... منهلى إلا بذاك المورد
ها أنا بالباب أبغى إذنكم ... والظما قد مد للكأس يدى

وكان قد سلط عليه إنسان مختل إذا رآه يقول : هذا ألف لا شىء عليه ، يعنى أن ملكه ذهب عنه وبقى فارغا منه ، فشكا رفيع الدولة ذلك إلى بعض أصحابه ، فقال : أنا

(١) فى ا « هز أمداحى بحيلته »
(٢) فى ب « وكتب إليه »

أ كفيك مؤنته ، واجتمع مع الأحمق ، واشترى له حلواء ، وقال له : إذا رأيت رفيع الدولة بن المعتصم فسلم عليه وقبل يده ولا تقل هذا ألف لاشىء عليه ، فقال : نعم ، واشترط الوفاء بذلك ، إلى أن لقيه فجرى نحوه وقبل يده وقال : هذا هو باء بنقطة من أسفل ، فقامت قيامة رفيع الدولة ، وكان ذلك أشد عليه ، وكان به علة الحصا فظن أن الأحمق علم ذلك وقصده ، وصار كلما أحس به فى موضع تجنبه ،

واستأذن يوما على أحد وجوه دولة المرابطين فقال أحد جلسائه (تلك أمة قد خلت) استحقارا له واستثقالا للاذن له ، فبلغ ذلك رفيع الدولة فكتب إليه :

خَلَتْ أمتى لكنَّ ذاتى لم تَخْلُ ... وفى الفرع مايغنى إذا ذهب الأصل
وما ضركم لو قلتمُ قولَ ماجد ... يكون له فيما يجىء به الفَضْلُ
وكل إناء بالذى فيه راشح ... وهل يمنح الزنبور ما مَجَّه النحل[(١)]
سأصرف وجهى عن جنابٍ تحله ... ولو لم تكن إلا إلى وجهك السُّبْلُ
فما موضع تحتله بمرفع ... ولا يرتضى فيه مقال ولا فعل
وقد كنت ذا عذل لعلك ترعوى ... ولكن بأرباب العلا يَجْمُلُ العذل

من شعر أبى جعفر بن المعتصم

وأما أخوهما أبو جعفر بن المعتصم فله ترجمة فى المُسْهب والمطرب والمغرب ، ومن شعره :

كتبت وقلبى ذو اشتياق ووحشة ... ولو أنه يسطيع مَرَّ يُسَلِّمُ
جعلت سواد العين فيه سواده ... وأبيضه طِرْسًا وأقبلت ألثم
فخيل لى أنى أقبل موضعا ... يصافحه ذاك البنان المسلم

وأما أختهم أم الكرم فذكرناها مع النساء فلتراجع .

وقال أبو العلاء بن زُهْر :

---

(١) هذا من قولهم « كل إناء بما فيه ينضح »

لابن زهر

تمت محاسن وجهه وتكاملت لمـا بدا وعليه صُدْغٌ مُونِقُ
وكذلك البـــدر المنير جماله فى أن تـكنفه سماء أزرق

لابن شرف

وقال أبو الفضل بن شرف :

يامن حكى البيدق فى شكله أصبح يحكيك وتحـكيه
أسفله أوســـع أجزائه ورأســـه أصغر ما فيه

لابن خفاجة

وقال ابن خفاجة :

يا أيها الصب المعنَّى به ها هو لا خَلٌّ ولا خمر
سُوِّدَ ماورد من خده فصار فحما ذلك الجمر

للبياسى

وقال أبو عبد الله البياسى :

صغرُ الرأس وطولُ العنقِ شاهِدًا عدلٍ بفرط الحمق

لابن حريق

ولما سمعه أبو الحسن بن حريق قال :

صغرُ الرأس وطول العنقِ خلقة منـكرة فى الخلق
فإذا أبصرتها من رجل فاقض فى الحِينِ له بالُحُمقِ

لأبى الحسن ابن الفضل

وقال أبو الحسن بن الفضل يذكر مقاما قامه سهل بن مالك وابن عياش :

لعمرى لقد سَرَّ الخلافة قائما بخطبته الغراء سهلُ بن مالك
وأما ابن عياش وقد كان مثله فضلوا جميعا بين تلك المسالك
ومات وماتوا حَسْرة وحسادة وغيظا فقلناهالك فى الهوا لك

وسهل بن مالك له ترجمة مطوّلة ، رحمه الله تعالى !

قصة فى الوفاء والقيام بحق الإخاء

ومن حكاياتهم فى الوفاء وحسن الاعتذار والقيام بحق الإخاء أن الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم كان صديقا للوزير هاشم بن عبد العزيز ، ثابتاً على مودته ، ولما قضى الله تعالى على هاشم بالأسر أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمن

الأموى ذكره فى جماعة من خُدَّامه ، والوليدُ حاضر ، فاستقصره ، ونسبه للطيش والعجلة والاستبداد برأيه ، فلم يكن فيهم مَنِ اعتذر عنه غير الوليد ، فقال : أصلح الله تعالى الأمير ! إنه لم يكن على هاشم التخير فى الأمور (١) ، ولا الخروج عن المقدور ، بل قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحه ، وقضى حق الإقدام ، ولم يكن ملاك النصر بيده ، فخذله مَنْ وثق به ، ونكل عنه من كان معه ، فلم يزحزح قدمه عن موطن حِفَاظِهِ ، حتى ملك مقبلا غير مدبر ، مُبْليا غير فَشِل ، فجوزى خيرا عن نفسه وسلطانه ، فإنه لا طريق للمَلَام عليه ، وليس عليه ماجَنَتْهُ الحرب الغَشُوم ، وأيضا فإنه ماقصد أن يجود بنفسه إلا رضا للأمير ، واجتنابا لسخطه ، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضا جالبَ التقصيرِ فذلك معدود فى سوء الحظ ، فأعجب الأمير كلامه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر فيما بعدُ عن تفنيد هاشم ، وسعى فى تخليصه ، واتصل الخبرُ بهاشم ، فكتب إليه : الصديقُ من صَدَقَكَ فى الشدة لا فى الرخاء ، والأخ من ذبَّ عنك فى الغيب لا فى المَشْهد ، والوفى من وفى لك إذا خانك زمان ، وقد أتانى من كلامك بين يدى سيدنا ــ جعل الله تعالى نعمته سرمدا ! ــ مازادنى بمودتك اغتباطا ، و بصداقتك ارتباطا ، ولذلك ما كنتُ أشدُّ يدى على وصلك ، وأخصك (٢) بإخائى ، وأنا الآن بموضع لا أقدر فيه على جزاء غير الثناء ، وأنت أقدر منى على أن تزيد مابدأت به بأن تتم ماشرعت فيه ، حتى تتكمل لك المنة ، ويستوثق عقد الصداقة ، إن شاء الله تعالى ، وكتب إليه بشعر منه :

أيا ذاكرى بالغيب فى محفل به تَصَامَتَ جمعٌ عن جواب به نصرى
أتتنىَ والبيداء بينى وبينها رُقَى كلماتٍ خلصتنى من الأسر

---

(١) فى ا « التحير فى الأمور » بالحاء المهملة ، وهو تحريف ما أثبتناه
(٢) فى ا « وأخصه بإخائى » محرفا

لئن قرب الله اللقــاء فإننى سأجزيك مالا ينقضى غابر الدهر[١]

فأجابه الوليد : خلصك الله أيها البدر من سِرَارك ! وعجل بطلوعك فى أكمل تمامك و إبدارك ! وَصَلَنى شكرك على أن قلتُ ما علمتُ ، ولم أخرج عن النصح للسلطان بماز كنته[٢] من ذلك ، واللهُ تعالى شاهد ، على أن ذلك فى مجالس غير المجالس المنقول لسيدى إن خفيت عن المخلوق فما تخفى عن الخالق ، ماأردت بها إلا الأداء بعض ما أعتقده لك ، وكم سهرتَ وأنا نائم ، وقمت فى حقى وأنا قاعد ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ثم ذكر أبياتا لم تحضرنى الآن

قصة فى علو الهمة

ومن حكاياتهم فى علوّ الهمة فى العلم والدنيا أنه دخل أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة جامعَ غرناطة ، و به نحوى حوله شباب يقرؤن ، فنظروا إليه ، وقالوا له مستهزئين به : مايحمل الفقيه ؟ ومايحسن من العلوم ؟ ومايقول ؟ فقال لهم : أحمل اثنى عشر ألف دينار ، وهاهى تحت إبطى ، وأخرج لهم اثنتى عشرة ياقوتة ، كل واحدة منها بألف دينار ، وأما الذى أحسنه فاثنا عشر علما أدونها علم العربية الذى تبحثون فيه ، وأما الذى أقول فأنتم كذا ، وجعل يسبهم ، هكذا نقلت هذه هذه الحكاية من خط الشيخ أبى حيان النحوى ، رحمه الله تعالى !

عباس بن فرناس حكيم الأندلس أول من فكر فى الطيران

ومن حكاياتهم فى الذكاء واستخراج العلوم واستنباطها أن أبا القاسم عباس، ابن فرناس حكيم الأندلس أوّل من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأوّل من فك بها كتاب العروض للخليل ، وأوّل من فك الموسيقى ، وصنع الآلة المعروفة بالمنقالة[٣] ، ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال ، واحتال فى تطيير جثمانه ، وكسا نفسه الريش ، ومدّ له جناحين ، وطار فى الجوّ مسافة بعيدة ، ولكنه لم يحسن الاحتيال فى وقوعه ، فتأذى فى مؤخره ، ولم يدر أن الطائر إنما

---

(١) فى ا « فإن قرب الله اللقاء »

(٢) فى ا « بماز كيته من ذلك »

(٣) فى ب « بالمثقال » وفى نسخة عندها « بالنقالة »

يقع على زمكه(١) ، ولم يعمل له ذَنَباً ، وفيه قال مؤمن بن سعيد الشاعر من أبيات :

يطمُّ على العنقاء فى طيرانها إذا ما كسا جثمانه ريح قشعم

وصنع فى بيته هيئة السماء ، وخَيَّل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود ، وفيه يقول مؤمن بن سعيد أيضا :

سماء عباس الأديب أبى الـــقاسم ناهيك حسن رائقها

أما ضُراطُ استِهِ فراعدها فليت شعرى ما لمع بارقها

لقد تمنيتُ حين دوّنها فكرىَ فى البصق فى است خالقها

وأنشد ابن فرناس الأمير محمدا من أبيات :

رأيت أمير المؤمنين محمدا وفى وجهه بَذْرُ المحبة يُثْمِرِ

فقال له مؤمن بن سعيد : قبحا لما ارتكبته ! جعلت وجه الخليفة مُحْرَثاً يثمر فيه البذر ، فخجل وسبه

أول من اشتهر فى الأندلس بالحساب والنجوم

وأول من اشتهر فى الأندلس بعلم الأوائل والحساب والنجوم أبو عبيدة مسلم ابن أحمد المعروف بصاحب القبلة ، لأنه كان يشرق فى صلاته ، وكان عالما بحركات الكواكب وأحكامها ، وكان صاحب فقه وحديث ، دخل المشرق ، وسمع بمكة من على بن عبد العزيز ، و بمصر من المزنى وغيره

ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة ، من أهل قرطبة ، وكان بصيرا بالحساب والنجوم [والنحو]واللغة والعروض ومعانى الشعر والفقه والحديث والأخبار والجدَل ، ودخل إلى المشرق ، وقيل : إنه كان معتزلى المذهب

وأبو القاسم أصبغ بن السمح ، وكان بارعا فى علم النجوم(٢) والهندسة ، وله تآليف منها كتاب « المدخل إلى الهندسة فى تفسير إقليدس » وكتاب كبير فى الهندسة ،

---

(١) فى ا « زمكته » والزمك - بكسر الزاى والميم وتشديد الكاف - ذنب الطائر ، ومثله الزمكى ، بزيادة ألف تصر (٢) فى ا « بارعا فى علم النحو والهندسة - الخ » وأحسبه محرفا عما أثبتناه موافقا لما فى ب .

وكتابان فى الاسطرلاب ، وزيج على مذاهب الهند المعروف بالسند هند

وأبو القاسم بن الصفار ، وكان عالما بالهندسة والعدد والنجوم وله زيج مختصر على مذاهب السند هند ، وله كتاب فى عمل الاسطرلاب

ومنهم أبو الحسن الزهراوى ، وكان عالما بالعدد و بالطب والهندسة ، وله كتاب شريف فى المعاملات على طريق البرهان

ومنهم أبو الحكم عمر الكرمانى ، من أهل قرطبة ، من الراسخين فى علم العدد والهندسة ، ودخل المشرق ، واشتغل بحرّان ، وهو أوّل من دخل برسائل إخوان الصفا إلى الأندلس

ومنهم أبو مسلم بن خلدون من أشراف إشبيلية ، وكان متصرفا فى علوم الفلسفة والهندسة والنجوم والطب ، وتلميذه ابن برغوث ، وكان عالما بالعلوم الرياضية ، وتلميذه أبو الحسن مختار الرعينى ، وكان بصيرا بالهندسة والنجوم ، وعبد الله بن أحمد السرقسطى ، كان ناقدا[1] فى علم الهندسة والعدد والنجوم ، ومحمد بن الليث ، كان بارعا فى العدد والهندسة وحركات الكواكب ، وابن[2] حى ، قرطبى بصير بالهندسة والنجوم ، وخرج عن الأندلس سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، ولحق بمصر ، ودخل اليمن ، واتصل بأميرها الصُّلَيْحى القائم بدعوة[3] المستنصر العبيدى ، فحظى عنده ، و بعثه رسولا إلى بغداد إلى القائم بأمر الله ، وتوفى باليمن بعد انصرافه من بغداد ، وابن الوقشى[4] الطليطلى ، عارف بالهندسة والمنطق والزيوج ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم

وكان الحافظ أبو الوليد هشام الوقشى من أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعانى الأشعار والعروض وصناعة الكتابة والفقه والشروط والفرائض وغيرها ، وهو كما قال الشاعر :

---

(١) فى ا « كان نافذا فى علم الهندسة »

(٢) كذا فى ا ونسخة عند ب ، وفى أصل ب « وأبو حي »

(٣) فى ا « بدعوة معن المستنصر العبيدى » (٤) كذا فى ا ، وفى ب « أبو الوقشى »

وكان من العلوم بحيث يُقْضَى ... له فى كل فن بالجميع

ومن شعره قوله :

قد بينت فيه الطبيعة أنها ... بدقيق أعمال المهندس ماهره
عُنِيَتْ بمبسمه فخطت فوقه ... بالمسك خطا من محيط الدائره

وعزم على ركوب البحر إلى الحجاز فهاله ذلك ، فقال :

لا أركب البحر ولو أننى ... ضربْتُ فيه بالعصا فانفلَقْ(١)
ما إن رأت عينىَ أمواجه ... فى فرق إلا تناهى الفرَقْ

المشهورون فى الأندلس بالطب والمعالجات

وكان الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن شُهَيْد مصنف الأدوية المفردة آية الله تعالى فى الطب وغيره ، حتى إنه عانى جميع ما فى كتابه [من] الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها ، وكان لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن بالأغذية أو ما يقرب منها ، وإذا اضطر إلى الأدوية فلا يرى التداوى بالمركبة ما وجد سبيلا إلى المفردة ، وإذا اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه ، وله غرائب مشهورة فى الإبراء من الأمراض الصعبة والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه .

ومنهم ابن البيطار ، وهو عبد الله بن أحمد المالقى الملقب بضياء الدين ، وله عدة مصنفات فى الحشائش لم يسبق إليها ، وتوفى بدمشق سنة ست وأربعين وستمائة ، أكل عقارا قاتلا فمات من ساعته ، رحمه الله تعالى !.

مثل من حفظ أهل الأندلس

ومن حكاياتهم فى الحفظ أن الأديب الأوحد حافظ إشبيلية ، بل الأندلس فى عصره ، أبا المتوكل(٢) الهيثم بن أحمد بن أبى غالب كان أعجوبة دهره فى الرواية للأشعار والأخبار ، قال ابن سعيد : أخبرنى مَنْ أثق به أنه حضر معه ليلة عند

---

(١) يشير إلى قصة موسى عليه السلام التى ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم ، ومنها أنه أمر بضرب البحر بعصاه فانفلق واتخذ لقومه طريقا يبسا

(٢) فى ا « أبو المتوكل » خطأ

أحد رؤساء إشبيلية فجرى ذكر حفظه ، وكان ذلك فى أول الليل ، فقال لهم : إن شئتم تختبرونى(١) أجبتكم ، فقالوا له : بسم الله ، إنا نريد أن نحدّث عن تحقيق ، فقالوا : اختاروا ، أى قافية شئتم لا أخرج عنها ، حتى تعجبوا(٢) ، فاختاروا القاف ، فابتدأ من أوّل الليل إلى أن طلع الفجر ، وهو ينشد وزن :

* أرق على أرقٍ ومِثْلِيَ يأرقُ *(٣)

وسُمّاره قد نام بعض وضج بعض ، وهو ما فارق قافية القاف .

وقال أبو عمران بن سعيد : دخلت عليه يوما بدار الأشراف بإشبيلية ، وحوله أدباء ينظرون فى كتب منها ديوان ذى الرمة ، فمد الهيثم يده إلى الديوان المذكور ، فمنعه منه أحد الأدباء ، فقال : يا أبا عمران ، أواجب أن يمنعه منى وما يحفظ منه بيتا ، وأنا أحفظه ؟ فأكذبته الجماعة ، فقال : أسمعونى وأمسكوه ، فابتدأ من أوّله حتى قارب نصفه ، فأقسمنا عليه أن يكف ، وشهدنا له بالحفظ .

وكان آية فى سرعة البديهة ، مشهورا بذلك ، قال أبو الحسن بن سعيد : عهدى به فى إشبيلية يملى على أحد الطلبة شعرا ، وعلى ثان موشحة ، وعلى ثالث زجلا ، كل ذلك ارتجالا .

ولما أخذ الحصار بمُخَنَّق إشبيلية فى مدة الباجى خرج خروج القارظَيْنِ(٤) ، ولا يدرى حَيْثُ ولا أين .

ومن شعره وقد نزل بداره عَبِيدُ السلطان ، وكتب به إلى صاحب الإنزال :

---

(١) كذا فى ا ، ب جميعا ، والمشهور أن يقول « تختبروننى » بنونين ، على أن مثل ذلك سائغ ، لكنه قليل .

(٢) فى ا « حتى تعجوا » ومعناه ترفعوا أصواتكم ، وأحسبه محرفا

(٣) هذا صدر مطلع قصيدة للمتنبى ، وعجزه قوله :

* وجوى يزيد وعبرة تترقرق *

(٤) خرج رجل عنزى يجنى القرظ فلم يعد ، فقالت العرب للشىء لا ينتظر حصوله « لا أفعله حتى يؤب القارظين » وقل الشاعر :

وحتى يؤوب القارظان كلاهما ويُنشر فى القتلى كليب لوائل

كم من يدٍ لك لا أقوم بشكرها ... وبها أشير إليك إن خرست فمى
وقد استشرتك فى الحديث فهل ترى ... أن يدخل الغِرْبانُ وَكْرَ الهيثمِ

وله :

يُجْفَى الفقيرُ ويَغْشى الناسُ قاطبةً ... بابَ الغنىِّ كذا حُكْمُ المقادير
وإنما الناسُ أمثالُ الفَراشِ فهم ... بحيث تبدو مصابيح الدنانير

وله :

عندى لفقدك أوجال أبيت بها ... كأننى واضع كفى على قَبَس
ولا ملامة إن لم أهد نيره ... حتى تمدّ إليها كفّ مُقْتَبِسِ
قد كنت أودع سرّ الشوق فى طرس ... لكننى خفت أن يعدو على الطرس

وأنشد له أبو سَهْل شيخ دار الحديث بالقاهرة فى إملائه :

قف بالكثيب لغيرك التأنيب ... إن الكثيب هوًى لنا محبوب(١)
يا راحلين لنا عليكم وقفة ... ولكم علينا دَمْعُنَا المسكوب
تُخْلَى الديار من المحبة والهوى ... أبداً وتعمر أضْلُع وقلوب

وقال ارتجالا فى وصف فرس أصفر :

أطِرْفٌ فات طَرْفِى أم شِهَابُ ... هفا كالبرق ضرّمه التهاب
أعار الصبحُ صفحته نقابا ... ففر به وصحّ له النقاب(٢)
فمهما حُثّ خالَ الصبح وافى ... ليطلب ما استعار فما يُصَابُ
إذا ما انقضّ كلّ النجمُ عنه ... وضَلَّتْ عن مسالكه السحاب
فيا عجباً له فضل الدرارى ... فكيف أذال أربعه الترابُ(٣)
سَلِ الأرواح عن أدنى مَدَاه ... فعند الريح قد يلفى الجواب(٤)

(١) الهوى ههنا : المهوى ، أى المعشوق ، من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول ووقع فى ب « إن الكثيب هوى له محبوب » وما أثبتناه موافقا لما فى ا أظرف

(٢) فى ب « وصح لنا النقاب » (٣) أذال : امتهن ، ووقع فى ب «فكيف أزال أربعه» محرفا (٤) فى ا «سل الأرواح عن أقصى مداه»

وقال أبو عمر الطلمنكى : دخلت مُرْسِية ، فتشبث بى أهلها يسمعون(١) علىّ الغريب المصنف ، فقلت : انظروا مَنْ يقرأ لكم ، وأمسكت أنا كتابى ، فأتَوْنى برجل أعمى يعرف بابن سيده ، فقرأه علىَّ من أوَّله إلى آخره ، فعجبت من حفظه ، وكان أعمى [ابن أعمى](٢)

ابن سيدة وشىء من شعره

وابنُ سيده المذكورُ هو أبو الحسن على بن أحمد بن سيده ، وهو صاحب كتاب « المحكم » .

ومن نظمه مما كتب به إلى ابن الموفق :

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى سبيل فإن الأمن فى ذاك واليمنا

ومنها :

ضحيتُ فهل فى بَرْدِ ظلك نومة لذى كَبِدٍ حَرَّى وذى مقلة وَسْنَا

وتوفى ابن سيده المذكور سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، وعمره نحو الستين ، رحمه الله تعالى !

المظفر بن الأفطس وحبه للعلم

ومن حكاياتهم فى حب العلم أن المظفر بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْس كان كما قال ابن الأبّار كثير الأدب ، جمَّ المعرفة ، محبا لأهل العلم ، جمَّاعةً للكتب ، ذا خزانة عظيمة ، لم يكن فى ملوك الأندلس من يفوقه فى أدب ومعرفة ، قاله ابن حيان .

وقال ابن بسام : كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ، وله التصنيف الرائق ، والتأليف الفائق ، المترجم بالتذكرة والمشتهر أيضا اسمه بالكتاب المُظَفَّرى ، فى خمسين مجلدا ، يشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ وسِيَر ومَثَل وخبر وجميع ما يختص به علم الأدب ، أبقاه للناس خالدا ، وتوفى المظفر سنة ستين وأربعمائة .

وكان يحضر العلماء للمذاكرة ، فيفيد ويستفيد ، رحمه الله تعالى !

من كبار مؤلفات أهل الأندلس

ومن التآليف الكبار لأهل الأندلس كتاب « السماء والعالم » الذى ألفه

(١) فى ا « يسمعوا » (٢) زيادة فى ا وحدها

أحمد بن أبان صاحب شرطة قرطبة ، وهو مائة مجلد ، رأيت بعضه بفاس ، وتوفى ابن أبان سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة ، رحمه الله تعالى !.

من دعابات أهل الاندلس

ولأهل الأندلس دُعَابة وحلاوة فى محاوراتهم[1]، وأجوبة بديهية مسكتة ، والظَّرْفُ فيهم والأدب كالغريزة ، حتى فى صبيانهم ويهودهم ، فضلا عن علمائهم وأكابرهم .

ولنذكر جملة من ذكر الجلة فنقول :

حكى عن عالم المَرِيَّة القاضى أبى الحسن مختار الرعينى ، وكان فيه حلاوة ولَوْذَعية ووقار وسكون ، أنه استدعاه يوما زُهَير ملك المَرِيَّة من مجلس حكمه ، فجاءه يمشى مشية قاض قليلا قليلا ، فاستعجله رسول زهير ، فلم يعجل ، فلما دخل عليه قال له : يا فقيه ، ما هذا البطء ؟ فتأخر إلى باب المجلس ، وطلب عصا ، وشمر ثيابه ، فقال له زهير : ما هذا ؟ قال : هذا يليق باستعجال الحاجب لى ، فوقع فى خاطرى أنه عزلنى عن القضاء وولانى الشرطة ، فضحك زهير واستحلاه ولم يعد إلى استعجاله .

وهذا القاضى هو القائل — وقد دخل حَمَّاما فجلس بإزائه عامىٌّ أساء الأدب عليه — :

ألا لُعِنَ الحمام داراً فإنه ... سَوَاء به ذو العلم والجهل فى القدر
تضيع به الآداب حتى كأنها ... مصابيح لم تنفق على طلعة الفجر

وروى أن المقرىء أبا عبد الله محمد بن الفراء إمام النحو واللغة فى زمانه — وكانت فيه فطنة ولوذعية — أبطأ خروجُه يوما إلى تلامذته ، فطال بهم الكلام فى المذاكرة فقال أحدهم نصف بيت ، وكان فيهم وَسيم من أبناء الأعيان ، وكان ابن الفراء كثير المَيْل إليه ، فلما خرج قال له : يا أستاذ ، عملت نصف بيت ، وأريد أن تتمه ، فقال : ما هو ؟ فقال :

(١) فى ا « مجاورتهم » بالجيم — محرفا

* ألا بأبى شادن أوْطَفُ *

من شعر ابن الفراء

فقال الأستاذ ابنُ الفراء بديها :

إذا كان وَرْدُكَ لا يُقْطَفُ ... وثغر ثناياك لا يُرْشَفُ

فأى اضطرار بنا أن نقول : ... ألا بأبى شادِنٌ أوطف ؟

وهذا ابن الفراء هو القائل :

قيل لى قد تبدَّلاَ ... فاسْلُ عنه كما سَلاَ

لك سمع وناظر ... وفؤاد فقلت لا

قيل غالٍ وصالُه ... قلت لما غلا حلا

أيها العاذل الذى ... بعذابى توكلا

عد صحيحا مسلِّما ... لا تعيِّرْ فتُبْتَلَى

وتذكرت بهذا ما أنشده لسانُ الدين فى كتابه « رروضة التعريف ، بالحسب الشريف »(١) :

قلت للساخر الذى ... رَفَعَ الأنف فاعتلى(٢)

أنت لم تأمن الهوى ... لا تعيِّرْ فتُبْتَلى

ومن بديع نظم ابن الفراء المذكور قوله :

شكوت إليه بفرط الدَّنَفْ ... فأنكر من قصتى ما عرف(٣)

وقال الشهود على المدَّعِى ... وأما أنا فعلَىَّ الحلف(٤)

فجئنا إلى الحاكم الألمعىِّ ... قاضى المجون وشيخ الطرَفْ(٥)

وكان بصيرا بشَرْع الهوى ... ويعلم من أين أكْلُ الكتِفْ

فقلت له اقض ما بيننا ... فقال الشهود على ما تصف

(١) فى ا « روضة التعريف ، بالحب الشريف » (٢) فى ا « واعتلى »
(٣) الدنف ــ بفتح الدال والنون جميعا ــ المرض
(٤) أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم « البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر »
(٥) فى ا « وشيخ الظرف »

فقلت له شهِـدَتْ أدمُعِى   فقال إذا شهِـدت تنتصف
ففاضت دموعىَ من حينها   كفيض السحاب إذا ما يَكِفْ
فحرك رأسا إلينا وقال   دعوا يامُهَاتيكُ هذا الصلف
كذا تقتلون مَشَاهيرنا   إذا مات هذا فأين الخلَفْ
وأوْمَا إلى الورد أن يجتنى   وأوْمَا إلى الريق أن يرتشف
فلما رآه حبيـــبى معى   ولم يختلف بيننـــا مختلف
أزال العـــــناد فعانقته   كأنىَ لامٌ وحِـــبِّى ألف
فظَلْتُ أعاتبـه فى الجفا   فقال عفا الله عمـــا سلف

من الزهرى إشبيلية

وحكى عن الزهرى خطيب إشبيلية ــ وكان أعرج ــ أنه خرج مع ولده إلى وادى إشبيلية ، فصادف[1] جماعة فى مركب ، وكان ذلك بقرب الأضحى ، فقال بعضهم له : بكم هذا الخروف ؟ وأشار إلى ولده ، فقال له الزهرى : ما هو للبيع ، فقال : بكم هذا التيس[2]؟ وأشار إلى الشيخ الزهرى ، فرفع رجله العرجاء وقال: هو مَعِيب لا يُجْزِىء[3] فى الضحية ، فضحك كل مَنْ حضر ، وعجبوا من لطف خُلُقه .

وركب مرة هذا النهر مع الباجى يوم خميس ، فلما أصبحا وصعد الزهرى يخطب يوم الجمعة ، والباجى حاضر قدامه ، فنظر إليه الباجى وأومأ إلى محل الحَدَث ، وأخرج لسانه ، فجعل الزهرى يلمس عصا الخطبة ، يشـير بالعصا إلى جوابه على ما قصد ، رحمه الله تعالى !

ورد الأعيان

ومر العالم أبو القاسم بن وَرْد صاحب التآليف فى علم القرآن والحديث بجَنَّة لأحد الأعيان فيها ورد ، فوقف بالباب وكتب إليه :

شاعر قد أتاك يبغى أباهُ   عندما اشتاق حسنه وشَذَاه[4]

(١) فى ا « فصادفه جماعة »   (٢) فى ا « فبكم هذا التيس »
(٣) فى ا « لايزجى » وكلمة « لا يجزىء فى الضحية » من عبارات أهل الفقه
(٤) فى ا « شاعر قد عراك يبغى أباه »

وهو بالباب مصغيا لجواب يرتضيه النَّدَى فماذا تراه (١)

فعند ما وقف على البيتين علم أنه ابن وَرْد ، فبادر من جنته إليه ، وأقسم فى النزول عليه ، ونثر من الورد ما استطاع بين يديه .

من ملح ابن الطراوة نحوى المرية

وحكى أن أبا الحسن (٢) سليمان بن الطراوة نحوىَّ الْمَرِية حضر مع ندماء ، وإلى جانبه مَنْ أخذ بمجامع قلبه ، فلما بلغت النوبة إليه استعفى من الشرب ، وأبدى القطوب ، فأخذ ابنُ الطراوة الجام من يده وشربها عنه ، ويابَرْدَهَا على كل كبده ، ثم قال بديها :

يشربها الشيخُ وأمثـاله وكل من تحمد أفعـاله

والبكر إن لم يستطع صولة تُلْقَى على البازل أثقـالُهُ (٣)

ودخل عليه وهو مع ندمائه غلامٍ والكأس (٤) فى يده فقال :

ألا بأبى وغـير أبى غزال أتى وبراحِهِ للشرب راحُ

فقال مُنَادمى فى الحسن صفه فقلت الشمس جاء بها الصباح

وقال فيمن جاء بالراح :

ولما رأيت الصبح لاح بخده دعوتُهُمُ رفقاً تَلُحْ لكم الشمس

وأطلعها مثل الغزالة وهو كالـ ـغزال فتم الطيب واكتمل الأنس

وقال ، وقد شرب ليلة فى القمر :

شربنا بمصباح السماء مُدَامة بشاطى غدير والأزاهر تنفَحُ

وظل جهُول يرقب الصبح ضلة ومن أكؤس لم يبرح الليل يصبح (٥)

---

(١) فى ب « يرتضى بالندى » وما أثبتناه موافقا لما فى ا أظرف ، وجملة « يرتضيه الندى » صفة لجواب (٢) فى ا « أبا الحسين »

(٣) فى ا « والبكر إن لم يستطع رحله » ، وهذا البيت يشير إلى قول الشاعر :

وابن اللبون إذا مالز فى قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

(٤) فى ا « غلام بكأس فى يده » (٥) فى ا « ومن أكؤسى »

مدغليس صاحب الموشحات والأزجال

وكان[1] عبدالله بن الحاج المعروف بمدغليس صاحب الموشّحات يشرب مع ندماء ظراف فى جنة بهجة ، فجاءتهم ورقة من ثقيل يرغب فى الإذن ، وكان له ابن مليح فكتب إليه مدغليس :

سيدى هـذا مكان لا يرى فيـه بلحْيَه
غـير تيس مصفعانى له بالصَّفْـعِ كديه
أوله ابن شافـع فيـه فيلقى بالتحـيه
أيها القابل أقبـل سائقاً تلك المطيـه[2]

وكان مدغليس هذا مشهوراً بالانطباع والصنعة فى الأزجال ، خليفة ابن قزمان فى زمانه ، وكان أهل الأندلس يقولون : ابن قزمان فى الزجالين بمنزلة المتنبى فى الشعراء ، ومدغليس بمنزلة أبى تمام ، بالنظر إلى الانطباع والصناعة ، فابن قزمان ملتفت إلى المعنى ، ومدغليس ملتفت للفظ ، وكان أديباً مُعْربا لكلامه مثل ابن قزمان ، ولكنه لما رأى نفسه فى الزجل أنجب اقتصر عليه .

ومن شعره قوله :

ما ضركم لو كتبتم حـرفا ولو باليسار
إذ أنتمُ نور عيـنى ومطلـبى واختيارى

لابن الفراء

وقال الخطيب الأديب النحوى أبو عبد الله [محمد بن عبد الله][3] بن الفراء المذكور قبل هذا بقريب الضرير ، فى صبى كان يقرأ عليه النحو اسمه حسن ، وهو غاية الجمال — بعد أن سأله : كيف تقول إذا تعجبت من حسنك ؟ فقال أقول : ما أحسنى —

يا حَسَناً مالكَ لم تُحْسِنِ إلى نفوسٍ بالهوى متعبه
رقمت بالورد و بالسوسن صفحة خد بالسنا مُذْهَبَهْ
وقد أبى صدغك أن أجتنى منه وقد ألدغنى عقربه
ياحسنه إذ قال ما أحسنى ويالذاك اللفظ ما أعذبه

(١) فى ا « وكان أبو عبد الله بن الحاج »
(٢) فى ا « أيها القائل بادر » (٣) زيادة فى ا وحدها

ففوّق السهم ولم يُخْطِنِي وإذ رآنى ميتا أعجبه
وقال كم عاش وكم حَبّبَنِي وحُبُّهُ إياى قد عذبه
يرحمه الله على أننى قَتْلِي له لم أدر ما أوجبه

وقد كان[1] ابن الفراء من فضلاء المائة السادسة ، ذكره ابنُ غالب فى «فرحة الأنفس، فى فضلاء العصر[2] من الأندلس» وكان شاعراً مجيداً ، يُعَلم بالمَرِية القرآن والنحو واللغة ، وكانت فيه فطنة ولَوْذَعِية ، وذكاء وألمعية ، خرق بها العوائد

ترجمة لابن الفراء

وحكى أن قاضى الْمَرِية قبل شهادته فى سَطْل ميزه فى حمام باللمس ، واختبره فى ذلك بحكاية طويلة

وذكره صفوان فى «زاد المسافر» ووصَفه بالخطيب

جد ابن الفراء

وجَدُّه القاضى أبو عبد الله بن الفراء مشهور بالصلاح والفضل والزهد ، ومن العجائب أنه ليس له ترجمة فى «المغرب» ولما كتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى أهل المرية يطلب منهم المعونة جاوبه بكتابه المشهور الذى يقول فيه ماصورته : فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخرى عن ذلك ، وأن الباجى وجميع القضاة والفقهاء بالعُدْوَة والأندلس أفْتَوْا بأن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعه فى قبره ، ولا يُشَك فى عدله ، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضجيعه فى قبره ، ولا من لا يشك فى عدله ، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته فى العدل فالله تعالى سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر رضى الله تعالى عنه حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَلَف أن ليس عنده درهم واحد فى بيت مال المسلمين ينفقه عليهم ، فتدخل المسجد الجامع هنالك بحضرةِ مِنْ أهل العلم وتَحْلِف أن ليس عندك درهم واحد ولا فى بيت مال المسلمين ، وحينئذ تستوجب ذلك ،

(١) فى ا « وهذا ابن الفراء من فضلاء المائة السادسة »
(٢) فى ا « فى فضلاء العمر »

والسلام ، انتهى .

ابن الفراء الأخفش

وأما ابن الفراء الأخفش بن ميمون الذى ذكره الحِجارى فى « المسهب » فليس هو من هؤلاء ، بل هو من حضن الغيداق من أعمال قلعة بنى سعيد ، وتأدب فى قُرْطُبة ، ثم عاد إلى حضرة غَرْناطة ، واعتكف بها على مدح وزيرها اليهودى ، وهو القائل :

صابح مُحَياه تلق النُّجْح فى الأمل وانظر بناديه حسن الشمس فى الحمل
ما إن يلاقى خليل فيه من خَلَلٍ وكلما حال صرف الدهر لم يَحُلِ

وكان يهاجى المنفتل شاعر إلبيرة ، ومن هجاء المنفتل (١) له قوله :

لابن ميمون قريض زمهرير البرد فيه
فإذا ما قال شعرا نفقت سوق أبيه (٢)

ولما وفد على المَرِية مدح رفيع الدولة بن المعتصم [بن صمادح] (٣) بشعر ، فقال له بعض مَنْ أراد ضره : ياسيدى لا تقرب هذا اللعين ، فإنه قال فى اليهودى :

ولكنّ عندى للوفاء شريعة تركت بها الإسلام يبكى على الكفر

فقال رفيع الدولة : هذا والله هو الحر الذى ينبغى أن يُصْطَنع ، فلولا وفاؤه ما بكى كافرا بعد موته ، وقد وجدنا فى أصحابنا من لا يَرْعَى مسلما فى حياته ، فقال فيه المنفتل :

إن كنت أخْفَشَ عينٍ فإن قلبك أعمى
فكيف تنثر نثرا وكيف تنظم نظما

ومن شعر الأخفش المذكور قولُه :

إذا زرتكم غبا فلم ألق بالبر وإن غبت لم أطلب ولم أجر فى الذكر

(١) فى ا « ومن هجائه المنفتل له قوله » وليس بذاك

(٢) سوق أبيه : يقصد كثرت حاجة الناس إلى الفراء لبرد شعره (٣) زيادة فى ا وحدها

فإنى إذن أولى الورى بفراقـكم ولا سـيما بعد التجلد والصبر

ابن مسعود والطليق القرشى

ولما وفد على المنصور بن أبى عامر الشاعرُ المشهور أبو عبد الله محمد بن مسعود الغَسَّانى البجالى اتُّهم برهق فى دينه ، فسجنه فى المطبق مع الطليق القرشى ، والطليق غلام وَسِيم ، وكان ابن مسعود كَلِفاً يومئذ وفيه يقول :

غدوت فى السجن خِدْناً لابن يعقوب وكنت أحسب هذا فى التكاذيب

رامت عُدَاتِىَ تعذيبى وما شعرت أن الذى فعلوه ضد تعـذيبى

راموا بعادى عن الدنيا وزخرفها فـكان ذلك إدنائى وتقريبى

لم يَعْلَموا أن سجنى لا أبالهـم قد كان غاية مأمولى ومرغوبى

وسجن ابن مسعود(١) والطليق قبله ، ووقع بينه و بين الطليق ، وعاد المدح هجاء ، فقال فيه :

ولى جليس قربه مـنى بعـد الأمانى كذبا عنى

قد قَذِيَتْ من لحظه مقلتى وقرحت من لفظه أذنى

هوّن لى فى السجن من قربه أشدّ فى السجن من السجن(٢)

لو أن خَلْقاً كان ضدّا له زاد على يُوسُفَ فى الحسن

إذا ارتمى فـكرى فى وجهه سلط إبْطَيْهِ على ذهـنى

كأنما يجلس من ذا وذا بين كنيفين من النَّتْنِ

وكتب للمنصور من السجن

وقال يخاطب المنصور من السجن :

دعوت لما عيل صبرى فهل يسمع دعواى المليك الحليم

مولاى مولاى ألا عطفة تَذْهَبُ عنى بالعـذاب الأليم

إن كنت أضمرت الذى زَخْرَفُوا عنى فدعنى للقدير الرحيم

---

(١) فى ا « وانطلق ابن مسعود والطليق قبله - إلخ »

(٢) فى ا « راهننى فى السجن من قربه »

فعنده نزّاعة للشّـــوَى وعنده الفردوس ذات النعيم

بين جارية وشاعر من المرية

وركب بعض أهل المَرِيَّة فى وادى إشبيلية ، فمر على طاقة من طاقات شنتبوس ، وهو يغنى :

خلنى[١] من واد ومن قوارب ، ومن نزاها[٢] فى شنتبوس

غرس الحبق الذى فى دارى ، أحب عندى من الفردوس

فأحرجت رأسها جارية وقالت له : من أى بلد أنت يامن غَنَّى ؟ فقال : من المرية ، فقالت : وما أعجبك فى بلدك حتى تفضله على وادى إشبيلية ؟ وهو بوجه مالح وقفاً أحرش ، وهذا من أحسن تعييب ، وذلك أنها أتته بالنقيض من إشبيلية ، فإن وجهها النهر العذب ، وقفاها بجبال الرحمة أشجار التين والعنب ، لا تقع العين إلا على خضرة فى أيام الفرج ، وأين إشبيلية من المرية ، وفى المرية يقول السميسر شاعرها :

بئس دار المرية اليوم دارا ليس فيها لساكن ما يُحبُّ

بلدة لا تُمَار إلا بريح ربما قد تهب أو لا تهب[٣]

يشير إلى أن مَرَافقها مجلوبة ، وأن الميرة تأتيها فى البحر من بر العُدْوَة ، وفيها يقول أيضا :

قالوا المـرية فيهـا نظافة قلت إيه

كأنهـا طست تبر ويُبْصَقُ الدم فيه

البياسي وشيخ ثقيل

وحكى مؤرخ الأندلس أبو العباس البياسى[٤] ، أنه دخل عليه فى مجلس أنس شيخٌ ضَخْم الجثة مستثقل ، فقال البياسى :

اسْـقِنى الـكأس صاحيه ودع الشـــيخ ناحيه[٥]

فقال الـكاتب أبو جعفر أحمد بن رضى :

إن تـكن ســاقيا له ليس ترويه ساقيـــه

---

(١) فى ا « خلين من واد » (٢) فى ب « ومن تراها فى شنتبوس »

(٣) فى ا « بلدة لا تمار إلا بريح » محرفا ، وتمار - بالبناء للمجهول - تجلب لها الميرة

(٤) فى ا « وحضر مؤرخ الأندلس أبو الحجاج البياسي »

(٥) في ا « اسقنى الـكأس ضاحيه »

وحكى أن العالى إدريس الحمودى لما عاد إلى ملكه بمالَقَةَ وبخ قاضيها الفقيه أبا على بن حَسُّون ، وقال له : كيف بايعت عدوى من بعدى وصحبته ؟ فقال : وكيف تركت أنت ملكك لعدوك ؟ فقال : ضرورة القدرة حملتنى على ذلك ، فقال : وأنا أيضاً حصلت فى يد مَنْ لا يسعنى[١] إلا طاعته .

أبو على ابن حسون قاضى مالقة

ومن نظم القاضى المذكور :

رفعت من دهرى إلى جائر ويبتغى العدل بأحكامى
أضحت به أملاكه مثل أشـكال خيال طوع أيامى
هـذا لما أبرم ذا ناقض كأنهم فى حكم أحلام

أبو محمد عبد الله الوحيدى قاضى مالقة

وكان الفقيه العالم أبو محمد عبد الله الوحيدى قاضى مالَقَةَ جرى ـ كما قال الحِجَارى ـ فى صباه طَلْقَ الجموح [ولم يزل][٢] يُعَاقب بين غَبُوق وصَبُوح ، إلى أن دعاه النذير ، فاهتدى منه بسراج منير ، وأحلته تلك الرجعة ، فيما شاء من الرفعة .

وقال بعض مُعَاشريه : كنت أماشيه زمن الشباب ، فكلما مررنا على امرأة يدعو حسنها وشكلها إلى أن تحير [فيه][٣] الألباب ، أمال إليها[٤] طَرْفَه ، ولم ينح عنها صرفه ، ثم سايرته بعد لما رجع عن ذلك واقتصر ، فرأيته يَغُضُّ البَصَر ، ويخلى الطريق معرضاً إلى ناحية ، متى زاحمته امرأة ولو حكت الشمس ضاحية[٥] ، فقلت له فى ذلك ، فقال :

ذاكَ وَقْتٌ قضيتُ فيه غرامى من شبابى فى سترة الإظلام
ثم لما بدا الصباحُ لعينى من مشيبى وَدَّعْته بسلام

ومن شعره فى صباه :

لا ترتجوا رَجْعتى باللوم عن غَرَض ولتتركونى وصيدى فرصة الخلَسِ

(١) فى ا « فى يد من لا تسعنى » (٢) زيادة فى ا وحدها
(٣) كلمة « فيه » لاتوجد فى ا (٤) فى ا « أمال عليها »
(٥) فى ب « ولو حكت الشمس صاحية »

طلبتم رَدَّ قلبى عن صبابته ومن يردُّ عنان الجامح الشرس

ولما أقصر باطله ، وعُرِّيت أفراسُ الصبا ورواحله[١] ، قال :

ولما بدا شَيْبى عَففْتُ عن الهوى كما يهتدى حلف السُّرَى بنجوم[٢]

وفارقت أشياع الصبابة والطلا ومِلْتُ إلى أهلَىْ عُلاً وعلوم[٣]

موقف لابن الفخار

ولما تألَّبَ بنو حَسُّون على القاضى الوحيدى المذكور صادر عنه العالم الأصولى أبو عبد الله بن الفخار، وطلع فى حقه إلى حضرة الإمامة مراكش ، وقام فى مجلس أمير المسلمين ابن تاشفين ، وهو قد غصَّ بأربابه ، وقال : إنه لمقام كريم ، نبدأ فيه بحمد الله على الدنُوّ منه ، ونصلى على خيرة أنبيائه محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابته نجوم الليل البَهِيم ، أما بعد فإنا نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً[٤] ، وجعلك للدين الحنيفى نَصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك مما دَهَمَنا فى حِمَاك ، ونبث إليك ما لحقنا من الضيم ونحن تحت ظل عُلاك ، ويأبى الله أن يدهم من احتمى بأمير المسلمين ، ويصاب بضيم من ادَّرَعَ بحصنه الحصين ، شكوى قمت بها بين يديك فى حق أمرك الذى عضده مؤيده ، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده ، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدمته فى مالَقَة للأحكام ، ورضيت بعَدْله فيمن بها من الخاصة والعوام ، لم يزل يدلُّ على حسن اختيارك بحسن سيرته ، ويُرْضِى الله تعالى ويرضى الناس بظاهره وسريرته ، ما علمنا عليه من سوء ، ولا دَرَيناله موقفَ خِزْى ، ولم يزل جاريا على ما يرضى الله تعالى ويرضيك ويرضينا إلى أن تعرضت بنو حَسُّون إلى الطعن فى أحكامه ، والهد من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدَّم ، راجعٌ على المقدِّم ، بل جَمَحوا فى لَجَاجهم فعموا وصموا ، وفعلوا وامضوا ما به هَمُّوا ، وإلى السحب يرفع الكف من قد

---

(١) أخذ هذا من قول زهير بن أبى سلمى المزنى فى مطلع قصيدة :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

(٢) فى ا « ولما بدا شيبى عطفت على الهدى » وفى نسخة عند ب « عطفت عن الهوى »

(٣) فى ب « وملت إلى أعلى علا وعلوم » (٤) فى ا « للمسلمين أميرا »

جف عنه مسيل عين ونهر ، فملأ سمعه بلاغة أعقبت نصره ونصر صاحبه .

من شعر ابن الفخار

ومن شعر ابن الفخار المذكور ، ويعرف بابن نصف الربض ، قوله :

أمستنكر شيبُ المفارق فى الصِّبا ... وهل ينكر النور المفتح فى الغصن

أظُنُّ طِلَابَ المجد شيَّبَ مَفرِقى ... وإن كنت فى إحدى وعشرين من سنى

وقوله :

أَقِلَّ عتابك إن الكريمَ ... يُجَازَى على حبه بالقِلَى

وخل اجتنابك إن الزمان ... يُمِرُّ بتكديره ما حَلَا

وواصل أخاك بعلاته ... فقد يلبس الثوب بعد البِلَى

وقل كالذى قاله شاعر ... نبيل وحقك أن تنبلا

إذا ما خليل أسا مَرَّةً ... وقد كان فيما مضى مجملا

ذكرت المقدَّمَ من فِعْلِهِ ... فَلَمْ يُفْسِدِ الآخِرُ الأَوَّلَا

لابن شرف

ولما وفد أبو الفضل بن شرف[1] من بَرْجَة فى زى تظهر عليه البداوة بالنسبة إلى أهل حضرة المملكة العظمى أنشده قصيدته القافية[2] :

مَطَلَ الليل بوعد الفلق ... وتشكَّى النجم طول الأرق

ضربت ريح الصبا مسك الدجى ... فاستفاد الروضُ طيب العَبَقِ

وألاح الفجر خدًّا خجلا ... جال من رَشْحِ الندى فى عرق

جاوز الليل إلى أنجمه ... فتساقطن سقوط الورق[3]

واستفاض الصبح فيه فيضةً ... أيقن النجم لها بالغرق

فانجلى ذاك السنى عن حَلَكٍ ... وانمحى ذاك الدجى عن شَفَقِ

بأبى بعد الكرى طيف سَرَى ... طارقا عن سكن لم يطرق

زارنى والليل ناع سدْفَهُ ... وَهْوَ مطلوبٌ بباقى الرَّمَقِ

(١) فى ب « بن شرف بن برجة » محرفا ، مع ما قد مضى من ذكر برجة وما قيل فيها من الشعر (٢) فى ا « أنشد قصيدته الفائقة »

(٣) فى ب «جاور الليل إلى أنجمه»

ودموع الطل تَمْريها الصبا وجفون الروض غرقى الحدق
فتأنّى فى إزار ثابت وتثـــنّى فى وشاح قَلِقِ
وتجلّى وجهــه عن شعره فتجلّى فَلَق عن غَسَق
نهب الصبح دُجَى ليلته فحبا الخـدَّ ببعض الشفق
سلبت عيناه حَـدَّىْ سيفه وتحلى خـــدُّه بالرونق
وامتطى من طرفه ذا خَبَب يلثم الغبراء إن لم يُعْنِق
أشْوَس الطرف علته نخوة يتهادى كالغـزال الخَرِق
لو تمطى بين أسراب الْمَهَا نازعتــه فى الحشا والعنق(١)
حسرت دهمته عن غـرة كشفت ظلماؤها عن يَقَقِ
لبست أعطافه ثوب الدجى وتحلى خــــده باليقق
وانبرى تحسبه أجْفَلَ عن لَسْعة أو جِنّـة أو أَوْلَقِ
مدركا بالمهل مالا ينتهى لاحقا بالرفق مالم يلحق
ذُو رضا مستتر فى غضب ذو وقار مُنْطَوٍ فى خـرق
وعلى خد كعضب أبيض أذُنٌ مثل سنان أزرق
كلمـا نصبهـــا مستمعاً بدتِ الشهبُ إلى مسترق
حاذرت منـــه شباخَطِّيَّة لا يجيد الخط مالم يمشق
كلمـا شامت عذارى خده خفقت خفـق فؤاد فَرِقٍ
فى ذرا ظمآن فيــه هَيَفٌ لم يدعه للقضيب المورق
يتاقانى بكـف مصقع يَقْتَفِى شأو عـذار مفلق(٢)
إن يَدُرْ دورةَ طَرْفٍ يلتمح أو يَجُلْ جولَ لسانٍ ينطق
عصفت ريح على أنبوبه وجرت أكعبه فى زئبق

(١) فى ا « نازعته فى الحشا والغسق »
(٢) فى ا « يتلقانى بكعب مصقع » و « عذار مغلق »

كلما قَلّبه باعَدَ عن ... مَتْنِ مَلْساء كمثل البرق
جمع السَّرْدُ قُوَى أزرارها ... فتآخذن بعهد موثق
أوجبت فى الحرب من وَخْزِ القنا ... فتوارت حلقاً فى حلق
كلما دارت بها أبصارها ... صَوَّرَتْ منها مثال الحدق
زَلَّ عنه متن مصقول القوى ... يرتمى فى مائها بالحرق
لو نضا وهو عليه ثَوْبَهُ ... لتعرى عن شُوَاظ محرق
أكهب من هبوات أخضر ... من فرند أحمر من علق
وارتوت صفحاهُ حتى خِلْته ... بِحَيَاً مَنٍّ لكفيك سُقِى
يا بنى مَعْنٍ لقد ظلت بكم ... شَجَرٌ لولا كم لم تورق
لو سقى حسان إحسانكم ... ما بكى ندمانه فى جِلَّقِ (١)
أو دنا الطائى من حيكم ... ما حدا البرق لربع الأبرق
أبدعوا فى الفضل حتى كلفوا ... كاهِلَ الأيام مالم يُطِقِ

فلما سمعها المعتصم لعبت بارتياحه ، وحَسَدَه بعضُ مَنْ حضر ، وكان من جملة من حسده ابن أخت غانم ، فقال له : من أى أنت؟ قال : أنا من الشرف فى الدرجة العالية ، وإن كانت البادية على بادية ، ولا أنكر حالى ، ولا أعْرَفُ بخالى ، فمات ابن أخت غانم خَجَلاً ، وشَمِتَ به كل من حضر .

ابن شرف الجذامى

وابن شرف المذكور هو الحكيم الفيلسوف أبو الفضل جعفر ابن أديب إفريقية أبى عبد الله محمد بن شرف الجُذَامى ، ولد ببَرْجَة ، وقيل : إنه دخل الأندلس مع أبيه وهو ابن سبع سنين ، ومن نظمه قوله :

---

(١) يشير إلى حسان بن ثابت وقوله فى أبناء جفنة :

لله در عصابة نادمتهم ... يوما بجلق فى الزمان الأول

رأى الحسنُ مافى خده من بدائع فأعجبه ما ضَمَّ منـــه وحَرَّفا
وقال لقد ألفيت فيـــه نوادرا فقلت له لا بل غريبا مصنفا(١)

وقوله :

قـــد وقف الشكر بى لديكم فلست أقـوى على الوفاده
ونِلْتُ أقصى المـــراد منكم فصرت أخشى من الزياده

وقوله :

إذا ماعـــدوّك يومًا سما إلى رتبــــة لم تطق نقضها
فقبّــلْ ولا تأنفنْ كفه إذا أنت لم تستطع عَضَّها

وقوله ، وقد تقدم به على كل شاعر :

لم يبق للجـــور فى أيامهم أثر غير الذى فى عيون الغيد من حَوَرِ

وأوّل هذه القصيدة قوله :

قامت تجر ذيول العَصْبِ والِحبَرِ ضعيفةُ الخصرِ والميثاقِ والنظرِ

وكان قد قَصَرَ أمداحَه على المعتصم ، وكان يفد عليه فى الأعياد وأوقات الفرج والفتوحات ، فوفد عليـه مرة يشكو عاملا ناقشه فى قرية يحرث فيها ، وأنشده الرائية التى مر مطلعها إلى أن بلغ قوله :

* لم يبق للجور ــ البيت *

فقال له : كم فى القرية التى تحرث فيها ؟ فقال : فيها نحو خمسين بيتا ، فقال له : أنا أسوّغك جميعها لهذا البيت الواحد ، ثم وقع له بها ، وعزل عنها نظر كل والٍ .

وله ابن فيلسوف شاعر مثله ، وهو أبوعبدالله محمد بن أبى الفضل (٢) المذكور ، وهو القائل :

---

(١) ورى بكتاب النوادر وكتاب الغريب المصنف

(٢) فى ب « أبو عبد الله محمد بن الفضل » وقد مر فى الصحيفة السابقة أنه « أبو الفضل جعفر »

وكريم أجارنى من زمان　　لم يكن من خطوبه لى بُدُّ
منشد كلما أقول تناهى　　ما لمن يبتغى المكارمَ حدّ

أبو عبد الله محمد بن معمر ابن أخت غانم

وابن أخت غانم هو العالم اللغوى أبو عبد الله محمد بن معمر [١]، من أعيان مالقة، متفنن فى علوم شتى، إلا أن الغالب عليه علم اللغة، وكان قد رَحَل من مالَقَةَ إلى الْمَرِية، فحلّ عند ملكها المعتصم بن صمادح بالمكانة العلية، وهو القائل فى ابن شرف المذكور:

قُولُوا لِشَاعِرِ بَرْجَة هل جاء من　　أرض العراق فحاز طبع البحترى
وافى بأشعار تضج بكفه　　وتقول هل أعْزَى لمن لم يشعر [٢]
يا جعفرا رُدَّ القريض لأهله　　واترك مباراةً لتلك الأبحر
لاتزعمن ما لم تكن أهلا له　　هذا الرُّضاب لغير فيك الأبخر

وذكره ابن الْيَسَع فى مغربه وقال: إنه حدثه بداره فى مالقة وهو ابن مائة سنة، وأخذ عنه عام أربعة وعشرين وخمسمائة، وله تآليف منها «شرح كتاب النبات» لأبى حنيفة الدِّينَوَرِى، فى ستين مجلدا، وغير ذلك.

وغانم خاله الذى يعرف به هو الإمام العالم غانم المخزومى، نسب إليه لشهرة ذكره، وعلوِّ قدره

بين ابن عبدون وابن ضابط

ولما قرأ العالم الشهير أبو محمد بن عبدون فى أول شبابه على أبى الوليد بن ضابط النحوى المالقى جرى بين يديه ذكر الشعر، وكان قد ضجر منه، فقال:

* الشعر خُطَّةُ خَسْفِ *

فقال ابن عبدون معرضا به حين كان مُسْتَجْدِيا بالشعر [٣]، وكان إذ ذاك شيخا:

* لـكل طالب عُرْفِ *

---

(١) فى نسخة عند ب «محمد بن يعمر»

(٢) فى ا «هل أعرى لمن لم يشعر» محرفا　　(٣) فى ا «مستجديا بالنظم»

للشيخ عَيْبَةُ عيبٍ وللفتى ظَرْفُ ظَرْفِ

وابن ضابط هو القائل فى المظفر بن الأفطس :

نظمنا لك الشعر البديع لأننا علمنا بأن الشعر عندك ينفق

فإن كنت منى بامتداح مظفرا فإنىَ فى قصدى إليك مُوَفّقُ

من شعر غانم المخزومى

ودخل غانم المخزومى السابق ذكره ، وهو من رجال الذخيرة ، على الملك ابن حَبُّوس (١) صاحب غَرْنَاطة ، فوسع له على ضيق كان فى المجلس ، فقال :

صير فؤادك للمحبوب منزلة سُمُّ الخِيَاط مجالٌ للمحبين

ولا تسامح بغيضا فى معاشرة فقلما تَسَعُ الدنيا بغيضين

وهو القائل :

وقد كنت أغدو نحو قطرك فارحا فها أنا أغدو نحو قبرك ثاكلا

وقد كنت فى مَدْحِيكَ سحبانَ وائلٍ فها أنا من فرط التأسف باقلا (٢)

وله أيضا :

الصبر أولى بوقار الفتى من ملك يَهْتك سترالوقار

من لزم الصبر على حالة كان على أيامه بالخيار

بين ابن الغليظ وابن السراج

وكتب أبو على الحسن بن الغليظ إلى صاحبه أبى عبد الله بن السراج ، وقد قدم من سفر :

يا من أقلِّبُ طرفى فى محاسنه فلا أرى مثلَه فى الناس إنسانا

لو كنتَ تعلم ما لقيتُ بعدكَ ما شربت كأساولااستحسنت ريحانا

فورد عليه من حينه وقال : أردت مجاوبتك ، فخفت أن أبطىء ، وصنعت الجواب فى الطريق .

---

(١) فى ب « ابن حيوس » بالمثناة ، وليس بشىء

(٢) سحبان وائل : مضرب المثل فى الفصاحة ، وباقل : مضرب المثل فى العى والفهاهة

يا من إذا ما سقتنى الراحَ راحتهُ   أهدت إلى بهـا رَوْحًا وريحانا
من لم يكن فى صباح السبت يأخذها   فليس عندى بحكم الظرف إنسانا
فكن على حُسْنِ هذا اليوم مصطبحا   مذاكرا حسنا فيـــه وإحسانا
وفى البساتين إن ضاق المحلّ بنا   مَنْدُوحة لا عدمنا الدهـر بستانا

ووفد أبو على الحسن بن كسرين المالقى [الشاعر] المشهور على ملك إشبيلية السيد أبى إسحاق إبراهيم ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ، فأنشده قصيدة طار مطلعها فى الأقطار ، كلَّ مَطَار ، وهو :

قسما بحمص إنه لعظيم   فهى المقام وأنت إبراهيم

لعطاء المالقى فى وصف غادة

ووصف الشاعر عطاء المالقى غادةً جعلت على رأسها تاجا فقال :

وذات تاج رَصَّعوا دَوْرَه   فزاد فى لألأئهـا باللآلْ
كأنها شمس وقد تُوِّجت   بأنجم الجوزاء فوق الهلال
قد اشتكى الخلخالُ منها إلى   سوارها فاشتبها فى المقال(١)
وأجْرَيَا ذكر الوشاح الذى   لما يزل من خصرها فى مجال
فقال : لم أرض بما نلته   وليتنى مثلكما لا أزال
أغَصُّ بالخصر وأعْيابه   كغص ظمآن بماء زلال
وإنما الدهر بغـير الرضا   يقضى فكلٌّ غيرُ راضٍ بحال

وهو القائل :

سَلْ بحمامنـا الذى   كَلَّ عن شكره فَمِى(٢)
كم أرانى بقربه   جنـــة فى جهنم

أبو القاسم السهيلى

وكان يحضر حَلقة الإمام السُّهَيْلى وضىء الوجه من تلامذته ، فانقطع لعارض ،

---

(١) فى ا «الخلخال منها إلى سرارها» محرفا
(٢) كل : عي وعجز ، والمعنى أنه فوق الوصف .

فخرج السهيلى مارا فى الطريق الذى جرت عادته بالمشى فيه ، فوجد قَناة تصلح ، فمنعته من المرور ، فرجع وسلك طريقا آخر ، فمر على دار تلميذه الوضىء ، فقال له بعض أصحابه ممازحا بعبوره على منزله[1] ، فقال : نعم ، وأنشد ارتجالا :

جعلت طريقى على بابه   ومالى على بابه من طريق
وعاديت من أجله جيرتى   وآخيت من لم يكن لى صديق
فإن كان قتلى حلالا لكم   فسيروا بروحىَ سيراً رفيق

وأبو القاسم السُّهَيْلى مشهور ، عَرَّفَ به ابن خلكان وغيره ، ويكنى أيضا بأبى زيد ، وهو صاحب كتاب « الروض الأنُفُ » وغيره .

واجتاز على سهيل وقد خربه العدو لما أغار عليه وقتلوا أهله وأقاربه ، وكان غائبا عنهم ، فاستأجر من أركبه دابة ، وأتى به إليه ، فوقف بإزائه ، وأنشد :

يا دار أين البيض والآرامُ   أم أين جيران علىَّ كرامُ
راب المحبَّ من المنازل أنه   حَيَّاً فلم يَرْجِعْ إليه سلام
لما أجابنىَ الصَّدَى عنهم ولم   يلج المسامع للحَبِيبِ كلامُ
طارحتُ وُرْقَ حمامها مترنما   بمقال صبّ والدموعُ سِجَامُ
(يا دار ما فعلت بك الأيام   ضامتك والأيام ليس تضام)

وجرى بين السهيلى والرصافى الشاعر المشهور ما اقتضى قول الرصافى : بين السهيلى والرصافى

عفا الله عنى فإنى امرؤ   أتيت السلامة من بابها
على أن عندى لمن هاجنى   كنائنَ غَصَّتْ بنشابها
ولو كنت أرمى بها مسلما   لكان السهيلىُّ أولىٰ بها

وتوفى السهيلى بمراكش سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وزرت قبره بها مرارا

(١) مقول قول بعض أصحابه محذوف كما هو واضح .

سنة عشر وألف ، وسكن رحمه الله تعالى إشبيلية مدة ، ولازم القاضى أبا بكر بن العربى وابن الطراوة ، وعنه أخذ لسان العرب ، وكان ضريرا .

ومن شعره أيضا لما قال : « كيف أمسيت » مكان « كيف أصبحت » [(١)] :

لئن قلت صبحا كيف أمسيت مخطئا ... فما أنا فى ذاك الخطا بملوم

طلعتَ وأفقى مُظلم لفراقكم ... فخلتكَ بدرا والمساء همومى

أبو الفضل بن حسداى الوزير الكاتب

وحكى أن الوزير الكاتب أبا الفضل بن حسداى الإسلامى السرقسطى ، وهو من رجال الذخيرة ، عشق جارية ذهبت بلُبِّه ، وغلبت على قَلْبه ، فجنّ بها جُنُونه ، وخلع عليها دينه ، وعلم بذلك صاحبها [(٢)] فزفها إليه ، وجعل زمامها فى يديه ، فتحامى [(٣)] عن موضعه من وصلها أنفة من أن يظن الناس أن إسلامه كان من أجلها فحسن ذكره ، وخفى على كثير من الناس أمره ، ومن شعره قوله :

وأطر بنا غيم يمازج شمسه ... فيستر طورا بالسحاب ويكشف

ترى قُزَحًا فى الجو يفتح قوسه ... مكبا على قطن من الثلج يندف

وكان فى مجلس المقتدر بن هُودٍ ينظر فى مجلد ، فدخل الوزيرُ الكاتب أبو الفضل ابن الدباغ وأراد أن يندِّر به ، فقال له ، وكان ذلك بعد إسلامه : يا أبا الفضل ، ما الذى تنظر فيه من الكتب لعله التوراة ؟ فقال : نعم ، وجلدها [(٤)] من جلدٍ دَبَغه مَنْ تعلم ، فمات خجلا ، وضحك المقتدر .

أبو الربيع السرقسطى

وأراد الشاعر أبو الربيع سليمان السرقسطى حضور نديم له ، فكتب إليه :

بالراح والريحان والياسمين ... وبكرة الندمان قبل الأذين

وبهجة الروض بأندائه ... مقلداً منه بعقد ثمين

ألا أجِبْ سَبْقاً ندائى إلى الـ ... ـكأس تبدَّتْ لذةً الشاربين

هامت بها الأعين من قبل أن ... يَخْبُرَهَا الذوق بحق اليقين

---

(١) فى ا « كيف أمسيت موضع كيف أصبحت » .

(٢) فى ا « وعلم بذلك صاحبه » (٣) فى ا « فتجافى عن موضعه »

(٤) فى ا « وتجليدها من جلد ـ إلخ » وأراد أن أباه دباغ .

لاحت لدينا شفقاً معلنـا فـكن لها بالله صبحا مبين

بين علي بن خير وابن عبد الصمد السرقسطي

وكتب على بن خير التطيلى إلى ابن عبد الصمد السرقسطى يستدعيه إلى مجلس أنس : أنا ـ أطال الله تعالى بقاء الكاتب سراج العلم وشهاب الفهم ! ـ فى مجلس قد عَبِقَتْ تفاحه ، وضحكت راحُه ، وخفقت حولنا للطرب ألوية ، وسالت بيننا للهو أودية ، وحضرتنا مُقْلَة تسأل منك إنسانها ، وصحيفة فكن عُنْوَانَها ، فإن رأيت أن تجعل إلينا القصد ، لنحصل بك فى جنة الخُلْد ، صَقَلْت نفوساً أصْدَأها بعدُك ، وأبرزت شمساً أدجاها[١] فقدُك .

فأجابه ابن عبد الصمد : فضضتُ ـ أيها الكاتب العليم ، والمِصْقَع الحبر الصميم ـ طابَعَ كتابك ، فمنحنى منه جوهر منتخب ، لايشوبه مَخْشَلب ، هو السحر إلا أنه حَلال ، دلَّ على ودحنيت ضلوعك عليه ، ووثيق عهد انتدب كريم سجيتك إليه ، فسألت فالق الحَبْ ، وعامر القلب بالحُب ، أن يصون لى حظى منك ، ويَدْرأ لى[٢] النوائب عنك ، ولم يمنعنى أن أصرف وجه الإجابة إلى مرغوبك ، وأمتطى جواد الانحدار إلى محبوبك ، إلا عارضُ ألمٍ ألمَّ بى فقيد بقيده نشاطى ، ورَوَّى براحته بساطى ، وتركنى أتحامل[٣] على فراشى كالسليم ، وأستمطر الإصباح من الليل البَهيم ، وأنا منتظر لإدباره .

قصة من رقة طباع أهل الأندلس

ومن لطف أهل الأندلس ورقة طباعهم ما حكاه أبو عمرو بن سالم المالقى قال : كنت جالساً بمنزلى بمالَقَةَ ، فهاجت نفسى أن أخرج إلى الجبانة ، وكان يوماً شديد الحر ، فراودتها على القعود ، فلم تمكنى من القعود ، فمشيت حتى انتهيت إلى مسجد يعرف برابطة الغبار ، وعنده الخطيب أبو محمد عبد الوهاب ابن على المالقى ، فقال لى : إنى كنت أدعو الله تعالى أن يأتينى بك ، وقد فعل ،

(١) فى ا « وأنرت شموسا أدجاها فقدك » .

(٢) فى ا « ويدر إلى النوائب » وضبطت بفتحة على الياء وضمة على الدال وشد الراء مفتوحة ، وهو تحريف لايقضى العجب منه .

(٣) فى ا «وتركنى أتململ على فراشى كالسليم» .

فالحمد لله ، فأخبرته بما كان منى ، ثم جلست عنده ، فقال : أنشدنى ، فأنشدته لبعض الأندلسيين :

غَصَبوا الصباح فقسَّموه خدوداً ... واستوعبوا قُضُبَ الأَرَاكِ قدوداً
ورأوا حصا الياقوت دون نحورهم ... فتقلَّدوا شهب النجوم عقوداً
لم يكفهم حــدُّ الأسنة والظُّبَا ... حتى استعاروا أعيناً وخـدوداً

فصاح الشيخ ، وأغمى عليه ، وتصبَّبَ عَرَقا ، ثم أفاق بعد ساعة ، وقال : يابنى اعذرنى فشيئان يقهرانى(١) ، ولا أملك نفسى عندهما : النظر إلى الوجه الحسن ، وسماع الشعر المطبوع ، وانتهى .

وستأتى هذه الأبيات فى هذا الباب بأتم من هذا .

وعلى كل حال فهى لأهل الأندلس ، لا لابن دريد كما ذكره بعضهم ، وسيأتى تسمية صاحبها الأندلسى ، كما فى كتاب « المغرب » لابن سعيد العَنْسى المشهور ، رحمه الله تعالى !

وقال بعض الأدباء ليحيى الجزار ، وهو يبيع لحم ضأن :

* لَحمُ إناث الـكِباشِ مهزول *

فقال يحيى :

* يقول للمشترين مَهْ زُولُوا *

وقال التطيلى الأعمى فى وصف أسد رخام يرمى بالماء على بحيرة :

أســد ولو أنى أُنَا ... قِشُهُ الحساب لقُلْتُ صخره
وكأنه أســد السما ... ءِ يمج من فيــه المجره

وحضر جماعة من أعيان الأدباء مثل الأبيض وابن بقى وغيرهما من الوشاحين ، واتفقوا على أن يصنع كل واحد منهم مَوَشَّحة ، فلما أنشد الأعمى موشحته التى مطلعها :

ضاحك عن جمان ... سافر عن بدر

(١) الأفصح فى العربية « يقهرانى » بنونين

ضاق عنه الزمان وحواه صدرى

خرَّقَ كل منهم موشحته .

وتحاكمت امرأة إلى القاضى أبى محمد عبد الله اللَّارِدِىِّ(١) الأصبحى ، وكانت ذات جمال ونادرة، فحكم لزوجها عليها ، فقالت له : من يُضيع قلبَه كلُّ طرف فاتر جدير أن يحكم بهذا ، تشير إلى قوله :

أين قلبى ؟أضاعه كل طَرْفٍ فاتر يُصْرَعُ الحليمُ لديه
كلما ازداد ضعفه ازداد فتكا أى صبر ترى يكون عليه ؟

بين ابن خفاجة وابن عنق الفضة

وحضر أبو إسحاق بن خَفَاجة مجلساً بمُرْسِية مع أبى محمد جعفر بن عنق الفضة الفقيه السالمى ، وتذاكرا ، فاستطال ابن عنق الفضة ، ولعب بأطراف الكلام ، ولم يكن ابن خفاجة يعرفه ، فقال له : يا هذا لم تترك لأحد حظاً فى هذا المجلس ! فليت شعرى من تكون ؟ فقال : أنا القائل :

الهوى علمنى سُهْدَ الليالى ونظام الشعر فى هذى اللآلى
كلما هبت شمال منهمُ لعبت بى عن يمين وشمال
وأرقت فكرتى أرواحُهَا فأتت منهن بالسحر الحلال
كان كالملح أجاجا خاطِرِى وسحاب الحب أبدته زلال

فاهتز ابنُ خفاجة ، وقال : من يكون هذا قوله لا ينبغى أن يُجْهل ، ولك المعذرة فى جهلك ، فإنك لم تُعَرِّفنا بنفسك ، فبالله من تكون ؟ فقال : أنا فلان ، فعرفه وقضى حقه .

وحكى ابن غالب فى « فرحة الأنفس » أن الوزير أبا عثمان بن شنتفير وأبا عمر ابن عبد شلب(٢) وفدا رسولين على المعتمد بن عباد ، عن إقبال الدولة بن مجاهد

(١) فى ب « الأزدى » .

(٢) فى ا « ابن غند شلب » .

والمعتصم بن صمادح والمقتدر بن هود ، لإصلاح ما كان بين المعتمد و بين ابن ذى النون ، فسر المعتمد بهم وأكرمهم ، ودعاهم إلى طعام صنعه لهم ، وكان لا يظهر شرب الراح منذولى الملك ، فلما رأوا انقباضه عن ذلك تحاموا الشراب ، فلما أمر بكتب أجوبتهم كتب له[١] أبو عامر :

بقيت حاجة لعبد رغيب ... لم يدع غيرُهَا له من نصيب
هى خيرية المساء حديثاً ... وأنا فى الصباح أخشى رقيبى[٢]
فإذا أمس كان عندى نهاراً ... لم تخفنى عليه بعد الغروب
و إذا الليل جَنَّ حدّثت جُلاّ ... سِى بما كان من حديث غريب[٣]
قيلَ إنَّ الدُّجى لديك نهارٌ ... وكَذَاكَ الدُّجى نهارُ الأريب
فتمنَّيْتُ ليلةً ليس فيها ... لذَكَا ذلِكَ السَّنَا مِنْ مَغِيبِ
حيث أعطيك فى الخلاء وتعطيـ ... ـنى مداماً كمثل ريق الحبيب
ثم أغدو كأننى كنت فى النو ... م وأخفى المنام خوف هزيب

والهزيب : الرقيب العتيد فى كلام أهل الأندلس ، فسر المعتمد وانبسط بانبساطه ، وضحك من مجونه ، وكتب إليه :

يا مجاباً دعا إلى مستجيب ... فسمعنا دعاءه من قريب
إن فعلت الذى دعوت إليه ... كنت فيما رغبت عين رغيب

واستحضره فنادمه خالياً ، وكساه ووصله ، وانقلب مسروراً ، وظن المعتمد أن ذلك يخفى من فعله عن ابن شنتفير ، فأعلم[٤] بالأمر القائد بن مرتين ، فكاد يتفطر حسداً وكتب إلى المعتمد :

أنا عبد وليته كل بر ... لم تدع من فنون برك فنا
غير رفع الحجاب فى شُرْبك الرا ... ح فماذا جناه أن يتجنى

(١) فى ا « كتب إليه أبو عامر » .
(٢) فى ا « أنا خيرته المساء حديثا »
(٣) فى ا « من حديث عجيب »
(٤) فى ب « فأعلمه بالأمر — إلخ »

وتمنى شراب سؤرك فى الكأ س فبالله أعطه ما تمنى

فسرته أبياته ، وأجابه :

يا كريم المحل فى كل مَعْنَى والكريم المحل ليس يُعَنَّى
هذه الخمر تبتغيك .فخذها أوفدَعْهَا أو كيفما شئت كنا

وكان يقرأ فى مجلس ملك السهلة أبى مروان بن رَزِين ذى الرياستين ديوان شعر محمد بن هانى ، وكان القارىء فيه بَلَه ، فلما وصل إلى قوله :

* حرام حرام زمان الفقير *

اتفق أن عَرَضَ للملك ما اشتغل به ، فقال للقارىء : أين وقفت ؟ فقال : فى حرام فقام الملك وقال : هذا موضع لا أقف معك فيه ، أُدخل أنت وحدك ، ثم دخل إلى قصره ، وانقلب المجلس ضحكا

وكان للملك المذكور وزير من أعاجيب الدهر ، وهو الكاتب أبو بكر بن سدراى ، وذكره الحجارى فى « المسهب » وقال : إن له شعراً أرق من نسيم السَّحَر ، وأندى من الطَّل على الزهر ، ومنه قوله :

من شعر أبى بكر بن سدراى الوزير

ما ضركم لو بعثتم ولو بأدنى تحيهْ
تهزنى من شذَاها إليكم الأريحيه
خذوا سلامى إليكم مع الرياح النَّدِيه
فى كل سحرة يوم تَتْرَى وكل عشيه (١)
يارَبِّ طال اصطبارى ما الوجد إلا بليه
غَيْلَانُ بالشرق أضحى وحَلَّتِ الغربَ مَيَّه (٢)

وقوله :

سأبغى المجد فى شرق وغرب فما ساد الفتى دون اغتراب

(١) تترى : تأتى متتابعة ، ووقع فى ا « تترى » محرفا .

(٢) غيلان : اسم ذى الرمة ، وهو غيلان بن عقبة ، ومية : اسم محبوبته التى أكثر من التغزل فيها .

فإن بُلِّغْتُ مأمولا فإنى ... جَهَدْتُ ولم أقصِّرْ فى الطلاب
وإن أنا لم أفز بمراد سعيى ... فكم من حسرة تحت التراب

من شعر مروان بن عبد العزيز ملك بلنسية

وقال ملك بلنسية مَرْوَان بن عبد العزيز لما ولى مكانه من لا يساويه :

ولاغرو بعدى أن يُسَوَّدَ معشر ... فيضحى لهم يومُ وليس لهم أمْسُ
كذاك نجوم الجوّ تبدو زواهرا ... إذا ماتوارَتْ فى مغاربها الشمسُ

وقال ابن دِحية : دخلت عليه وهو يتوضأ فنظر إلى لحيته وقد اشتعلت بالشيب اشتعالا ، فأنشد لنفسه ارتجالا :

ولما رأيت الشيب أيقنتُ أنه ... نَذِيرٌ لجسمى بانهدام بنائِهِ
إذا ابيضّ مخضرُّ النبات فإنه ... دليل على استحصاده وفنائه[(١)]

من شعر أبى عامر بن الوزير

واعتل ابن ذى الوزارتين أبى عامر بن الفرج وزير المأمون بن ذى النون ، وهو من رجال الذخيرة والقلائد ، فوصف له أن يتداوى بالخمر العتيق ، وبلغه أن عند بعض الغلمان منها شيئا ، فكتب إليه يستهديه :

ابعث بها مثلَ وُدِّكْ ... أرقَّ من ماء خدك
شقيقة النفس ، فانضح ... بها جَوَى ابنى وعَبْدِكْ

وهو القائل معتذراً عن تخلفه عمن جاءه منذرا :

ما تخلفت عنك إلا لعذر ... ودليلى فى ذاك خوفى عليكا[(٢)]
هبك أن الفرار من غيرعذر ... أتراه يكون إلا إليكا

وله من رسالة هَنَاء :

أهنئ بالعيد مَنْ وَجْهُهُ ... هو العيد لولاح لى طالعا
وأدعو لى الله سبحانه ... بشمل يكون لنا جامعا

وكتب إلى الوزير الحُصْرى[(٣)] يستدعيه أن يكون من ندمائه ، فكتب إليه الوزيرُ

(١) استحصاده : طلبه الحصاد ، يعنى أنه قد يبس وجف .

(٢) فى ا « ودليلى فى ذاك حرصى عليكا » (٣) فى ا « الوزير المصرى »

الحصرى يستعلمه اليوم ، فلما أراده كتب إليه :

ها قد أهبت بكم وكُلُّكُمُ هَوًى وأحقكم بالشكر منى السابق

كالشمس أنت وقد أظل طلوعها فاطلع و بين يديك فجر صادقُ

وله فى رئيس [(١)] مُرْسية أبى عبد الرحمن بن طاهر ، وكان ممتع المجالسة كثير النادرة :

قد رأينا منك الذى قد سمعنا فغدا الخُبْرُ عاضد الأخبار

قد وردنا لديك بحرا نميرا وارتقينا حيث النجوم الدرارى [(٢)]

ولَكَمْ مجلسٍ لديك انصرفنا عنه مثل الصبا عن الأزهار

من شعر أبى الحسن على بن حريق الأديب

وشرب الأديب الفاضل أبو الحسن على بن حريق عشيةً مع من يَهْواه ، ورام الانفصال عنه لداره ، فمنعه سَيْلٌ حال بينه و بين داره ، فبات عنده على غير اختياره ، فقال ابن حريق :

ياليلة جادت الليالى بها على رغم أنف دهرى [(٣)]

للسيل فيها علىَّ نُعْمَى يقصر عنها لسان شكرى

أبَاتَ فى منزلى حبيبى وقام فى أهله بعذر

فبتُّ لا حالة كحالى ضجيعَ بدرٍ صريع سكر

يا ليلة القدر فى الليالى لأنت خير مِنْ ألف شهر

ومن حسنات ابن حريق المذكور قوله :

ياويح من بالمغرب الأقصى ثوى حِلْفَ النوى وحبيبُهُ بالمشرق

لولا الحذار على الورى لملأت ما بينى و بينك من زفير محرق

وسكبت دمعى ثم قلت لسكبه من لم يذب من زفرة فليغرق

لكن خَشِيت عقاب ربى إن أنا أحرقت أو أغرقت من لم أخلق

---

(١) فى ا « رائس مرسيه » (٢) فى ا « إذ وردنا لديك بحراً نميراً »

(٣) فى ا « ياليلة جادت الأمانى » .

وله :

لم يبق عندى للصبا لذة إلا الأحاديث على الخمر

وله :

فقبلت إثرك فوق الثرى وعانقت ذكرك فى مضجعى

وله :

إن ماء كان فى وَجْنَتها وردته السن حتى نشفا
وذوى العُنَّاب من أنملها فأعادته الليالى حَشَفاً(١)

وأورد له أبو بحر فى «زاد المسافر» قولَه :

كلمتُـهُ فاحمرّ من خجل حتى اكتسى بالعسجد الوَرِقُ
وسألته تقبيلَ راحتـه فأبى وقال أخاف أحترق
حتى زفيرى عاق عن أملى إنَّ الشَّقِىَّ بريقه شَرِقُ(٢)

وقوله فى السواقى :

وكأنما سكن الأراقمُ جوفهَا من عهد نوح مدّة الطوفان
فإذا رأينا الماء يطفح نضنضت من كل خرق حية بلسان(٣)

لأبى جعفر ابن الذهبي

وقال الفيلسوف أبو جعفر بن الذهبى فيمن جمع بينه و بين أحد الفضلاء :

أيها الفاضل الذى قد هدانى نحو من قد حمدته باختبار
شكر الله ما أتيت وجازا ك ولازلت نجم هدى لسارى
أى برق أفاد أى غمـام وصباح أدى لضوء نهار
و إذا ما النسيم كان دليلى لم يُحِلْنِى إلا على الأزهار

وأنشد أبو عبد الله محمد بن عبادة الوشاح المعتصم بن صمادح شعرا يقول فيه :

---

(١) فى ا « فأعارتها الليالى خشفا » تحريف قبيح .
(٢) فى ب « إن الشقاء بريقه شرق » محرفا .
(٣) فى ا « من كل خرت حية بلسان » .

ولو لم أكن عبدا لآلِ صمادح وفى أرضهم أصْلِي وعَيْشى ومَوْلدى
لما كان لى إلا إليهم ترحُّلٌ وفى ظِلِّهم أمسى وأضحى وأغتدى

فارتاح ، وقال : يا ابن عبادة ، ما أنصفناك بل أنت الحر لا العبد ، فاشرح لنا فى أملك ، فقال : أنا عبدكم كما قال ابن نُبَاتة :

لم يُبْقِ جودُكَ لى شيئا أؤمله تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

فالتفت إلى ابنه الواثق يحيى ولى عهده وقال : إذا اصطنعت الرجال فمثل هذا فاصطنع ، ضمه إليك وافعل معه ماتقتضيه وصيتى به ، ونبهنى إليه كل وقت ، فأقام نديما لولى العهد المذكور

وله فيهما الموشحات المشهورة ، كقوله :

كم فى قدود البان تحت اللمم من أقمر عَوَاطِى
بأنمل وبنان مثل العَنَمْ لم تنبرى للعاطى

بين المعتصم بن صمادح وخلف السميسر

ولما بلغ المعتصم أن خلف بن فرج السميسر هجاه احتال فى طلبه حتى حصل فى قبضته ، ثم قال له : أنشدنى ماقلت فى ، فقال له : وحَقِّ مَنْ حَصَّلنى فى يدك ماقلت شرا فيك ، وإنما قلت :

رأيت آدم فى نومى فقلت له : أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك ، قال: إذن حواء طالقة إن كان ما زعموا

فأباح(١) ابن بلقين صاحب غَرْناطة دمى ، فخرجت إلى بلادك هاربا فوضع على مَنْ أشاع مابلغك عنى لتقتلنى أنت فيدرك ثأره بك ، ويكون الإثم عليك ، فقال : وماقلت فيه خاصة مضافا إلى ماقلته فى عامة قومه ؟ فقال : لما رأيته مشغوفا بتشييد قلعته التى يتحصن فيها بغَرْناطة قلت :

---

(١) فى ا « فنذر ابن بلقين » .

يبنى على نفسه سَفَاهاً ... كأنه دودة الحـــرير

فقال له المعتصم : لقد أحسنت فى الإساءة إليه ، فاختر : هل أحسن إليك وأخلى سبيلك أم أجيرك منه ؟ فارتجل :

خـــيرنى المعتصمُ ... وهو بقَصْدِى أعْـلَمُ

وَهْوَ إذَا يجمع لى ... أمناً ومَنًّا أكرم(١)

فقال : خاطرك خاطر شيطان ، ولك المَنُّ(٢) والأمان ، فأقام فى إحسانه بأوطانه ، حتى خلع عن ملـكه وسلطانه

ولما أنشده عمر بن الشهيد قصيدته التى يقول فيها :

سَبْطُ البنَانَ كأن كل غمامة ... قد ركبت فى راحتيه أناملا

لاعَيْشَ إلا حيث كنت، وإنما ... تمضى ليالى العمر بعدك باطلا

التفت إلى من حضر من الشعراء وقال : هل فيكم من يحسن أن يجلب القلوب بمثل هذا ؟ فقال أبو جعفر [بن](٣) الخراز البطرنى : نعم ، ولـكن للسعادة هَبَّات ، وقد أنشدت مولانا قبل هذا أبياتا أقول فيها :

وما زلت أجنى منك والدهر مُمْحِلٌ ... ولا ثمر يجـنى ولا الزرع يحصد

ثمار أيادٍ دانيات قطـــوفُهَا ... لأغصانها ظل علىَّ مُمَـــدَّد

يُرَى جاريا ماء المكارم تحتها ... وأطيار شكرى فوقهن تغـــرد

فارتاح المعتصم ، وقال : أأنت أنشدتنى هذا ؟ قال : نعم ، قال : والله كأنها مامرت بسمعى إلى الآن ، صدقت للسعد هَبَّات ، ونحن نجيزك عليها بجائزتين : الأولى لها ، والثانية لمَطْل راجيها وغمط إحسانها ، انتهى .

وقال بعض ذرية ملوك إشبيلية :

---

(١) فى ا «وهو أن يجمع لى» ولايتم به الوزن ، وفى نسخة «وهو بأن يجمع لى»

(٢) فى ا «ولك الأمن والأمان»

(٣) كلمة « بن » لاتوجد فى ب

نثر الورد بالخليج وقد درج أمواهه هبوب الرياح(١)
مثل درع الكمىّ مزقها الطعن فسالت بها دماء الجراح

لابن صارة وقال ابن صارة فى النارنج :

كُرَاتُ عقيق فى غصون زبرجد بكف نسيم الريح منها صوالجُ
نقبلها طوراً وطوراً نشمها فهن خدود بيننا ونوافج

لابن الزقاق وقال أبو الحسن بن الزقاق ابن أخت ابن خفاجة :

وما شق وَجْنَتَهُ عابثا ولكنها آية للبشر
جلاها لنا الله كيما نرى بها كيف كان انشقاق القمر

وقال :

ضربوا ببطن الواديين قِبَابَهُمْ بين الصوارم والقنا الميَّادِ
والوُرْقُ تهتف حولهم طرباً بهم فبكل محنية ترنُّمُ شادى
يابانَةَ الوادى كفى حزناً بنا أن لا نطارح غير بانة وادى

وقال :

نحن فى مجلس به كمل الأنس ولو زُرْتَنَا لزاد كمالا
طَلَعت فيه من كؤس الْحُمَيَّا ومن الزهر أنجم تتلالا
غير أن النجوم دون هلال فلتكن منعما لهن الهلالا(٢)

وقال :

وهو يتها سمراء غَنَّتْ وانثنت فنظرت من ورقاء فى أملودها(٣)
تشدو ووَسْوَاسُ الحلى يجيبها مهما انثنت فى وشيها وعقودها
أو ليس مِنْ بِدْعِ الزمان حمامة غنت فغنى طَوْقُهَا فى جيدها

---

(١) فى ا « وقد درجه بالهبوب مر الرياح » .
(٢) فى ا « فلتكن منعما لهن هلالا » (٣) أملودها : أراد الغصن

وقال :

لئن بكيت دما والعزم من شيمى على الخليط فقد يبكى الحسام دما

من شعر أبى تمام غالب بن رباح الحجام

وقال أبو تمام غالب بن رباح الحجام فى دولاب طار منه لوح فوقف :

وذات شَدْوٍ وَمالها حلم كل فتى بالضمير حياها
وطار لوح بها فأوقفها كلمحة العين حين جراها[1]

وكان المذكور رُبِّىَ فى قلعة رباح غربى طُلَيْطُلة ، ولا يعلم له أب ، وتعلم الحجامة فأتقنها ، ثم تعلق بالأدب[2] حتى صار آية ، وهو القائل فى ثُرَيَّا الجامع :

تحكى الثريا الثريا فى تألقها وقد عرَاها نسيمٌ فهى تتقّد
كأنها لذوى الإيمان أفئدة من التخشع جوفَ الليل ترتعد

وقال :

زرت الحبيب ولا شيء أحاذره فى ليلة قد لوت بالغمض أشفارا
فى ليلة خِلْتُ من حسن كواكبها دراهما وحسبتُ البدرَ دينارا

وقال فى الثريا أيضا :

أُنظر إلى سُرُج فى الليل مشرقة من الزجاج تراها وهى تلتهب
كأنها ألسُنُ الحيات قد برزت عند الهجير فما تنفك تضطرب

وقال :

ترى النسر والقتلى على عَدَد الحصا وقد مزقت أحشاءها والترائبا
مُضَرَّجة مما أكلن كأنها عجائز بالحِنَّا خَضَبْنَ ذَوَائِبا

وقال ، وقد أبدع غاية الإبداع ، وأتى بما يحير الألباب ، و إن كان أبو نواس فاتح هذا الباب :

---

(١) فى ا « وطار لمح بها فأوقفها » وفيها « ثم أجراها » .
(٢) فى ا « بالآداب » .

وكأسٍ ترى كسرى بها فى قرارة ... غريقا ولكن فى خليج من الخمر
وما صوّرته فارسٌ عَبَثاً به ... ولكنهم جاءوا بأخفى من السحر
أشاروا بما كانوا له فى حياته ... فنومى إليه بالسجود وما ندرى

وما أحلى قوله :

الأقحوان رمى عليك ظُلاَمة ... لما عَنُفْتَ عليه بالمسواك[١]
لا يحمل النَّوْرُ الأنيق تمسُّه ... كفٌّ بعُودِ بَشَامة وأراكِ
وجلاؤه المخلوق فيه قد كفى ... من أن يُرَاع عَرَاره بسواك

وقوله :

صغار الناس أكثرهم فسادا ... وليس لهم لِصَالحة نُهُوض
ألم تر فى سباع الطير سِرًّا ... تسالمنا ويأكلنا البعوض

وقد بلغ غاية الإحسان فى قوله :

فما للمَلْكِ ليس يرى مكانى ... وقد كحلت لواحظه بنورى
كذا المسواك مطرحا مهانا ... وقد أبقى جِلاَءً فى الثغور

ومن حسناته قوله :

لى صاحب لا كان من صاحب ... فإنه فى كبدى جرحه
يحكى إذا أبصر لى زلة ... ذبابةً تضرب فى قرحه

ولقيه أبو حاتم الحِجَارى على فرس فى غاية الضعف والرذالة قد أهلكها الوَجَى[٢]، وكانا فى جماعتين ، فقال له : يا أبا تمام ، أنشدنى قولك :

وتحتى َريحٌ تسبق الريح إنْ جرت ... وما خلْتُ أن الريح ذاتُ قوائم
لها فى المدى سَبْقٌ إلى كل غاية ... كأن لها سبقا يفوق عزائمى

(١) فى ا « الأقحوان أرى عليك ظلامة » .
(٢) الوجى — بفتح الواو والجيم — رقة فى الأقدام حتى يشق عليها المشى .

وهمّةُ نفسى نزّهتها عن الوجى فياعجبا حتى العلا فى البهائم

فلما أنشده إياها ردَّ رأسه أبو حاتم إلى الجماعتين وقال : ناشدتكم الله أيجوز لحجام على فرس مثل هذه الرمكة الهزيلة العرجاء ، أن يقول مثل هذا ، فضحك جميعُ من حَضَر ، وأقبل أبو تمام من غيظه(١) يسبه .

ومن شعر الحجام المذكور قوله :

لايفخر السيفُ والأقلام فى يده قدصار قطع سيوف الهند للقصب
فإن يكن أصلها لم يَقْوَ قوتها فإنّ فى الخمر معنى ليس فى العنب

وقال :

ثقلَتْ على الأعداء إلا أنها خَفَّتْ على السَّبَّاب والإبهام
أخذت من الليل البهيم سواده وبدت تنمق أوجه الأيام

وقال :

نظر الحسود فازدرى لى هيئة والفضل منى لايزال مبينا
قَبُحَتْ صفاتى من تغير وده صَداُ المراةِ يقبح التحسينا(٢)

وقال :

تَصبَّر وإن أبدى العدوّ مذمة فمهما رَمَى ترجع إليه سهامه
كما يفعل النحل الملم بلسعه يريد به ضرا وفيه حمامه

وقال :

وبارد الشعر لم يؤلم به ولقد أضر منه جميع الناس واعتزلا(٣)
كأنه الصِّلّ لاتؤذيه رِيقَتُهُ حتى إذا مَجَّها فى غيره قتلا

---

(١) فى ا « وأقبل أبو تمام فى غيظه يسبه »
(٢) المراة أصلها المرآة ، فألقى فتحة الهمزة على الراء ، ثم حذف الهمزة
(٣) فى ا « ولقد * أضج منه جميع الناس »

لابن الزقاق

وقال ابن الزقاق :

دعاك خليل والأصيل كأنه ... عليل يقضى مدة الرَّمَق الباقى
إلى شَطِّ منساب كأنك ماؤه ... صَفاءَ ضمير أو عُذُوبَةَ أخلاق
ومهوى جناح للصبا يمسح الربا ... خفى الخوافى والقوادم خفّاق
على حين راح البرق فى الجوّ مغمدا ... ظُباه ودمع المزن من جفنه رَاقِ
وقد حان منى للرياض التفاتة ... حبست بها كأسى قليلا عن الساقى
على سطح خِيرِىٍّ ذكرتك فانثنى ... يميلُ بأعناق ويرنُو بأحداق
فصل زهرات منه هذا كأنها ... وقد خَضَلَتْ قطراً محاجرُ عشاقِ

لابن مسعدة الأوسى

ولمامدح الحسيب أبو القاسم بن مسعدة(1) الأوسى أمير المؤمنين عبد المؤمن بقوله :

حنانيك مَدْعُوّا ولبيك داعيا ... فكلٌّ بما ترضاه أصبح راضيا
طلعت على أرجائنا بعد فترة ... وقد بَلَغَتْ منا النفوس التراقيا
وقد كثرت منا سيوف لدى العلا ... ومن سيفك المنصور نبغى التقاضيا
وغيرك نادينا زمانا فلم يجب ... وعزمك لم يحتج علاه مناديا

كتب اسمه وزير عبد المؤمن فى جملة الشعراء ، فلما وقف على ذلك عبد المؤمن ضرب على اسمه وقال : إنما يكتب اُسم(2) هذا فى جملة الحساب ، لا تدنّسوه بهذه النسبة ، فلسنا ممن يتغاضى على غمط حسبه ، ثم أجزل صِلَته ، وأمر له بضَيْعة يحرث له بها ، يعنى بذلك أنه من ذرية ملوك ، لأن جده كان ملك وادى الحِجَارة

لأبى بكر ابن أزرق

وقال أبو بكر محمد بن أزرق :

هل عَلِمَ الطائرُ فى أيْكِهِ ... بأن قلبى للحمى طائر
ذكرنى عهد الصبا شَجْوُه ... وكل صَبٍّ للصبا ذاكر
سقى الحَيَا عَهْدًا لهم بالحمى ... دمع له ذكرهم ناثر(3)

---

(1) فى ب « بن سعدة » (2) فى ا « إنما يكتب رسم هذا »
(3) في ب « سقى عهودا لهم بالحمى »

لأبى جعفر ابن أزرق

وقال أبو جعفر بن أزرق :

أراك ملكت الخافقين مهابة | بها ما تلحُّ الشهب بالخفقان (١)
وتُغْضِى العيونُ عن سَنَاكَ كأنها | تقابل منك الشمس فى اللمعان (٢)
وتصفر ألوان العداة كأنما | رُمُوا منك طولَ الدهر باليرقان

لأبى القاسم ابن أزرق

وقال أبو القاسم بن أزرق :

ذاك الزمان الذى تَقَضَّى | ياليته عاد منه حِينُ
بكلِّ عمرى الذى تبقَّى | وما أنا فى الشِّرا غَبِينُ

لراشد بن عريف

وقال راشد بن عريف الكاتب :

جمع فى مجلسٍ نَدَامَى | تحسدنى فيهمُ النجوم
فقال لى منهم نديم | مالك إذ قمتُ لا تقوم
فقلت إن قمت كل حين | فإن حظى بكم عظيم
وليس عندى إذن ندامى | بل عندىَ المقعِدُ المقيم

لابن عائش

وقال الحسيب أبو جعفر بن عائش :

ولى أخ أورِدُهُ سلسلا | لكنه يوردنى مالحا
ألقاه كى أبسطه ضاحكا | ويلتقينى أبدا كالحا
وليس ينفك عنائى به | ما رُمْتُ من فاسده صالحا

قال الحجارى : وكتب إلى جدى إبراهيم فى يوم صحو بعد مطر :

إذا رأيت الجوّ يَصْحُو فلا | تصحُ ، سقاك الله من سكر
تعال فانظر لدموع الندى | ما فعلت فى مبسم الزهر
ولا تقل إنك فى شاغل | فليس هذا آخر الدهر

---

(١) فى ا « بها ما تلح الشهب فى الخفقان »

(٢) فى ا « عن سناك كأنما »

تخلف مافات سوى ساعة تقتض فيهـــا لذة الخمر

فأجابه :

لبيك لبيك ولو أنـنى أسعى على الرأس إلى مصر
فـكيف والدار جوارى وما عندىَ من شغل ولا عذر
ولو غدا لى ألف شُغْل بلا عذر تركت الكل للحشر
وكلما أبصـــرنى ناظر ببابكم عَظَّم من قـدرى
أنَا الذى يشربها دائمـا ماحضرت فى الصَّحو والقطر[1]
وليس نَقْلِى أبدا بعـدها إلا الذى تَعهد من شكرى

[قال الحجارى : ولم يقصر جدى فى جوابه ، ولـكن ابن عائش أشعر منه فى ابتدائه ، ولو لم يكن له إلا قوله * تعال فانظر ـ إلخ * لـكفاه][2] قال : وفيه يقول جدى [إبراهيم][2] يمدحه :

ولو كان ثان فى الندى لابن عائش لما كان فى شرق وغرب أخو فقر
يهش إلى الأمداح كالغصن للصبا وبشر محياه ينوب عن الزهر[3]
فيارب زد فى عمره إن عمره حياة أناس قد كفوا كلفة الدهر

وقتله ابن مسعدة ملك وادى الحجارة الثائر بها ، ولما قدمه ليقتله قال : ارفق على حتى أخاصم عن نفسى ، فقال : على لسانك قتلناك ، فقال له : لا رَفَقَ الله عليك يوم تحتاج إلى رِفْقه! فقال بجبروتيته[4] : مارهبنا السيوف الحداد ، ونرهب[5] دعاء الحساد.

لأبى الحسن ابن شعيب

وقال أبو الحسن على بن شعيب :

انزعي الوَشْيَ فهو يستر حُسْنًا لم تحـــزه برقمهن الثياب
ودعينى عسى أقبل ثغـرا لَذَّ فيه اللَّمَى وطابَ الرضاب

(١) فى ب « إلا الذى يشربها دائما » وما أثبتناه فى ا ونسخة عند ب
(٢) مابين المعقوفين ساقط من ب (٣) فى ب « ونشر محياه »
(٤) فى ا « بجبروته » (٥) في ا « نرهب » بغير واو

وعجيب أن تهجرينىَ ظلما ⁂ وشفيعى إلى صباك الشباب

لأبى حامد ابن شعيب

وقال أخوه أبو حامد الحسين حين كبا به فرسه فحصل فى أسر العدوّ :

وكنت أعدّ طِرْفى للرزايا ⁂ يخلّصنى إذا جعلت تحُومُ

فأصبح للعـدا عونا لأنى ⁂ أطلت عناءه فأنا الظلوم

وكم دامت مَسَرَّاتى عليـه ⁂ وهل شىء على الدنيا يدوم ؟

لأبى الحسن ابن رجاء

وقال أبو الحسن على بن رجاء صاحب دار السكة والأحباس بقرطبة :

يا سائلى عن حالتى إنّـنِى ⁂ لا أشتكى حالى لمن يضعف

مَعْ أننى أحذر من نقده ⁂ لاسيما إن كان لاينصف

وأنشد له الحميدى فى « الجذوة » :

قل لمن نال عِرْضَ من لم ينله ⁂ حَسْبُنا ذو الجلال والإكرام

لم يزدنى شيئاً سوى حسنات ⁂ لا ولا نفسه سوى آثام

كان ذا مَنْعة فثقّلَ ميزا ⁂ نى بهذا فصار من خدامى

لأبى محمد ابن الفتح

وقال أبو محمد القاسم بن الفتح :

أيام عمرك تذهب ⁂ وجميع سعيك يكتب

ثم الشهيد عليك منـــك فأين أين المهرب ؟

لأبى مروان ابن غصن

وقال أبو مروان عبد الملك(١) بن غصن :

فديتك لا تخف منى سُلُوّا ⁂ إذا ما غير الشعر الصغارا

أهيم بدَنٍّ خمر صـار خلا ⁂ وأهوى لحية كانت عذارا

وقال :

قد ألحف الغيمُ بانسكابه ⁂ والتحف الجو فى سَحَابه

وقام داعى السرور يدعو ⁂ حَىَّ على الدن وانتهابه

(١) هكذا فى ا ونسخة عند ب ، وفى أصل ب « أبو مروان عامر بن غصن » والمشهور أن الذى يكنى أبا مروان يكون اسمه عبد الملك .

وتاه فيـــه النديم ممـا يزدحم الناس عنـد بابه

وكان أحد الأعلام فى الآداب والتاريخ والتأليف .

ونقم عليه المأمون بن ذى النون بسبب صحبته لرئيس[١] بلده ابن عبيدة[٢] ، و بلغه أنه يقع فيه ، فنكبه أشرَّ نكبة ، وحبسه ، فكتب إليه من السجن :

فديتُكَ هل لى منك رُحْمَى لعلنى أفارق قبرا فى الحيـاة فأنْشَرُ

وليس عقـاب المذنبين بمنكر ولـكنْ دَوَامُ السخط والعتب منكر[٣]

ومن عجب قول العداة مثقَّلٌ ومثلِىَ فى إلحاحه الدهْرَ يعـذر

وألف للمأمون رسالة « السجن والمسجون ، والحزن والمحزون » ورسالة أخرى سماها بالعشر كلمات ، وقال :

يافتية خِيرَةً فدتهـم من حادثات الزمان نفسى

شربهمُ الخمرَ فى بكورٍ ونطقهم عندهـا بِهَمْسِ

أما ترون الشتاء يلقى فى الأرض بُسْطًا من الدِّمَقْسِ[٤]

مقطب عابس ينادى يومُ سرورٍ ويوم أنس

وأخبر عنه[٥] الُحمَيدى فى الجذوة أنه شاعر أديب ، دخل المشرق ، وتأدب ، وحج ، ورجع ، وشعره كثير .

وله أبيات كتبها فى طريق الحج إلى أحد القضاة :

يا قاضيا عَدْلاً كأن أمامه مَلَكٌ يُرِيه واضـح المنهاج

طافت بعبدك فى بلادك عـلة قعدت به عن مَقْصِـدِ الحجاج

واعتلَّ فى البحر الأجاج فـكن له بحرا من المعروف غير أجاج

وقال الزاهد الورع المحدث أبو محمد إسماعيل بن الديوانى :

---

(١) فى ا « لرائس بلده » (٢) فى ب « أبى عبيدة »

(٣) فى ا « دوام السخط والعتب ينكر » (٤) فى ا « بسطا من التنفس »

(٥) فى ا « وقال عنه »

ألا أيها العائب المعتـــدى ومن لم يزل مؤذيا ازدد[١]
مساعيك يكتبهـا الكاتبون فبيض كتابك أو ســوّد

وقال ابنه أبو بكر :

خاصم عـدوك باللسـا ن وإن قدرت فبالسنان
إن العـداوة ليس يُصْـلِحُهَا الخضوع مدى الزمان

لإبراهيم الحجارى

وقال إبراهيم الحِجَارى جدّ صاحب « المسهب » :

لئن كرهوا يوم الوداع فإنـنى أهيم به وَجْدًا مِنَ أُجل عناقه
أصافح مَن ْ أهواه غير مساير وسر التلاقى مودع فى فراقـه[٢]

وقال :

كن كما شئت إننى لا أحُولُ غير مصغ لمـا يقول العـذول
لك والله فى الفـؤاد محلّ ما إليه مَدَى الزمان وُصُولُ
ومُرَادى بأن تزور خفيا ليت شعرى متى يكون السبيل[٣]

وقال :

قد توالت فى حالتينا الظنون فلنصدّق ما كذبته العيون
ومرادى بأن تلوح بأفقى بَدْرَ تِمٍّ وذاك مالا يكون
أنا قـد قلت ما دعانى إليه كثرة اليأس ، والحديث شجون
وإذا شئت أن تُسَفِّهَ رأيى فمحلِّى من الرقيب مَصُونُ
وبه ما تشاء من كل معنى كل من لم يجب له مجنون
وإلى كم تضل ليل الأمانى ومن اليأس لاح صبح مبين

وقال :

(١) ازدد : يريد لاتترك ما أنت عليه ، ووقع فى ا « اردد » ولايتسق مع البيت الثانى الذى جعل كالتعليل له (٢) فى ا « أصافح من أهواه غير مساتر »
(٣) فى ا « ومرادى أن تزور » ولا يستقيم الوزن

سألته عن أبيه فقال خالى فلان
فانظر عجائب ماقد أتت به الأزمان
دهر عجيب لديه عن المعالى حِرَانُ
فماله غــير ذم كما تدين تدان

لابن خيرة الإشبيلى

وقال الكاتب العالم أبو محمد بن خيرة الإشبيلى صاحب كتاب «الريحان والريعان» يمدح السيد أبا حفص ملك إشبيلية ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن من قصيدة :

كأنما الأفق صَرْحٌ والنجوم به كواعب وظلامُ الليل حاجبه
وللهلال اعتراض فى مطالعه كأنه أسْوَدٌ قد شاب حاجبه
وأقبل الصبح فاستحيت مشارقه وأدبر الليل فاستخفت كواكبه
كالسيد الماجِدِ الأعلى الهمام أبى حفص لرحلته ضمت مضاربه

وأنشد له ابن الإمام فى «سمط الجمان» :

رَعْياً لمنزله الخصيب وظله وسقى الثرى النجدىَّ سحُّ رَبابَه[1]
واها على ساداته لا أدعى كلفا بزينبـه ولا برَبَابِه[2]

ويعرف رحمه الله تعالى بابن المواعينى

لأبى جعفر الإشبيلى

وقال ابنه أبو جعفر أحمد :

ياأخى هاتها وحَجِّبْ سـناها عن مثير بهـا جنونا وسخفا
هذه الشمس إن بدت لضعيف الـــعين زادت فى ذلك الضعف ضعفا
إنما يشربُ المدامة مَنْ إن خشنت كفه جَفَاها وكَفَّا

للوزير أبى الوليد ابن حبيب

وكتب الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حبيب الملقب بحبيب إلى أبيه : لما خُلق الربيع من أخلاقك الغر ، وسَرَق زَهْرُه من شيمك الزُّهْر ، حَسُنَ فى كل عين منظره ،

---

(١) الرباب : السحاب ، وسحه : هطوله ونزول مطره
(٢) رباب ، هنا : اسم امرأة

وطاب فى كل سمع خَبَره ، وتاقت النفوسُ إلى الراحة فيه ، ومالت إلى الإشراف على بعض مايَحْتَويه ، من النور الذى بُسِط على الأرض حُللاً ، لاترى (١) فى أثنائها خَلَلاً ، سُلُوكٌ نثرت على الثرى ، وقد ملئت مسكا وعَنبرا ، إن تنسمتها فأرِجَة ، أو توسمتها فبهِجَة :

فالأرض فى بزة من يانع الزهر ... تُزْرِى إذا قستها بالوشى والحبر (٢)
قد أحكمتها أكفُّ المزن واكفةً ... وطرزتها بما تهمى من الدرر
تَبَرَّجَتْ فسَبَتْ منا العيونَ هَوًى ... وفتنةً بعد طول الستر والخَفَرِ

فأوجِدْ لى سبيلا إلى إعمال بصرى فيها ، لأجْلو بصيرتى بمحاسن نواحيها ، والفصل على أن يكمل أوانه ، و يتصرَّم (٣) وقْتُه وزمانه ، فلا تُخْلِنِي من بعض التشفى منه ، لأصدر نفسى متيقظة عنه ، فالنفوسُ تصدأ كما يصدأ الحديد ، ومَنْ سعى فى جلائها فهو الرشيد السديد .

ومن شعره يصف وَرْداً بعث به إلى أبيه :

يامن تأزر بالمكارم وارتدى ... بالمجد والفضل الرفيع الفائق
انظر إلى خد الربيع مركبا ... فى وجه هذا المِهْرَجانِ الرائق
وَرْدٌ تقدم إذ تأخر واغتدى ... فى الحسن والإحسان أول سابق
وافاكَ مشتملا بثوب حيائه ... خجلا لأن حياك آخر لاحق

وله :

أتَى الباقلاء الباقل اللون لابسا ... بُرود سَمَاء من سحائبها غذى (٤)
ترى نوره يلتاح فى وَرَقَاته ... كبُلْق جيادٍ فى جِلاَلِ زمرد

وقال :

---

(١) فى ا « لايرى الناظر فى أثنائها خللا » (٢) فى ا « ترى إذا قستها » محرفا
(٣) فى ا « وينصرم » (٤) ورد هذا البيت فى ب محرفا علي هذا الوجه :
أرى الباقلاء الباقل اللون لابسا ... جرود سحاء من سحائبها غذى

إذا ماأدرت كؤس الهوى ففى شربها لست بالْمُرقِلِ[١]
مُدَام تعتق بالناظرين وتلك تعتق بالأرجل[٢]

وكان وهو ابن سبع عشرة سنة يَنْظم المنظم الفائق ، و ينثر النثر الرائق ، وأبوجعفر ابن الأبَّار هو الذى صَقَل مِرْآته ، وأقام قناته ، وأطلعه شهابا ثاقبا ، وسلك به إلى فُنون الآداب طريقاً لاحِباً ، وله كتاب سماه بـ« البديع ، فى فصل الربيع » جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة ، أعرب فيه عن أدب غزير ، وحظ من الحفظِ[٣] مَوْفور ، وتوفى وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، واستوزره داهيةُ الفتنة ، ورَحَى المحنة ، قاضى إشبيلية عَبَّاد[٤] جدُّ المعتمد ، ولم يزل يُصْغى إلى مقاله ، و يرضى بفعاله ، وهو ماجاوز العشرين إذ ذاك ، وأكثر نظمه ونثره فى الأزاهر ، وذلك يدل على رقة نفسه ، رحمه الله تعالى !

للوزير أبى الحسن ابن حصن

وقال الوزير الكاتب أبو الحسن على بن حصن وزير المعتضد بن عباد :

علىّ أن أتذلَّلْ له وأن يتدلَّلْ
خدّ كأن الثريا عليه قُرْطٌ مسلسل

وقال :

طَلّ على خَدِّه العذار فافتضح الآسُ والبَهَار
وابيضّ ذا واسود هذا فاجتمع الليلُ والنهار

للوزير ابن طريف

وقال الوزير أبو الوليد بن طريف فى المعتمد بعد خلعه :

يا آل عباد ألا عَطْفَة فالدهر من بعدكم مظلم
من الذى يُرْجَى لنيل العلا ومن إليه يفِدُ المعدم
ما أنكر الدهر سوى أنه بجودكم فى فعله يزعم[٥]

(١) فى ا « إذا مارأيت كؤوس الهوى » محرفا ، والمرقل : اسم فاعل من الإرقال وهو سرعة السير
(٢) فى ب « تعتق للناظرين » (٣) فى ب « وحظ من الأدب موفور »
(٤) فى ا « ابن عباد جد المعتمد » (٥) فى ا « بجوركم فى فعله يرغم »

وله :

من حُلِقَتْ لحية جار له فليسكب الماء على لحيته

وقد أجرينا فى هذا الكتاب ذكر جملة من أخبار المعتمد بن عباد ونظمه فى أماكن متعددة فلتراجع

ومن نظمه(١) :

ثلاثة مَنَعَتْهَا عن زيارتها خوفَ الرقيب وخوفَ الحاسدِ الحَنِقِ

ضَوْءُ الجبين ، ووَسْوَاسُ الحُلِيِّ ، وما تحوى مَعَاطِفُهَا من عَنْبَرٍ عَبِقِ

هَبِ الجبينَ بفضل الكم تستره والحلى تنزعه ، ما حيلة العرَقِ ؟

وقال :

يوم يقول الرسول قدأذنت فأت على غير رقبة وجِلِ

أقبلت أهوى إلى رحالهم أَهْدَى إليها بريحها الأرِجِ

قال : ويستدل على الملوكية بالطيب فى المواطن التى يكون الناس فيها غير معروفين كالحمام ومعارك الحرب ومواسم الحج

رجع إلى ما كنا فيه

لأبى العباس الخزرجى

وقال أبو العباس أحمد الخزرجى القرطبى :

وفى الوَجَنَات مافى الروض لكن لرونق زهرها مَعْنًى عجيب

وأعجب ما التعجُّبُ منه أنِّى أرى البستان يحمله قضيب

للوزير أبى سليمان بن أبى أمية

وقال الوزير أبو سليمان بنُ أبى أمية يخاطب رئيسا قد بلغه عن بعض أصحابه كلام فيه غَضّ منه(٢) :

هوّن عليك كلامه واسمح له فيمن سمح

---

(١) فى ا « ومن نظم المعتمد رحمه الله قوله »

(٢) غض منه : أى انتقاص لشأنه ، ووقع فى ا « غص منه » بالمهملة ، محرفا

ماذا يسوءك إن هجا ماذا يسرك إن مدح[١]
أو ماعلمت بلى جهلت بأنه غِلٌّ طفح[٢]
وخفيُّ حقد كامن دأبوا له حتى اتضح
هذا بمُسْتَنِّ الوقا رفكيف لو دار القدح
فاشْكُرْ عوارف ذى الجلا ل بما وقى و بما منح

لأبى على عمر ابن أبى خالد

وقال أبو على عمر بن أبى خالد يخاطب أبا الحسن على بن الفضل :

أبا حسن وماقَدُمَتْ عهود لنا بين المنارة والجزيره
أتذكر أنسنا والليل داج بخمر فى زجاجتها منيره
إذا الملاح ضَلَّ رنا إليها فأبصر فى مناحيه مسيره

للكاتب عبدالله المهيريس

وقال الكاتب عبد الله المهيريس ، وكان حلو النادرة ، لما شرب عند الوزير أبى العلاء بن جامع وقد نظر إلى فاختة فأعجبه حسنها ولحنها :

ألا خذها إليك أبا العلاء حِلَى الأمداح ترفل فى الثناء[٣]
وَهَبْهَا قَيْنة تجلى عروسا خضيبَ الكف قانية الرداء
لأجعلها محلَّ جليس أنسى وأغْنَى بالهديل عن الغناء

وحكى أنه ناوله ليمونة وأمره بالقول فيها فقال :

أهدى إلى بروضةٍ ليمونةً وأشار بالتشبيه فعل السيد
فصمتُّ حينا ثم قلت : كجلجل من فضة تعلوه صفرة عسجد

للكاتب أبى بكر بن البناء

وقال الكاتب أبو بكر بن البناء يرثى أحد بنى عبد المؤمن ، وقد عزل من بَلَنْسِية وولى إشبيلية فمات بها :

كأنك من جنس الكواكب كُنْتَ لم تفارق طلوعا حالها وتواريا[٤]

(١) فى ا « فإذا يسوءك » و « ماذا يضرك إن مدح »
(٢) الغل : الحقد ، وطفح : أراد أنه ظهر على لسانه
(٣) فى ب « على الأمداح ترفل فى الثناء » وليس بذاك
(٤) فى ب « من جنس الكواكب لم تكن * تفارق طلوعا » وليس بشىء

حديث عن بنى زهر

تجلَّيت مِن شرق تروقُ تلألؤا فلما انتحيت الغرب أصبحت هاويا(١)

وكان محمد بن مروان بن زُهْر — كما فى المغرب والمسهب والمطرب ، وقد قدمنا بعض أخباره — منشأ الدولة العَبَّادية [و] أوّل من تُثْنَى عليه الخَنَاصر ، وتستحسنه البواصر ، فضاقت الدولة العبادية عن مكانه ، وأخرج عن بلده ، فاستصفيت أمواله ، فلحق بشرق الأندلس ، وأقام فيه بقية عمره ، ونشأ ابنهُ الوزير أبو مروان عبد الملك بن محمد ، فما بلغ أشدّهُ ، حتى سَدَّ مَسَدَّه ، ومال إلى التفنن فى أنواع التعليم من الطب وغيره ، ورحل إلى المشرق لأداء الفرض ، فملأ البلاد جلالة ، ونشأ ابنه أبو العلاء زُهْر بن عبد الملك ، فاخترع فضلا لم يكن فى الحساب ، وشرع نبلا قصرت عنه نتائج أولى الألباب ، ونشأ بشرق الأندلس والآفاق تَتهادى عجائِبَه ، والشامُ والعراق تتدارس بدائعَه وغرائبه ، ومال إلى علم الأبدان فلولا جلالة قدره ، لقلنا جاذَبَ هاروتَ طَرَفًا من سِحْرِه ، ولولا أن الغلوّ آفة المديح ، لما اكتفى فيه بالكناية عن التصريح(٢) ، ولم يزل مقيما بشرق الأندلس إلى أن كان من غزاة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ومن انضم إليه من ملوك الطوائف ما علم ، وشَخَص أبو العلاء معهم ، فلقيه المعتمد بن عباد ، واستماله واستهواه ، وكاد يغلب على هواه ، وصرف(٣) عليه أملاكه فحن إلى وطنه ، حنين النِّيبِ(٤) إلى عَطَنه ، والكريم إلى سَكَنه ، ونزع إلى مقر سَلَفه ، نزوع الكوكب إلى بيت شرفه ، إلا أنه لم يستقر بإشبيلية إلا بعد خلع المعتمد ، وحل عند يوسف بن تاشفين محلا لم يحله الماء من العطشان ، ولا الروح من جسد الجبان ، ولما كتب إليه حسام الدولة بن رَزِين مالك السهلة بقوله :

عَادِ اللئيمَ فأنت من أعدائه ودع الحسود بغله و بَذَائه

---

(١) فى ب « تجليت عن شرق »

(٢) فى ا « ولولا أن الغلو آفة المديح ، لتجاوزت طلق الجموح ، ولكنى اكتفيت بالكناية عن التصريح » (٣) فى ب « وتصرف » (٤) فى ب « حنين الكئيب »

لا كان إلامن غدت أعداؤه مشغولة أفواههم بجفائه
أأبا العلاء لئن حسدت لطالما حسد الكريم بجوده ووفائه
فَخَرَ العلاء فكنت من آبائه وزها السناء فكنت من أبنائه
كن كيف شئت مشاهداً أو غائباً لا كان قلب لست فى سَوْدَائه

أجابه بقوله :

يا صارما حسَمَ العدا بمضائه وَتَعَبَّدَ الأحرارَ حسنُ وفائه
ما أثر العضب الحسام بذاته إلا بأن سميت من أسمائه

وكَلَّفه الحسامُ المذكور القولَ فى غلام قائم على رأسه ، وقد عذر ، فقال :

مُحِيَتْ آية النهار فأضحى بَدْرَ تم وكان شمسَ نهارِ
كان يُعْشِي العيون ناراً إلى أن أشغل الله خدَّه بالعذار

وقال :

عذار ألم فأبدى لنا بدائع كنا لها فى عمى
ولو لم يجن النهار الظلا م لم يَسْتَبِنْ كوكبٌ فى السما

وقال :

يا راشقى بسهام ما لها غرض إلا الفؤاد وما منه له عوض (١)
ومُمْرِضى بجفون لحظها غَنِجٌ صحت وفى طبعها التمريض والمرض
أمنن ولو بخيالٍ منك يؤنسنى فقد يسدُّ مسدَّ الجوهر العَرَضُ

وهذا معنى فى غاية الحسن .

وكان بينه و بين الإمام أبى بكر بن بَاجَة ــ بسبب المشاركة ــ ما يكون بين النار والماء ، والأرض والسماء ، ولما قال فيه ابن باجة :

(١) فى ا « وما منه لها عوض »

يا مَلَكَ الموت وابن زهر   جاوزتما الحَدَّ والنهايه
ترفقاً بالورى قليلاً   فى واحد منكما الكفايه

قال أبو العلاء :

لا بد للزنديق أن يُصْلَبَا   شاء الذى يعضده أو أبى
قد مهد الجذع له نفسه   وسَدَّد الرمح إليه الشَّبا

والذى يُعَضده مالك بن وهيب جليس أمير المسلمين وعالمه .

أبو بكر محمد ابن عبد الملك ابن زهر

وأما حفيده أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر فهو وزير إشبيلية وعظيمها وطبيبها وكريمها ، ومن شعره :

رَمَتْ كبدى أخت السماء فأقصدت   إلا بأبى رام يصيب ولا يخطى
قريبة ما بين الخلاخيل إن مشت   بعيدة ما بين القلادة والقرط
نعمْتُ بها حتى أتيحت لنا النوى   كذا شيم الأيام تأخذ ما تعطى

وتوفى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وأمر أن يكتب على قبره :

تأمل بفضلك يا واقفاً   ولاحظ مكانا دُفعنا إليه[1]
ترابُ الضريح على صفحتى   كأنىَ لم أمش يوما عليه
أداوى الأنام حذار المنون   فها أنا قد صرت رَهْناً لديه

رحمه الله تعالى ، وعفا عنه !

وفى هذه الأبيات إشارة إلى طبه ومعالجته للناس ، رحمه الله تعالى ! وقد ذكرت بعض أخباره فى غير هذا الموضع .

لأبى الوليد ابن حزم

وقال أبو الوليد بن حَزْم :

مرآكَ مرآك لا شمس ولا قمر   وورد خديك لا ورد ولا زهر

---

(١) فى ب « ولا حظ مكانا رفعنا إليه »

في ذمة الله قلب أنت ساكنه إن بِنْتَ بان فلا عين ولا أثر

وقال :

لله أيام على وادي القرى سلفت لنا والدهر ذو ألوان
إذ نجتني في ظله ثمر المنى والطير ساجعة على الأغصان
والشمس تنظر من محاجر أرمد والطل يركض في النسيم الواني
فلثمتُ فاه والتزمت عناقه ويد الوصال على قفا الهجران

لابن عبد ربه

وقال ابن عبد ربه :

يا قابض الكف لازالت مقبضة فما أناملها للناس أرزاق
وغِبْ إذا شئت حتى لا تُرَى أبداً فما لفقدك في الأحشاء إقلاق

وقال في المدح :

وما خلقت كفاك إلا لأربع عقائلَ لم تُخْلَق لهنَّ يدانِ
لتقْبيل أفواهٍ ، وإعطاءِ نائلٍ وتقليب هندي ، وحبس عنان

لأبي عبد الله الرندي

وقال الكاتب أبو عبد الله بن مصادق[1] الرندي الأصل :

صارمَتْهُ إذ رأت عارضَهُ عاد من بعد الشباب أشيبا
قلت ما ضرَّكِ شيب فلقد بقيَتْ فيه فُكاهات الصبا
هو كالعنبر غالٍ نفحُه وشذاه أخضرا أو أشهبا

وقال :

ووردة وردت في غير موقتها والسُّحْبُ قدهملت أجفانها هطلا
وإنما الروض لما لم يُفِدْ ثمرا يَقْرِيكَهُ انفتحت في خده خجلا

وله :

لم أحتفل لقدوم العيد من زمن قد كان يبهجني إذ كنت في وَطَني
لم ألق أهلي ولا إلْفِي ولا وَلَدِي فليت شعري سُرُوري واقعٌ بِمَنِ

(١) في ا « بن مصارف »

وقال :

يقول لى العاذل تُبْ عن هوى … من ليس يُدْنيك إلى مطلب
وكيف لى والدين دين الهوى … فلا أرى أرجح من مذهبى
أليس بابُ التَّوْب قد سده … طلوعُه شمساً من المغرب

وله :

امْنَعْ كرائمك الخروجَ ولا … تظهر لذلك وجه منبسط
لا تعتبر منهن مسخطة … نيل الرضا فى ذلك السخط(١)
أو لَسْنَ مثل الدر فى شَبَهٍ … والدر من صَدَف إلى سَفَط

للمعتمد بن عباد

وقال المعتمد بن عباد :

تم له الحسن بالعذار … واختلط الليل بالنهار
أخضر فى أبيض تبدى … فَذَاك آسٍ وذا بَهَارى(٢)
فقد حَوَى مجلسى تماما … إن يَكُ من رِيقه عُقَارى

لابن فرج الجيانى

وقال ابن فرج الجَيَّانى رحمه الله تعالى :

وطائعة الوصال صدرت عنها … وما الشيطان فيها بالمطاع(٣)
بَدَتْ فى الليل سافرة فباتت … دياجى الليل سافرة القناع
وما من لَحْظة إلا وفيها … إلى فتَنِ القلوب لها دَوَاعى
فملَّكتُ الهوى جمحات قلبى … لأجرىَ فى العفاف على طباعى
كذاك الروضُ ما فيه لمثلى … سوى نظرٍ وشَمٍّ من متاع
ولست من السوائم مهملات … فأتخذ الرياض من المراعى

وقال :

---

(١) فى ا « نيل المنى فى ذلك السخط »
(٢) فى ا « ذلك آسى وذا بهارى »
(٣) فى ا « وطائعة الوصال صددت عنها » ولم يكمل هنا الأبيات

بأيهما أنا فى الشكر بادى بشكر الطيف أم شكرِ الرقاد(١)
سَرَى فَازْدَادَ لِي أملى ولكن عَفِفْتُ فلم أنَلْ منه مرادى(٢)
ومافى النوم من حرج ولكن جريت مع العفاف على اعتيادى

للرصافى وقال الرصافى :

وعَشِيٍّ أنسٍ للسرور وقد بدا من دون قُرْصِ الشمس مايتوقع
سقطت فلم يملك نديمك رَدَّهَا فوددت ياموسى لَوَ أنك يُوشَعُ

لابن عبد ربه وقال ابن عبد ربه :

يَرَاعة غرنى منها وميض سنى حتّى مددت إليها الكف مقتبسا(٣)
فصادفت حَجَراً لو كنت تضربه من لؤمه بعصا موسى لما انبجسا
كأنما صيغ من لؤم ومن كذب فكان ذاك له رُوحاً وذا نفسا

لابن صارة وقال ابنُ صَارَةَ فى فروة :

أودت بذات يدى فُرَيَّة أرنب كفؤاد عُرْوَة فى الضَّنى والرقة
يتجشم الفراء من ترقيعها بعد المشقة فى قريب الشقة
لو أن ما أنفقت فى ترقيعها يُحْصَى لزاد على رمال الرَّقَّةِ
إن قلت بسم الله عند لباسها قرأت على (إذا السماء انْشَقَّتِ)

للغزالى وقال الغزالى :

والمرء يعجب من صغيرة غيره أى امرئ إلا وفيه مقال
لسنا نرى من ليس فيه غَمِيزَةٌ أىُّ الرجال القائل الفعال

لأبى حيان وقال أبو حَيَّان :

لا ترجُوَنَّ دوام الخير من أحد فالشر طبع وفيه الخير بالعَرَضِ

(١) وقع هذا البيت فى ب هكذا :
بأيهما أنا بالحسن بادى بشكر الضيف أم طيف الرقاد
(٢) فى ب « سرى لى فازدرى أصلي ولكن » محرفا .
(٣) فى ا «حتى مددت إليه» .

ولا تظن امرأ أسدى إليك نَدًى من أجل ذاتك بل أسداه للغرض (١)

لابن شهيد

وقال ابن شُهَيْد :

ولما فشا بالدمع مابين وجدنا إلى كاشحينا ماالقلوب كواتم (٢)
أمَرْنَا بإمساك الدموع جفوننَا ليَشْجَى بمانطوى عذول ولائم
أبى دمعنا يجرى مخافة شامت فنظّمه بين المحاجر ناظمُ
وراقَ الهوى منا عيون كريمة تبسَّمن حتى ماتروق المباسم

وقال فى الانتحال :

وبُلِّغْتُ أقواما تجيش صدورهم على وإنى فيهمُ فارغ الصدر
أصاخوا إلى قولى فأسمعت معجزا وغاصوا على سرى فأعجزهم أمرى (٣)
فقال فريق ليس ذا الشعر شعره وقال فريق أيْمُنُ الله ماندرى
فمن شاء فلْيَخْبُرْ فإنىَ حاضر ولاشىء أجْلَى للشكوك من الخُبْرِ

وينظر إلى مثل هذا قصةُ أبى بكر بن بَقى حين استهدى من بعض إخوانه أقلاما فبعث إليه بثلاث من القصب ، وكتب معها :

خذها إليك أبا بكر العُلاَ قَصَباً كأنما صاغها الصوّاغ من وَرِقِهْ
يزهى بها الطرس حسنا ما نثرت بها مسك المداد على الكافور من ورقه

فأجابه أبو بكر :

أرسلت نحوى ثلاَثاً من قناً سُلُبٍ مَيَّادة تطعن القرطاس فى دَرَقه (٤)
فالخطُّ ينكرها والحظ يعرفها والرَّقُّ يخدمها بالرِّق فى عنقه

فحسده عليه بعض من سمعه ، ونسبه إلى الانتحال ، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه الأول :

وجاهلٍ نسب الدعوى إلى كلمى لما رماهُ بمثل النَّبل فى حَدَقِهْ

(١) فى ب « أسدى إليك يداً » . (٢) فى ا « فالقلوب كواتم »
(٣) فى ا « فأسمعت صمهم » وفيها « فأعياهم أمرى »
(٤) فى ا « من قنا شلب * منادة تطعن القرطاس فى ورقه »

فقلت من حنق لما تعرض لى ... مَنْ ذا الذى أخرج اليربوع من نفقه
ماذمّ شعرى وأيم الله لى قسم ... إلا امرؤ ليست الأشعار من طُرُقه
والشعر يشهد أنى من كواكبه ... بل الصباح الذى يستنُّ من أفقه (١)

لابن شهيد

وقال ابن شُهَيْد أيضا فى ضيف :

وما انفك معشوق الثناء يَمُده ... ببشر وترحيب و بَسْط بَنَان (٢)
إلى أن تشهى البين من ذات نفسه ... وحَنّ إلى الأهلين حَنَّة حانى
فأتبعته ما ســد خلة حاله ... وأتبعنى ذكرا بكل مكان

وقال :

و بتنا نراعى الليل لم يطو برده ... ولم يجل شيب الصبح فى فَوْدِهِ وَخْطَا
تراه كملك الزنج من فرط كبره ... إذا رام مشـيا فى تبختره أبطا
مُطِلًّا على الآفاق والبدر تاجه ... وقد جعل الجوزاء فى أُذْنِهِ قُرْطَا

فى لبسهم البياض فى الحزن

وقال بعضهم فى لباس أهل الأندلس البياضَ فى الحزن ، مع أن أهل المشرق يلبسون فيه السواد :

ألا يا أهل أندلس فطنتمْ ... بلُطْفكمُ إلى أمر عجيب
لبستم فى مآتمكم بياضا ... فجئتم منه فى زى غريب
صدقتم فالبياض لباسُ حزن ... ولا حُزْنٌ أشد من المشيب

لأبى جعفر ابن خاتمة

وقال أبو جعفر بن خاتمة :

هل جسوم يَوْمَ النوى وَدَّعُوها ... باقيات لسـوء ما أودعوها (٢)
ياحُدَاة القلوب ماالعـدل هذا ... أتبعوها أجسامها أو دَعُوهَا

وقال القَسْطَلِّى يصف هول البحر :

---

(١) فى ا « بل الصباح الذى يستن فى أفقه »
(٢) فى ب « وما انفك معشوق الثنايا نمده »
(٣) فى ب « هل جسوم من النوى ودعوها »

للقسطلى يصف البحر

إليك ركبنا الفلك تهوى كأنها ... وقد ذعرت عن مغرب الشمس غِرْبانُ
على لُجج خضر إذا هبت الصبا ... ترامى بها فينا ثبير وثهلان
مواثل ترعى فى ذَرَاها مواثلا ... كما عُبِدَتْ فى الجاهلية أوثان
مقاتل موج البحر والهم والدجا ... يموج بها فيها عيون وآذان
ألاَ هل إلى الدنيا معاد وهل لنا ... سوى البحر قبر أوسوى الماء أكفان

وقال الرمادى يهنى ابنَ العطار الفقيه بمولود :

للرمادى يهنئ بمولود

يهنيك مازادت الأيام فى عَدَدِكْ ... من فِلْذَةٍ برزت للسعد من كبدك
كأنما الدهر دهر كان مكتئبا ... مِنَ انفرادك حتى زاد فى عددك
لاخَلّفتك الليالى تحت ظل رَدًى ... حتى ترى ولدا قد شب من ولدك

وقال ابن صارَة فى النار :

لابن صارة يصف النار

هات التى للأيك أصلُ ولادها ... ولها جبين الشمس فى الأشماس
يتقشَّع الياقوتُ فى لَبَّاتها ... بوسَاوِسٍ تشفى من الوسوَاس
أنس الوحيد وصبح عين المجتلى ... ولباس مَنْ أمسى بغير لباس
حمراء ترفل فى السواد كأنما ... ضربت بعرق فى بنى العباس

وقال فيها أيضا :

لابنة الزَّنْدِ فى الكوانين جَمْرُ ... كالدرارى فى الليلة الظلماء
خبرونى عنها ولا تكذبونى ... ألديها صناعة الكيمياء
سَبَكَتْ فحمها سبائكَ تبرٍ ... رصَّعته بالفضة البيضاء(١)
كلما وَلْوَلَ النسيم عليها ... رقَصَتْ فى غلالة حمراء
سفرت عن جبينها فأرتنا ... حاجبَ الليل طالعا بالعشاء(٢)
لو ترانا من حولها قلت قوم ... يتعاطَوْنَ أكؤس الصهباء(٣)

---

(١) فى ا « رصعتها بالفضة البيضاء »
(٢) فى ا « سفرت فى عشائنا فأرتنا »
(٣) فى ا « لوترانامن حولها قلت شرب »

لابن لبال وقال فيها الفقيه الأديب ابن لبال[١] :

فحم ذَكَا فى حشاه جمرٌ فقلت مسك وجُلَّنار
أو خَدُّ مَنْ قد هويت لما أطلَّ من فوقه العِذارُ

وكان أبو المطرف الزهرى جالسا فى باب داره مع زائر له ، فخرجت عليهما من زُقاقٍ [ثانٍ][٢] جاريةٌ سافرة الوجه كالشمس الطالعة فحين نظرتهما على [حين] غفلة منها نفرت خَجِلة ، فرأى الزائر ما أبْهَتَهُ فكلفه وصفها ، فقال مرتجلا :

ياظبية نفرت والقلب مسكنها خوفا تَخَتْلِىَ بل عمدا لتعذيبى
لاتختشى فابنُ عبد الحق أنحلنا عدلاً يؤلف بين الظبى والذيب

لابن شهيد وقال ابن شُهَيد :

أصَباح لاح أم بدر بدا أم سَنَا المحبوب أورى زندا[٣]
هَبَّ من نعسته منكسرا مسبل للكم مُرْخٍ للرِّدَا
يمسح النعسة من عينى رشا صائد فى كل يوم أسدا
قلت هَبْ لى ياحبيبى قُبلَةَ تشف من حبك تبريح الصَّدَى[٤]
فانثنى يهتز من منكبه قائلا لا ثم أعطانى اليدا
كلما كلمنى قبلته فهو ما قال كلاما رَدَّدَا
قال لى يلعب صِدْلى طائراً فترانى الدهر أجرى بالكدى
و إذا استنجزت يوما وعده قال لى يمطل ذَكِّرْنِى غدا
شربت أعضاؤه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عَرْبَدَا[٥]
رشأ بل غادة مَمْكُورة عممت صبحاً بليل أسودا
أخجلت من عضه فى نهدها ثم عضت حُرَّ وجهى عمدا[٦]

---

(١) فى ب « ابن اللبان »
(٢) هذه الكلمة لاتوجد فى ب
(٣) فى ا « أصباح لاح أم برق بدا »
(٤) فى ا « تشف من همك »
(٥) فى ا « شربت أغصانه خمر الصبا »
(٦) فى ا « أحجت من عضة فى نهدها »

فأنا المجروح من عضتها لا شفانى الله منها أبدا

لابن هانىء فى الشيب

وقال محمد بن هانىء فى الشيب :

بِنْتُم فلولا أن أغيّر لِمّتي عَبَثاً وألْقَاكم على غضابا(١)
لخضبت شيباً فى مفارق لمتى ومحوت محوالنقْسِ عنه شبابا(٢)
وخضبت مُبْيَضَّ الحداد عليكم لو أننى أجد البياض خضابا
و إذا أردتَ على المشيب وفادة فاجعل مطيك دونه الأحقابا
فلتأخذنّ من الزمان حمامة ولتدفعنَّ إلى الزمان غرابا

من ابن عمار إلى ابن رزين

وكتب ابن عمار إلى ابن رَزين وقد عتب عليه أن اجتاز ببلده ولم يَلْقَه :

لم تثن عنك عنانى سَلْوَةٌ خطرت ولا فؤادى ولا سمعى ولا بصرى
لـكن عَدَتْنِيَ عنكم خجلة خطرت كفانى العذر منها بيت معتذر
(لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للأفراط فى الخَصَرِ)

لابن الجد

وقال ابن الجدّ(٣) :

و إنى لصب للتـلاقى و إنما يصدّ ركابى عن معاهدك العسر
أذوب حياء من زيارة صاحب إذا لم يساعدنى على بره الوفر

لابن عبد ربه

وقال ابن عبد ربه :

يا من عليه حجاب من جَلاَلته و إن بدا لك يوما غير محجوب
ماأنت وحدك مكسوّا ثياب ضَنًى بل كلنا بك من مضنى ومشحوب
ألقى عليك يداً للضر كاشـفة كَشّافُ ضر نَبِيِّ الله أيوب

للنحلى فى وصف مغنية

وقال النَّحْلى [فى مغنية] :

ولا عبة الوشاح كغصن بان لها أثر بتقطيع القـلوب(٤)

---

(١) فى ا «فلولا أن أغير لمتى» وفيها وفى ب « ألقا كم يوما على غضابا
(٢) فى ا « ومحوت محو النفس » (٣) فى ب « ابن الحداد » وأثبتنا ما فى ا
(٤) فى ب « ولاعبة الوشاح بغصن بان » .

إذا سوّت طريق العود نقرا ... وغنت فى محب أو حبيب
فيمناها تقدُّ بها فؤادى ... ويسراها تعد بها ذنوبى

لابن شهيد

وقال ابن شُهَيْد :

كلفت بالحب حتى لودنا أجلى ... لما وجدت لطعم الموت من ألم
وعاقنى كرمى عمن ولهت به ... وَيْلِى من الحب أو ويلى من الكرم

وكان صوفى بشَرِيشَ حافظ للشعر ، فلا يعرض فى مجلسه معنى إلا وهو ينشد عليه ، فاتفق أن عطس رجل بمجلسه ، فشَمَّته الحاضرون (١) ، فدعالهم ، فرأى الصوفى أنه إن شمته قطع إنشاده بما لا يشاكله من النظم ، وإن لم يشمته كان تقصيراً فى البر ، فرغب حين أصبح من الطلبة نظم هذا المعنى ، فقال الوزير الحسيب أبو عمرو بن أبى محمد :

من شعر أبى عمرو بن أبى محمد الوزير

ياعاطسا يرحمك الله إذ ... أعلنت بالحمد على عَطْستك
أدع لنا ربك يغفر لنا ... وأخلص النية فى دعوتك
وقل له يا سيدى رغبتى ... حضورهذا الجمع فى حضرتك
وأنت يارب الندى والنوى ... باركْ ربُّ الناس فى ليلتك
فإن يكن منكم لنا عودة ... فأنت محمود على عودتك

وهذا الوزير المذكور كان يُصَرف شعره فى أوصاف الغزلان ، ومخاطبات الإخوان وكتب إلى الشريشى شارح المقامات يستدعى منه كتاب العقد :

أيا من غدا سِلْكاً لجيد معارفه ... ومن لَفْظُه زهر أنيق لقاطفه
محبك أضحى عاطِلَ الجيد فلتجد ... بعِقْدٍ على لَبَّاته وسَوَالفه

ووُعِكَ فى بعض الأعياد ، فعاده من أعيان الطلبة جملة ، فلما هموا بالانصراف أنشدهم ارتجالا :

---

(١) تشميت العاطس أن تقول له : يرحمك الله ، وهو من السنن .

لله در أفاضـــــل أمجاد شَرُفَ النَّدِيّ بقصدهم والنادى(١)
لمـا أشاروا بالسـلام وأزمعوا أنشدتهم وصدقت فى الإنشاد
فى العيد عُدْتُم وهو يوم عروبة يا فرحتى بثـــلاثة الأعياد

قال الشريشى فى شرح المقامات : ولقد زرته فى مرضه الذى توفى فيه رحمه الله تعالى أنا وثلاثة فتيان من الطلبة ، فسألنى عنهم وعن آبائهم ، فلما أرادوا الانصراف ناول أحدَهم محبرة ، وقال له : اكتب ، وأملَى عليه ارتجالا :

ثلاثة فتيـــان يؤلف بينهم ندىٌ كريمٍ لا أرى الله بينهم
تشابه خَلْقٌ منهم وخليـــقة فإن قلت أين الحُسْنُ فانظره أين هُمُ
وزَيَّنَهم أستاذهم إذ غــدا لهم معلم آيات فتمم زَينهـــم(٢)
فإن خفت من عين ففى الكل فلتقل وقى الله رب الناس للكل عينهم(٣)

وقال الشريشى : حدثنا شيخنا أبو الحسين بن زرقون ، عن أبيه أبى عبد الله ، قعد مع صهره أبى الحسن عبـد الملك بن عياش الكاتب على بحر المجاز ، وهو مضطرب الأمواج ، فقال له أبو الحسن : أجز : بين ابن عياش وابن زرقون

ومُلْتَطِم الغوارب مَوَّجَتْهُ بوارح فى منا كبها غيـومُ

فقال أبو عبد الله :

تمنع لا يَعُومُ به سَفينٌ ولو جذبت به الزهر النجوم

وكان لابن عبد ربه فتى يهواه ، فأعلمه أنه يسافر غداً ، فلما أصبح عافه المطر عن السفر ، فانجلى عن ابن عبد ربه همه ، وكتب إليه : بين ابن عبد ربه وفتى يهواه

هلا ابتكرت لبينٍ أنت مبتكر هيهات يأبى عليك الله والقدر
ما زلت أبكى حذار البين ملتهبا حتى رثى لى فيك الريح والمطر

(١) فى ا « لله در أفاضل أمجاد » وما أثبتناه عن ب ونسخة عند ا
(٢) فى ب « فتمم دينهم »
(٣) فى ا « فإن خفت عين الناس فى الكل فلتقل »

يا برده من حَياَ مزنٍ على كبد نيرانها بغليل الشوق تستعر
آليت أن لا أرى شمساً ولا قمراً حتى أراك فأنت الشمس والقمر

وقال ابن عبد ربه :

صِلْ من هويت وإن أبدى معاتبة فأطيب العيش وَصْلٌ بين إلفين
واقطع حبائلَ خِدْنٍ لا تلائمه فقلما تسع الدنيا بغيضين

لغانم المالقى

وقال أبو محمد غانم بن الوليد المالقى (١) :

صير فؤادك للمحبوب منزلة سُمُّ الخياط مجال للمحبين
ولا تسامح بغيضاً فى معاشرة فقلما تسع الدنيا بغيضين

وكان المتوكل صاحبُ بَطَلْيَوْس ينتظر وفود أخيه عليه من شَنْتَرِين يوم الجمعة ، فأتاه يوم السبت ، فلما لقيه عانقه وأنشده :

تخيرَتِ اليهودُ السبتَ عيدا وقلنا فى العروبة يوم عيد
فلما أن طلعت السبتَ فينا أَطلْتَ لسانَ محتجِّ اليهود

لابن بقى

وقال أبو بكر بن بقى :

أقمت فيكم على الإقتار والعدم لو كنت حراً أبى النفس لم أقم
فلا حديقتكم يُجْنَى لها ثمر ولا سماؤكم تَنْهَلُّ بالديم
أنا امرؤ إن نَبَتْ بى أرضُ أندلسٍ جئت العراق فقامت بى على قدم (٢)
ما العيش بالعلم إلا حيلة ضعفت وحرفة وكلت بالقُعْدُدِ البَرِمِ (٣)

للأبيض فى المرائين

وقال الأبيض فى الفقهاء المرائين :

أهلَ الرياء لبستُمُ ناموسكم كالذئب يُدلج فى الظلام العاتم (٤)
فملكتم الدنيا بمذهب مالك وقَسَمْتُمُ الأموال بابن القاسم

---

(١) قد مضى هذان البيتان فى ص ٣٦٨ (٢) فى ا « فقامت لى على قدم »
(٣) فى ب « وحرفة وكلت بالعقد والبرم » محرفا
(٤) فى ب « كالذئب يذبح فى الظلام »

وركبتم شُهُبَ البغال بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم فى العالم

وقال :

قل للإمام سنا الأئمة مالك ... نور العيون ونزهة الأسماع

لله درك من همام ماجد ... قد كنت راعينا فنعم الراعى

فمضيت محمود النقيبة طاهراً ... وتركتنا قَنَصاً لشر سِبَاعِ

أكلوا بك الدنيا وأنت بمعزل ... طاوى الحشا متكفت الأضلاع (١)

تشكوك دنيا لم تزل بك برة ... ماذا رفعت بها من الأوضاعِ

لابن صارة

وقال ابن صارَةَ :

يا من يعذبنى لَمَّا تملّكنى ... ماذا تريد بتعذيبى وإضرارى

تَرُوقُ حسناً وفيك الموت أجمعه ... كالصقل فى السيف أو كالنور فى النار

لعبدون البلنسى

وقال عبدون البَلَنْسى :

يا من محياه جنات مفتحة ... وهَجْره لىَ ذنب غير مغفور

لقد تناقضت فى خَلْق وفى خُلُق ... تناقُضَ النار بالتدخين والنور

للوزير ابن الحكيم

وقال الوزير ابن الحكيم :

رَسَخَتْ أصول عُلاَكُمُ تحت الثرى ... ولكم على خط المجرة دار

إن المكارم صورة معلومة ... أنتم لها الأسماع والأبصار (٢)

تبدو شموس الدّجْنِ من أطواقكم ... وتفيض من بين البنان بحار

ذلت لكم نَسَمُ الخلائق مثل ما ... ذلت لشعرى فيكم الأشعار

فمتى مدحت ولا مدحت سواكم ... فمديحكم فى مدحه إضمار

وقال القاضى أبو جعفر [بن] برطال (٣) :

(١) فى ا « متكتف الأضلاع » محرفا ، ومتكفت الأضلاع : معناه متقبضها

(٢) هذا البيت متأخر فى ا عما بعده هنا وفق ب

(٣) فى ب « أبو جعفر برطال »

لأبي جعفر ابن برطال

أستودع الرحمن مَنْ لِوَدَاعِهِم ... قلبي وروحي آذَنَا بوداع

بانوا وطرفي والفؤاد ومِقْوَلِي ... باكٍ ومسلوب العَزَاء وداع(١)

فتولّ يا مولاي حفظهم ولا ... تجعـل تفرقنا فراق وَدَاع

لابن خفاجة

وقال ابن خفاجة :

وما هاجني إلا تألّقُ بارقٍ ... لبست به برد الدجُنَّة مُعْلَمَا

وهي طويلة .

وقال من أخرى :

جمعت ذوائبـه ونور جبينه ... بين الدجنة والصباحِ المشرق

لأبي الوليد ابن الحضرمي

وقال ذو الوزارتين أبو الوليد بن الحضرمي البَطَلْيَوْسي في غـلام للمتوكل ابن الأفطس يرثيه :

غالته أيدي المنايا ... وكُنَّ في مقلتيـه

وكان يسقي الندامى ... بطرفـه ويديه

غصن ذَوَى وهـلال ... جار الـكسوف عليه

لأبي أيوب البطليوسي

وقال الفقيه العالم أبو أيوب سليمان بن محمـد بن بطال البطليوسي عالمها في المذهب المالـكي ، وقد تحاكم إليه وسيمان أشقر وأكحل فيمن يفضل بينهما :

وشادِنَيْنِ ألمَّا بي على مقـة ... تنَازَعَا الحسنَ في غايات مستبق

كأن لمة ذا من نرجس خُلقت ... على بَهَار وذا مسك على وَرِقِ

وحَكّما الصَّبَّ في التفضيل بينهما ... ولم يخافا عليه رشوة الحـدق

فقام يُبْدِي هلالُ الدَّجْنِ حُجَّتَه ... مبينا بلسان منـه منطلق

فقال وجهيَ بدرٌ يستضاء به ... ولون شعري مقطوع من الغَسَقِ

---

(١) في ب « باك ومسلوب الفؤاد وداع » وليس بذاك

وكحل عينى سِحْرٌ للنهى وكذا ... لك الحسن أحسن مايعزى إلى الحدق
وقال صاحبه أحسنت وصفك لـكن فاستمع لمقالٍ فىَّ مُتَّفق
أنا على أفقى شَمْسُ النهار ولم ... تغرب وشقرة شعرى شقرة الشفق
وفضل ماعيب فى العينين من زرق ... أن الأسنة قد تعزى إلى الزرق
قَضَيْتُ للمة الشقراء حيث حكت ... نوراً كذا حُبُّها يقضى على رَمَقِى
فقام ذو اللمة السوداء يرشقنى ... سهام أجفانه من شدة الحَنَقِ
وقال جُرْتَ فقلت الجور منك على ... قلبى ولى شاهد من دَمْعِىَ الغدق
وقلت عفوك إذ أصبحت بينهما ... فقال دونك هذا الحبل فاختنق

وكان فيه ظَرْف وأدب ، وعنوان طبقته هذه الأبيات

وقال :

وغاب من الأكواس فيها ضَرَاغم ... من الراح ألبابُ الرجال فريسُها
قرعْتُ بها سن الحلوم فأقطعت ... وقد كاد يسطو بالفؤاد رسيسها

وله رحمه الله تعالى « شرح البخارى » وأكْثَرَ ابن حجر من النقل عنه فى « فتح البارى » وله كتاب « الأحكام » وغير ذلك ، وترجمته شهيرة .

قد تم - بتيسير مدبر الأمور كلها، ومعونته - مراجعة الجزء الرابع من كتاب « نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، والتعريف بوزيرها لسان الدين بن الخطيب » للشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى، وترقيمه، وضبط ما يحتاج إلى الضبط منه والتعريف بما رأينا التعريف به من أعلام رجالاته و بلدانه، و يليه - إن شاء الله تعالى - الجزء الخامس مفتتحا بقول المؤلف فى أثناء الباب السابع من القسم الأول « وقال الأديب النحوى المؤرخ أبو إسحاق إبراهيم بن الأعلم البطليوسى صاحب التواليف التى بلغت نحو خمسين » نسأل الذى يصرف الملكوت أن يعين على إكماله و يوفق إلى ما نرغب فيه من تجويده و إتقانه، إنه ولى ذلك، و إليه الوجه العمل .

فهرس الجزء الرابع من كتاب

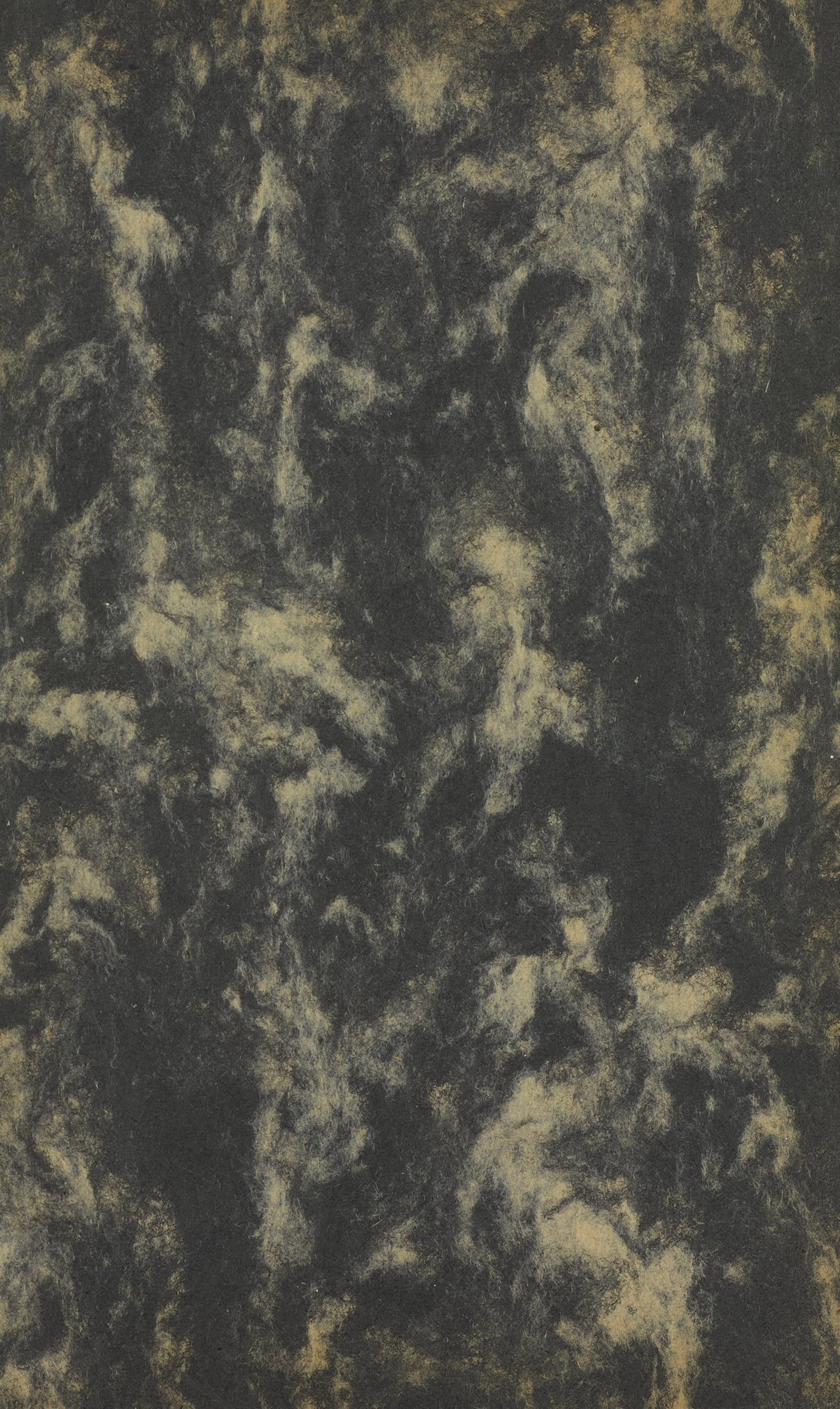
نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

فهرس الموضوعات الواردة فى الجزء الرابع من كتاب
« نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »

تمت فهرست الجزء الرابع من كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » والحمد لله أولا وآخراً ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه




COLUMBIA UNIVERSITY
0026814390

